I. Quandour

محي الدين قندور

المؤامرة

رواية تاريخية

قصة السلطان عبد الحميد الثاني



المؤامرة

الكتاب: المؤامرة / رواية تاريخية / قصة السلطان عبد الحميد الثاني
المؤلف: محي الدين قندور / الأردن
الطبعة الأولى، 2015



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 2190-1107
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بيـروت - لبنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب. 9157، هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

ترجمة: محمد آزوقة
تنفيذ الغلاف: محمود وزني
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

ISBN: 978-614-419-577-2



محي الدين قندور

المؤامرة

رواية تاريخية

قصة السلطان عبد الحميد الثاني



عن المؤلف

محي الدين قندور أردني من أصول شركسية ، هو صانع أفلام عريق ومؤلف نشرت أعماله في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وترجمت إلى عدة لغات أخرى ، تضمنت الروسية والعربية والتركية .

جمع محي الدين قندور في سيرته العملية المتنوعة بين الأعمال الحرة والميادين الإبداعية ، وكثيراً ما بادل بينهما عبر العديد من السنوات . بدأ سيرته العملية في نيويورك مع جي . دبليو . تي (أفلام دعائية) وبعدها مع شركة بريستول مايرز الدولية في نيويورك . بعدها أصبح مستشاراً معتمداً للعديد من المؤسسات متعددة الجنسيات في أوروبا والولايات المتحدة واليابان .

انتقل إلى الميادين الإبداعية في التلفزيون في نيويورك مع استديوهات MPO ثم إلى هوليوود ككاتب سيناريو ومخرج أفلام . تضم إنتاجاته الحديثة «الشراكسة» عام ٢٠١٠ «السجين» عام ٢٠١٢ و«قصة حب عبر الفيسبوك» ٢٠١٣ .

قندور روائي لديه ٢٠ رواية تاريخية منشورة في أوروبا والشرق الأوسط وروسيا والولايات المتحدة ، وكلها متوفرة على amazon.com, Barns & Noble

أكثر أعماله الأدبية شعبية هي «ثلاثية القفقاس» الأكثر مبيعاً في الفدرالية الروسية «الثورة» و«الصيد الأخير» و«معابر الصحرا» .

تضم آخر إصداراته «روبينا» ٢٠١٣ «العائلة» ٢٠١٤ و«قصة أدهم الشركسي» ٢٠١٤ .

هو كذلك مؤلف موسيقى كلاسيكية نشرت أعماله الأخيرة من قبل شركة ماريمبا ميوزك فيرلاغ في ميونخ بألمانيا ويتم أداؤها في روسيا

واليابان والعديد من المواقع الأوروبية .

يقيم قندور في ويندسور بالمملكة المتحدة لكنه يسافر كثيراً لإجراء الأبحاث لرواياته . يحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ والماجستير في الدراسات الدولية .

مؤلفات الدكتور محي الدين قندور

الروايات

عملية خطف الطائرة

الفتق

الأسطورة

شروق الصحراء

عمليات العبور الصحراوية العراقية Desert Crossings

مواجهات خطرة

مفقود في بلاد الشيشان

الصيد الأخير

روبينا

العائلة

أدهم الشركسي

المؤامرة

سلسلة الملاحم الشركسية التاريخية

ثلاثية القفقاس

الثلاثية الشركسية

سيوف بلاد الشيشان

كازبك

المؤامرة الثلاثية

قصة البلقان

أبناء الشتات

دراسات

المريدية

دراسة الحروب الروسية - القفقاسية

الفصل الأول
باريس، ١٨٩٥

كان ثيودور هيرتزل قد وصل بالقطار في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، والآن وفي وقت متأخر من الظهيرة ، يقف محدقاً فوق سطوح المدينة ، مهزوماً بالرأس المثقلة لرجل منهك . لم يكن من طبعه الشكوى ، لكن حتى هو كان مجبراً على الاعتراف بأن جو الغرفة ثقيل الوطأة . فقد كانت حرارة الصيف الجافة الآتية من الشبابيك العريضة تشوي الأبدان ، والسادة الجالسون خلفه يشعلون سيجارهم بينما يقوم خادم بصب البراندي لهم خفية .

بينما كانت الصينية تعرض على الحضور ، استمر هيرتزل بالنظر إلى البرج في المدى . لم تكن الحرارة وحدها هي التي تستنزف قواه . نفض رأسه ثم استدار ببطء نحو الزوار . كان بعضهم منشغلاً في التحديق بسحائب الدخان المتصاعدة نحو السقف ، وتجول البقية في الأنحاء ، يقرأ بعضهم عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف في أنحاء الغرفة . نظر إلى روثتشايلد ، المسترخي على مقعده ويدير جلسة في الوقت نفسه .

كان روثتشايلد يقول لأولئك المحيطين به «أقول لكم ، إن درايفوس بريء ، وسوف يثبت ذلك زولا» وهو يشير بطرف سيجاره غير المشتعل ، للتوكيد .

استمر هيرتزل في المراقبة بينما تمتم الآخرون وهمهموا مجيبين ،

لكن أحداً منهم لم يقل شيئاً ذا أهمية . طأطأ بنظره للحظة وشعر بالشغف ، ذلك المزيج الملتوي من الغضب والإحباط ، يتصاعد بداخله مرة أخرى ، وقبل أن ينتبه وجد نفسه يخطو إلى وسط المجموعة .

«لا يهم ما إذا كان مذنباً أو بريئاً . اليوم هو درايفوس . ويمكن في الغد أن يكون أنت أو أنا» .

كان قد وصل إلى وسطهم الآن ، واستطاع من زاوية عينه أن يرى روثتشايلد يحدق فيه بدوره ، لكنه كان قد بدأ ولم يعد هناك مجال لإيقافه .

«إن اليهود في حالة فوضى ، مضطهدون ومهمشون في الدنيا كلها» واستمر «لا يمكن إلغاء العداء للساميَّة ، ولكن يمكن تجنبه ، والطريقة الوحيدة هي توحيدهم . . . . وهناك طريقة واحدة لحمايتهم وهي إنشاء دولة يهودية» .

جاء دورهم للتحديق فيه الآن : الرجل الصغير ذو اللحية الكبيرة . رغم أنه ما زال في منتصف ثلاثينيات عمره ، إلا أنه أصبح معتاداً على إيقاف المحادثة .

كان يدرك أن معظم الرجال الموجودين في الغرفة يعتقدون أنه مجنون ، ولكنه عرف من خلال قراءاته بأن كل صاحب رؤية ، من نوح فصاعداً ، قد تم الاعتقاد فيه بنفس الطريقة .

ومع ذلك كان لديه مؤيدوه . أول من تكلم هو الكونت نيولينسكي ، الذي يمتلك صوته هديراً أرستوقراطياً يجبر كل من في الغرفة على الإنصات إليه .

«ذلك هو ما كنت أقوله عن فلسطين . ولدي الرجل القادر على القيام بالمهمة : التفاصيل لدى وولفسون هنا . يا دافيد ، هل سمعت شيئاً من وسيطنا؟»

تململ وولفسون بانزعاج . استمر روثتشايلد في التحديق المتعمد بهيرتزل من خلال الدخان .

«لقد عملت على محاولة ترتيب لقاء ، ولكن . . .» تردد وولفسون «الأمر معقد» وانتقلت عيناه في هذه اللحظة إلى هيرتزل .

قال هيرتزل «لقد أخبرت صحيفتي بأن لا تكون منحازة كثيراً حول القضية الأرمنية» . توقف الحديث مرة أخرى بعد أن تكلم . سحب روثتشايلد نفساً من سيجاره ، لكن عينيه لم تتحركا عن هيرتزل . أصبح من الممكن سماع عربة تطرقع أثناء مرورها في الخارج ، بداية المساء .

قطع نيولينسكي الصمت ، متجاوزاً الهواء الساكن والأدخنة «الحقيقة هي أنه منذ أن هزم الروس الأتراك ، فقد أعطتهم معاهدة سان ستيفانو الفرصة لجعل تركيا دولة عميلة لهم . والبريطانيون والفرنسيون يخشون من هذا . لأن هذا الوضع سوف يخل بتوازن القوى في شرق المتوسط . باستطاعتنا أن نستغل هذا الوضع مع الأتراك» .

تذكر هيرتزل معركة سان ستيفانو . تذكر أنباء النصر الروسي الكبير الذي تسللت أوائل نتائجه إلى بيست ، حيث كان يشرب مع أصدقائه على ضفاف الدانوب ورفعوا كؤوسهم باتجاه موسكو . كان أيامها ملحداً : يهوديته أمر يحاول أن يخفيه . فكر في الكيفية التي احتفلوا فيها بالنصر على الأتراك العثمانيين ، نفس الجيش الذي سحق المجريين قبل قرون في موهاكس ، ثم زحف كامل الطريق نحو بوابات ڤيينا نفسها . في ذلك الوقت ، كان البولنديون هم الذين هبوا إلى النجدة .

بينما كان هيرتزل وأصدقائه يشربون في تلك الليلة ، كان الخيالة القوزاق يدفعون الأتراك إلى الخلف : الجيش الروسي يتقدم ، بدون

إمكانية لإيقافه عبر بلاد البلقان . تحولت عواطف هيرتزل وزصدقائه من الابتهاج إلى الخوف من قوة الروس مع انقضاء أمسيتهم .

والآن بوجوده هنا في هذه الغرفة مع زملائه اليهود وداعميهم ، فقد ظلت عواطفه مختلطة ، لكنه كان يمتلك غاية هي أرض الوطن .

عند ذكر الأتراك ، تحولت عينا روثتشايلد للمرة الأولى عن هيرتزل واستقرتا على نيولينسكي .

«لا تذكر الأتراك لطفاً . إنهم مدينون لمصرفي بقدر من المال بحيث أنني سأضطر إلى تقليص حجم يختي من مئتي قدم إلى مئة وثمانين» .

ضحك الجميع على هذا ، بمن فيهم هيرتزل . فقد كانت الوضعية الخطرة للامبراطورية العثمانية معروفة حتى للرجل المار في الشارع . لم تكن قوة الروس هي التي تدفعهم إلى الخلف : فقد بدأ رئيس الوزراء البريطاني بدوره يلصق صفة «رجل أوروبا المريض» التي أطلقها القيصر الروسي عندما كان يشير في خطاباته إلى الملكية في الباب العالي .

انتظر نيولينسكي حتى هدأت الضحكات قبل أن يقدم لعبته!

«ماذا لو قلت لك ، أيها البارون روثتشايلد إن الأتراك قد يكونون راغبين في تقديم شيء أكثر قيمة؟»

نظر إليه روثتشايلد في هذه اللحظة كما كان ينظر إلى هيرتزل قبل لحظات . لعب نيولينسكي ورقته الرابحة .

«مقاطعة في فلسطين لإنشاء وطن يهودي» .

لم يكسر الصمت الصخري في الجو الرطب سوى شخرة روثتشايلد الهازئة .

«أمر مستحيل» .

ابتسم نيولينسكي

«إن رئيسي الوزراء البريطاني والفرنسي يعملان على هذه الفكرة في هذه اللحظة بالذات» .

في هذه المرة ، لم يرد أحد .

***

رغم أن السادة الموجودين في باريس لم يتمكنوا من التأكد ، إلا أن نيولينسكي كان على حق . فبينما استمر هيرتزل وروثتشايلد في هضم الأنباء المثيرة مع كؤوس البراندي ، فقد جلست مجموعة أخرى من السادة حول طاولة طويلة في داونينج ستريت . أدار روبرت جاسكوين - سيسيل ، الماركيز الثالث لمنطقة سالزبوري ورئيس وزراء المملكة المتحدة وأيرلندا ، أدار رأسه إلى حيث انهمك اثنان من مساعديه في نشر خارطة كبيرة على حامل خلفه . ألقى نظرة متعبة على الخطوط الخارجية لمنطقتي البلقان والشرق الأدنى ، وقد جلست الامبراطورية العثمانية في وسطهما ، مزدانة باللون القرمزي الفاتح ، ومحاطة من جهتي الشرق والغرب باللون الأبيض الخاص بالروس .

اليوم تركيا ، والأحرار غداً . أيرلندا في اليوم الذي يليه بلا شك . بلا نهاية . آه حسناً ، سنضع أفضل خطانا في الأمام وكل ذلك الهراء . . . .

تنحنح ونظر عبر الطاولة إلى زميله الفرنسي . توقفت الأحاديث الهامسة وحركات الأرجل ، وبدأ الاجتماع الرسمي بهدوء . تسلطت كل الأعين على رئيس الوزراء .

بدأ الحديث «كما ترون أيها السادة ، تظل تركيا رجل أوروبا المريض ، بإمكان روسيا أن تتصرف معها . . . أقصد معه كما تشاء . ليس لدى الأتراك الأموال لبناء خطوط السكك الحديد اللازمة لنقل الجنود إلى الجبهات . ولا أموال لشراء الأسلحة . إن جنود السلطان

حفاة في الثلج . إن التاج في حيرة من كيفية ايقاف الإيڤانيين الملاعين عن تقطيع تركيا كما يقطع . . . . حسناً ، الديك الرومي» .

ابتسم الفرنسي ، لكن ليس على النكتة . جاءت لهجته ثقيلة بقدر ما جاء صوته خفيضاً .

«ولكن إذا لم تكن هناك تركيا ، فسوف نستولي على الامبراطورية» .

نظر جاسكوين - سيسيل إليه ملياً : بورجوا ، رئيس وزراء الجمهورية الفرنسية الثالثة . أدركِ الإنجليزي ما يرمي إليه هو وحكومته . إن فرنسا منشغلة . منشغلة في بناء نفسها لاتقاء العاصفة القادمة لا محالة . لقد مرت حتى الآن عشرون سنة منذ أن أوضح الألمان لفرنسا بقيادة البروسيين طبعاً ، أن فجراً جديداً قد بزغ على أوروبا . إن جاسكوين - سيسيل كبير في السن لما يكفي لتذكيره بالخمسينيات ، حينما كان شاباً يافعاً ، وكانت ألمانيا مجرد فكرة أكثر منها حقيقة واقعة . في تلك الأيام ، كان أي شخص يشير إلى «ألمانيا» ، إذا حدث وأشار إليها على الإطلاق ، بنفس الطريقة التي يمكن أن يشير فيها إلى حقل أو متنزه . فقد كانت مجرد فضاء جغرافي ، ولم تكن قوة .

ثم قام بسمارك بتغيير ذلك الواقع . ابتدأ أولاً بالدنماركيين ثم النمساويين وأخيراً ، وبدرجة لا تكاد تصدق ، فرنسا : هزمهم جميعاً بسهولة ، وفجأة وجدت امبراطورية ألمانية جالسة فوق أوروبا المركزية ، بعدد سكان أكبر من بريطانيا وفرنسا ، وبجيش تراجع حتى الامبراطور الروسي عن فكرة مواجهته .

ألمانيا هذه نفسها تحتل الآن مقاطعتين فرنسيتين سابقتين ، مدعية بأنهما مناطق ألمانية تاريخياً ، ومع ذلك لم يكن لدى جاسكوين - سيسيل لا الوقت ولا الاهتمام لمعرفة ما إذا كان ذلك صحيحاً . الأمر

الذي كان مهتماً به هو حقيقة أن فرنسا كانت تعد لامتلاك أي شريط من الأرض تستطيع الحصول عليه في إفريقيا وآسيا وتبني القوة والثراء اللازمين لتدفع إلى الميادين بجيش يكون نداً للألمان . فالكل بات يعرف أن فرنسا تريد الانتقام .

الى جانب التطلعات الاستعمارية المكشوفة ، كان بوسع جاسكوين - سيسيل أن يشتمَّ الرائحة النتنة للميل الجمهوري من زميله الفرنسي ، الأمر الذي أزعج منخريه الارستوقراطيين . فقد علمته دراسته في المدارس الخاصة ما يكفي من التاريخ ليفهم الموقف الفرنسي تجاه الامبراطورية العثمانية . فقد قاد الفرنسيون الطريق في الحروب الصليبية وحكموا الدول الصليبية التي تلت لبضعة قرون في ذلك الجزء من العالم . وكان يشار إلى أي رجل أبيض يسافر عبر الشرق الأدنى بكلمة «فرنجي» ، أي من بلاد الفرنك ، في ذاكرتهم .

ذاكرتهم اللعينة

كذلك عرف جاسكوين - سيسيل أن الفرنسيين قد توصلوا إلى اتفاق مع الروس في السنة الماضية .

ها! الجمهوريون والمستبدون في الفراش سوية . لا بد وأنهم يتناولون وجبات عشاء مذهلة .

كذلك كان لدى الروس رغبة برؤية نهاية العثمانيين . لأنهم في نهاية الأمر «روما الثالثة» ، وقد أتوا بعد الإغريق الأرثوذوكس والبيزنطيين ، الرومان . . . . .

بغض النظر عما يسمون أنفسهم

بكلا الوجهين ، كانت عين الروس مسلطة على القسطنطينية . المدينة التي يدعون أنها إرثهم الأرثوذوكسي .

طبعاً ، ليس من قبيل الصدفة أن سيطرتهم على القسطنطينية

ستمنحهم السيطرة على المضائق ومدخلاً إلى المتوسط . . . .

كانت لدى جاسكوين - سيسيل فكرة جيدة عما يتم الحديث حوله في ولائم العشاء تلك ، حينما يجلس الفرنسيون ذوي ربطات العنق البيضاء مع حاملي القاب الدوق والكونت وبقية أبناء عمومة القيصر .

كان يعرف ما يخططون له .

تخلص من الأتراك ثم ركز على محاصرة الألمان .

كان كل ذلك غاية في البساطة حقاً .

لكن جاسكوين - سيسيل لم يكن يرضى بذلك . إذا كان هناك من هو الوارث لروما في نهاية هذا القرن ، فهي الامبراطورية البريطانية ، وكل الطرق تؤدي الآن إلى لندن .

بإمكان أميرويلزان يهذر حول مجاملة هؤلاء الضفادع ، لكنني لست على وشك أن أنسى نابليون . بعد أن قلت هذا . . . . الأفضل أن أكون دبلوماسياً ، أليس كذلك؟

قال جاسكوين - سيسيل «ليس الأمر بهذه السهولة يا مسيو» محاولاً أن يكون استرضائياً «لأن الروس قادرون على احتلال استنبول قبل أن نتمكن من إرسال سفننا إلى اليونان . نحن بحاجة إلى تركيا ، ما لا نحتاجه فقط هو امبراطور عثماني لعين يحكم المكان» .

انتظره بورجوا حتى يكمل كلامه .

«هنالك طريقة ، يا مسيو» .

حتى اسم الرجل يزعجني

«لقد تحدثنا في ذلك الموضوع مسبقاً» .

نفض بورجوا كتفيه بطريقة فرنسية .

«المؤسف أن ديزرائيلي لم يعد رئيساً للوزراء . كان سيتفهم» .

توتر جاسكوين - سيسيل لدى ذكر الاسم .

«كلام فارغ . إنه ليس يهودياً أكثر مني ، وكان سيقول الشيء نفسه . إن فكرتك متهورة . لدى السلطان الكثير من الكبرياء» .

تمكن بورجوا من إظهار عدم الاهتمام ، بإبقاء ذراعيه معقودتين وعينيه على الطاولة ، حتى وهو يجادل

«تشير مصادري المعلوماتية إلى أن السلطان . . . . كيف تقولها . . . قابل للطي عند هذه النقطة . دعنا نواجه الأمر ، أنت قلتها بنفسك . تركيا مفلسة . إنها بحاجة إلى العملات الصعبة» .

اللعنة على عينيه إن كان يعتقد أنه سيدخل إلى سورية . . . أنا لم أتخلص من جلادستون وذلك الإيرلندي الملعون بارنيل ليجيء هذا الفرنسي إلى هنا و . . . . .

«ليس التاج البريطاني راغباً في . . .» .

لكن بورجوا قاطعه .

«بكل الاحترام الواجب يا مسيو ، فإن الأموال لن تجيء من بنك انجلترا . يمكن أن تأتي من بنك روثتشايلد» .

استند جاسكوين - سيسيل بظهره واستعد ليستوعب الموضوع ، بينما فتح بورجوا الملف الجاثم أمامه وأزال الصفحة العلوية . دفعه بأدب عبر سطح الطاولة البلوط اللامعة نحو الإنجليزي .

قال جاسكوين وهو يلتقط الملف «ذلك أمر سخيف . الكل يعلم أن تركيا قد تخلفت عن دفع الملايين للبارون» . رغم ذلك بدأ يقرأ .

«ولكن لديهم شيء يريده البارون حتى أكثر من المال . فكما ترى ، يمكنه أن يمنح اليهود وطناً» .

انتهى جاسكوين - سيسيل من القراءة ، لكن وجهه ظل يقول إنه غير مقتنع .

«لكن السلطان يحاول أن يعيد تأسيس الخلافة الإسلامية : ولذلك فهو لن يفعل ذلك أبداً» . قال ذلك وهو يمسك بالرسالة مرفوعة أمامه . عاود بورجوا الابتسام .

هذا الشخص هو قطة مع القشطة .

«أنت على حق تماماً يا رئيس الوزراء سيسيل ، لكن الصهاينة لا يعرفون ذلك . اتركهم يفكروا أن السلطان سيمنح اليهود وطناً ، في مقابل المزيد من الاستثمار في تركيا . كل ما يهمنا أمره هو تمويل الجيش التركي ليمنع الروس من الاستيلاء على استنبول» .

وإبقاء تلك الحراب الروسية موجهة نحو برلين بلا شك ، أيها الكلب .

لم يملك جاسكوين - سيسيل نفسه من الإعجاب بنفاق الفرنسي ، بالرغم من أيديولوجيته المقيتة .

المؤسف أنه ليس واحداً منا حقيقة ، آه حسناً . . . . .

«كذلك تماماً ، يا رئيس الوزراء مسيو ، إيه ، بورجوا» .

أصرَّ على أن تخرج الكلمة وهي تقطر بالسخرية الارستوقراطية حينما قالها

«ستكون تلك مهمتنا» .

لن يدخل تلك المضائق أحد غير البحرية الملكية .

الفصل الثاني
اســتنبول

كانت لدى السلطان خطة . كلا ، بل كانت لدى السلطان رؤية . وكان يتكلم «أقول لكم ، هذا هو الوقت لتوحيد المسلمين في كل أنحاء العالم تحت راية الامبراطورية العثمانية . . .» .

استمر مستشاروه في النظر إليه . عرفوا من تجربتهم الطويلة ما كان سيقوله ، لكنهم أصغوا رغم ذلك . استمر :

«إن المسلمين في حالة من التشتت في كل الدنيا . إنهم مستعمرون ، مظلومون ومهمشون . وهذا المسجد المشرف على القرن الذهبي سوف يلهمهم لأن يتجمعوا في خلافة جديدة» .

أشار إلى الخارج عبر المياه من الشرفة التي يقفون عليها . امتد القرن الذهبي أمامهم ، عظمة الآيا صوفيا : استنبول ، خلفهم أوروبا وأمامهم آسيا . أحياناً كان أولئك الذين يعيشون في القصر يتذكرون فجأة من وأين هم ، مثل رجل يدرك أنه يحلم .

ذلك هو ما كان عليه قصر السلطان ، حلم . لقرابة أربعة قرون ونصف بحلول هذا الوقت ، ظلت المدينة التي هي مركز الدنيا ، تركية ، وأحسَّ البعض أن ذلك الحلم الطويل قد اقترب من نهايته . ولكن على أية حال ، تابع الجميع يد السلطان للحظة وأعادوا إحياء المجد الذي انقضى : لن يطول الوقت حتى ينبلج الفجر ، ويضطروا لمواجهة وصول يوم جديد ، بنهاية الأمر .

لكن السلطان كان مصراً على العودة إلى أيام المجد . رقدت خطته لتلك العودة على الطاولة أمامه . حتى الرجل العادي بإمكانه أن يرى المنطق في روعة التصميم من مجرد نظرة عابرة . سوف يسيطر المسجد الشاهق على خط الأفق ، بحيث يمكن للسفن مشاهدته ، ربما من عشرات الأميال عن المرفأ . سوف يكون بريقه أكثر من أي شيء تم بناؤه في المدينة منذ أيام جوستينيان .

ولكن ، كما هو الحال دوماً ، كان وزير المالية موجوداً مثل ساعة منبهة ليوقظ الجميع .

قال «هذه فكرة نبيلة يا مولاي» وسارع إلى الإضافة طبعاً «وأنا أدعمها من كل قلبي . . . .» توقف ، باحثاً مرة أخرى عن أكثر السبل لطافة في شرح موقفه .

«ولكن لسوء الحظ ، فقد شاركت الامبراطورية العثمانية في أكثر من دزينة حروب مهمة خلال السنوات المئة الأخيرة ، وكانت جميعها تقريباً كارثية على الأوضاع المالية للامبراطورية . مثل هذا المشروع الذي تصفونه سيكلف الملايين . ونحن غارقون في الديون إلى درجة نتمكن فيها بالكاد من توفير الوقود لمستورداتنا الغذائية» .

آلمه الاستمرار بالحديث ، لكنه يعرف واجبه . «ولن يقرضنا أحد ما يكفي لشرائه» .

أحنى رأسه عند هذه العبارة الأخيرة ، احتراماً للسلطان من ناحية ، ولكن من ناحية أخرى لشعوره بالخزي لنفسه وللامبراطورية لوصولها إلى هذا الموقف .

على أية حال ، لم يقتنع السلطان .

«لكن ذلك هو رأيي بالضبط! لا يمكننا أن نعتمد على الإنجليز ولا الفرنسيين . . . . وأقل من الجميع الروس . إنهم يريدون أن يروا

الامبراطورية العثمانية تنكمش إلى حد التلاشي» .

توقف باحثاً عن الكلمات التي تجعلهم يرون الأمور كما يراها هو . في النهاية استخدم العبارة التي يكرهها بشدة «نحن لسنا رجل أوروبا المريض! نحن الامبراطورية العثمانية!» .

تقدم حسين حلمي باشا بهدوء .

قال بصوت هادئ «أيها السادة ، ربما يكون هناك طريق ثالث» .

استدار السلطان بينما مشى حلمي باشا حتى وقف في وسط الشرفة ، بادي الهدوء كأنه يتلقى نسيم المساء من البسفور . انتظر لحظة ليحدق في المياه قبل أن يتكلم .

بدأ ببطء «لقد تلقيت مؤخراً استفسارات من كونت اسمه ميشال نيولينسكي ، وهو زميل للصهيوني النمساوي ثيودور هيرتزل» .

حدجه السلطان بنظرة متعمدة ثم مشى إلى طاولة خفيضة واختار كتاباً من كومة صغيرة . لاحظ حلمي باشا المجموعة الأحدث لشيرلوك هولمز «*مذكرات شيرلوك هولمز*» ، بين الأبحاث والكراسات . معروف عن السلطان أنه معجب كبير بعمل آرثر كونان دويل . للحظة قصيرة عابرة ، فكر كيف أن ذكاء السلطان وقدرته على الاستنتاج تضاهي تلك التي يمتلكها التحري الإنجليزي ، قبل أن يستدير ليتكلم مرة أخرى .

«هل تقصد هيرتزل هذا يا حلمي باشا؟» أدار الكتاب في يده وقرأ الشريط الخلفي «دير . . . .جودينستات» .

انحنى حلمي باشا «نعم يا مولاي ، طبعاً» .

رفع السلطان الكتاب وخفضه في يده ، وكأنه يزن قيمته .

«إن عمله معروف لنا بدرجة جيدة ، وخياله الجامح بأنه يمكن إقامة دولة يهودية في فلسطين إنما يرعب المسلمين الملتزمين الذين عاشوا هناك لمئات السنين» .

انحنى حلمي باشا مرة أخرى «نعم ، طبعاً يا مولاي . ولكن إذا سمحت لي . . . .» رفع بصره وانتظر أن يومئ له السلطان موافقاً قبل أن يسترسل «لقد كتب إلينا مؤخراً وتحتوي رسالته على عرض مثير للاهتمام . . . إلى حد ما» . أخرج من طيات سترته رسالة ، ورفعها باتجاه السلطان بينما واصل الانحناء في الوقت نفسه .

«إذا سمحتم لي؟» .

أومأ السلطان مرة أخرى ، وبدأ المستشار يقرأ

«عزيزي حسين حلمي باشا ، أنا أكتب نيابة عن البارون دي روتشايلد . إن الدين الهائل الذي تدين به الامبراطورية العثمانية للبنوك الأوروبية ، يسبب الشلل» .

احمرَّ وجه السلطان ، وجاء صوته مشوباً بالمرارة «لن أقبل أن يهينني مقرض المال هذا!» .

سمح حلمي باشا لكلمات السلطان أن يحملها نسيم المساء الباكر قبل أن يسأل

«هل أكمل رجاءً؟»

تكلم السلطان بصوت خفيض

«أكمل»

قرأ حلمي باشا «أمر معروف جيداً أن الروس يسعون إلى تدمير الامبراطورية العثمانية أكثر فأكثر . إن قصدهم هو إضعافها أكثر بعد أن سيطروا على المقاطعات الغربية : مقدونيا وصربيا والجبل الأسود» .

حدَّق فيه السلطان ، يكاد يتحداه بأن يكمل . فهذا أمر تعرفه حتى الكلاب في الشوارع . إن حلمي باشا رجل معروف بحكمته وشجاعته ، فلا بد من وجود نقطة ، سبب يدفعه إلى جلب هذا الأمر إلى اهتمام السلطان .

«نعم . . . نعم . ما علاقة هذا بأي شيء آخر؟»

انحنى حلمي باشا وأكمل «ليست لدى جلالتكم الموارد لمقاومتهم ، أقصد الروس . إن البارون يأسف لحقيقة أنكم غير قادرين على تسديد ديونه ، لكنه يدعم حق جلالتكم في حكم دولة ذات سيادة . . .» .

ابتلع السلطان ريقه بشكل ملحوظ . من هو هذا الصحفي حتى يقول له هو ، حاكم الدنيا ، بأنه سيسمح له بأن يحكم؟ هل كان سليمان القانوني مضطراً للاستماع إلى مثل هذه الوقاحة؟ فكَّر السلطان عبد الحميد الثاني بأن الجواب هو لا .

أخبرته كل ذرة من كيانه أن يسحب سيفاً ويقتل ، مجازاً إن لم يكن حرفياً ، لكن انضباطيته التي نالها عبر السنين الطوال ، أخبرته كذلك أن هذا أمر هو بحاجة إلى سماعه .

لم يتوقف حلمي باشا في الأثناء «متحررة من اعتداءات الدول الأخرى . لذلك فإن البارون يقبل بأن يقنع جميع البنوك الأوروبية لتتنازل عن ديونها» .

نسي السلطان المرارة التي ارتفعت في حلقه قبل ثوان مع مجرد ذكر السماح عن ديونه . لكن ذلك الانفراج اختفى بدوره بنفس السرعة التي ظهر فيها .

لقد علمته الخبرة التي زرعت فيه الانضباط ، الحذر كذلك .

قال «هل أنت تمزح؟ لماذا يقوم بذلك؟» .

ابتسم حلمي باشا : أدرك أنه حظي باهتمامه ، لكنه حرص على أن لا يسحب خيط الصنارة بقوة ، ليس بعد . ظل صوته منتظماً ، غير متأثر ، أثناء إجابته «هناك المزيد . كذلك يعرف البارون أن تجهيز حملة عسكرية ناجحة ضد الغزاة الروس ، وبناء الخط الحديدي الحجازي ،

من بين مشاريع تطويرية مكلفة أخرى ، سوف يمنح تركيا القدرة على تحريك الرجال والعتاد إلى الجبهة عند الضرورة ، للدفاع عن سيادتكم» .

«ما الذي يريده بالمقابل ، أن يجعل الامبراطورية العثمانية وطناً يهودياً؟»

هذه هي اللحظة : أدركها حلمي باشا .

«لا يا مولاي . لجعل فلسطين وطناً يهودياً» . توقف ليقيس درجة رد فعل السلطان ، لكنه عندما لم يلحظ أي إشارة على القرف ، لعب ورقته الأخيرة .

«وأنا أنصح جلالتكم ، بكل تواضع أن تفكروا بالعرض لأنه سيمحو معظم ديون الامبراطورية» .

أدرك أين سيضعه هذا الموقف في حال عدم رضى السلطان .

حافظ السلطان على صوته خفيضاً «تلك ستكون خيانة للإسلام»

يجب *أن أكمل الآن* .

«يا صاحب الجلالة ، إن الصهاينة يمهلونك أسبوعين لتقرر» . جاء مجرد النطق بالكلمات مؤلماً «فهل تقبلون بمقابلة أحد ممثليهم على الأقل؟» .

«أي واحد منهم؟»

«ثيودور هيرتزل» .

بدا وكأن ظهر السلطان المنتصب قد ازداد تصلباً .

«لست بحاجة إلى أسبوعين . لست بحاجة إلى دقيقتين . إنني أرفض وبشكل مطلق أن أتاجر بنقاء الخلافة مقابل أي مبلغ من المال ، إذا كان ذلك يعني منح صك يسمح للصهاينة بالاستقرار في فلسطين» .

عند هذه العبارة، استدار وغادر الشرفة مسرعاً، متبوعاً بالخدم والحرس، تاركاً كلاً من وزير المالية وحلمي باشا منحنيين وراء ظهره.

في هذه الأثناء، استمرت عملية السياسات العليا. بعد أن قام رئيس الوزراء جاسكوين - سيسيل بتوديع الفرنسي من شارع داونينغ، اتخذ طريقه إلى مكتب وزير الخارجية، حيث يستمتع بإدارة أعماله من هناك. فقد أمضى معظم سيرته العملية لدى الحكومة في وزارة الخارجية، وزير دولة لشؤون الهند في البداية أي قبل حوالي ثلاثين عاماً. بعد ذلك، أصبح هو نفسه وزيراً للخارجية في حكومة ديزرائيلي. والآن، وبعد أن تقاعد الرجل منذ زمن طويل، فقد أصبح جاسكوين - سيسيل يتناوب بين وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء.

استذكر وهو يتمشى في مساء لندني رائع، وقد امتلأت الشوارع بالمارة المنشغلين بشكل باعث على البهجة، سنته الأولى كوزير خارجية قبل سنوات طويلة، وكيف بذل أقصى جهوده لإيجاد تسوية ترضي جميع القوى في أوروبا، بمن فيهم تركيا.

كان ذلك ماذا؟ ربما سنة ١٨٧٨ في برلين: سموه الكونجرس. قبل عام ١٨١٥، بعد نابليون. في ذلك الوقت كان لديهم ويلينجتون وميترنيخ وتاليران. رجال عظماء. وذلك الفظ، القيصر الكسندر يهينهم كلهم. لقد كانت برلين فكرة سيئة كموقع في المرة الماضية، حتى لوان بسمارك هو الذي دعا إليه في المقام الأول. قل ما تريده عن بسمارك، لكنه بمجرد حصوله على امبراطوريته، فقد بذل كل جهد مستطاع لإبقاء كل الأطراف سعداء. لم يكن الوغد «الوسيط الشريف» بأي حال كما كان يحلو له أن يظهر. لا. كان أكثر من ذلك. ما الذي قاله في تلك الخطبة؟ «الدم والحديد». نعم، ذلك هو

ما قاله . لقد ذهب الآن ، أوتو العجوز ، أخرج إلى المرعى ليكتب مذكراته إلى جانب القيصر الشاب وليام الثاني . أو ويلهيلم إذا شئت . من الصعب التصديق أن ذلك الجرو هو حفيد ملكتنا نفسها . . . . ولكن هذا هو الواقع ، على ما أفترض . . . . .

«هل أنت غارق في أفكارك يا خالي؟ أخشى أن الفرنسيين يسببون لي الكآبة أيضاً» . قاطع الصوت المألوف أفكار جاسكوين - سيسيل المتجولة فتلفت خلفه ، مجفلاً . جاء خلفه ابن شقيقته ، يتقافز على الرصيف - مثالاً على الحيوية والطاقة المتفجرة .

«وماذا ، اسمح لي بالسؤال ، يفعل رئيس وزراء بريطانيا العظمى وامبراطورية الملكة مبدداً الوقت في شوارع لندن بدون صحبة في هذا المساء؟»

«ها! بإمكاني أن أطرح هذا السؤال نفسه على وزير مالية المملكة ورئيس مجلس العموم ، يا آرثر الفتي» .

«أفحمتني يا خالي . سأخبرك بشيء ، نحمد الله على أن هذه ليست الولايات المتحدة ، ولكن هناك أخطار تحيط بنا . لذلك إذا قابلنا أي فوضويين إيطاليين أو ثوار أيرلنديين فسوف نتعامل معهم سوية إيه؟ إن ما يحتاجه أمثالهم هو ضربة قوية بالعصا . ندخل بعض التعقل في رؤوسهم» .

«يا آرثر ، ذلك هو عنصر البلفور الذي يتحدث من داخلك . سوف تتسبب لنفسك بسمعة سيئة إذا لم تراع الحرص . على أية حال ، إذا كنت قد درست تاريخ آل سيسيل ، فسوف تعرف أننا نفضل المسدس على العصا في كل مرة» .

ضحك الرجلان وهما يكملان طريقهما باتجاه وزارة الخارجية .

«إذاً ما الذي جعلك تبدو بهذا الشرود في العالم العقلي هذا

المساء الرائع يا خالي؟ هنالك الكثير مما يمكن الاختيار منه في الوقت الحالي» .

«تركيا يا آرثر ، والسلطان» .

طأطأ بلفور برأسه وندت عنه «آه» حادة تنم عن الإدراك .

استمر رئيس الوزراء «طالما أن مؤتمر برلين لم يتمكن من استمالة الأتراك ، فأنا لا أعرف ما الذي يمكنه ذلك . أنت تعرف أن دزرائيلي ذهب إلى أبعد مما يصح لأجلهم حسب رأيي . إنني حائر فيما ينبغي عمله الآن» .

ربما أظهر آرثر بلفور قدراً من الابتعاد وعدم الاهتمام معظم الوقت . في الحقيقة ، فإن عادته في البقاء في الفراش حتى الظهر كانت تتسبب برفع الحواجب استغراباً في دوائر معينة ، واتهامات بالجنون في أخرى ، لكن الرجل عرف قصارى القول ، وأظهره الآن ، بتقييمه الموقف والخيارات بكل هدوء قبل أن يتكلم .

«يا خالي ، لقد خفض المؤتمر المكاسب العظيمة التي حققتها روسيا من خلال معاهدة سان ستيفانو ، لكن الأتراك ليسوا مسرورين بالمقابل ، فقد أصبحت قبرص إقطاعية لنا ، بينما تحتل قواتنا مصر والسودان» .

استمر رئيس الوزراء في التحديق بالأرض أثناء حديث بلفور ، لكنه رفع رأسه الآن حينما تكلم «نعم ، إن السلطان فتى مجتهد . فهو لم يقتنع لدقيقة واحدة ادعاءنا بجلب النظام إلى تلك المناطق» .

افترق الرجلان للحظة للسماح لشابين حسني الهندام بالمرور ثم عاودا الانضمام معاً في وسط الممر .

أتمم رئيس الوزراء كلامه «إذاً ، كيف نستطيع أن نستخدم الوضع المالي البائس لدى الأتراك لمصلحتنا؟»

فتل بلفور عصاه للحظة متفكراً .

«أخشى أن هيرتزل وأصدقاءه لم يتمكنوا من إقناع السلطان ليمنحهم مقابلة ، ناهيك عن الاستثمار في امبراطوريته الموشكة على الانهيار» .

وصلا إلى زاوية في منتزه سانت جيمس وبدأا يسيران بمحاذاة طريق الحرس الخيالة ، وقد سمح كلاهما لمساحة متنزه على اليمين لتمنحهما الهواء الطلق الذي حرما منه في مكاتبهما وغرف اجتماعاتهما طيلة النهار . كذلك جاء الهدوء النسبي نعمة ربانية بعد يوم من المساجلات وصرخات الاستنكار في البرلمان : مجلس العموم لبلفور ومجلس اللوردات لرئيس الوزراء .

قال جاسكوين - سيسيل «أوافقك ، ذلك حقاً أمر مؤسف حقاً» .

سارا أبعد قليلاً بصمت قبل أن يكمل

«كنا نأمل ، نحن وأصدقاؤنا الفرنسيون ، أنه بإظهارنا أداء الخدمة للمصالح اليهودية سنتمكن من التسلل إلى داخل الامبراطورية العثمانية ونبقر أحشاءها من الداخل قبل أن يقتلها الروس ببتر المزيد من أعضائها الحيوية» .

وإذا كنت بحاجة إلى أي برهان عما إذا كانوا قادرين على ذلك أم لا ، فقط اسأل بولندياً عن معنى كلمة «تقسيم» .

ضرب بلفور الهواء بعصاه فجأة في قوس نزولي رهيب .

«فإذاً لا يعود لدينا خيار غير أن نشن هجومنا الخاص بنا ، لكن الحملتين الإفريقية والهندية قد أضعفتا الجيش والبحرية الملكيين» .

وصلا إلى المتنزه المحفوف بالأشجار وأخذا يعبران نحو مسار دوق يورك .

«آه يا آرثر ، من هم الذين سنهاجمهم؟ الأتراك أم الروس؟ يعلم

الله أنني أحب أن أوجه ضربة إلى الفرنسيين ، فقط لأجل الأيام القديمة . يجب فعلاً أن أكلمه حول إصدار هذه البيانات بدون المزيد من التفكير فيها» .

قال رئيس الوزراء «إن مصادري تعتقد أن هيرتزل وحلفاءه مستعدون لتحلية عرضهم السابق ومحاولة الوصول إلى السلطان مرة واحدة أخيرة» .

وإبقاءنا معزولين عن كل مشاكله .

ظهر على بلفور عدم الاقتناع . وجه نظرة متعمدة إلى خاله وهو يشير بعصاه إلى تمثال دوق يورك الواقف فوق عموده .

«خالي ، أنت وأنا لدينا نفس المشاعر تجاه خطط هيرتزل ، ولكن ماذا إذا فشلت عروضهم؟» .

أجابه جاسكوين - سيسيل «لست بحاجة إلى التفصيل» .

الفصل الثالث

في الليلة التالية ، عبر القنال في باريس ، وقف أربعة رجال حول باب عربة خاصة من قطار الشرق السريع ، كان المسافرون قلة ومتباعدين في يوم نهاية أسبوع كهذا داخل محطة الشرق ، بحيث احتل الأربعة المنصة لأنفسهم فقط .

رغم ذلك ، أبقى رئيس الوزراء بورجوا وجهه منخفضاً تحت الياقة المرفوعة لمعطفه الطويل غير اللائق بالفصل .

بصراحة ، كان قد اكتفى من القوارب والقطارات في اليومين الأخيرين : فقد كان يكره زيارة لندن بحدة .

قال للثلاثة الآخرين «طبيعي ، لا تعرف الحكومة الفرنسية شيئاً عن هذه الرحلة» .

فكر هيرتزل أن الأفضل هو ببساطة الموافقة ، رغم أنه ظل يعجب كيف أن رجلاً يبدو أنه يعتقد أنه بطل في رواية جاسوسية رخيصة قد أصبح رئيس وزراء ثاني أكبر امبراطورية في الدنيا .

قال «طبعاً» .

وضع روثتشايلد يداً على كتف هيرتزل بطريقة يمكن أن تفسر إما محبة أو تهديداً ، حسبما يقتضيه الموقف .

«يا ثيودور ، إن مئة وخمسين مليون جنيه ذهباً هي حدنا الأعلى المطلق» .

أجابه هيرتزل «أفهم ذلك ، أيها البارون» .

خفض الآن روثتشايلد صوته ، وكلهم يتجاهلون بورجوا بينما هو يتلفت حواليه بقلق ، ولم تكن لديهم فكرة عما يبحث عنه .

سأل البارون «أسألك بطريقة سرية ، هل تعتقد أن ذلك المبلغ يكفي؟»

أجابه هيرتزل «بعد محاولتين فاشلتين بمبالغ أقل ، فقد منحنا مقابلة على الأقل» .

في هذه اللحظة ، ضرب على كتفه تحبباً «عد إلينا بوطن» .

هزّ هيرتزل رأسه «هيا بنا يا نيولينسكي» .

كان الكونت قد تخلص من حليه الرخيصة المعتادة وحاجاته الاستقراطية في سعي لأن يرتدي ملابس عادية ، لكنه بقي رجلاً من الصعب تجاهله بسبب حجمه وطريقة تحركه بشكل عام . صعد هو وهيرتزل ، وانتظر بورجوا وروثتشايلد الصافرة حتى يلوحا لهما مودعين وينصرفا . على الرغم من كل يقظته ، فلا بورجوا ولا الرجال الثلاثة الآخرون أعاروا أدنى قدر من الاهتمام للحمّال الذي انشغل في تفريغ عربة من الحقائب على مسافة منهم في الرصيف قبل وهلة ، وأخرج الآن دفتر ملاحظات من جيبه وبدأ يكتب بسرعة ثم قفز صاعداً إلى آخر عربة مغادرة .

بعد أن استقرا في عربتهما الخاصة ، أخرج هيرتزل بضعة أوراق ملاحظات من حقيبته واستعد ليكتب ملاحظة ، لكن بات جلياً أن نيولينسكي مصر على المحادثة .

«أخبرني مرة أخرى يا ثيودور عن هذا الرجل هيكلر» قالها بمرح ، جالساً بميل إلى الأمام ووجهه مفتوح على ابتسامة ، منتظراً أن يستمتع .

أطلق هيرتزل زفرة داخلية وتخلى عن قلمه .

«إنه رجل كنيسة أيها الكونت، تابع لكنيسة انجلترا، على ما أعتقد، وهو قسيس لدى السفارة البريطانية في فيينا. أظن أنه قضى بعض الوقت في نيجيريا وأيرلندا، رغم أنه ليست لدي أي فكرة عن كيفية مجيئه إلى ألمانيا والنمسا. كذلك، ومما لاحظته أنه يستطيع أن يتكلم بعدد من اللغات بما فيها العبرية.

ارتفع حاجبا نيولينسكي عند هذه المعلومة: لأن عدداً قليلاً جداً من اليهود يستطيع التكلم العبرية هذه الأيام، حتى بين أعضاء الحركة الصهيونية.

استمر هيرتزل «على أية حال، فقد قام من خلال دراساته للإنجيل، بتأليف شيء ما يسميه «اللوائح الرسولية»، وقد توصل إلى استنتاج مفاده أن اليهود يجب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة حتى يتجنبوا وقوع جائحة يعتقد أنها قادمة.

هو لا يعرف كيف ستبدأ هذه الجائحة ولا أين، ولا من سيكون مسؤولاً عنها تحديداً. لكنه مقتنع من قراءاته أن يهود أوروبا متجهون نحو كارثة غير مسبوقة إذا بقوا في مكانهم.

«قد أتفق معه على ضرورة عودة شعب الله المختار إلى أرض أسلافهم، ولكن يبدو أن دوافعنا تجاه الحركة تختلف بطريقة ما. ليس معقولاً أنه يعتقد بأن مصير اليهودي الأوروبي صائر إلى تلك الكارثة؟».

«أيها الكونت الطيب، إنه غير مستعد لتبديل موقفه. عندما زرته للمرة الأولى، دعاني إلى مكتبه حيث لاحظت وجود كتاب واحد فقط في صف فوق الآخر، رف فوق رف، من الأرضية وحتى السقف».

«كتاب واحد؟»

«أناجيل ، أيها الكونت . إن هيكلر المبجل يجمع الأناجيل» .

بدا على نيولينسكي الذعر في هذه اللحظة «يبدو أن الرجل قد جنَّ تماماً! هل أنت واثق من أن هذا هو نوع السيد الذي نريد أن نتزامل معه؟» .

«لا أستطيع أن أشهد على سلامة عقله بأي معيار طبي ، لأنني مجرد صحافي متواضع» .

«وأنت محام أيضاً يا ثيودور ، فلا تتواضع» .

ابتسم هيرتزل «صحيح . رغم ذلك ، صحيح أنني أجد الرجل متطرفاً ، لكنه ليس خطراً بأي شكل . لديه معتقدات قوية فيما يتعلق بجنسنا ، ذلك صحيح ، ولكن كما لاحظت فإنها توازي معتقداتنا في بعض النواحي . الأهم من ذلك هو أن الرجل لديه اتصالات ، وهو مستعد لاستخدامها لمنفعتنا» .

«حتى لو أنه قسيس السفارة البريطانية في ڤيينا : كيف يساعدنا ذلك؟» .

«حسناً ، مثل معظم المتطرفين غير المؤذين ، يبدو أن المبجل قد تقلب بين عدة مناصب ، كان أحدها منصب مدرس أطفال فريديريك ، الدوق الأكبر لبادن» .

ابتسم نيولينسكي «آه! الآن أرى الأمر . إذاً فهذا المبجل يرتب لمقابلة لك مع فريدريك ، الذي أفترض أنه لا يزال على علاقة طيبة مع القيصر ، وأنك ستمارس سحرك حتى يقوم الدوق يالتهيئة لك حتى ترتفع في السلم وتقابله» .

«تماماً أيها الكونت . بكثير مما يشابه الطريقة التي تساعد فيها بكل كياسة حتى أقابل السلطان ، فإن المبجل هيكلر يساعد مع القيصر» .

«حسناً يا ثيودور ، أنا سعيد بضربة الحظ التي أصابتك في مقابلة

هذا الرجل ، لا يسعني الا أن أشعر أنني شخص ممل بالمقارنة معه!» .

ضحك الرجلان ، وأخرج نيولينسكي من جيب صدارته علبة سيجار فضية مزوقة . تناول هيرتزل السيجار المعروض عليه ، ونفخ كلاهما بسعادة ورضى لبضع لحظات حتى تكلم نيولينسكي مرة أخرى .

«يا ثيودور ، كيف ترى أن القيصر الألماني يتناسب مع خططنا؟ طبعاً ، حتى مجرد شخص عادي مثلي يمكنه أن يلمس المنفعة من وجود مدافع قوي مثله ، ولكن كيف ولماذا تراه يميل إلى لعب دور في الدراما الصغيرة الخاصة بنا؟ هل يحتمل أن يكون اهتماماً بالدراسات الإنجيلية؟» .

فكر هيرتزل للحظة قبل أن يرد

«أيها الكونت ، إن القيصر رجل معقد ، وأنا أجزم أننا إذا استطعنا أن نكسبه إلى قضيتنا ، فربما هو في موقع مناسب لدعم مصالحنا أكثر من أي ملك آخر» .

«أليس من الممكن أن يكون للقيصر الروسي تأثير أكبر بكثير؟» .

«صحيح أن لدى القيصر الألماني القوة الكافية للتهديد والتنمر ، ولديه الجحافل التي تدعم ترهاته ، قسماً بالله . إنه يحترق شوقاً لوضع يديه على القسطنطينية وتدمير العثمانيين والخلافة وكل ما يرغب السلطان في بنائه . ولكن فكر في هذا الاحتمال : ماذا لو فعل ذلك؟» .

«طبعاً في حينها سيزول السلاطين وتتم إزالة العقبة من وجه وطننا في فلسطين» .

«وهل هذا سيتم فعلاً أيها الكونت؟ تخيل أن حلم القيصر الروسي سيتحقق ، وأن القوزاق يسقون خيولهم على البوسفور . إن

الروس مهتمون فقط بالقسطنطينية وبوابة نحو المتوسط لأجل أسطولهم . بمجرد أن يحصلوا على ذلك سيصبحون آمنين . سيقومون بإعادة بناء الأسوار وتحصين المدينة ، تعيين بطريرك أرثوذكسي ، والتظاهر بأن نهب القسطنطينية من قبل العثمانيين عام ١٤٥٣ لم يحصل أبداً» .

«يا ثيودور ، ما زلت لا أفهم ما ترمي إليه» .

«أيها الكونت ، ماذا عن بقية الامبراطورية؟ ماذا عن الأناضول ، سورية ، ما بين النهرين ، وفلسطيننا العزيزة . ما الذي سيحكم هناك؟» .

نظر الكونت إليه ونفض كتفيه .

«بالضبط . ليست لدينا أية فكرة . طبعاً سيقوم الأتراك بإعادة التجمع والحشد في مكان ما من آسيا الصغرى ، تحت قيادة جنرال أو رجل قوي ما ، ويوجدون لأنفسهم عاصمة جديدة . ماذا عن العرب؟ سيقاتلون من أحد أطراف بلاد العرب إلى الآخر للعثور على قائد جديد في الفراغ الذي يبقى ، مدفوعين كل الطريق من قبل البريطانيين والفرنسيين بلا شك . ستصبح فلسطين ساحة حرب : مجرد ممر للعصابات الحربية ، التي ستتراكض في الأرياف بشكل فوضوي . لن يكون هناك سلام ولا أمان ولا نظام» .

كان الكونت ينظر إلى هيرتزل بنفس طريقة نظر روتشايلد إليه في غرفة التدخين بباريس . استمر هيرتزل «في مثل هذا الوضع وهذه الفوضى ، لن نتمكن أبداً من بناء وطن . ذلك هو ما سيحصل إذا قاد القيصر الروسي جنوده «الايفان» باتجاه الباب العالي . من الناحية الأخرى ، ما الذي يعرضه القيصر الألماني ، علينا وعلى السلطان؟ بالنسبة للسلطان ، يمكنه أن يوفر الخبرة العسكرية لأعظم جيش في أوروبا ، لدى قيصر روسيا ملايين الرجال ، لكنهم أبناء مزارع على

الأغلب . بينما لدى القيصر الألماني جنود ، وسوف يعرض على السلطان كيف يحول رجاله إلى جنود أيضاً . لقد دأب اليابانيون في الشرق ، على عمل الشيء نفسه منذ أيام الحرب الفرنسية - البروسية قبل عقدين حينما استبدلوا المستشارين العسكريين الفرنسيين بالألمان . في هذه السنة بالذات ، مسحوا بالصينيين الأرض ، مع أن الصين كأمة أكبر حجماً منهم بمرات عديدة . إذا كان السلطان يتمتع بالحكمة ، فسوف يتَّبع السبيل الياباني ويجعل من الامبراطورية العثمانية يابان أوروبا ، وروسيا حينها . بعد ذلك ، يريد قيصر ألمانيا الأصدقاء : هو يريد النفوذ . لن تتصالح فرنسا مع ألمانيا أبداً ، ويبدو جلياً أن الدب الروسي يشارك ماريان الفرنسية الفراش بثبات . صحيح أن ألمانيا لديها النمسا ، لكن النمسا بالنسبة لألمانيا مثل قريب محرج ، ينبغي على الشخص ترقيته والاعتذار عنه في نفس الوقت . ليست هناك بلدان في إفريقيا وآسيا تستحق الحديث عنها ولم يتم استعمارها من قبل القوى المتنافسة ، وهكذا فإن قيصر ألمانيا يتجه بشكل طبيعي نحو تركيا . إلى جانب مستشاريه العسكريين ، يمكنه أن يعرض السكك الحديدية والمصانع والتجارة والتمويل . لا يمكن للسلطان أن يتوقع الحصول على مثل هذا العرض الغني من أي مكان آخر» .

«لقد نسيت شيئاً واحداً يا ثيودور . . . . . بريطانيا العظمى» .

نفث هيرتزل سحابة من الدخان وعاود الابتسام .

«أيها الكونت : إن بريطانيا بالنسبة للقيصر الألماني هي المحفز لجميع هذه الجهود . إنه حفيد الملكة فيكتوريا : إنه من البريطانيين ، ولكنه ليس منهم بنفس الوقت . يراه البريطانيون ، سواء كانوا من العائلة المالكة أم من العموم ، كمتسلق ومصدر للخوف . إنهم يتعاملون معه ببرود . في المقابل ، هو لا يستطيع أن يقرر ما يعتقده فيهم . بدقيقة

يبحث عن حبهم واحترامهم بذل عبودي ، وفي التالية مثل طفح وقح : يتنمر ويهدد . كان الوضع سيبدو مضحكاً تماماً لولا وجود خطر كامن يتعلق بحياة الملايين في الميزان على كل جانب .

«ولكن لماذا يمكن أن يساعدنا يا ثيودور؟ السلطان بحاجة إلى أموال روثتشايلد في نهاية المطاف . فما الذي نعرضه على القيصر الألماني بطريقة مماثلة؟» .

«نعرض عليه الفرصة يا عزيزي الكونت . قبل كل شيء ، يريد القيصر الألماني أن ينسجم مع القوى الأخرى ، صح؟ وبشكل خاص البريطانيين أليس كذلك؟» .

«أتفق معك ولكنني . . . . .» .

«إذاً فهو بحاجة إلى مصلحة» .

«مصلحة؟ أخشى أنني أكثر تشويشاً من أي وقت سابق يا ثيودور ، أوضح أرجوك» .

«أنظر إلى الأمر من هذه الناحية . البريطانيون مضطرون لحماية السويس ، عصبهم الحيوي إلى الهند . ذلك يقع ضمن سلطة السلطان . الفرنسيون مضطرون لحماية الموارنة المسيحيين الذين يعيشون في ممالك الصليبيين القديمة» .

استمر نيولينسكي في تحريك رأسه بالموافقة .

«ثم إن الروس يشعرون أنهم ملزمون بحماية كل من السلافيين في الغرب والمسيحيين الأرمن في الشرق . كل هذه الشعوب والأماكن المحمية تقع ضمن ممتلكات السلطان ، صح؟» .

أخذ نيولينسكي يهز رأسه بعنف في هذه اللحظة «نعم ، نعم» .

«حسناً ، من لدى القيصر الألماني؟ لا أحد . إذا استطاع أن يقنع السلطان بأن يعطينا قطعة من الأرض في فلسطين ، فسوف يصبح

حامينا والمحسن إلينا . سيكون لديه شيء موجود لدى كل شخص آخر في النادي» .

استند نيولينسكي إلى الخلف بينما هو يهضم حجم اللعبة التي أدرك الآن أن هيرتزل يمارسها .

لاحقاً ، وبينما أغفى نيولينسكي قبالته ، أخرج هيرتزل قلمه ودفتر ملاحظاته مرة أخرى وبدأ يكتب إلى زوجته ملاحظة عاجلة .

جولي الأعز ،

أجد نفسي على متن قطار في مكان ما بين باريس واستنبول : يحتمل أننا في باڤاريا ، أو ربما شمال النمسا في هذه الساعة الميتة بين الليل والصباح .

لا يوجد في الخارج سوى العتمة ، والمصابيح التي تضيء المحطات الريفية الصغيرة التي نمر بها باستمرار قد أطفئت منذ وقت طويل .

يؤلمني أن أعرف بأنني سأكون أقرب إليك هذه الليلة ثم أستدير مبتعداً مرة أخرى غداً . أتمنى لو أستطيع أن أمضي الغد معك ومع الأطفال . يمكننا أن نتمشى في شارع رينج شتراسه وحدائق هوفبرغ . أعرف أنني سأحب أن أقدم لهم البوظة الإيطالية في صالون البلدة القديمة . يعلم الله أنهم ، وأنتِ تستحقونها . أنتِ أكثر من الجميع .

لقد تحملت غزو الأنماط الغريبة المتطلبة من الناس الذين أخالطهم (وأنتِ التي كنتِ تظنين أن زملائي في الصحافة الحرة بوهيميون!) لقد تحملت غياباتي الطويلة والتخفيض في أموالنا والذي يعنيه عملي على قضية الوطن .

اعلمي أنني لاحظت وأحصيت كل تضحية صغيرة ، يا حبي ، وأنني سأعوضك عنها مئة ضعف . سيكون لأطفالنا مكان يكبرون فيه حيث لا يضطرون إلى الخوف من أولئك الذين حولهم وينظرون إليهم

بازدراء في قلوبهم، أو حيث سيتم سوقهم بالقوة أو غيرها، إلى غيتوات مثل البهائم. بدلاً من ذلك سوف يكبروا على أرض تخصهم حيث سيرفعون رؤوسهم كأنداد لكل الذين حولهم. لن يقفوا أبداً غير ملحوظين ضمن حشد من الغوغاء ينفس عن غضبه على جنسهم كما اضطررت أنا. أبداً. هذا هو السبب الذي يجبرنا على التضحية الآن، لمستقبلنا الأعظم. أتذكَّر أنني قلت في كتاباتي شيئاً مثل «إن الدولة اليهودية حيوية بالنسبة للعالم، ولكن الأهم من ذلك، هي أساسية بالنسبة لنا».

قَبِّلي بولا وهانس وترودي عني، وقولي لهم إن أباهم يحبهم كثيراً جداً. قولي لهم إنني سأحضر لكل منهم شيئاً من بلاد الأتراك.

لك كل حبي

ثيودور

استند هيرتزل بظهره، وتجول عقله من خلال إرهاقه نحو الأحداث التي غيرت حياته. فجأة ألفى نفسه وسط الحشد الباريسي مرة أخرى، خارج السجن. واقفاً بينهم في زيه الخاص بالصحفيين، حاملاً دفتر ملاحظاته بيده. لم يهتم به أحد، بينما كانت أفواههم تطلق المرارة.

«الموت لليهودي! الموت لليهودي!».

شعر يومها هيرتزل بالصدمة: حقيقة، كان مصدوماً أكثر من قدرته على الكلام أو رد الفعل بأية طريقة. كان قد أرسل إلى باريس من قبل الصحافة الحرة في ڤيينا لتغطية محاكمة الفريد درايفوس، وهو ضابط فرنسي اتهم بالتجسس لحساب ألمانيا، وراقب بينما تحولت المحاكمة إلى تعبير عن الكراهية ليس للامبراطورية التي احتلت

مقاطعتين فرنسيتين ، بل إلى تدفق لمعاداة السامية ، إلى كراهية للجنس اليهودي .

تذكر كيف فكر لنفسه بأسلوب مذهول «لكن هذه هي فرنسا! فرنسا وليست روسيا!» .

عادت إليه كل الكتب والتاريخ الذي درسه في شبابه مندفعة في تيار : كانت ظاهرة جديرة بالاهتمام : بعد ذلك ، شبهها بالأوصاف التي يسمعها الشخص عما يبدو عليه الغرق . تذكر كارلايل وأوصافه الدافقة بالحيوية عن «الحرية ، المساواة ، الأخوة» و«حقوق الانسان» . تذكر كيف قرأ لڤولتير ، الذي أطنب في الحديث عن حرية الدين والتعبير . كل هذه كانت أفكاراً فرنسية ، عمرها أكثر من قرن على الأقل ، ومع ذلك فقد ألفى نفسه يستمع إلى المراثي الرخيصة يلقى بها في ذلك الشارع الباريسي ، فارتعش .

«إذا كانت فرنسا والفرنسيين الذين يسمون أنفسهم أكثر مجتمع أوروبي تقدمي ، يمكنهم أن يشعروا بهذه الطريقة ، فما هو العمق الذي يذهب إليه احتقار اليهود في روسيا؟ أو النمسا ، موطني؟ موطن أطفالي» .

عاد هيرتزل إلى غرفة إقامته في تلك الليلة رجلاً قد تغير . رجع إلى النمسا واستمع بينما انطلق عمدة جديد هو لويجر ، يثير الأحاسيس المضادة لليهود بين الجماهير سعياً إلى شعبية رخيصة ونقاط سياسية . قرر هيرتزل أن الوقت للمغادرة قد أزف ، ولكن إلى أين؟ لم يعد هناك مكان آمن بعد أحداث باريس . قدَّم الجواب نفسه بسرعة فائقة .

في تلك اللحظة ، اهتز القطار ، فأدرك أنه كان يحلم ، بينما انطلق نيولينسكي يشخر قبالته .

الفصل الرابع

حصل الرجلان على كافة أنواع التكريم في استنبول ، ولكن لا شيء آخر . تم إيصالهما إلى مكان إقامتهما في عربة بسيطة عبر الشوارع المزدحمة ، بينما استمر الرعاع وحثالة الشوارع يضايقونهما في كل خطوة . اضطر هيرتزل إلى إيقاف يد الكونت من الوصول إلى عصاه أكثر من مرة . بعد الاستراحة وتناول المرطبات ، حضَّر الاثنان نفسيهما لمقابلتهما مع السلطان ، ونسيا في هذه المرة العربة التي أرسلت لهما ، بأدب طبعاً ، واستأجرا شيئاً اعتقدا أنه أكثر ملاءمة لمركزيهما ، ومقام الكونت بدرجة خاصة .

أقلتهما العربة إلى قصر يلدز ، مقر إقامة السلطان عبد الحميد الخاص ، المبني قبل قرابة عقد من السنوات ويعادل الآن أي شيء يمكن للملكية الغربية في أوروبا أن تتفاخر به . تواجد حلمي باشا هناك لتحيتهما عند الوصول ، وعرض عليهما جولة فورية في مصنع البورسلان الامبراطوري المفتتح حديثاً ، الأمر الذي رفضاه ، بأدب .

قاد حلمي باشا الجمع إلى شرفة مرتفعة في الحديقة ، بدون شعور بالإهانة لرفضهما ، حيث استمتعا بمشهد رائع لمتنزه يلدز ، وحيث سوف يقابلهما السلطان عما قريب . عند هذه النقطة ، غادرهما الباشا وقدَّم أحد الخدم الشاي ، الذي قبله كلاهما . لم يتعرف أي منهما على الحمال الذي كان موجوداً في محطة الشرق قبل مجرد ليلتين .

جلسا وانتظرا .

في وقت لاحق ، وبعد أن بلغت الشمس سمتها وبدأت انحدارها الغربي البطيء باتجاه المساء ، بدأ نيولينسكي يذرع الأرضية ، بينما انضم إليه هيرتزل على فترات قبل أن يعاود الجلوس .

كان نادلهما المتواجد دوماً ، خدوماً جداً .

«شاي يا سيداي؟» .

قال هيرتزل «لا ، أرجوك ، إنني أتسبب في اهتراء السجادة» .

نظر إليه النادل بتعبير مفعم بالحيرة ، وقد أمال رأسه إلى اليسار قليلاً .

تنهد هيرتزل ونظر إلى نيولينسكي الذي كان يطفئ سيجاراً آخر في منفضة ممتلئة .

تمتم هيرتزل «إنه يعرف كلمتين . شاي وسيداي» .

ظهر حلمي باشا فجأة من مكان لم يلحظاه ووقف أمامهما .

«ألف اعتذار ، أيها السيدان» قال ذلك وانحنى بعمق إلى درجة لو أن الزائرين تمكنا من مقارنة الانحناءة بما يفعله مع السلطان ، لأدركا السخرية على الفور .

كان هيرتزل أول من أجاب .

«مع كل الاحترام الواجب ، لقد كان لقاؤنا مع السلطان قبل أربع ساعات» .

عاد حلمي باشا إلى الوقوف منتصباً

قال مهدئاً «شؤون الدولة ، انتما تتفهمان ذلك طبعاً» .

«هل سنجري المقابلة هنا؟» .

«نعم ، رجاء اجلس . سوف نبدأ على الفور» .

قال نيولينسكي مجفلاً «ألا ننتظر قدوم صاحب الجلالة؟» .

جاء صوت حلمي باشا مهدئاً «أخشى أنه متوعك في هذه اللحظة» وجلس على كرسي قدَّمه له النادل .

قفز هيرتزل واقفاً من حيث جلس قبل مجرد لحظة .

«هذا أمر لا يصدق . أولاً نحن نسافر لثلاثة أيام حتى نصل إلى هنا . ثم نتعرق في فندق تعيس بدون مراحيض وحمامات . . . . .» .

بقي حلمي باشا جالساً ولم يظهر عليه ما يشي بالابتسامة سوى زاويتي شاربه .

«بكل الاحترام الواجب يا سيد هيرتزل ، لقد قضيت بعض الوقت في ڤيينا خاصتكم ، ومع أن فندق «لينزرتورته» جيد إلى حد ما ، إلا أن غرفكم الخارجية . . . فلنقل . . . ليس فيها ما يسر؟» .

عند هذا القول ، انفتح فم نيولينسكي من الدهشة ، وحتى هيرتزل الذي لم يتحدر من أصول راقية ، فوجئ إلى درجة ما .

قال «نعم ، حسناً . . . اسمع هنا ، هل سنقابل السلطان أم لا؟ لدي خيارات أخرى كما تعلم» .

احتفظ وجه حلمي باشا بالسكينة والتعاطف .

نعم . *لقد سمعت بهذه «الخيارات الأخرى» كان الاسم الذي ذكر لي من بل صلاتي البريطانية قبل وقت قصير هو أوغندا . يمكنني أن أتخيل صديقك الكونت نيولينسكي يؤسس بارونية على سهل السافانا . لا شك في أن السيد روثتشايلد سوف يستمتع بإقامة مقر* ومباشرة *منح القروض للقبائل مقابل جلود الحيوانات وعظامها . . . . . حاول مرة أخرى سيد هيرتزل .*

«مع أعمق الاحترام لسيد محترم تتشارك ديانته في العديد من الأنبياء مع ديني ، فأنا أشك في ذلك . لو كانت لديك خيارات أخرى ، فلماذا قمت ليس بمحاولة واحدة ولا اثنتين ، بل ثلاث

محاولات لكسب مقابلة مع السلطان؟ نحن ، كما صاغها البريطانيون ، اللعبة الوحيدة في البلدة» .

خطا نيولينسكي إلى الأمام

«وكذلك نحن بالنسبة للسلطان ، الذي يرزح تحت ضغط متزايد للحفاظ على امبراطورية يحتمل أن تصبح قريباً مقاطعة تابعة للقيصر الروسي» .

صحيح *إلى* حد بعيد

«ولذلك السبب يا سيديّ الطيبين ، انتدبني السلطان لأجتمع معكما وأتفاوض على اتفاقية مفيدة للطرفين» .

انتصب ظهر نيولينسكي ، واستعد للتعارك ، لكنه نظر إلى زميله وأشار له بيده بخفة . انسحب الاثنان إلى الجهة البعيدة من الشرفة وتحادثا بهمسات خفيضة للحظة ، ثم عاد هيرتزل .

«حسناً جداً . إليك ما نقترحه» .

في وقت لاحق ، أطلع حلمي باشا السلطان وأفهمه ما قاله الزائران ، على ظهر اليخت الملكي المبحر في البسفور .

«إنني أنصحك بقبول عرضهما . سوف يخلِّص الامبراطورية من ديونها ويوفر وصلات سكة حديدية حيوية لإحضار الجنود إلى الجبهتين الشرقية والغربية لمقاتلة الروس وعملائهم» .

ظل السلطان على رفضه

«لا أستطيع أن أفعلها» .

أخرج حلمي باشا زفرة طويلة ونظر إلى سطح اليخت .

سأل بهدوء «ولكن ما هو الخيار المتاح لنا؟ حتى جلالتكم ترون أننا سوف نستسلم ونخضع لأعباء ديوننا كما فعلت كل من مصر وتونس» .

نفض السلطان رأسه «لن يحدث ذلك . اسمع ، لقد قمت مسبقاً

بخفض ديننا الخارجي بثلاثة وعشرين مليار قرش إلى اثني عشر مليار قرش» .

لم يستطع حلمي باشا أن ينكر الخطوات التي حققها السلطان في هذه الميادين ، لكن الأرقام يمكن استخدامها لإثبات أي شيء .

إن السودان أرض تكاد تكون بلا نهاية ، ولكن ما هي الفائدة من قياس صحراء قاحلة؟ .

استمر السلطان :

«لقد فاوضت على تنزيل دفعات فوائدنا إلى ما دون العشرين بالمئة من ميزانيتنا» .

لعن حلمي باشا قدره القاضي بأن يقول ما تدعو إليه الحاجة في تلك اللحظة .

«نعم ، ولكن«ثم جاءت الكلمة الفاصلة «بالمقابل ، تخلينا عن كل مواردنا من التبغ والكحول والحرير والملح ، ورسوم الوثائق والجزية من بلغاريا والجبل الأسود وقبرص واليونان» .

سامحني يا مولاي ، ولكنني يجب أن أتابع .

«والأسوأ من ذلك ، أجبرنا على تشكيل لجنة الدين العام المؤلفة من ممثلين أوروبيين بالإضافة إلى مندوبينا العثمانيين» .

هزَّ السلطان رأسه واستدار ليضع يديه بخفة على الحاجز . نظر إلى المدينة وهي تمر به ، كما يفعل دائماً عندما تثقل عليه شؤون الدولة . على المدى ، تمدد قصر دولما باهتشه مثل لؤلؤة مسطحة براقة على الساحل ، وقد بدت صفوف أعمدته مثل جنود في وقفة تهيؤ ، بيضاء نقية تستريح على زرقة المياه الرائعة .

«يدعو القيصر الروسي إلى (عبر - السلافية) وهي خطة تهدف إلى توحيد كل الأمم السلافية . وقد ردت ألمانيا بعبر - الألمانية . ينبغي

علينا أن نقاوم هذه الحركات، إذا كان مقدراً للامبراطورية العثمانية، وفي الواقع، للمسلمين في كل الدنيا أن يستمروا في الحياة».

سأل حلمي باشا ببساطة «ولكن كيف؟ بدون مساعدة مالية؟»

ومع ذلك، بقي السلطان يراقب المدينة وهي تمر به.

«أنا لا أقلق على ذلك الموضوع. إنني أتبع سيدنا محمداً، نبينا النبيل. قدري هو أن أكون قائد الإسلام وخادم مدن الاسلام المقدسة الثلاث، مكة والمدينة والقدس: لقد ائتمنني الله سبحانه وتعالى بحماية أمته. لذلك، فإن غايتي التي أقسمت عليها كقائد لهم هي أن أعيد الخلافة».

بقدر ما كان يرغب في رؤية الحلم يتحقق، عودة إلى الخلافة الحقيقية، تماماً كما كانت في زمن الأمويين، إلا أن حلمي باشا كرجل عسكري، لم يستطع أن يمنع عقله من التفكير في الحقائق الواقعية التي يعرف أنها تقف في الطريق. على أية حال، كان السلطان ما يزال غارقاً في حلمه.

«دولة إسلامية نقية تمتد عبر خطوط الطول وخطوط العرض، كما كانت قبل مجرد ثلاثمئة سنة تحت قيادة سليمان العظيم....»

استدار السلطان وبدأ يسير قاصداً حلمي باشا، بسرعة أذهلت الباشا الذي انحنى بحدة ليفسح الطريق لمليكه.

كانت هناك كرة أرضية مذهبة مرفوعة على حامل في وسط اليخت. وقف السلطان إزاءها في هذه اللحظة، ولاحق أصبعه الخط من جبال كوش حتى بلاد البلقان، نزولاً إلى مصر، عبر الصحراء الليبية إلى تونس ومراكش صعوداً حتى اسبانيا.

«أربعة ملايين وأربعة وثلاثون ألفاً وسبعمئة وستة وستون ميلاً مربعاً لتوخي الدقة».

استدار نحو مستشاره وحدق في عينيه بحدة . لم يكن حلمي باشا لينسى تلك النظرة . فقد شاهد فيها الماضي ، حلم الامبراطورية العالمية ، إرث الرومان والخلفاء الأوائل ، كل ذلك تجسد في نظرة رجل واحد يحملها على كتفيه .

تحدث الرجل في هذه اللحظة .

«إن أخذنا لأموالهم سيكون خيانة للإسلام» .

حملت هذه الكلمات صبغة قاطعة ومع ذلك ، مع ذلك . . . .

أصبح حلمي باشا مضطراً للمضي قدماً في الضغط . . . . بقدر ما كان يريد أن يضيع نفسه في حلم السلطان . . . . .

«لكن» تلك الكلمة مرة أخرى «لكن منحك الصك للصهاينة ليستقروا في فلسطين لا يكلفك أي شيء ولا يلزمك بشيء . إنها مجرد قطعة من الورق» .

أدرك حلمي باشا الآن أنه الرجل الذي ساقه القدر لينطق بمثل هذه الكلمات الكافرة ، وقبل بقدره .

جاء جواب السلطان واضحاً غير ملتبس .

«ربما يقول البعض ذلك عن قرآننا المجيد . لكن لقطع الأوراق معاني أبعد بكثير مما هو مطبوع على الصفحات . الجواب هو لا» .

الفصل الخامس
جنوب شرق إنجلترا

إن اكسفورد جميلة حقاً في هذا الوقت من السنة .

وقف كل من جاسكوين - سيسيل وابن شقيقته في وضع التهيؤ بينما استمر الرجل الجالس خلف المكتب يتكلم مطولاً . كانا يتمتمان ويهزان رأسيهما ، واضعين يديهما خلف ظهريهما موافقين كلما اعتقدا أن ذلك من باب اللياقة والأدب .

طبيعي أن اليخت الملكي قادر على بضع عقد أخرى أكثر من هذه ، لكن لابد وأن الربابنة لديهم عادة هي التمهل هذه الأيام : أشك في أنها تقدِّر السرعة في هذا الوقت من حياتها . كم يبلغ عمرها مرة أخرى؟ ستة وسبعون؟ سبعة وسبعون؟ رباه ، تخيلوا أن ويلينجتون كان موجوداً عندما صعدت إلى العرش . . . . كان بدوره في طريقه إلى الخروج في تلك المرحلة . . . . .

أخرج بلفور صوتاً من حلقه بدا وكأنه يحاول أن يفتح انسداداً أو يلفظ كلمة من لغة إفريقية ما ، الأمر الذي فسره جاسكوين - سيسيل على أنه يتفق مع ما كان يقال . هزَّ رأسه بقوة للمحافظة على المظاهر ، لكن الواقع هو أنه لم تكن لديه فكرة عما يوافق عليه . ومع ذلك ، استمر الرجل .

نعم ، هذه البارجة القديمة ، أقصد اليخت طبعاً ، قادرة على إثارة بضع موجات في هذا الريف لو أرادت . «البرتا» يخت صاحبة الجلالة

البرتا . طبيعي أن تسمى البرتا . لقد مضت ثلاثون سنة أو أكثر على موت الرجل . ومازال شبحه يترصدنا . رجل قدير ، لكنه كان مستبداً بطريقته الجرمانية تلك ، والتي يقدرون عليها هم . أصر على إحضار شجرة إلى داخل القصر لمناسبة عيد الميلاد ، والآن أصبح الجميع مجبراً على القيام بذلك . . . . أنت لا يمكنك أن تلومه على المبادرة بالتقليعة . آلبرت أمير ساكس - كوبورغ جوثا . الأمير الزوج للملكة ڤيكتوريا . . . وما الذي فعله هذا الموجود هنا ليقلد رجلاً مثل ذاك؟

رفع رئيس الوزراء عينيه للحظة باتجاه أمير ويلز ، الذي ما زال تائهاً في قوة صوته .

يا إلهي . . . . وكم بلغ عمره الآن؟ هل انتظر أي رجل أكثر منه حتى يجلس على العرش؟ يذكرني بقراءة التواريخ القديمة في المدرسة عن تيبيريوس الذي انتظر وصمد أكثر من الجميع حتى يستولي على السلطة من اوغسطوس .

كان أمير ويلز رجلاً ضخم الجثة ، ولكن ليس على طريقة قيصر روسيا ، لكونه مدوراً وعريضاً بشكل رئيس بدلاً من امتلاك هيكل ضخم تحديداً . رفع أصبعه الآن ليؤكد على نقطة ما ، ولكنه بدا وكأنه يحاول أن يقيس اتجاه الريح بدلاً من ذلك .

آه ، يا لها من حياة ، أن تكون تحت رحمة توبيخ امرأة ، وأمه نفسها في هذه الحالة . لا حظ . لا بد وأنه يبدو مثل خيبة أمل . لقد أسس والده الأسلوب الذي نحتفل فيه بمولود الرب : واكتفى الإبن بتأسيس تقليعة عدد من الأزرار التي نقفلها في صداراتنا . وذلك هو نتيجة إتخام نفسه بدرجة زائدة على العشاء . يمكنك أن تعرف أنه يريد بدرجة كبيرة أن يدخن هنا أيضاً ، لكنه لا يجرؤ على ذلك بينما هي ما زالت حية . لا يخفى شيء على الملكة .

المؤكد أن جاسكوين - سيسيل يتمتع بشية كبيرة ، لكنه يعرف أكثر من غيره أن هناك أصولاً معينة للتصرف عندما يكون الشخص موضع مراقبة من قبل الدنيا ، والأهم من ذلك ، الناخبين .

ومع ذلك ، *أفترض أن الملك ، أو على الأقل الرجل الذي سيصبح ملكاً ، ليس مضطراً إلى القلق حول ذلك . الملك ادوارد السابع . للاسم رنة جميلة ، إذا حدثت على الإطلاق ، ولكن حتى ذلك الحين سيظل ببساطة بيرتي ولي العهد .*

«أيها السادة ، يجب أن لا يتم اتهامنا بهذه القضية تحت أية ظروف ، مهما كانت . أرجو أن يكون ذلك واضحاً بدرجة مطلقة» . وهكذا قدم الأمير عبارته الأخيرة .

تنحنح بلفور بشكل مفاجئ جداً مرة أخرى وأحنى رأسه بلباقة .

«نعم يا صاحب السمو» قالها وكأنه يخاطب جنرالاً في الميدان .

تبعه جاسكوين - سيسيل بسرعة وانحنى بدوره .

خرج كلاهما ببطء من الغرفة متراجعين .

بمجرد خروجهم من الصالة ، نهض الشباب الأربعة الجالسين على المقعد الطويل ووقفوا بهيئة استعداد ، ما تسبب في انكماش جاسكوين - سيسيل قليلاً من المفاجأة . استعاد السيطرة على نفسه بسرعة ، ونظر إلى ابن شقيقته محبطاً ، لكن بلفور اكتفى بالرد عليه بابتسامة ، بينما هو يدوّر العصا الحاضرة دوماً داخل قبضته .

«لقد منحت الملكة موافقتها ، وأوضح الأمير أنها ترغب في أن نباشر» قال جاسكوين - سيسيل بعد أن استعاد رباطة جأشه .

قال بلفور مستمراً في رسم ابتسامة عريضة «إن عملية بوني قائمة ، أيها السادة» .

إنه يستمتع بهذا .

أدار جاسكوين - سيسيل نظره في الرجال .

«لا اعـرف اسم أي منهـم أو من يكـونون على الإطلاق قـالـوا «إنه سر» . لرئيس الوزراء!

«إنهم من الشعبة الخاصة» هو كل ما قيل لي . إضافة إلى «شباب طيبون أشقياء» طبعاً . لا أعرف ما هو سبب كل هذه الضجة : ألم يتم تنظيم هؤلاء الفتية للقبض على بضعة فنيين وأصابع ديناميتهم؟ ومع ذلك ، يبدون مثل رباعي صلب . لا بد وأنهم لعبوا الكثير من الرجبي وأكلوا لحم البقر . لا تستطيع هذه البذلات المتناسقة أن تخفي الكثير .

تكلم الأول بين أفراد الشرطة السرية

«أيها السادة ، هل قامت الملكة ، إحم ، هل قمتم باختيار . . . . . حسناً ، أقصد ، الشباب متحمسون لأن يكونوا هم الذين اختيروا» .

بعدها ، تكلم الثاني في الترتيب ، وكأنهم تدربوا على الوضع

«لقد شهد جميعنا عمليات خلف خطوط الأعداء» .

همـمـم . . . . . لم ينتـسب أي من هؤلاء الفـتـيـة إلى جـامـعـة إيتون . . . . لا بد وأنهم كانوا على بضع درجات أسفل السلم . . . . رغم ذلك يحسنون الكلام طبعاً . . . . لكن يمكنك أن تكتشف دائماً عندما يقوم الشخص ببذل أقصى جهوده .

جاء الآن دور الثالث

«سيد التخفي»

ثم الرابع

طليق في اللغتين التركية والعربية . حتى أنني أبدو مثلهم» .

إنه يبدو مثلهم فعلاً . فقط أنظر إلى ذلك اللون والشارب الكثيف . ما كنت لأفكر مرتين لو أنه حاول أن يبيعني سجادة ما» .

كـان العـمـيل الأخـيـر الآن يفـتـل شـاربه مـثل مـجـرم إيمائي من

مسرحية الأربعين حرامي ، وضحك الجميع .

«ها! جيد جداً» قال بلفور «لكن جلالتها ستفضل أن لا يقدم أي من رعاياها ، كيف أصوغها ، على توسيخ يديه أو حتى قفازيه في هذه العملية» .

حان دور العميل للتكلم مرة أخرى .

قال رافعاً صوته قليلاً «ولكننا لا نستطيع أن نثق بالفرنسيين» .

احذر الآن ، وإلا فقدت تلك اللكنة الاكسفوردية التي عملت جاهداً على إتقانها عندما قدمت من مصب النهر . . . . أو من مكان ما حول تلك الأماكن بلا شك .

لم ينزعج بلفور أو يهتم .

«أيها الفتية ، لقد أثار الأتراك غضب الكثير من الناس بموضوع الخلافة هذا» .

وليس أقلهم غضباً المسلمون الهنود . ما الذي كان يفكر فيه؟ أننا سنسمح له بإثارة غضبهم ولا نفعل شيئاً ازاء الموضوع؟» .

أخرج بلفور خارطة كبيرة أفردها على طاولة غداء السطح وثبتها من طرفيها بحاويتي توابل فضيتين .

قال مشيراً بطرف عصاه إلى شرق الامبراطورية العثمانية «إن المجموعة الرئيسة من هؤلاء هم المساكين الأرمن . لقد ذبح منهم الآلاف . وهم يضمرون الانتقام في عقولهم ، ماذا؟» .

أحسَّ العميل البريطاني الثاني ، والذي ازدحم حول الطاولة الآن مع الآخرين ، أن دوره قد أزف وهو يحدق في الخارطة .

«حسناً ، لقد أعطوا بقدر ما أخذوا ، أليس كذلك؟» .

نظر إليه بلفور بحدة لثانية ، قبل أن يعود ليصبح ممتلئاً بالود مرة أخرى .

«نعم، لقد سحبوا أكثر من بضع قطرات من الدم التركي. لكنهم بطريقة ما يتمتعون بالرأي العالمي العام إلى جانبهم، وذلك هو ما شجعهم».

وهكذا *تماماً* نحن نريدهم *يا ولدي*.

تحدث جاسكوين - سيسيل

«ونحن نعتقد أن أحد أبنائهم سيحقق لنا المراد تماماً».

قاطع العميل الأول

«وكيف نعثر على الشخص الملائم إذاً؟».

«ستكون مهمتكم الانتشار عبر أوروبا» «قال جاسكوين - سيسيل»

سأل الرجل مرة أخرى «أوروبا؟».

أطلق بلفور زفرة وبدأ يشرح

«الاحتمال الأكبر هو أن لا نتمكن من التسلل إلى داخل أرمينيا بسهولة. الوضع شديد السخونة هناك حالياً».

قال جاسكوين - سيسيل بطريقة متعمدة «على أية حال لقد استقر العديد من اللاجئين في أوروبا، وهم جنود سابقون».

أكمل ابن شقيقته «وجواسيس. أكسبتهم المعارك صلابة، ويحملون الكثير من الحقد».

إن أصطحاب هذا الشاب في مثل هذه الأعمال ضرب من الفطنة.

أشار بلفور إلى سكرتيره الذي كان واقفاً على مسافة متحفظة، وحضر الرجل ليضع محفظة ثقيلة في يده الممدودة. وزنها بلفور موافقاً.

أحنى خاله رأسه «لديكم اتصالاتكم من صراعات البلقان.

استخدموها لتغطية الجزر البريطانية وهولندا، اختاروا خمسة من هؤلاء الرجال، واقنعوهم بالحضور إلى لندن».

أكمل بلفور «إن الفرنسيين يفعلون الشيء نفسه في بلادهم وبلجيكا واللوكسمبورغ واسبانيا وشمال افريقيا».

أصبح جاسكوين - سيسيل حريصاً على انهاء هذا الموضوع والعودة إلى الاستمتاع برحلة اليخت.

«سيغطي الروس صربيا والجبل الأسود وبلغاريا، البلدان الأرثوذكسية. فهم لديهم بعض النفوذ لأن معظم الأرمن يتكلمون الروسية».

صاح العميل الأخير فجأة، وبطريقة غير متوقعة «يا غوفوريو يا - روسكي!».

حدق فيه كل من رئيس الوزراء وبلفور، وقد فغر جاسكوين - سيسيل فمه. بينما سيطر بلفور على نفسه.

«نعم، تماماً. ولكن دعونا نترك ذلك الجزء من العالم للروسكي. بمجرد أن يحضر الفرنسيون خمستهم وكذلك يفعل الايڤانيون، سنضيف الخماسي الخاص بنا ونسهل لهم القدوم إلى هنا. سوف نقوم بالاختيار النهائي مبنياً على المهارة والشجاعة والعزم».

هزَّ جاسكوين - سيسيل رأسه موافقاً.

ذلك هو فتاي.

***

بينما كان البريطانيون يصممون خطتهم باسترخاء على نهر التيمز، كان نيكولاي كيرس، رئيس وزراء الامبراطورية الروسية، والمعين شخصياً من قبل القيصر، يرحب بالشخص الأعلى رتبة لديه في مكتبه بالكرملين.

«حسناً يا روستوف ، سيكون التخلص من عبد الحميد من أفضل مصالحنا . ولكن إبقاء البريطانيين والفرنسيين خارج دائرة نفوذنا هو بنفس الأهمية» .

جلس روستوف مستقيم الظهر بدرجة حادة في كرسيه مواجهاً لرئيس الوزراء .

لم يكن رجلاً ضخم الجثة أو صغيرها ، لكنه يشع بهالة من القوة تفرض الاحترام والمجاملة له حيثما ذهب . وقد زار روستوف أماكن عديدة في إطار خدمته للقيصر الروسي . وجهه المحلوق بعناية نحيل ولا يحمل أية سمات عدوانية ، لكن عينيه الزرقاوين في برودة الجليد وقادرتين على الاختراق إذا أراد لهما ذلك . كثيراً ما وجد كيرس صعوبة في وصف روستوف للآخرين في مجلس القيصر ، الأمر الذي يرى فيه كما يفترض صفة لجاسوس استثنائي .

تكلم روستوف بهدوء

«ماذا عن إحضار الأرمن إلى لندن للانتقاء؟» .

نفض كيرس كتفيه ورفع يديه ، عارضاً كفيه .

قال «ماذا لو حدث وتوفي السلطان قبلاً؟» .

لم ترمش عينا روستوف ، ولا هو أزاح عينيه عن رئيس الوزراء للحظة . ثم نفض بدوره كتفيه بأسلوب سلافي ونهض ليغادر المكتب .

بعد ثلاثة أيام ، كان يتمشى وسط غابة في الريف البوسني . استبدلت البذلة الرسمية التي ارتداها لدى مقابلته لرئيس الوزراء بلباس صياد بسيط وقبعة فلاح مسطحة . سار بصمت عبر الغابة وتوقف عندما شاهد ما جاء لأجله . على مسافة مئة ياردة أمامه ، جلس رجل مترصد بعناية وسط الأعشاب والشجيرات ، رافعاً سلاحه

عالياً والماسورة موجهة إلى الأعلى . اتكأ روستوف إلى شجرة وأخذ يراقب ، لكن لم يصدر أي صوت . استطاع أن يرى الوعل وقد دس أنفه بين الشجيرات إلى يساره ، على بعد مئة ياردة أخرى أمام الرجل . بدأ يسلي نفسه باحتساب المسافة بين الوعل وموقعه مستخدماً نظرية بيثاغوروس .

بينما كان روستوف مستغرقاً في حساباته ، رفع الرجل البندقية إلى كتفه في حركة سلسة واحدة ، احتاج إلى لحظة قصيرة ليسدد ثم أطلق النار . انهارت ركبتا الوعل الأماميتان خلال الوقت الذي انتقلت فيه عينا روستوف من طرف ماسورة السلاح إلى المكان الذي أصيب فيه الوعل . ابتسم روستوف ونصب قامته .

قال «خوروشو يا كيڤوركيان» .

استدار كيڤوركيان بسرعة واستقرت فوهة البندقية على الروسي . ابتسم روستوف ونفض كتفيه .

«نيي ، نادا . أنا لست عدوك» .

رفع روستوف يده اليمنى بمنتهى البطء ، وهو يحمل فيها صورة السلطان عبد الحميد الثاني .

«هذا عدوك» .

لم يتحرك كيڤوركيان . ثم انخفضت البندقية ببطء مرة أخرى ونظر بعناية إلى الرجل الماثل أمامه .

امتلك روستوف مقدرة طيبة على قراءة نفسيات الناس ، وظن أنه شاهد مجرد بصيص صغير لابتسامة على وجه الصياد .

«إنني أتذكرك من حملة القرم يا روستوف»

«نعم ، لقد اعتقدت أنه يحتمل أن تتذكرني . هل لي أن أثير اهتمامك في عرض ما؟» .

«يحتمل» .

علق كيڤوركيان البندقية على كتفه واتجه نحو ضحيته .

قال روستوف «لدي عربة تنتظر» .

«وأنا لدي وعل ينتظر . ساعدني في سلخه وسنتحدث أثناء العشاء» .

وقف كيڤوركيان فوق الجثة في هذه اللحظة وأخرج من حزامه سكين صيد شريرة الشكل . نفض روستوف كتفيه وهو يراقب ثم مد يده إلى حذائه الطويل الرقبة وأخرج منه شفرة مساوية في الخطورة . مشى نحوها ليشارك في الوليمة .

الفصل السادس
اسكتلندا

في وقت لاحق من تلك الليلة وعلى الجانب الآخر من أوروبا ، جلس عميلا بلفور الأوليان يحتسيان الجعة في حانة مزدحمة في أبردين . جلسا جنباً إلى جنب وقد أدارا ظهريهما إلى الجدار ، داخل الباب الأمامي مباشرة ، حيث يمكنهما رؤية كل شخص يدخل وكل شيء يحدث بمجرد حدوثه . كانت البذلتان اللتان لاحظهما جاسكوين - سيسيل على اليخت البيرتا أكثر بروزاً في غرفة ملأى بالعمال والبحارة ، لكن أحداً في المشرب لم يعرهما أي اهتمام في هذا الوقت . بدلاً من ذلك ، تجمع كل رواد الحانة في الجهة البعيدة من البار حول لوحة السهام .

ألقى رجل بلحية سوداء مشعثة إلى درجة أنها سرعان ما ستغطي كل وجهه ، ورقة نقد من فئة العشرة جنيهات بقوة فوق كومة من الأوراق الأخرى على البار من ذراع حداد ضخمة خشنة . وضع رجل آخر ، مشابه في البنية واللحية ، ولا تختلف عن الأولى إلا في أن ما تعلق بوجهه أحمر ملتهب ، ورقة عشرة جنيهات أخرى فوق الكومة .

صاح الرجل الأول هادراً «دعنا نراك ترمي سهمك حيث توجد خصيتاك!»

نظر العميل الأول إلى زميله مستفسراً ، لكن الرجل الثاني هزَّ رأسه مجيباً .

في هذه الآونة ، رفع الرجل ذو اللحية السوداء أكمام قميصه

ونفض ذراعيه إلى الأمام والخلف قليلاً ، كأنه يرخي عضلاته استعداداً لركض مئة ياردة . ثم قال بلكنة إنجليزية ثقيلة «أراهن بعشرة جنيهات أخرى أنني أستطيع أن أصيب الدائرة الوسطى «عين الثور» وأنا معصوب العينين» .

لم يبدُ على الاسكتلندي أنه من الرجال الذين يتراجعون عن رهان ، وهدر مرة أخرى موافقاً .

«قبلت تحديك!» .

فهم العميل الأول ذلك على أنه إشارة موافقة وراقب باهتمام بينما بدأ السكارى المحليون يسحبون النقود من جيوبهم ليراهنوا لصالح الأسكتلندي والذي من الواضح أنه شخص مفضل محلياً .

تقدمت الساقية ، وهي فتاة ذات قوام مذهل ، والتي غامر العميل الأول ووصفها بذات «الصدر العارم» في وقت أبكر من الأمسية ، ودخلت في الحشد ثم فكت وشاحاً من حول جذعها . مشت بدلال وإغراء إلى خلف الأسكتلندي وربطته بحزم حول عينيه ، ثم دارت بحيث أصبحت أمامه مرة أخرى . استدارت نحو الرجال على يسارها بابتسامة مدركة وغمزت ثم أنزلت مقدم قميصها لجزء من الثانية . حرك الأسكتلندي رأسه باتجاه الصيحات التي تلت ، لكنه بات واضحاً أنه ليست لديه فكرة عما حرم منه . تناولت الساقية يده بعد أن اطمأنت إلى عدم رؤيته شيئاً وأدارته نحو الخط المواجه للوحة السهام .

أمسكت كتفيه بلطف وادارته ثلاث مرات قبل أن توقفه بمواجهة اللوحة مرة أخرى . ثم سارعت إلى التنحي وربتت بخفة على كتف الأسكتلندي من خلفه لتعلمه أنه بإمكانه أن يطلق السهم .

استند بقامته ورفع يده إلى الخلف ثم ترك السهم ينطلق مستقيماً إلى الأمام .

خيل للحشد للحظة أن السهم متوجه إلى دائرة الوسط حتى أصبح على مسافة قدم ونصف من هدفه ، ثم بدأ ينخفض واستقر في النهاية في الحلقة الواقعة أسفل هدفه مباشرة .

انخفضت الكؤوس الزجاجية والمعدنية التي كانت بطريقها إلى الارتفاع باحتفالية ، وندت عن الجمع صرخة «آووو» جماعية .

فكّر العميل رقم واحد في كيف أنَّ حتى أصوات الحروف البسيطة لها رنة كاليدونية مميزة في هذا الجزء من الدنيا ، بينما قام الأسكتلندي بنزع الوشاح ليتفحص نتيجته .

جاءت خيبة أمله واضحة ، لكن منافسه بدا عليه المرح العارم بحيث بدأت لحيته ترتجف بدرجة ملحوظة .

قال بإنجليزيته المفعمة باللكنة «لتجعل هذا الأمر أكثر إثارة للاهتمام» وألقى بعشرة جنيهات أخرى فوق الكومة الضخمة الموجودة سلفاً . استدار نحو الساقية وغمزها .

«اربطي يديَّ خلف ظهري» .

فجأة ، ارتفعت الأكواب مرة أخرى ، وتدافع الحشد إلى الأمام لوضع المزيد من النقود . بحلول هذا الوقت ، عاد الأسكتلندي إلى السيطرة على نفسه واندفع بدوره إلى الأمام .

«لنتأكد من عدم وجود أي تلاعب هنا» .

حل عقدة حزامه ، وهو منظر كان يمكن أن يسبب الهلع لأولئك الذين يدخلون الحانة لتوهم ، وسحبه عن بنطاله ، متجاهلاً التصفيرات الذئبية والتحذيرات لأن يحتفظ بسراويله الداخلية مرفوعة . خطا نحو الأجنبي ، أداره حول نفسه وربط يدي الرجل إلى بعضهما بخشونه بالجلد القاسي . استدار الأجنبي الذي لم يبد عليه أدنى حد من الانزعاج ، نحو الساقية

«قبليني» .

اطلقت باتجاهه رداً سريعاً «لن أفعل شيئاً كهذا» .

قال الرجل محاولاً الشرح «بواسطة السهم» .

«قطعاً لا» .

«سيكون نصيبك عشرين جنيهاً إذا أنا أخفقت . وإذا أصبت . . . . .» .

لم يكن بحاجة إلى قول المزيد

ابتسمت الساقية ووضعت السهم في فمها من الناحية المدببة .

قال الرجل «حاذري من إيذاء لسانك الجميل هذا» .

ران على الحشد الصمت بينما وقفت على رؤوس أصابعها وأدخلت السهم في فم الرجل بواسطة فمها . تناولت الوشاح من الأسكتلندي وربطته فوق عيني الرجل الثاني كما فعلت سابقاً ، ثم قادته إلى الأمام باتجاه اللوحة واضعة يدها على كتفه ، عندما همت بتدويره ، هجم الأسكتلندي وأمسك خصمه من كتفيه بقوة ثم رفعه وأداره بعنف عدة مرات ، متوقفاً عندما أصبح الرجل بمواجهة اللوحة . تراجع الأسكتلندي مبتسماً بغرور ، وعقد ذراعيه فوق صدره ، مستعداً ليراقب .

بدا وكأن الأجنبي يتعرف إلى محيطه بطريقة ما ، وارتفع أنفه كما لو كان يشم الهواء . استدار ببطء مثل إبرة بوصلة أوبارومتر ، يقيس الجو المحيط به حتى توقف في الرقعة الملائمة .

وقف بمواجهة اللوحة وسحب نفساً هائلاً من خلال أنفه ثم بصق السهم خارجاً . طار عبر الغرفة وزرع نفسه مباشرة في الدائرة الوسطى (عين الثور) .

انفجر الحشد على الفور في زمجرة خائبة أخرى ، جاءت هذه المرة

مفعمة بعدم التصديق لما شاهدوه لتوهم . بدأوا يخرجون تباعاً وهم يشعرون بالكآبة ، والأهم لكونهم أفلسوا ، مارين بالعميلين نحو الليل المرير . كان الأسكتلندي صاحب اللحية النارية آخر من غادر ، ناسياً حزامه وسط أفضل محاولات أصدقائه لبث المرح في قلبه .

في الأثناء ، أزالت الساقية العصابة عن عيني الأجنبي وطبعت على شفتيه قبلة حارة ، وهي تسحبه نحوها بإحكام . بينما بقيت يداه مقيدتين خلف ظهره . اقترب العميلان .

«إحم» قال العميل الأول وهو يتنحنح «اعذريني» .

ابتعدت الساقية عن الرجل وسارعت إلى حل يديه ، محدقة في الرجلين بنظرة فاحصة .

«لقد كنت أتساءل عن متى ستقدمان نفسيكما . أعتقد أنكما من الشعبة الخاصة لصاحب الجلالة» .

قال العميل الثاني «الأمر واضح إلى حد ما ، أليس كذلك؟» .

قال الرجل ببساطة «لم تشربا كمية كافية» وهو يفرك معصميه بعد أن تحررت يداه .

قال العميل الأول «يا سيد ڤارتنيان ، لدينا مقترح لك» .

صفع ڤارتنيان الساقية على قفاها أثناء مرورها حاملة مجموعة من الكؤوس . استدارت وابتسمت له .

استدار ڤارتنيان نحو العميلين «في الصباح أيها السادة» وجمع أرباحه عن البار .

في الليلة التالية ، وعبر القنال الإنجليزي في انتويرب ، جلس عميلان فرنسيان في اجتماع قليل الحضور للاتحاد الثوري الأرمني . لم يحاول أي منهما الاندماج ، خلافاً لزميليهما البريطانيين ، بل كان لباسهما المسائي وشعر وجهيهما المحلوق بعناية واضحاً مميزاً بين الأرمن

المشعثين ببشراتهم الأكثر سمرة . جلسا في منتصف القاعة الرياضية الصغيرة تماماً ، والتي جرى تحويلها لأجل لقاء المساء ، وتعرفا على الشخصيات المختلفة الجالسة حولهما ، يتشاورون ويدونون الملاحظات .

مرَّ بهما شاب وجلس في كرسي شاغر على الممر ، إلى جانب رجل ضخم الجثة ، أظهر ملاحظته لحضور الشاب بهزه من رأسه . تجاهل كلاهما العميلين الجالسين خلفهما وتحدثا بهمسات خفيضة بينما بقيت عيونهما مركزة على المتحدث الواقف على المنصة أمامهما .كان الرجل مندمجاً متحمساً ويأمل في إشعال حماس الحضور حتى يهتفوا له ، إن لم يتحركوا للعمل الفعلي المباشر .

كان يصرخ «في كل يوم يقتل الجنود العثمانيون إخوتنا وأخواتنا . في كل يوم يصبح أطفالنا أيتاماً . في كل يوم يتم تجميع رجالنا وإعدامهم بدون محاكمة . يجب أن يتوقف هذا!!» .

انطلق التصفيق وشارك فيه القادم الجديد ورفيقه . كان القادم الجديد مميزاً في هذا الحشد ، لأنه أفتح بشرة من الأرمن ، وكاد وجهه الملائكي يظهره وكأنه أصغر سناً قليلاً من التواجد هناك وحده . عندما هدأ التصفيق واستأنف المتحدث كلامه ، مال ليلاً نحو رفيقه .

«تلك المهمة التي أخبرتني عنها . في القسطنطينية» .

نظر الرجل الآخر لديه مندهشاً

«ماذا؟ استنبول؟ هل أنت مجنون يا إدوارد؟» .

حدج ادوارد جوريس صديقه بتحديق يمكن تصنيفه بالجنوني من قبل كثيرين ، لأنها نظرة متوثبة لحيوان بري يبحث عن مهرب .

قال ادوارد «لم يتم القبض عليَّ بعد يا انطوان . ثلاث قنابل . كلها مميتة» .

«تلك كانت أوروبا . إن تركيا مختلفة . تركيا هي . . . . تركيا» .

ظل إدوارد يحدق فيه بعينين حادتين .

«هل ما زلت قادراً على تأمين وظيفتي ، غطائي لدى شركة سنجر لماكينات الخياطة؟» .

«نعم ، أظن ذلك» . أصيب أنتون بالذعر في هذه الآونة .

نهض ادوارد واقفاً

«سأحزم ملابسي هذه الليلة واغادر إلى إستنبول صباحاً . أرسل لي برقية لدى القنصلية البلجيكية هناك» .

«انتظر . . . لا تتعجل الأمور . سوف أتصل بك لأبلغك خطة محددة . ربما تكون نافعاً قبل أن تصل إلى القسطنطينية» قال انتون ثم وجَّه انتباهه رجوعاً إلى المتحدث .

لم يكن جوريس سعيداً تماماً بذلك الجواب ، لكنه نهض وقال «تعرف أين تتصل بي» .

ثم انصرف خارجاً بطريقة متعمدة ، بينما استدار صديقه في كرسيه ليراقب انصرافه .

أشار أحد العميلين الفرنسيين إلى انتون ، لكنه لم يرمش بعينيه رغم مرور إدوارد جوريس العاصف من قربه .

قال «ذلك الشخص» .

هزَّ العميل الثاني رأسه موافقاً

«انتون ، نعم .» .

دوَّن العميل الأول ملاحظاته ثم أشار بقلمه إلى الرجل الواقف على المنصة

«وذلك الآخر؟» .

«كلا . لقد فرَّ ذاك من الجندية أثناء حملات البلقان» .

شخر العميل الثاني ساخراً وهزَّ رأسه

«يتحدث الجبناء دائماً عن الشجاعة بأعلى الأصوات ، أليس كذلك؟» .

«نعم» .

***

راقب ڤارتنيان النور وقد بدأ يظهر حول أطراف الستائر الرخيصة التي تغطي الشباك . رقد على ظهره واضعاً إحدى يديه خلف رأسه وأغمض عينيه .

كان الصوت الوحيد في الغرفة هو التنفس المنتظم للفتاة الراقدة إلى جانبه .

أراد أن يمد ذراعه ويحتضنها أثناء نومها المغرق في الأمان . جاء وقت كان يمكنه فيه عمل ذلك ، خاصة في مكان بارد مثل أسكتلندا . أوقفه شيء ما في هذه اللحظة : ربما كان شيئاً قد فقده ، لم يكن متأكداً .

لم يكن متأكداً متى تغير : مازال محتفظاً بقوته ، لكن كان هناك عنصر أكبر سناً في نفسيته الآن ، فقد ذهبت نفسه الأصغر سناً . أغلق عينيه وتنفس بعمق . عاد ڤارتنيان بذاكرته إلى الليلة التي بدأ فيها كل شيء في ساسون : لم يكن الأمر على تلك الدرجة من البعد ، ثلاث سنوات . . . أربع سنوات . . . بدت المدة أطول في هذه اللحظة .

بدأت الصرخات من الطرف السفلي البعيد في القرية . كان الجيش قادماً . تناول هو والشباب الآخرون بنادقهم وركضوا خارجين للدفاع عن بيوتهم ، لكن الأضواء في البعد أخبرتهم أن عدد الجنود كبير جداً . بدلاً من ذلك ، بدأ ڤارتنيان والآخرون يشكلون صفوفاً ويخرجون الصغار والنساء وكبار السن بمنتهى البطء نحو عتمة الأشجار ومن هناك نحو التلال . ظل يراقب الأضواء في المدى وهي تقترب أكثر

فأكثر أثناء انهماكه في إخراج الناس .

هدرت حوافر الخيل ، وفجأة بدأ الجنود يصرخون .

صعدوا طريق التلة على طرف البلدة ، وقد ظهرت زرقة أزياء الفرسان سوداء تحت أضواء شعلاتهم . انعكست أضواء المصابيح عن الأزرار الحمراء التي يرتديها الفرسان على ستراتهم وتوهجت مثل عيون الشياطين . جاء خلفهم رجال بلا أزياء رسمية ، يركضون بثيابهم الرثة ، وكأنهم بقوا في العراء لأسابيع . دقق ڤارتنيان وعرفهم . . . . أكراد غير نظاميين . بدأ القرويون يزعقون الآن .

لم يعرف ڤارتنيان أبداً من أطلق الرصاصة الأولى . فقد اكتفى بسماعها . بعد ثانية ، ركع ، صوَّب وأطلق النار . سقط خيَّال عن السرج ، طارحاً أحد غير النظاميين الذي يركض إلى جانبه بطريقة خرقاء . راقب ڤارتنيان الرجل وهو يتعثر ، لكنه يستمر في الجري ، مصمماً على تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها ، بغض النظر عن ماهيتها .

سدَّد ڤارتنيان مرة أخرى وأصاب الرجل في صدره . رفعت صدمة الرصاصة قدميه عن الأرض ، وطار إلى الخلف واقفاً على التراب بقوة . بدأت ألسنة اللهب تظهر على البيوت الخشبية . نهض ڤارتنيان واقعاً وتناول طفلاً راكضاً بقربه ، وضعه على كتفيه ثم ركض .

أدرك وهو يفكر في الموضوع الآن ، أنه لم يتوقف عن الجري منذ ذلك الحين . كانت الخطة تقضي بالذهاب إلى أمريكا من أسكتلندا ، لكنه ماطل وتأخر . ظل يتساءل حتى هذه اللحظة عن سبب عمله ذاك . كان يمكنه أن يصعد إلى مركب ما بسهولة منذ وصوله إلى هنا . عندما شاهد العميلين يشربان بيرتيهما في الليلة الماضية ويراقبانه ، عرف السبب . لقد حان وقت الذهاب إلى العمل . رمى ڤارتنيان البطانية بعيداً عنه ونهض .

الفصل السابع
إستنبول

بإمكان حلمي باشا أن يسمع الأنين وأصوات الأجسام المتصادمة من مسافة بعيدة في دهليز القصر . مشى وسط الممر الطويل المفروش بالسجاد ، وقد أدار وجهه إلى الأمام وقدماه تسيران كما تم تعليمه قبل سنوات طويلة أثناء تدريبه في مدرسة الضباط . تأثر انتظام خطواته بانفجارات مفاجئة من الضجيج والصياح الآتي من القاعة أمامه . تنقلت عينا حلمي باشا بين اللوحات التي تملأ الجدران أثناء سيره . راقبه سلاطين يرتدون أفخم الملابس أثناء مروره بتعابيرهم الجادة التي تحدق فيه من اللوحات القماشية المزيتة . استمتع حلمي باشا ، لولعه بالتفاصيل ، بملاحظة كل واحد منهم . استولت لوحة مثيرة للانتباه بشكل خاص على اهتمامه . كان موضوعها رجل ضخم الجثة يرتدي عمامة هائلة فوق رأسه ، وما زالت أثوابه تتموج بالألوان حتى هذا الزمن .

سليم الأول . . . . والد سليمان القانوني . . . وسلطان رائع هو نفسه أيضاً . . . مؤسف إلى درجة رهيبة أنه لم يحكم سوى ثمانية أعوام قصيرة . . . . لكن يا لها من أعوام! . . . .

هو فاتح مصر كلها . . . . والمنتصر على الإيرانيين . . . . معروف ب «الصارم» من قبل البعض ، و«العابس» من قبل البعض الآخر ، ولكن حتى . . . ضاعف حجم الإمبراطورية ثلاثة أضعاف وترك لسليمان إرثاً

مذهلاً ليبني عليه . . . ومع ذلك ارتكبت في عهده غلطة قاتلة . . . هل يمكن أن أقول بأن الصدأ بدأ ينخز؟ لقد كان سليم هو الذي هدد كل من يستخدم تقنية الأوروبيين الجديدة بالموت . يقصد آلة الطباعة . وهكذا فبينما كانوا يخرجون الكتب بالآلاف ثم بالملايين ، بقينا ملتزمين بالخط الجميل والرسومات الفنية . . . . والفتوحات لوهلة . بعدها أخذنا نتقهقر بوصة بعد بوصة ، ياردة بعد الأخرى ، وأخيراً ميلاً بعد ميل ، ثم دحرنا إلى الخلف . . . من ڤيينا في البداية وبعدها المجر واليونان ودول البلقان . . . ما هو التالي؟ . . . . لقد أدرنا ظهرنا للتكنولوجيا التي كانت قادرة على أن تمنحنا المفتاح للبقاء متقدمين في ذلك الزمن . . . . السؤال المطروح الآن هو هل مازال بإمكاننا أن نلحق بالآخرين؟ . . . . .

وصل حلمي باشا ، الغارق في أفكاره إلى الفتحة المقوسة الهائلة المفضية إلى قاعة الرياضة . راقب السلطان عبد الحميد المرتدي زي بطل رياضي وهو يتعارك مع شاب في أقل من نصف عمره . جاءت الصرخات والتصفيق بالأيدي من المصارعين الآخرين الذين اصطفوا حول المتنافسين على شكل نصف دائرة ، غالبيتهم طلاب من صغار السن ، مثل خصم السلطان ، لكن تواجد بينهم بعض الرجال الأكبر سناً ، والذين أدرك حلمي باشا أنهم المدربون . ظل أحدهم يدور حول مكان المنافسة ، يؤدي دور الحكم ، بينما التحم الرجلان في قبضة واقفة .

قال السلطان بين أنفاسه المتقطعة ، الخارجة على شكل شهقات «أنت تتساهل معي» .

كان رأس المصارع الفتي مقبوضاً إلى الأسفل بذراعي السلطان ، إلا أن حلمي باشا استطاع أن يرى عينيه تتحركان إلى الأعلى مذعورتين .

«ولكن ، يا صاحب الجلالة . . . .» .

زمجر السلطان وبذل جهداً في محاولاته لإلقاء الشاب على الحصيرة .

«ولكن لا شيء . كنت أظن أنك تريد الذهاب إلى الألعاب الأولمبية . إذا لم تكن قادراً على هزيمة كلب عجوز مثلي ، فما هي احتمالات الفوز لديك على اليونانيين والروس؟» .

ما كاد السلطان ينهي كلامه حتى فتل خصمه بطريقة ما إلى أحد الجانبين ثم ألقى به على الحصيرة . انطلقت صيحات التشجيع من المتفرجين ، وابتسم السلطان للفتى تحته ، والذي نهض مرخياً يديه إلى جانبيه ويعرج قليلاً على أصابع قدميه .

شاهد حلمي باشا سحابة تعبر وجه الفتى عندما رفع قامته وجدد الالتحام بسلطانه .

في هذه المرة ، لم يُضعْ أي وقت في تولي زمام المبادرة ، وخلال ثوان ، كان السلطان هو الملقى على الحصيرة وخصمه جاثم فوقه ، يثبته على الأرض . ركع الحكم وصفع الحصيرة مرتين ، بينما ظل السلطان يبذل محاولات مضنية إما لرفع أو تحريك الرجل عنه ، لكن جهوده ضاعت سدى . صفع الحكم الحصيرة مرة ثالثة وانتهت المباراة . أثناء نهوض الاثنين على قدميهما ، بينما تجيء أنفاسهما في شهقات سريعة ، تناول الحكم يد الفائز ورفعها فوق رأسه . تجاوبت أصداء الهتافات والتصفيق والصفير في جنبات القاعة من جميع الموجودين ، واستدار الشاب نحو السلطان

«أنا آسف يا صاحب الجلالة» .

«هراء! كنت سأطلب اعتذاراً لو أنك تساهلت معي . أنت وأعضاء فريقك إنما تصارعون من أجل مجد الامبراطورية العثمانية» .

صافح السلطان كلاً من المصارع والحكم ، بينما ناوله أحد الخدم منشفة من الجهة المقابلة .

استغل حلمي باشا الفرصة السانحة فتقدم وانحنى خفيضاً ، آخذاً يد السلطان الأخرى ومقبلاً إياها . ثم انتصب وهمس في أذن سيده .

«مولاي ، لقد وصل القيصر الألماني ورجاله» .

أدار السلطان رأسه متفاجئاً

«بهذه السرعة؟ لم نكن نتوقعهم قبل الغد» .

انحنى حلمي باشا مرة أخرى

«إن الدقة في المواعيد بالنسبة للألمان تعني التبكير» .

هزَّ السلطان رأسه بأسلوب ينم عن القبول ونفض كتفيه قبل أن يستدير نحو المصارعين .

«استمروا في تدريباتكم هنا . إن شؤون الدولة تناديني» .

أحنى المصارعون والمدربون جميعاً رؤوسهم أثناء خروج السلطان وحلمي باشا من القاعة ثم باشروا التعارك أحدهم مع الآخر مرة أخرى . أخذ الاثنان يسيران عائدين في الممر الطويل المليء باللوحات والذي حضر منه حلمي باشا .

بدأ السلطان يفكر بصوت عالٍ وهو ما زال يجفف عرقه بالمنشفة

«لقد كنت أتساءل متى سيظهرون رؤوسهم البروسية» .

ألقى إليه حلمي باشا نظرة جانبية

«مولاي ، إنك تتعرق» .

نظر السلطان إلى المنشفة بين يديه

«سرعان ما سيحين دورهم للتعرق» .

«ماذا تعتقد هي غايتهم الحقيقية يا مولاي؟» .

«لا تهمني غايتهم بأي قدر على الإطلاق» .

«ولكن لماذا يجيئون في هذا الوقت؟» .

ألقى السلطان نظرة إلى اللوحات التي تمر بهم من فوق .

«لقد حلم أسلافي بخط حديدي ينقل الحجاج إلى مكة منذ عام ألف وثمانمئة وأربعة وستين» .

كالعادة ، نطق حلمي باشا بالحقيقة غير المريحة .

«وهناك سبب لبقاء هذا المشروع حلماً» .

التفت السلطان إليه .

«آه ، ولكن الألمان يرغبون الآن في تقوية صلتهم بنا ، لإبعاد نفوذ البريطانيين والفرنسيين والروس المتنامي هنا ، فهناك طريقة لجعل ذلك الحلم حقيقة أخيراً» .

وصلا إلى نهاية الممر واستدارا يساراً نحو مكتب السلطان الخاص . هو غرفة واسعة يقبع في طرفها البعيد مكتب هائل ، تحت شبابيك تنفتح على حدائق القصر وتسمح لأشعة الشمس بأن تصب إلى الداخل كل صباح .

سارا إلى زاوية بعيدة في الغرفة ، ولاحظ حلمي باشا أن سطح المكتب مليء بأوراق عليها أرقام ومخططات ورسوم ، إضافة إلى الكتب والرسائل . سمح لإصبعه أن ينزلق فوق سطح المكتب وطرفه أثناء سيره خلف السلطان .

لزاب تركي من شواطئ البحر المتوسط ومصنوع بيدي السلطان نفسه : هل هناك أي ملك آخر في أوروبا يمكنه أن يوازي قدرات الرجل الفنية؟ لقد أمضى آخر أباطرة فرنسا أيامه الأخيرة التعيسة في أحد ضواحي لندن الحقيرة بعد أن تسبب في قتال لا يمكنه أن يفوز فيه . طبعاً ، لن نفكر في الحادث مع زوجته هنا في القصر ، من باب الخجل . إن أمير إنجلترا يأكل ويمارس البغاء ولا شيء آخر يذكر . إن

قيصر روسيا نسخة باهتة مقلدة عن أبيه وهو أسعد ما يكون حين يلعب دور الأب في البيت مع زوجته وبناته . دعونا نرى . . . . آه ، القيصر الألماني ، ضيفنا المتميز اللامع . ثرثار كبير ، طفل بالغ النمو ، مغرم باللعب بالجنود والسفن الحربية الدمى . لكن الفارق الآن هو أن لعبه حقيقية ، والقارة ترتجف أمامها . . . وهم قادرون على مساعدتنا . .

أدرك حلمي باشا أنه بغض النظر عن صفات القيصر الألماني المتطرفة ، لا بد وأن ينجح اجتماع الأباطرة .

قل ما تريده عن نقائصهم مقارنة بسلطاننا اللامع ، الرجل القادر على أن يريهم المعنى الحقيقي لمصطلح «رجل عصر النهضة» إلا أنه غريب بينهم . ليس الأباطرة الثلاثة إدوارد ونيقولا وويلهيلم - بريطانيا وروسيا وألمانيا - مجرد متحدين ضدنا بسبب الدين بل بسبب الدم أيضاً . انهم عم وأبناء عم . فهل سيكون القيصر الألماني متشوقاً للتفوق على الاثنين الآخرين ، وجدته نفسها أيضاً ، بحيث ينحاز إلى صفنا؟ الأهم من ذلك ، هل يمكننا أن نثق برجل تلك صفاته؟ يا إلهي ، وهل لدينا أي خيار آخر؟

توقف السلطان في الزاوية إلى جانب طاولة مغطاة بملاءة ، ثم انحنى وأزاحها ليكشف عما بدا مثل لعبة قطار . على أية حال لم يكن حلمي باشا بحاجة لأن يتفحصها عن قرب ليعرف أنها ليست لعبة . كانت تلك مجسماً صغير الحجم لسكة حديد ، خط قطار سيجري من دمشق إلى مكة المكرمة ، مع وصلة توصله بإستنبول . أثبت الغبار الذي نفضه السلطان عن ملاءة الغطاء طول المدة التي قضتها هذه الخطة في طور الحمل . مسح السلطان النموذج بعينيه وهو ما زال ممسكاً بالغطاء في يده .

«لقد بقينا بحاجة إلى المال والخبرة الفنية لبناء هذا الخط حتى

الآن . ولكن الآن ، فإن الوقت قد حان . لن يتكفل هذا الخط بحماية الحجاج من أخطار السفر في الصحراء فقط ، لكنه وبنفس الأهمية ، سوف يوحِّد المقاطعات العربية القصية ويدمجها بالدولة العثمانية ، ويسهل نقل القوات العسكرية حيثما دعت الحاجة إليها لحماية الامبراطورية» .

ابتلع حلمي باشا ريقه وسمح لنفسه بأن تحلم للحظات .

لكنه لم يقل أكثر من «نعم يا مولاي» .

الفصل الثامن

في وقت لاحق من ذلك المساء ، سبحت قاعة الولائم الفسيحة في العتمة وخيم عليها صمت الموت . في العادة ، وعندما يقيم ملك أو رئيس دولة زائر في القصر ، فإن القاعة تزدهر باللون والنشاط ، بينما يأكل الضيوف ويتبادلون الأنخاب ، والموسيقيون يعزفون ويغنون وسط جيش من الخدم يمشط القاعة جيئة وذهاباً من وإلى المطبخ ، حاملين صواني مترعة بأفخم الأطعمة . ولكن كانت هذه الزيارة مختلفة . لم يكن يفترض أن يعرف أي شخص أن القيصر وأقرب وزرائه وجنرالاته موجودون في استنبول . كان القيصر قد ارتحل في صباح اليوم السابق مبكراً إلى القيلا الامبراطورية في منتجع إيمز ، بذريعة شرب المياه المعدنية الشهيرة ، لكن تسربت قصة إلى الصحف بأن ويلهيلم قد أصيب بنزلة برد لدى وصوله . لذلك سيكون في حالة عزل بالقيلا حتى شفاؤه من وعكته الخفيفة ، بدلاً من قضاء عطلة .

في الحقيقة ، فقد كان القيصر في أتم صحة وعافية ومزاج جيد ، وفي اللحظة التي أوصله فيها القطار الملكي المزوّق بدرجة استعراضية إلى إيمز ، بدّل الخط إلى قاطرة أصغر حجماً ، أعادته من حيث أتى تماماً . سافرت القاطرة بدون توقف إلى الحدود النمساوية ، حيث تزودت بالمزيد من الفحم ، ثم استأنفت سيرها عبر أراضي سلالة الهاپسبورغ في النمسا - المجر ، مع أطيب تحيات الامبراطور الطيب فرانز جوزيف .

جلس القيصر ويلهيلم الثاني الآن في غرفة طعام متواضعة في

قصر يلدز باستنبول . حيث احتل السلطان رأس الطاولة واصطف جنرالاته ومستشاروه إلى جانبيه . جلس حلمي باشا إلى يسار السلطان في مواجهة الألمان . لم يقم على خدمتهم سوى خادم واحد ، هو نفس الرجل الذي راقب هيرتزل ونيولينسكي وهما يصعدان إلى قطارهما في باريس ، ثم قدّم لهما الشاي في الحديقة عند وصولهما إلى استنبول .

استمر هو وحلمي باشا بمراقبة الألمان بحدة ولكن خفية ، بينما انهمك أولئك بتناول الطعام بشهية وتحدثوا إلى بعضهم بلغتهم الخاصة ، بدوا لحلمي سعداء مرحين جداً ، وشعر أنه كان سيقضي معهم وقتاً ممتعاً لو اختلفت الظروف . طبعاً ، هو يعرف البارون ڤون دير جولتز الجالس قبالة حلمي باشا إلى يمين القيصر . فالجنرال موجود في تركيا منذ بعض الوقت ، ويقوم بتدريب جيش السلطان ، وقد أثبت أنه حقق نجاحاً عظيماً . إلى درجة أن الأتراك بدأوا بإطلاق لقب «باشا» الفخري عليه ، وهو إجراء نادر لرجل من خلفيته ، أي غير مؤمن بالإسلام .

في المرة الأولى التي قابل فيها ڤون ديرجولتز ، بدا الألماني في نظر حلمي باشا أشبه بغرير محدِّق قصير النظر .

على كل حال ، هناك فولاذ في تينك العينين . ولا يمكن لرجل ذكي أن يفوته ذلك مطلقاً .

لاحظ حلمي باشا مقدار الصلابة لدى ڤون ديرجولتز ، كما لاحظها الجندون الذين يشكلون صنوف السلطان . بحث ڤون ديرجولتز وحلمي باشا احتمالات نشوب حرب قوى عظمى ، والتشكيلات والتحالفات المتشعبة التي يمكن أن تتشكل في أحاديثهما الخاصة . ظل ڤون ديرجولتز مصراً على أن تلك الحرب القادمة لن تكون سريعة ولا

خالية من الآلام . أشار إلى طول الوقت الذي استغرقته هزيمة نابليون قبل قرابة مئة سنة ماضية ، حين كانت الأسلحة وعمليات التجنيد مازالت في طور طفولتها . أخبر الباشا عن تواجده في عملية إخضاع آخر جيوش فرنسا في وادي اللوار قبل ربع قرن ، جيوش وقفت بحزم وثبات ، على الرغم من أنه بات واضحاً أن فرنسا قد خسرت قضيتها في سيدان قبل أشهر . وذلك بدون ذكر عصابات غير النظاميين الذين ابتليت بهم جيوش القيصر من خلف الخطوط .

الأرمن . . . . . . إذا وصل الأمر إلى ذلك؟

لم يفعل حلمي باشا أكثر من هزّ رأسه موافقاً في تلك الليالي .

قال له ڤون دير جولتز أيامها «انتبه لكلماتي يا باشا ، لابد للحرب الحديثة أن تعاقب البريء إلى جانب المذنب بالضرورة . عندما يحين الوقت ، يجب علينا نحن الجنرالات ، أن نتخذ القرارات الصعبة وبعدها نتعايش مع ضمائرنا . سوف نعقد سلامنا مع آلهتنا وأنفسنا بأفضل طريقة نقدر عليها . إذا أردنا لأممنا وامبراطورنا أن ينجوا ، فيجب علينا نحن الرجال الشرفاء أن لا تأخذنا الشفقة بأحد . ستكون هناك حملات انتقام ، إخلاءات قسرية وترحيل للشعوب . . . . . إن الفرنسيين هم الذين أعادوا إحياء فكرة «أمه في حالة حرب» . قبل ذلك ، تركت الحروب للملوك وجيوشهم المحترفة» . مال إلى الأمام بأسلوب تآمري «بعد معاهدة ويستفاليا بالطبع» .

قال يومها حلمي باشا «طبعاً» .

أما الآن ، فهناك الديمقراطية «ظهر جلياً أن ڤون دير جولتز لا يحب تلك الكلمة ولا بأقل قدر ، «ويجب حمايتها . إذا أردت أن يكون الحكم من قبل الناس ، فيجب على الناس أن يحملوا السلاح بالضرورة ، يعني ذلك شنّ الحرب على الناس . أنا لا أحب ذلك ،

ولكن يجب القيام به . الأمر الذي سعيت إلى مشاركة أبناء وطني فيه هو أن هذا النوع من الحروب لن يكون قصيراً أبداً . حتى بوجود جيش في مثل روعة الألماني ، أو كما سيكون عليه جيشكم قريباً» .

ابتسم البارون ورفع كأسه . بادله حلمي باشا الابتسام ورفع كأسه أيضاً .

نعم ، إن الجنرال البارون ڤون دي جولتز رجل شريف . وهو يميِّز الصعوبات الموجودة في العالم بنزاهة ولا يعتذر عن دوره في إيجاد بعضها . ولكن القيصر . . . . لست متأكداً منه . . . . يجب أن أسأل السلطان إن كان قد لاحظ نظرة الامتعاض العميق على وجه ويليهم حينما أحيط بترتيبات الجلوس . . . . .

بجلوسه إلى يمين السلطان ، فقد انكشفت ذراع القيصر اليسرى بشكل كامل ، وهي التي ذبلت منذ أيام طفولته حسبما قال الجواسيس . أصر القيصر على أن تلتقط له الصور مُظهرة جانبه الأيمن حتى يخفي التشوه المحرج .

لا بد وأن إظهارها على مرأى تام من قبل السلطان مزعج له بعمق . . . ورغم ذلك ، فهو يتكلم الفرنسية مع السلطان بمنتهى التهذيب . إن لغته الإنجليزية أكثر من باعثة على الإعجاب بدورها . . . وذلك أمر لا يمكننا أن نتناساه في هذه المفاوضات .

ضرب ويلهيلم بكف ذراعه السليمة سطح الطاولة وأطلق صرخة تيوتونية «ها!» رداً على شيء قاله السلطان ، وكأنما هو بذلك يطرد أي فكرة بأنه ينسى نفسه مع كل الكلام بالفرنسية .

قال رافعاً كأسه «هل لي أن أقترح نخباً؟» .

نهض واقفاً على قدميه

«نخب الصداقة بين الشعبين الألماني والتركي . أرجو أن نتمكن

سوية من إفشال النوايا الخطرة للفرنسيين والروس والإنجليز» .

وقف رجاله معه ، متبوعين بحلمي باشا . بقي السلطان جالساً . وقف نادلهم محايداً ، يحدق في الفراغ أمامه . طرق القيصر كأسه مع الجنرال البارون دير جولتز إلى يمينه ، والذي بدوره طرق كأسه مع الجنرال البارون ڤون ديتفورث إلى جانبه ، ثم استدار ڤون ديتفورث نحو كارل أولير الجالس على طرف الطاولة ، ليشارك في الاحتفالات .

ابتسم السلطان ، طأطأ برأسه لضيوفه ورفع قدح عصير الفواكه عن الطاولة ثم حياهم به . عمل حلمي باشا الشيء نفسه .

بعد أن عاد الضيوف إلى الجلوس على مقاعدهم ، قال السلطان «ما كان لصداقتكم أن تأتي في وقت أفضل أيها القيصر . بعد أن عجزت البلدان التي ذكرتها في نخبك عن أن تهزمنا بشرف فوق ميادين القتال ، فقد بدأت هذه الدول بتجميع ذوي الخبرات العسكرية للتسلل إلى داخلنا وتشكل جيشاً يحمل نوايا شريرة داخل حدودنا» .

أخذ ڤون دير جولتز ينظر إلى السلطان مشدوهاً .

«أين عملت بهذا يا مولاي؟» .

قال القيصر وهو ينظر إلى زميله الملك بإعجاب هادئ «لدى السلطان آذان وعيون في كل مكان» .

أحسّ حلمي باشا بالسرور لكون مواهب السلطان معترف بها ومعروفة بالنسبة لرجل في مثل قوة الامبراطور الألماني ، لكن ذلك يعني أيضاً أن لدى القيصر آذانه وعيونه الخاصة به والتي تراقبهم .

بعد توقف قصير ، عاود القيصر الكلام .

«يا مولاي ، نحن نفهم أنك قد رفضت العروض المبدئية المقدمة من السيدين هيرتزل وروثتشايلد» .

دوَّر السلطان أصبعه على طرف القدح بنعومة قبل أن يجيب .

«ذلك صحيح . إن دولتنا ، مثل أي دولة أخرى ، لها لحظات صعودها وهبوطها ، ولكن الآن ، نحن في مرحلة الصعود . . . . نقوم بإعادة الخلافة كما كانت قبل قرون ماضية ، ونوحد شعوبنا عبر الدنيا كلها» .

قال القيصر بقليل من التسرع «نعم طبعاً ، لقد فكرنا فقط في أن ضخ كمية من النقد . . .» .

رفع السلطان كفه المفتوحة في وجهه ، كما لو كان يوقف سيارة أجرة .

«إنني أتفهم ، المؤسسة الألمانية تحب الصهيونية لأنكم تفترضون بأن قرب اللغة اليديش من الألمانية يعني أن انتشار الصهيونية سيؤدي إلى نشر النفوذ الألماني في المدى البعيد . كيف تقولها «الألمانية في العالم؟» .

سحب اثنان من الألمان نفسيهما بحدة عند هذا القول . إذا كان يعرف ذلك ، فما هو القدر الذي فهمه من أحاديثهم السابقة؟ أعجب القيصر بدوره ، لكنه لم يتأثر إلى حد الإرباك .

استمر السلطان «في هذا الإطار ، أنتم تعتقدون أن ما يلائم للصهيونية ملائم أيضاً لألمانيا . فهل أنا محق؟» .

جلس القيصر ثابتاً «أنت في هذا الموضوع تفكر مثل الفرنسيين والإنجليز . لكنهم فقط يستخدمون الصهاينة لمجرد . . . الدخول إلى مخزن المؤن عندي» .

ابتسم القيصر وهزَّ رأسه بقوة .

«أنت محق تماماً . الأمر يا مولاي هو أنه خلافاً لقوى التحالف ، فإن ألمانيا تريد تعزيز تماسك الإمبراطورية العثمانية ، وليس تفكيكها» .

عاد السلطان إلى تدوير أصبعه حول كأس شرابه والتحديق إلى

الأسفل ، ثم قال بدون أن يرفع رأسه «إنني أحب أن أصدق ذلك» .

راقب حلمي باشا السلطان ، الذي استمر في ملاحقة حافة كوبه ، وانتظر جوابه ، أصبح مقتنعاً بأن القيصر لم يعد مهتماً بعرض روثتشايلد .

استطرد السلطان «فإذاً أنت تؤمن ، كما أؤمن أنا ، بأن تفكيك الامبراطورية العثمانية لا يخدم سوى القوى الغربية؟» .

«تماماً!» صاح القيصر ويلهيلم «لابد وأنك تذكر أنه حتى أثناء حروب البلقان ، كانت ألمانيا تخشى أن تنهار الامبراطورية العثمانية فعلاً ، وقمنا بكل ما في وسعنا لمنع حدوث ذلك» .

ساد صمت طويل آخر بينما ظهر على السلطان أنه يقوم بتحديد حجم إجابته .

«هل سمعتم أيها السادة بالتملق التركي؟» .

حافظ حلمي باشا على مسحة الجمود في قسمات وجهه ، لكنه ابتسم داخلياً ، مسروراً بالنظرة المرتبكة على وجوه السادة الأرستقراطيين الجالسين قبالته . هزَّ السلطان رأسه باتجاه النادل ، الذي تحرك ليكشف عن صينية حلوى فوق الطاولة الجانبية خلفه . حملها النادل نحو الألمان ، مبتدئاً بالقيصر الذي نظر إلى محتويات الصينية متشككاً .

قال السلطان «جرِّب القليل» .

«لست واثقاً من أن . . .» ظل القيصر غير واثق من كيفية الاستمرار .

قال السلطان «رجاءً» .

رفع القيصر يده السليمة وتناول بها قطعة حلوى التملق . تبعه الألمان الآخرون كل بدوره . راقب السلطان وحلمي باشا بسرور بينما

لطخ ضيوفهما أيديهم وأفواههم وشواربهم بسرعة بالحلوى الدبقة. حتى النادل ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة بسبب مشكلتهم.

قال السلطان «عندما يحضر إلى هنا شخص لا يعرف أساليبنا التركية غير المألوفة، معتقداً أن بإمكانه التقاط القطع الشهية وأكلها بسهولة، فهو يفهم أنه - كما يقولها البريطانيون - محشور في باب صغير دبق.

منح الرسالة الوقت الكافي لترسخ في أذهانهم قبل أن يومئ للنادل مرة أخرى. بعدها قدمت للضيوف مناشف رطبة.

«مناشف تركية هي الحل الوحيد للتملق التركي».

بعد هذا نهض السلطان واقفاً، ونهض إلى جانبه حلمي باشا

«أشكركم على قدومكم أيها السادة. قبل أن تغادروا، ينبغي عليكم أن تجربوا أحد حماماتنا التركية الممتازة. أخرجوا كل ذلك الدبق عن شواربكم».

أومأ القيصر وهو ما زال جالساً ويعبس في هذه الآونة، ثم قدمت له صفحة ورق أخرجت من حقيبة أوراق وسلّمت له، رغم كونها توسخت قليلاً.

قال وهو يدفعها عبر الطاولة «هذا هو عرضنا».

قال السلطان «إن ما يقلقني هو الفكرة القائلة بأنك ترغب في تفكيك الامبراطورية العثمانية بنفس مقدار رغبة الايڤانيين أو الإنجليز أو حتى الفرنسيين. أنت فقط تريد أن تؤجل العملية لأطول وقت ممكن، حتى نكون قد حققنا ما يكفي في الأصدقاء على الأرض بين أولئك الذين يمكن أن يكونوا اللاحقين لنا».

طأطأ القيصر برأسه مشيراً إلى تفهمه.

«مولاي، سأعود إلى ألمانيا غداً نتيجة لمسائل ملحة. إنني أدرك

خلفي مساعديَّ العسكريين والمهندسين . باختصار ، نحن نقترح أن نصمم ونمول ونبني لكم الخط الحديدي الحجازي . بدون أيه كلفة على امبراطوريتكم . سوف تمتلكونه كله ، الخط والآلات والعربات المتحركة على حد سواء» .

رفع يده عن الوثيقة وتركها على الطاولة . مدَّ السلطان يده وتناولها ، قبل أن ينحني قليلاً ثم يمضي خارجاً .

قال حلمي باشا «أيها السادة ، سوف يقرأ السلطان اقتراحاتكم بعناية» . قبل أن ينحني ويتبع مليكه .

بعد مسافة في الممر ، استدار السلطان بينما لحق به الباشا .

«متى سيصل الهنود؟» .

«حسناً ، لنأمل أنهم ليسوا في مثل دقة المواعيد التي أثبتها الألمان . وإلا فإنهم سيصطدموا ببعضهم بعضاً عند البوابة . اكتفى حلمي باشا بالابتسام .

الفصل التاسع

بعد يومين تألقت قاعة الاستقبال في قصر يلدز بشمس منتصف الصباح . بينما كان آخر وفد يزور السلطان يدخل ويقف في أماكن أفراده .

كالعادة ، قام حلمي باشا بتنظيم كل شيء ووقف الزوار في حالة تأهب صلبة . مسح الباشا المكان بنظرة شمولية أخيرة ، وعندما رأى أن كل شيء في مكانه الصحيح ، أومأ برأسه لأحد المساعدين .

صدحت الأبواق بمرح وصخب ودخل الموكب الملكي ، يقوده السلطان أولاً ، ثم أبناؤه ، متبوعين بأعضاء أقل أهمية من الأسرة الملكية والوزراء .

«يا صاحب الجلالة السلطان عبد الحميد ، هل تسمح لي بتقديم رضا خان؟» .

انحنى الهندي بعمق أمام السلطان ، حتى الخصر تقريباً ، ثم نهض متمهلاً .

«يا صاحب الجلالة ، إنه لشرف أكثر فرحاً من أن تستطيع الكلمات أن تصفه بأن أقف في حضرتكم» .

أجاب السلطان «أنت تطريني أيها الخان . آمل أن تكون رحلتك وإقامتك في استنبول قد كانت مريحة حتى الآن» .

ردَّ الخان بالإيجاب ، وبينما هما يتبادلان المجاملات ، راقب حلمي باشا الرجلين .

الهندي يرتدي واحداً من أكثر الأزياء فخامة مما شاهده الباشا في البلاط حتى ذلك الحين ، ولم يكن ذلك إنجازاً سهلاً في البلاط العثماني . *إنه حتماً يشكل تميزاً بعد القيصر بزيه الرمادي الشبيه بطلاء البوارج* . بدا السلطان بمعطفه الأزرق الطويل وسترته وميداليته بسيطاً إلى حد ما بالمقارنة مع الأثواب الفضفاضة ذات الألوان الصفراء الباهتة وعمامة الخان ، ولكن جاء ذلك أمراً طيباً بالنسبة لحلمي باشا . لأن اللباس الدقيق المرتب يدل على ذهن أكثر ترتيباً وحدَّة .

والسلطان حتماً لديه كل ذلك .

سأل السلطان ضيفه «هل نتناول الشاي انت وأنا؟» .

«سيكون ذلك من دواعي سروري» .

بدأ السلطان فوراً يمشي باتجاه الشرفة الكائنة في الحديقة والخان إلى جانبه .

بينما لحق بهما حلمي باشا والنادل الدائم الحضور بصمت وسكون .

إن جاسوسنا هذا ينفع كخادم جيد جداً : ما كنت لأفطن إلى مهنته الحقيقية لو أنه ناولني فنجان قهوة في المدينة بعد ظهر أحد الأيام ، وهذا إثبات آخر على أنني يتحتم علي أن أبقى متنبهاً في جميع الأوقات .

ترك أبناء السلطان ووزرائه ليختلطوا بحاشية الخان . في الحديقة خارجاً ، كان رضا خان يتوسع ويتعمق في شرح معتقدات أتباع الباريلوي ، مجموعته في المنطقة الجبلية بشمال الهند .

قال «طبعاً نحن أيضاً نؤمن بأن لحية الرجل يجب أن تكون أكبر من قبضته ، خلافاً للحيتكم ، يا صاحب الجلالة» .

شاهد حلمي باشا السلطان ينظر إلى الخان بما يشابه الطريقة التي

ينظر بها إلى خصومه في المصارعة ، نفس الأشخاص الذين يستمتع كثيراً بإلقائهم إلى الأرض : دامت النظرة للحظة قصيرة جداً ، لكنها لم تخف على حلمي باشا . تراجع الخان بسرعة إذ أدرك أنه ربما قد يكون رفع الكلفة بأسرع مما يجب .

«ولكن طبعاً ، فان حلق الوجه كلياً هو عملية مكروهة جداً . . . كم هي جميلة حدائقكم في القصر» . أنهى جملته بوهن وهو يتلفت حواليه .

ابتسم السلطان بارتياح «نعم ، إنني أحب أن أشعر بحرارة الشمس على وجهي في هذا الوقت من السنة» .

نظر حلمي باشا إلى الأرض وابتسم . وصلت الجماعة الصغيرة إلى الشرفة ، واتخذ الرجال الثلاثة مقاعدهم ، بينما قام النادل بصب الشاي من صينية وضعت سلفاً هناك من قبل خدم غير مرئيين على ما يبدو .

فتح السلطان المحادثة فور أن استقر في جلسته .

«وهكذا أعتقد أنك لا تعتبر الوجود البريطاني في الهند مسألة يمكن أن تدوم؟»

«نعم يا صاحب الجلالة . القضية ببساطة مسألة أرقام . هنالك حوالي ثلاثمائة مليون هندي حالياً أي ما يعادل ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية البريطانية تماماً . ويحكم هذه الملايين قرابة مئة ألف جندي وإداري بريطاني ، مدعومين من قبل جهاز الخدمة الهندي الجنين . لا يمكن لمثل هذا الوضع أن يدوم . إن لدى مستعمرة كندا رئيس وزرائها الخاص بها منذ الآن ، وسيكون لدى استراليا الشيء نفسه قريباً .

إذا كان هذان البلدان ، بروابطهما الثقافية القوية مع الوطن الأم ،

ينفصلان مبتعدين كما يفعل الأطفال ، أفليس من المنطقي أن تفعل بلاد لديها ثقافتها وتاريخها المتميزين كالهند شيئاً مشابهاً؟» .

قال السلطان «أنا حقاً أعتقد أن الأمر هو هكذا . ولكن ألا يعتبركم البريطانيون (جوهرة التاج) أنا أتكلم عن تجربة شخصية مفادها أن الشخص يجب عليه أن يحرص كثيراً على حماية تاجه» .

أطلق رضاخان ضحكة قصيرة لدى سماعه هذه الجملة .

«نعم يا صاحب الجلالة ، أنتم تعرفون ذلك بطريقة أفضل من معظم الناس حينما يتعلق الأمر بالتيجان ، وكذلك عندما يصل الأمر إلى التسميات البريطانية الساخرة» .

بذل حلمي باشا جهداً ليمنع نفسه من الرد .

إذا قال رجل أوروبا المريض فإن هذه المقابلة بحكم المنتهية .

«لكن جلالتكم تعرفون أيضاً أن مثل هذه التسميات قد تكون أكثر من مضللة» .

رضا خان ، أنت تسير على أرض خطرة .

استمر الخان «اعتقد أنه نتيجة لضغط الأرقام المجرد ، بغض النظر عن المسافة ، فإن البريطانيين سوف يضطرون في نهاية المطاف إلى منحنا مستوى ما من الحكم الذاتي على شبه القارة الهندية . عندما يحدث ذلك ، فنحن كمسلمين لن نكون قانعين باستبدال حاكم ملحد بآخر ونعيش تحت حكم الهندوس . بدلاً من ذلك ، فإننا ننوي أن نعلم أنفسنا الطرائق الإلهية ، ونحيا كما نعتقد أن القرآن يعلمنا ، في أمتنا الخاصة بنا إذا دعت الحاجة .

قال السلطان «هذه تطلعات نبيلة ومقدسة» . وهو يعيد فنجان شايه إلى الصحن .

«الى أي حد وصلت جهودكم في تأسيس مدرسة دينية؟» .

«تشابه إلى حد كبير مهمتكم في بناء خلافة تحمينا كلنا سوية في نور النبي عليه الصلاة والسلام، الأمر يحتاج إلى الوقت والصبر».

ابتسم السلطان «ربما نتمكن من مساعدة أحدنا الآخر في تقليل الوقت، إن لم يكن صبرنا؟».

قال رضا خان «أنا أعتقد أننا قادرون على ذلك».

***

في وقت لاحق من ذلك المساء، قدَّم رضا خان السلطان حاشية البلاط باعتزاز إلى فرقته من الموسيقيين، الذين قال عنهم إنهم يعزفون الموسيقى الأكثر سمواً لدى المؤمنين. سُرَّ السلطان بالسماح لهم بالأداء له في قاعة العرش وكان زكثر سروراً حين علم أن رضا خان لم يبالغ في وصف مهارتهم بالطبلة والسيتار.

جلس السلطان مسترخياً ليستمع إليهم مع ثلاثة من زوجاته جالسات إلى جانبه. بمن فيهن الشركسية الجميلة جواشه ماشه كادين وعدد من أبنائه إلى يمينه.

اتخذ وزراؤه وجنرالاته أمكنتهم إلى يساره، تتناقض نظراتهم العابسة بحدة مع ابتسامة الاستمتاع لدى السلطان.

رفض حلمي باشا الجلوس على مقعد ووجد لنفسه مكاناً يقف فيه في الجهة اليسرى من القاعة، حيث وقف الألماني ڤون دير جولتز إلى جانبه. ألقى بنظرة إلى الوزراء الذين استمروا في إذلال أنفسهم بجهودهم للاقتراب من السلطان أكثر مما يمكن.

لا تخطئوا أبداً في تقييم ماهية القوة بمجرد مظهرها أيها السادة. إن السلطان متواجد هنا للاستماع إلى الموسيقى بعد يوم من المفاوضات الناجحة: إنه غير مهتم بمن يحمل له قصعة التين.

استدار ڤون دير جولتز قليلاً وهمس

«ذكرني يا باشا مرة أخرى بأسماء الزوجات ، وبمن هو التالي في تولي العرش بالضبط ، أرجوك» .

ارتفع فم حلمي باشا في ابتسامة ماكرة

«يجب أن أعترف بأنني نفسي أنسى أيها البارون . لذلك أسعى لأن أكون مهذباً في كل الأوقات أثناء وجودي في البلاط» .

قال البارون «هل هذا صحيح؟ وماذا تفعل حينما لا تكون في البلاط؟» .

نفض الباشا كتفيه خفية .

«أظن أننا جميعاً في البلاط نعرف عن غرام صاحب الجلالة الخاص بجواشه ماشه كادين . إنه يسمع لها وينتبه ، لكن على الشخص أن يعمل ما يتحتم عليه لمليكه وامبراطوريته ، ألا تتفق معي؟» .

«هذا صحيح جداً يا حلمي باشا . الأمر الذي يوصلني إلى سؤالي التالي ، ماذا عن الاجتماع؟» .

«لقد وافق الخان من حيث المبدأ على عرض السلطان لدعم الخلافة ، شريطة الموافقة على شروط معينة والاعتراف بمذهب الباريلوي كمذهب مسيطر في الهند» .

«ألن تكون تلك (الشروط) مكلفة أكثر مما يجب؟ آمل ذلك؟» .

«كلا على الإطلاق ، أو على الأقل ليس بالقدر الذي يمكننا ملاحظته عند هذه النقطة . مدرسة أو اثنتان ، ووعد بالدعم . مجرد قليل من (أنت تحك لي ظهري) كما قد يقول البريطانيون ، الأمر الذي يؤدي طبعاً إلى سؤالي أنا ، أيها البارون» .

توقفا للحظة بينما وصل المغني إلى مقطع عالٍ بشكل خاص ، ترددت أصداء تموجاته عبر جدران القاعة الفسيحة . كذلك توقفت

الطبلة ، بينما حمل المغني لحنه لما بدا أنه طول مستحيل من الزمن ، رافعاً يديه نحو السقف . أخيراً ، توقف بنفس الفجائية التي ارتفع فيها صوته ، وانتظرت الطبلة للحظة احترام قبل أن تعود هادرة .

سأل البارون «ما الذي تحب أن تعرفه يا باشا؟» .

«يبدو أن القيصر قد منحنا صفقة جيدة جداً ، جيدة جداً فعلاً ، خاصة عندما لم يفعل ذلك أي طرف آخر . فهل كوَّن عنا انطباعاً إطرائياً واعداً؟» .

«يريد القيصر لأوروبا أن تكون مسالمة وقانعة . لهذا السبب ، يرى أن مساعدة الامبراطورية العثمانية في التغلب على مصاعبها أمر له الأولوية» .

«فعلاً . ولكن أيها البارون . يعرف كلانا أن البريطانيين كانوا مهتمين بالإبقاء على تماسك الامبراطورية ، حتى أنهم ذهبوا إلى الحرب ضد الروس في الخمسينيات لأجل ذلك .

لقد كانوا راغبين في القيام بذلك مرة أخرى بعد عشرين سنة وأوشكوا على ذلك . أستطيع أن أفهم منطقهم : يريدون أن يحتووا التوسع الروسي ويبقوا الطرق البحرية إلى الهند مفتوحة . لكن سؤالي هو كيف ينتفع القيصر الألماني من استمرارية الامبراطورية العثمانية ، فيما عدا نظريته الغامضة هذه حول أوروبا أكثر مسالمة؟» .

عاد ذراعا المغني إلى الارتفاع وبدأ صوته يعلو نحو فقرة تصعيدية أخرى .

شخر البارون ، وانغلقت عيناه الصغيرتان دلالة على السخط .

«آه ، لقد عاد إلى الانطلاق مرة أخرى . هل سيكون من قلة الأدب أن نتابع بحثنا في الخارج؟» .

ألقى حلمي باشا نظرة إلى حيث جلس السلطان ، مستمراً في الابتسام وغارقاً في الموسيقى كلياً .

«أظن أن بإمكاننا التسلل مبتعدين بدون أن ينتبه إلينا أحد أيها البارون» .

بعد أن تخلصا من الحشد ، قطع الرجلان الممر الطويل حيث قاد حلمي باشا الطريق إلى مكتبه الخاص .

فتح الباب المقفل ودلف إلى الداخل حيث أضاء المصباح الغازي على مكتبه . كان الخريف قد بدأ يطل برأسه مع بدء تساقط أوراق الشجر ، واتخذ الخدم هذه الظاهرة كإشارة لبدء إيقاد النيران في مدافئ القصر مرة أخرى . وجدها الباشا غير ضرورية أثناء النهار ، لكنه بات سعيداً بها في ليالٍ مثل هذه . لم تكن الجمرات قد أخمدت تماماً في موقدة مكتبه ، لذلك عرض على البارون إحدى الكنبتين إلى جانبي المدفأة وألقى بقطعة حطب كبيرة إلى النار .

«هل ترغب بشراب أيها البارون؟»

«سأقول شكراً لك إذا كان لديك شيء يبعث فيَّ الحيوية» .

ذهب الباشا إلى خزانة مشروبات خفية واختار نبيذاً معتقاً ظل يحتفظ به لمناسبة كهذه .

سأل وظهره إلى البارون «ماذا عن القيصر أيها البارون؟» .

سرح البارون بنظره إلى ألسنة اللهب وقد بدأت تلعق قطعة الحطب .

«القيصر؟ آه ، نعم . الأمر في غاية البساطة يا باشا . يريد القيصر أصدقاء . لا أرى أنهم سيقدمون جندياً طاعناً في السن مثلي إلى محاكمة عسكرية لأنه قال إن القيصر تخلف عن الركب بدرجة سيئة حينما نجح الفرنسيون في خطب ودِّ الروس . لقد جاء الوضع سيئاً بشكل خاص لأن الأمر حدث بعد أن قام بتسريح رئيس الوزراء بفترة قصيرة جداً» .

طبيعي أنه يقصد «برئيس الوزراء» بسمارك ، الذي نجح لعقود طويلة في إبقاء الفرنسيين والروس متباعدين من خلال مناوراته وخداعه بكل الأحوال ، لم يكن القيصر الشاب ويلهيلم راغباً في مشاركة أحد له في إدارة الشؤون ، وهكذا فقد تم الاستغناء عن بسمارك بمجرد أن عثر القيصر على قدميه .

لسوء الحظ ، لم يكن القيصر على درجة قريبة من الدهاء الذي أحب أن يعتقد بأنه يملكه ، وتم تجاوزه بكل سهولة وسعادة على الطريق إلى موسكو من قبل وزارة الخارجية الفرنسية .

ناول حلمي باشا البارون شرابه واتخذ المقعد المقابل له .

«نحن بالطبع في غاية الامتنان للقيصر على مساعدته ، خاصة عندما تكون نتيجتها الاستفادة من مهارات مثل التي تمتلكها أيها البارون» .

«هذا من دواعي سعادتي يا باشا» .

«إنني فقط آمل أن لا يعتقد القيصر أننا أصبحنا جاهزين لأخذ مكان الروس . إنه وحلفاؤه معروفون بـ (القوى المركزية) لسبب واضح ، من الناحية التكتيكية نحن محاصرون ، وهذا ليس وضعاً جيداً» .

دوَّر البارون محتويات كأسه للحظة .

«كما قلت يا باشا ، يريد القيصر أصدقاء . هو لا يريد أن يشعل حرباً . هو سعيد بمجرد وجودكم إلى جانبه . كلما زاد عدد أصدقائه ، زاد إحساسه بحسن وضعه : هذا كل ما هنالك . في الوقت نفسه ، فإن قيادة الأركان العامة الألمانية وأنا أكثر من سعداء لرؤية امبراطوريتكم وهي تتلقى المساعدة التي تحتاجها للتحديث والتصدي لأعدائكم وجهاً لوجه» .

«الكثير من الامتنان أيها البارون» .

مال الباشا إلى الأمام ورفع كأسه حيث قابله البارون في شرب نخب .

«مع الإبقاء على هذا الأمر في ذهنك يا باشا ، لابد لي أيضاً أن أخبرك بأن القيصر ربما يقابل بعضاً من معارفكم القدماء» .

رفع حلمي باشا رأسه بفضول

«صحيح؟» .

«يفترض في ثيودور هيرتزل أن يقابل دوق بادن الأكبر فريديريك من خلال بعض الصلات المعقدة الملتوية» .

«تقصد فريديريك بادن؟» .

«الشخص نفسه تماماً» .

«وهكذا يريد الآن المحامي المقيم في ڤيينا أن ينشئ وطنه اليهودي في مكان ما من أرض الراين؟ لقد سمعت أنها رائعة في هذا الوقت من السنة» .

ابتسم البارون وتحول مظهره من غرير يزم عينيه إلى فقمة راضية مسترخية .

«يمكنني أن أشهد على صحة تلك العبارة شخصياً . لكن يبدو من الإشاعات الدائرة في بادر أن هيرتزل ينوي الطلب من الدوق الأكبر أن يرتب له لقاءً مع القيصر» .

«تبدو الإشاعات وكأنها تفيد بأن هيرتزل يعتقد بأن القيصر قادر أن يمارس الضغط على السلطان ليقبل عرض روثتشايلد» .

«ما هي احتمالات حصوله على لقاء؟» .

«لا أريد أن أسبب لك الملل بتفاصيل شجرات العائلات والزيجات المختلفة للعائلات الملكية الألمانية ، لكنني أكتفي بالقول أنه إذا رغب دوق بادن الأكبر في ترتيب لقاء هيرتزل بالقيصر ، فهو قادر على ذلك» .

«وإذا تمكن هيرتزل من التأثير في الدوق الأكبر، فهو قادر نظرياً على التأثير في القيصر . . .» .

سرح الباشا قليلاً «ولكن، بكل الأحوال، فإن رد فعل السلطان . . . .» .

«الأمر هو حتماً هكذا يا باشا . لا أعتقد أن هناك تضارباً في المصالح إذا أنا أخبرتك، وسمحت لك بترتيب أوضاع بطاتك كما يقول المثل» .

«حسناً، يبدو أن الأمر حالياً خارج عن أيدينا أيها البارون . إن قضيتنا مع اليونانيين هي أكثر إلحاحاً بكثير في الوقت الراهن» .

«ماذا عن اليونانيين؟» .

«على ما يبدو أنهم يشعرون بالتوتر، ولكن لا داعي لأن نقلق على هذا الأمر هذه الليلة، خاصة مع اقتراب حلول الشتاء . فهل نعود إلى الحفل الغنائي؟» .

«فقط إذا كنا مضطرين يا باشا . أمر آخر بكل الأحوال، ربما لن تكونوا مضطرين إلى القلق من اليونانيين، ولكن ألستم قلقين من البريطانيين؟» .

«ولماذا يفترض فيَّ أن أقلق من البريطانيين أيها البارون؟» .

«إنهم يشيرون إلى مبارزتهم مع الروس على أنها اللعبة العظمى . قد يبدو وقعها كالكثير من الألعاب الرياضية، لكن أداءها كلعبة أمر خطير . أنتم تستضيفون الليلة أناساً يعتبرونهم رعايا لهم، وأقصد بكلامي هذا الخان ومذهبه . أليس هذا أمراً يسبب لكم القلق؟» .

«كل ما يريده السلطان هو إعادة بناء الخلافة القديمة وجمع المسلمين من كافة أنحاء العالم كما لم يكونوا منذ قرون ماضية . هل يمكنك أن تتخيل التأثير على العالم المسيحي لو أن البابا قد جرى لفه

في سجادة وداسته الخيل ، كما حصل للخليفة في القرن الثالث عشر؟ بينما روما تحترق حوله؟ ذلك هو ما كان مصير الخليفة في بغداد بعد حصار المغول ، ومازال على الإسلام أن يتعافى . إن سلطاننا يريد أن يعيد بناء الإسلام كما بنى البابا الكاثوليكية » .

«يا حلمي باشا : أنا على ثقة من أن لدى السلطان أكثر المقاصد نبلاً . لو كنت أؤمن بغير ذلك ، لما أقدمت على تدريب جيوشه» .

«أعتقد أننا أصبحنا أصدقاء . . . أنت وأنا ، لذلك سأكلمك كصديق . أنا واثق من أنك تعي بأن البريطانيين غير مهتمين بالبابا أو البابوية ، وسينظرون إلى اجتماعكم اليوم مع مسلمي الهند بأعمق قدر من التشكيك ، إذا لم يكن بالعداء المكشوف . خذ حذرك يا حلمي باشا» .

نظر إليه حلمي باشا بحدة للحظة ثم خفض رأسه .

«طبعاً أيها البارون . إن صوتك يحمل الحكمة التي توصلت إلى مراعاتها بمنتهى الاهتمام» .

«أتمنى لو أنك تراعيها عندما يتعلق الأمر بتلك الموسيقى المريعة» .

«هيًا الآن ، إنها ليست بذلك القدر من السوء» .

«كما تريد . هيًا افسح الطريق» .

الفصل العاشر

في وقت لاحق من تلك الليلة ، وفي مكان ما من بلاد البلقان ، حمل قطار الشرق السريع ثيودور هيرتزل والكونت نيولينسكي عائدين إلى باريس ، وكل طرقة على السكة القديمة يسمعها هيرتزل أشبه بصوت دق مطرقة على مسمار في نعش ما .

«هل أنت يا ثيودور واثق إذاً من أن اليهود الإنجليز لن يحصلوا على الأرجنتين؟» .

لم يحر هيرتزل جواباً . فقد ذهب إلى تركيا وهو لديه انطباع بأنه سوف يقابل السلطان ، كما أوحى إليه الكونت نيولينسكي بكل ثقة وإصرار . لكنه بدلاً من ذلك حصل على مماطلة من قبل الباشا . ورغم ذلك لم ييأس نيولينسكي .

«لكن الأرجنتين ليست خياراً سيئاً ، ها؟ حقول شاسعة والكثير من لحم البقر والنبيذ الفاخر ، أليس كذلك؟ طبيعي أنها لا تشابه النبيذ الفرنسي الفاخر بأي مقياس ، ولكن هذا لا يمنع وجود فرصة لأن ننشيء كروم أعنابنا . هاك شيء ما الآن . . . النبيذ اليهودي . . . فقط فكر في الموضوع . . . نجمة داود على الملصق ، ها!» .

ظل هيرتزل يهز رأسه مع استمرار نيولينسكي في الثرثرة ، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن يريد أن يفكر في الأرجنتين . يفكر في البيت وزوجته ، نعم . لكنه لم يكن قادراً بعد على مواجهة فكرة الأرجنتين .

«أقول يا ثيودور ، كيف هو وضعنا مع البابا؟ ثيودور؟» .

رفع هيرتزل رأسه

«لقد قابلت الكاردينال . على ما يبدو فإن البابا ما زال يلومنا على موت السيد المسيح ، وهكذا فقد ربط بمنحه الدعم لوطننا شرطاً شرعياً من نوع ما» .

«آها؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك؟» .

«التحول» .

«هل أنت تمزح؟» .

«كلا أيها الكونت ، إنني في غاية الجدية . لقد أخبرني الكاردينال بكل مرح وسماحة وصراحة في تعابير وجهه ، بأن البابا سيكون أكثر من سعيد لإعطاء دعمه لإقامة وطن يهودي ، طالما أصبحنا جميعاً كاثوليكيين» .

«أستطيع أن أرى عدداً من العوائق مع هذا الدرب . بالمناسبة ، كيف هي لغتك اللاتينية؟» .

«أفضل من عبريتك أيها الكونت» .

«آها! أفحمتني! هكذا أفضل يا ثيودور . لم يبد الباشا غير متحمس بالمرة ، أليس كذلك؟» .

«أجرؤ على القول أن الباشا يرى المنطق في قبول المبلغ الهائل الذي نعرضه مقابل ما هو في الواقع ، شريط صحراوي . بكل الحسابات ، هو الرجل الأكثر واقعية في البلاط العثماني وصوت المنطق في كل الأمور . ينبغي أن ننتظر لنرى إلى أي حدٍّ هو راغب في استخدام ذلك الصوت مع السلطان ، وما إذا كان السلطان مستعداً للاستماع أم لا . أنا لا آمل بالكثير بسبب رأيي في رغبته بمجرد الالتقاء بنا» .

«إذاً ماذا نفعل الآن؟» .

«نعود لنقدم تقريرنا إلى روثتشايلد . فهذا المشروع كله متعلق به وبأمواله . بعد ذلك ، سأقوم بزيارة أخرى إلى الدكتور هيكلر الطيب وأناجيله ، وبمشيئة الله ، سوف يرتب لي لقاء مع دوق بادن ، والذي بمشيئة الله مرة أخرى ، سيرتب لي الالتقاء بالقيصر . ثم نأمل أن يقتنع القيصر بمدى صلاحية قضيتنا وقيمتها ويضغط على السلطان بها . بمشيئة الله» .

«دعنا نأمل أن الله راغب» .

«فلنأمل .» .

***

المشكلة كما أراها يا خالي ، هي أن الأتراك ، أو السلطان على الأقل ، يظهر وكأنه قد نسي كل الأعمال الطيبة التي قدمناها لهم في الماضي . وأنا أقصد حرب القرم كأمر واحد . أنت لا تشن غزواً لروسيا كما فعلنا ، بالتعاون مع الفرنسيين ، لاحظ ذلك ، بسهولة . الإنسان ببساطة لا يقوم بذلك . ثم عادوا إلى الشكوى بعد أن ساعدناهم مرة أخرى بعد سان ستيفانو : لقد كان الروس يقرعون أبوابهم في ذلك الوقت حتماً . حسناً ، لقد دخلنا مصر ، والتي يعتبرونها ساحتهم الخلفية ، ولكن دعنا نواجه الأمر بصراحة ، هم لن يكونوا قادرين على إدارة مشروع في درجة أهمية قناة السويس ، وهكذا ترك الأمر إلى الناس الذين يقدرون - أي أبناؤنا بملابسهم الحمراء .

كان آرثر بلفور مستنداً بظهره إلى كرسيه وقد وضع رجليه فوق طاولة مكتب وزير الخارجية . داعب شاربه ، فتل عصاه ثم حك شاربه مرة أخرى بينما هو يفكر .

«وماذا أيضاً . آه نعم ، قبرص . هي قطعة ثمينة من الصخر بلا شك . أنا واثق من أن أسعار الأراضي هناك قد اخترقت السقف ، وأن

السلطان يأمل في التأجير . لا يخطر بذهنه أن هناك أسطولاً بريطانياً مرابط في المكان لحمايته . إن مقررات مؤتمر قبرص نفسها تصرح بكل وضوح أنه في حال تعرض الامبراطورية العثمانية لهجوم ، فإن بريطانيا العظمى مطالبة بل (ملزمة) لاحظ ذلك» ، شدَّد على الكلمة بدرجة خاصة «بأن تهب للدفاع عنها . ولكن طبعاً وبطريقة ما ، مازلنا على خطأ» .

أخرج جاسكوين - سيسيل «همهمة» تحبب مؤداها الموافقة بينما هو يتفحص خارطة للبحر الأبيض المتوسط على الجدار . رفع يده ولاحق أصبعه من مصر صعوداً إلى قبرص ومن هناك إلى كريت ، والتي طرق عليها بشرود .

«يبدو يا آرثر ، أن كريت هي التي تثير اليونانيين» .

«ذلك هو ما تخبرني به مصادري يا خالي ، وأنا أقصد بمصادري صحيفة التايمز ، طبعاً» .

«ما هي المشكلة على وجه التحديد؟» .

«يبدو أن اليونانيين يؤدون مسرحية لامتلاك الجزيرة ، فهم يدعون أن غالبية السكان هم مسيحيون على المذهب الأرثوذوكسي اليوناني . لقد تولوا زمام الأمور بأنفسهم ويقومون بارسال من يسمونهم المتطوعين لحماية مواطنيهم من الأتراك .

وقد قام الأتراك من ناحيتهم بتعزيز حاميتهم لأنهم يتوقعون المتاعب . على ما يبدو فإن كل الاحتكاكات والتحرشات المتبادلة على مستوى متدنٍّ ، موجودة كما هو متوقع في المواقف المشابهة . في الأثناء ، لدى الفرنسيين والروس وحتى الألمان سفن تقوم بالدوران حول الجزيرة للحفاظ على المظاهر . تقوم قواتنا بالعمل نفسه ، لكن الفارق هو أننا قادرون على تحقيق فارق كبير في النتيجة ، وأجرؤ على القول أننا

قادرون على تحديدها ، إذا أردنا ذلك» .

نقر جاسكوين - سيسيل على الخارطة مرة أخرى ، وكأنما سيقدم النقر حلاً بطريقة ما ، واستدار ليواجه بلفور .

«نحن نستطيع بالتأكيد أن نحقق فارقاً فيما يتعلق بكريت . نغلقها ولا نسمح لشيء أن يدخل أو يخرج . ولكن على أية حال ، فإن المشاكل تظهر على البر الرئيس» .

استدار وأشار إلى الحدود البرية بين اليونان والامبراطورية .

«هناك شيء يخبرني أن الطرفين لن يقتنعا بحصر القتال في الجزيرة وحدها . كلا ، سيضطر اليونانيون إلى القتال على البر الرئيس أيضاً . ولكن . . .» .

صمت للحظة بينما هو يتفحص الخارطة مرة أخرى . «لابد وأنهم واثقون إذا كانوا يحضرون لعملية في هذا الوقت» .

قال بلفور «إذا أردت رأيي ، فهم يثيرون ضجة كبيرة على لا شيء . دعنا نأمر الأسطول بأن يطلق بضع صليات من القذائف على أحد الموانئ أو غيره ، لنريهم ما هي الضجة الحقيقية . نخبرهم بأن لا يسببوا عدم الاستقرار في خطوط الملاحة» .

«المشكلة يا آرثر هي أن كريت بعيدة جداً عن خطوط ملاحتنا . انظر إلى هنا ، لدينا قبرص ومصر وقد أقفلنا عليهما . سيكون القتال محصوراً بكريت والأرخبيل اليوناني ، بعيداً جداً عن الأمكنة التي تحتاج سفننا إلى التواجد فيها . كلا ، دعنا نرى إلى أي مدى تصل هذه المشكلة ، وأكثر تحديداً ، ما الذي بوسعنا أن نكسبه منها . إذا ظهر وكأن الوضع سوف يقلق راحتنا بأية درجة ، وقتها تصدر الأمر إلى الأسطول وتجعله يقحم شيئاً من التعقل لدى كليهما ، اليونانيون والأتراك على حد سواء .

«وماذا عن الآخرين؟» .

«الآخرون يا آرثر؟» .

«فرنسا وروسيا يا خالي، وحتى ألمانيا في هذا الإطار؟» .

«إن الفرنسيين والروس ملتزمون باتباع خطتنا كما هو متفق عليه . سيكون من قبيل انعدام الحكمة أن يهملاها الآن . انظر إلى كيفية تشكل التحالفات القارية . فرنسا وروسيا ضد ألمانيا . النمسا والامبراطورية العثمانية متكافئتان حسب ظني . نحن قادرون على تمييل الكفة في أي اتجاه نريد . لذلك السبب، فإن ما نقوله في هذه المسألة الصغيرة، سيجري تنفيذه . اعمل على افهامهم هذه الحقيقة» .

«نعم يا خالي» .

«والآن، إذا حدث وتصاعد هذا النزاع السخيف حول كريت، فمن تعتقد أن الشخص الذي سيرسله السلطان إلى الجبهة؟» .

«حسناً، سيرسل أفضل رجاله، إذا كان يتحلى بالمنطق . لم يكن سجل العثمانيين في المعارك قوياً جداً في الآونة الأخيرة . لو كانت هذه اللعبة كريكيت، لكانوا حتماً يتحلون بالحكمة لو أرسلوا أفضل قاذفيهم» .

«ومن هو ذاك؟» .

«يبدو من مصادرنا في البلاط العثماني ومن تقارير السفير، أن الرجل المفضل في هذه الآونة هو حلمي باشا . هو رجل قدير ومخلص للسلطان كلياً وفي منتهى الواقعية قياساً على معايير البلاط» .

«إذاً، هل سيتولى قيادة قوات السلطان؟» .

«ينبغي علي أن أستشير السفير، ولكن من قراءتي للموقف فهو ربما أعلى رتبة وأكثر اهمية من أن يرسل إلى خط النار، من الناحيتين الفعلية والسياسية . إذا اتخذت الحرب منحى سيئاً بالنسبة لهم، وهذه

احتمالية حقيقية جداً ، فسوف يصبح السلطان في حينها مجبراً على الاستغناء عن خدماته . وهذه احتمالية غير جذابة ، ولذلك سيتم العثور على واحد أو اثنين آخرين على شاكلة الباشا» .

«طبعاً ، والاحتمال الأكبر هو أن يرغب حلمي باشا في زيارة الجبهة ، أليس كذلك؟ ليشاهد الأمور بنفسه ويقدم تقريره للسلطان؟ يتشاور مع القادة المتواجدين في المكان كما يقال» .

ابتسم بلفور «ستكون تلك احتمالية مميزة ، إذا لم تكن حقيقة مؤكدة على ما أسمعه عن هذا الرجل» .

«رائع . متى سيصل عملاؤنا المتخصصون؟» .

«لقد أرسل الفرنسيون رجلهم سلفاً ، لا أستطيع أن أفهم ما إذا كان الأمر متعلقاً بالغرور الغالي (الفرنسي) أم ذلك الرجل المتطرف ، ولكن هذا هو الواقع . سيصل الروسي والأرمني خلال يومين ، وقد وصل ذلك الشخص الذي نبشناه من ابردين أو مكان آخر إلى هناك ويقضي وقتاً في منتهى الإمتاع بكل الاعتبارات . لا يقدر أبناؤنا على مجاراته . إنه يعب الخمر مثل السمك ويقولون لي إنه يمتلك ما لا يحصى من ألعاب الحفلات . لا أستطيع الانتظار حتى أقابله» .

«حتماً ، يبدو مثل النمط الذي نريده . هل هؤلاء هم الرجال الوحيدون الذين استطعنا أن نجدهم؟ لقد ظننت أننا نقوم بتجنيد مجموعات من أربعة أو خمسة أشخاص» .

«لقد تخلف بعضهم إلى الوراء لدرجة أنهم في عداد الموتى ، وربما يكون هذا هو الواقع بكل الترجيحات . وقد قابل آخرون رجالنا أو الروس أو غيرهم ثم هربوا ببساطة عائدين إلى البلقان أو أي مكان آخر يتمكنون فيه من توجيه ضربة إلى الأتراك بأنفسهم مباشرة» .

زمجر جاسكوين - سيسيل «وهل ستقوم أنت بتقديم إيجاز لهم

عما ينبغي عليهم القيام به؟» .

«سأقوم بزيارة إلى الضيعة التي أنزلناهم فيها عند نهاية الأسبوع . وآمل أن أحظى بفرصة للقيام بقليل من الصيد أثناء وجودي هناك» .

الفصل الحادي عشر

بوم! تحولت فرقعة البندقية إلى هزيم الرعد أثناء تجاوب صداها عبر التلال المحيطة بالبيت الكبير . لم يكن أي من ڤارتنيان اوكيڤوركيان قد تأكدا من موقع البيت على وجه التحديد بعد ، لكنهما اكتفيا حالياً بمعرفة انهما في انجلترا . وقف الاثنان حالياً إلى جانب أحد العملاء البريطانيين على مرجة البيت الفسيحة ، بينما اتخذ روستوف دوره في الرماية على الهدف .

قال ڤارتنيان وهو يخطو إلى الأمام «ليس سيئاً يا أخي روستوف . ليس سيئاً على الإطلاق ، لنأمل أن تؤدي نفس النتيجة حينما تصبح تحت الضغط» .

حدجه روستوف بنظرة باردة «كن على يقين بأنني أستطيع ذلك يا ڤارتنيان» .

«هيًا الآن يا روستوف» قال ڤارتنيان بتودد وهو يرفع سلاحه إلى كتفه

«نحن الآن فريق واحد . فلنتجنب البرود . خاصة في هذا الريف الإنجليزي الجميل» .

بوم! جاءت طلقة ڤارتنيان في مثل دقة طلقة روستوف ، ولو أنها انحرفت إلى اليسار قليلاً ، لكنها مثيرة للإعجاب رغم ذلك بسبب المسافة .

قال روستوف «كما تقول يا ڤارتنيان» .

قال ڤارتنيان «روستوف هذا رجل قليل الكلام ، أليس كذلك يا أخي كيڤوركيان؟» .

بينما تمسح عيناه الهدف قبل أن يبتسم لنفسه ويعيد تنزيل بندقيته عن كتفه .

«يبدو الأمر هكذا يا ڤارتنيان . لا أستطيع إلا أن أشعر بأن هناك الكثير جداً مما لا يخبرنا به» . قال كيڤوركيان «ماذا تقول في المسألة ، أيها الشرطي مويلز؟» .

نظر مويلز ، العميل البريطاني الذي قام إلى جانب زميله الرقم اثنان بتجنيد ڤارتنيان من المشرب في ابردين وأركبه القطار صباح اليوم التالي ، نظر إلى سكين كيڤوركيان التي يحتفظ بها في حزامه بكل الأوقات ، وكأنما يتوقع عملية قتل في أي وقت .

«يعرف روستوف بقدر ما تعرفه أنت وأنا ، كيڤوركيان ، أو أنت أيضاً يا ڤارتنيان» .

ابتسم ڤارتنيان في وجه مويلز ووقف متوازناً أمامه ، ليس بعدائية مفرطة ولكن بدرجة كافية للاستفزاز .

قال وهو يبتسم للبريطاني «أراهن أن هناك الكثير مما أعرفه أنا ولا تعرفه أنت ، يا مويلز الفتي» .

أفرد مويلز كتفيه ورد الابتسامة ، رافضاً أن يخضع للاستفزاز ، «سنكتشف ذلك عما قريب ، أليس كذلك أيها الفتى المسن؟» .

عبس ڤارتنيان للحظة قبل أن يطلق ابتسامة كبيرة ويصرخ «ها!» .

صفع مويلز على كتفه بقوة «سنفعل ذلك حقاً يا مويلز . سنفعل حقاً!» .

حان دور كيڤوركيان ، فوقف بطريقته المتميزة يحدق في الهدف ،

وقد أمسك ببندقيته منخفضة لدى حوضه بيديه الاثنتين . فجأة، فتلها صعوداً الى كتفه وأطلق النار، وكل ذلك في لحظة واحدة . بينما تردد صدى الطلقة حول التلال والأشجار، نظر الثلاثة الآخرون ورأوا أن إصابته هي الأقرب بين الثلاثة حتى تلك اللحظة .

قال مويلز «نفذتها ببراعة يا كيڤوركيان، عمل جميل» . دار حول ڤارتنيان وربت على كتف كيڤوركيان أثناء مروره . «والآن، دعونا نرى ما إذا كنت سأتمكن من مجاراتكم بصفتي الممثل المحلي» .

على أية حال، ففي اللحظة التي رفع فيها البندقية ليسدد، جاءت صيحة من اتجاه البيت . كان كبير الخدم، وهو سيد كامل التهذيب يمكن لعمره أن يقع ما بين الخامسة والأربعين وربما السبعين، يتقدم نحوهم بخطوات سريعة .

«سيد مويلز! يا سيد مويلز يا سيدي!» وصل إلى مجموعتهم الصغيرة مبهور الأنفاس نتيجة الجهد الذي بذله في اجتياز المرجة .

«إنني في غاية الأسف لكوني أقاطع تدريبكم على الرماية يا سيدي . لقد أتانا خبر من لندن مفاده أن نتوقع وصول السيد بلفور في عطلة نهاية الأسبوع» .

قال مويلز «حسن جداً يا فوليت، أشكرك . هل قال السيد بلفور أو سكرتيرة أي شيء آخر؟» .

«لقد وقَّع سكرتيره على البرقية يا سيدي . وقد انتهت بمجرد عبارة «سيتم الكشف عن كل شيء . قف» .

نظر ڤارتنيان إلى فوليت مستفسراً «توقف؟ ما الذي ينبغي علينا أن نوقفه؟» .

ربَّت مويلز على كتف الأرمني «هو تعبير بسيط أيها الصديق ڤارتنيان» .

جاء دور كيڤوركيان الآن ليرفع حاجبه «ما الذي تعنيه بالتعبير البسيط؟» .

نظر إليه مويلز ورجَّح عدم الخوض بمقدار أعمق ، فتنحنح بدلاً من ذلك «لا عليكم . الرسالة تعني أن السيد بلفور سوف يخبرنا بتفاصيل مهمتنا حينما يصل . يستحسن أن نتأكد من قدرتنا على التحرك بمجرد إطلاعنا من قبله» .

«هذا جيد!» بدا ڤارتنيان سعيداً جداً «إذاً يجب أن نأكل ونشرب ونمتع أنفسنا هنا أيضاً . لأنه قد لا يبقى لنا وجود عما قريب» .

أطلق مويلز نظرة خاطفة باتجاه روستوف ، الذي بقي يراقب مجريات الأمور حتى اللحظة ، كما هي عادته . فقد تحدثوا سوية عن ميل ڤارتنيان الشديد إلى الاستمتاع .

قال بدون حماس «دعنا نرى ما يمكننا الحصول عليه أيها الفتى العزيز» .

***

دأب مويلز على التعرف على الجميع وتدريبهم فيما يعرفونه واختبروه ، من الناحيتين البدنية والذهنية ، منذ وصولهم إلى البيت قبل بضعة أسابيع .

كلٌّ من روستوف والأرميني خبراء في الأسلحة ، سواء كان ذلك بالأسلحة النارية أو تشكيلة السلاح اليدوي ، واكتشف مويلز بسرعة أنهم لم يكونوا غرباء عن المتفجرات أيضاً . عندما أطرى وعبر عن إعجابه بمهارتهم ، اكتفى كيڤوركيان بنفض كتفيه .

«لقد علمتني الفدرالية جيداً ، ووفر لي الأتراك العديد من الأهداف» .

«فهمت» هو كل ما تمكن من التفوه به بأدب .

استمر الأربعة في الجري مسافة أربعة أميال صباح كل يوم قبل الإفطار، وقد أصرَّ مويلز على أن يقوموا بجميع الواجبات المنزلية وأعمال الحديقة بأنفسهم. فقاموا بإحضار الماء واقتلاع الخضراوات من الحديقة خلف المنزل، كما قطَّعوا جبالاً من الحطب اللازم للنار. عندما أوضح روستوف أنه ليس خادماً، سارع مويلز إلى توبيخه.

«لا يسعنا أن نتحول إلى النعومة هنا في الريف يا روستوف. سيكون الحراس والجنود الذين سنواجههم تدربوا وعملوا مثل خيول الجر. ربما يصح أن مهمتنا ستقتصر ببساطة على سحب زناد بندقية ما من مسافة بعيدة، لكنني أشك في ذلك بقوة. الاحتمال الأكبر هو أنه سيتم إرسالنا إلى أمكنة أكثر ازدحاماً حيث سنضطر إلى استخدام أيدينا للتعامل مع الهدف. ولهذا عليك أن تمضي في عملك مثل بقيتنا».

عند هذا القول، قام روستوف بالتحرك باتجاهه مجرد خطوة، لكن مويلز أدرك التحدي عندما شاهده. فقد تكورت يدا روستوف وقال «ليس القرب مشكلة بالنسبة لي».

قبل أن ينتبه روستوف إلى ما يجري، كان مويلز يحمل سكيناً في يده، رفعها بينهما في هذه اللحظة.

«ولا يشكل معضلة بالنسبة لي أيضاً يا روستوف. لكننا ما زلنا سنقطع حطبنا بأنفسنا».

نظر روستوف إلى السكين ثم إلى عيني مويلز، وعندما رأى ما يريد رؤيته، هزَّ رأسه موافقاً.

قال «فليكن».

أجابه مويلز بهزة رأس، وعاد السكين ليختفي داخل كمِّه بنفس السرعة التي ظهر فيها.

جلس ڤارتنيان وكيڤوركيان يراقبان من الجهة الأخرى للغرفة ، اقترب ڤارتنيان من مويلز لاحقاً .

«لقد كانت تلك حيلة رائعة يا مويلز : جهاز مفيد جداً . كيف لك أن تتأكد من قدرة سكين مخبأ في كُم سترتك على إبطاء رجل مثل روستوف على أية حال؟» .

«لم أكن واثقاً . لكنني كنت راغباً في المراهنة على أنه إذا لم تتمكن السكين من أداء المهمة ، فإن المسدس القابع في كمي الآخر سيشكل الفارق» .

أجفل ڤارتنيان ثم نظر إلى مويلز بحدة ليتأكد مما إذا كان الرجل يمزح . عندما لم يلحظ أي رد فعل ملموس من الإنجليزي ، أطلق ڤارتنيان واحدة من ضحكاته التي يتميز بها وصفع مويلز على كتفه» .

«أنت يا مويلز رجل مثير للاهتمام . هلم بنا نتناول شراباً ثم تخبرني المزيد من الأمور المثيرة للاهتمام» .

كسب الإنجليزي احترام الرجال الآخرين ، لكن ڤارتنيان المرح بدا وكأنه يجد متعة خاصة في إغاظة روستوف المقل في الكلام . لاحظ مويلز أن السبب لم يكن انعدام الود لدى الروسي ، لكنه محترف إلى درجة أصبح واضحاً أن الأرمنيين غير معتادين عليها . استمر ڤارتنيان في دفعه والتحرش به بكل الأحوال ، واتضح أن كيڤوركيان لا ينوي أن يوقف المجريات ، حتى لو أنه لم يشارك فيها .

بعد الغداء في أحد الأيام ، وجد مويلز ثلاثتهم في قاعة البيت ، وقد انتصب ڤارتنيان والروسي أنفاً لأنف ، يزمجران على بعضهما بعضاً فيما بدا وكأنه عدد من اللغات . وقف كيڤوركيان على مسافة غير مبتسم ، وقد ارتسمت على محياه نظرة قناعة مسرورة . شاهد مويلز عند الزاوية البعيدة من القاعة اثنتان من الفتيات العاملات تلتفان

حول الزاوية ، وعندما شاهدتا ما يحدث ، استدارتا بنفس السرعة وانصرفتا في الاتجاه المعاكس .

تراجع روستوف الأصغر حجماً وأصلب عوداً قليلاً ، ثم دفع ڤارتنيان فجأة بعنف بيديه الاثنتين . ردَّ ڤارتنيان بضربة رأس حادة إلى جسر أنف روستوف .

صرح روستوف بالإنجليزية «سوف أقتلك!» وطوَّح ضربة باتجاه الأرمني . أمسك ڤارتنيان الرجل الأصغر حجماً ، واضطر كيڤوركيان إلى الابتعاد بينما استمر كلاهما في التصارع ، بداية فوق طاولة القاعة ، حيث أسقطا مزهرية ، قبل أن يتمكن روستوف من التطويح بڤارتنيان مستخدماً وزنه بفعالية مثيرة للإعجاب إلى الجدار ، ثم مال عليه وأخذ يلكمه في معدته . ركض مويلز وقد خشي أن يموت أحدهما أو الآخر أو حتى كلاهما وحاول أن يدخل بين الاثنين .

«كيڤوركيان! كيڤوركيان ، تعال إلى هنا وساعدني» .

بقي كيڤوركيان واقفاً وقد عقد ذراعيه «لا أظن ذلك يا سيد مويلز . إنني أخاف على حياتي مع هذين الحيوانين» .

لاحظ مويلز الابتسامة الهازئة على وجهه أثناء كلامه ، واستمر يحاول أن يجعل جسمه بين المقاتلين . نجح في النهاية حيث جاء ظهره لڤارتنيان ومواجهاً لروستوف .

استغل ڤارتنيان الفرصة ليوجه لكمة يسارية خسيسة بينما كان مويلز ممسكاً بذراعي روستوف .

«ڤارتنيان! عليك لعنة الله! ما الذي تفكر فيه؟» .

هدأ كلاهما قليلاً ، لكن ظل الاثنان على غضبهما بشكل واضح .

«حسناً؟ من هو الذي سيخبرني؟» شعر مويلز وكأنه مدير مدرسة .

تكلم روستوف أولاً «لقد أطلق ڤارتنيان تعليقاً على أصولي بلغته . لسبب ما ، يعتقد أنني لا أفهم حينما يتحدث هو وكيڤوركيان ، لكنني أفهم كل شيء» .

أحسَّ مويلز بالارتباك «هل شكَّك في أصلك؟» .

«إنه يتحدث عن والدتي!» عاد روستوف إلى الغضب مرة أخرى .

«آه ، فهمت» .

أراد ڤارتنيان أن يقدم حجته الآن «إنه ليس ملاكاً يا سيد مويلز . فقد تكلم عني بلغته . يظن أنني لا أفهم الروسية ، لكنني أفهمها . لقد قاتلت مع الروس في القفقاس ودول البلقان . أعرف ما قاله . . . لقد قال إنه ليس لدي أطفال» .

«لا أطفال؟» احتار مويلز من أمرين هما أساليب تفكير هؤلاء الناس ، وكذلك حقيقة أنه سرعان ما سيذهب معهم إلى مناطق معادية .

«نعم» وصل ڤارتنيان إلى أوج حماسه «يقول إنني أشابه الرجل الذي يرتدي فستاناً» .

«اعذرني ، لم أفهم؟» .

«أنت تعرف ، مثل هذا المدعو أوسكار وايلد» .

«صحيح . . فهمت» كان مويلز قد ارتاد مدرسة داخلية ولم تكن مثل هذه المباريات في التشهير والتحقير غريبة عنه ، لكن انقضى زمن على تواجده وسط إحداها . قال «ليست هناك سوى طريقة واحدة لتسوية هذا الخصام» .

قال روستوف «بالمسدسات» .

قال ڤارتنيان «بل بالسكاكين أو السهام» .

أطلق مويلز باتجاهه نظرة حادة «عندما تكونون في روما أيها السادة» .

قال روستوف «نحن لسنا في روما يا مويلز . نحن في هيرفورد شاير» .

«ما رأيكم بالمدفع؟» قالها كيڤوركيان بسخرية .

«قواعد كوينزبوري ، أنتما الاثنان فقط . في الحديقة لو سمحتما أيها السيدان» .

بدا على روستوف التشكيك «كوينزبوري؟» بينما لاح على الأرمنيين السرور .

شرح له مويلز «ملاكمة يا سيد روستوف» .

«آه ، يبدو لي هذا جيداً» . قال ڤارتنيان بشيء من الاستحسان الحقيقي في صوته .

«وأنا أيضاً» . قال روستوف

خلال عشرين دقيقة ، وقف الرجلان متواجهين في الحديقة لا يرتديان سوى قميصيهما .

ساعدهما كل من كيڤوركيان ومويلز على ربط قفازيهما ، وبدأ الإنجليزي يشرح القواعد بصبر وأناة .

«يمنع ضرب الرجل إذا كان واقعاً على الأرض . . . .» .

قال ڤارتنيان «ها! أنتم الإنجليز تقاتلون مثل الأطفال» وهو يدق قفازيه ببعضهما .

قال روستوف «ولا حتى الأطفال . لا يزعج الأطفال أنفسهم بالقواعد» .

«صحيح يا روستوف» .

اتضح أن مويلز قد نال كفايته من الكلام حد الملل «حسناً إذاً أنتما ، باشرا» .

تراجع إلى الوراء وبدأ الرجلان يدوران . لاحظ مويلز أن طاقم

العاملين في البيت : رئيس الخدم والعاملين والطباخة ومساعدتها ، قد اجتمعوا للمراقبة من مسافة كافية .

لم يكن هناك ما يمكن رؤيته حتى اللحظة . سدد كل رجل لكمة حذرة أو اثنتين ، لكن لم يكن أي منهما راغباً في إقحام نفسه . يمتلك ڤارتنيان الذراعين الأطول ، لذلك أصبح واضحاً أن روستوف سيضطر إلى الاقتراب إذا أراد أن يؤذي خصمه . مع ذلك ، استمرا في الدوران ، لكمة بعد أخرى ولم تصب أي منها . تقدم روستوف وكأنه سيهجم بيمينه فانطلقت يسرى ڤارتنيان لتصيبه بلكمة . توقع روستوف مثل رد الفعل هذا ونقل وزنه بخفة بحيث تفادى الأرمني المكشوف ووجه لكمة عنيفة مؤذية إلى كلية ڤارتنيان اليسرى . أخرج ڤارتنيان انفجاراً من الهواء ، أشبه ما يكون بالبالون وزمجر . أحسَّ بالأذى ، لكن ابتعاد روستوف لم يكن بمثل مهارة تقدمه ، فتلقى لكمة يمينية ذات صدى في جانب رأسه اثناء تراجعه .

قال ڤارتنيان من بين أسنانه المطبقة «سوف أقضي عليك من أجل هذه ، أيها الرجل الصغير» .

بدأ روستوف نفسه يتنفس بصعوبة في هذه اللحظات ، ولابد من أن رأسه كان يطنُّ بعد اللكمة الجانبية التي تلقاها ، لكنه واصل الابتسام «أنت بطيء جداً يا ڤارتنيان ، سيقبض عليك الأتراك ويسلخوا جلدك ببطء . بعد أن يستمتعوا بك قليلاً ، طبعاً . ربما هذا هو ما تحبه . . . .» .

ابتلع ڤارتنيان الطُعم الذي ألقاه إليه روستوف تماماً كما خطط له ، وطوَّح بيمينه مطلقاً صرخة أشبه بزعيق خنزير بري ، نحو رأس الروسي .

تفاداها روستوف بسهولة ، ثم وازن جسمه إلى ناحية مرة أخرى ،

وعاد إلى داخل منطقة ڤارتنيان المحمية . في هذه المرة ، عبس كلٌّ من مويلز وكيڤوركيان من شدة اللكمة على الكبد . تحرك جسم روستوف كله مع الضربة وانداحت قدماه إلى اليمين ، وقد وجَّه روستوف كامل ثقله خلف ذراعه اليسرى المعقوفة وقبضته الموجهة إلى أعلى .

بدا وكأن ڤارتنيان قد انقسم إلى نصفين حين تهاوى هيكله بالكامل . أطاع روستوف القواعد التي وضعها مويلز لهما ولم يعد يضرب خصمه . بالنسبة لدوره في المسألة ، لم يشعر مويلز بضرورة العد . فقد انتهت المعركة .

قال مويلز «حسناً ، هذا هو الوضع الآن إذاً» . وهزَّ كيڤوركيان رأسه مؤيداً .

ركع روستوف إلى جانب ڤارتنيان وقال بشيء من التعاطف «اسحب انفاساً عميقة يا ڤارتنيان . ثم يجب عليك أن تتمشى حتى يزول الألم» .

قال كيڤوركيان «لن يكون ڤارتنيان سعيداً يا مستر مويلز» .

«وهل ذلك لأنه خسر؟» .

«لا . أعتقد أنه يظن بأن إحدى الفتيات العاملات هناك قد أعجبت به . وسيظن الآن أن عواطفها سوف تتجه إلى روستوف وحده» .

«هل هذا صحيح؟» ألقى مويلز بنظرة إلى حيث يقف الطاقم ولاحظ أن الفتاة صغيرة الحجم ذات الشعر البني واقفة على رؤوس أصابعها وتحدق من بعيد في الرجل المصاب وقد لاح عليها القلق البالغ .

«حسناً ، إنها تبدو لي حالياً أكثر قلقاً على سلامة ڤارتنيان من إعجابها بقوة روستوف» .

«كما هو الواقع لكل الأمور، الزمن كفيل باظهار الحقيقة يا مستر مويلز».

***

وصل بلفور في اليوم التالي، وكان يوم سبت. منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها من عربته مصحوباً بسكرتيره الخاص، بات يجسِّد الحماس الشديد.

«حسناً، يا صديقي القديم مويلز. يبدو أنك أبقيت على فريقك الصغير في أتم اللياقة. وقد سمعت من مصدر موثوق جداً أنك جعلتهم يكسرون الكثير من الحطب، صح؟».

تساءل مويلز في نفسه عن الشخص الذي كان يزود رئيس مجلس العموم بالأخبار من بين أفراد الطاقم «الحقيقة هي أننا قمنا بذلك، أيها السيد الوزير. ذلك يحافظ على قوة الذراعين والكتفين، كما يبقينا نحن الآخرين دافئين في الأمسيات».

«خاطبني بآرثر أيها الصديق. الآن وبعد أن أعيد أصدقاؤك الثلاثة من اليخت البيرتا إلى الخدمة المنتظمة، أو مهما كانت صفة المنتظم في نوع عملكم، يجب أن لا يقوم بيننا الكثير من الرسميات».

«كما تقول يا... آه» لم يقدر مويلز أن يجبر نفسه على أن ينادي الرجل آرثر «سيد بلفور».

ابتسم بلفور وهزَّ عصاه باتجاه العميل «جيد بما يكفي! تمام، دعنا نتعرف على فريقك هذا».

تمشياً في طول الردهة إلى الصالون حيث جلس الثلاثة الآخرون ينتظرون.

«غريب...» فكر بلفور وهما يمران بالطاولة الموجودة بالردهة.

«يبدو أنني أتذكر وجود مزهرية جميلة هناك في المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا» .

«ايه ، نعم يا سيدي» . قال مويلز بدون أن يفصح .

دخلا الغرفة ليجدا كلاً من الرجال الثلاثة جالساً مرتاحاً . كان ڤارتنيان يداعب النار وروستوف يقرأ ، بينما استمر كيڤوركيان يشحذ سكينه بشيء من عدم الاكتراث ، قال بلفور «هؤلاء إذاً هم الرجال المرجوِّن ، إيه مويلز؟» .

«نعم يا سيدي . هذا الرجل إلى اليسار هو ڤارتنيان ، وإلى يساره روستوف ، بينما صيادنا المتخصص هنا هو كيڤوركيان» .

«أيها السادة ، هذا مصدر سعادة وشرف لي . ليس الوقت مبكراً جداً على تناول شراب أليس كذلك؟ جيد! كينيك» . قال بلفور وهو يخاطب سكرتيره . «اذهب وانظر ما إذا كنت تستطيع أن تعثر لنا على شيء دافئ وقوي . طبعاً ، امنح نفسك حصة كبيرة» .

اختفى كينيك وبقي خمستهم في الغرفة الصغيرة .

استمر بلفور «وهكذا أيها السادة ، لدي الخطط هنا ، وأظن أنها سوف ترضي جميع طموحاتكم الوطنية المختلفة تجاه الامبراطورية العثمانية» .

أخذ الأجانب الثلاثة ومويلز يصغون بتركيز عند هذه النقطة .

«لا أعرف ما إذا كنتم تتابعون الأخبار هناك أيها الشباب ، مع أنني أرى نسخة من صحيفة التايمز أمامك هناك يا سيد روستوف . إذا كنت قد تابعت الأحداث القريبة ، فسوف تعرف أن اليونانيين والأتراك قد أمسكا بخناق أحدهما للآخر حول ملكية جزيرة كريت . بالنسبة للحكومة البريطانية وعلى رأسها رئيس الوزراء جاسكوين - سيسيل ، فإنها تعمل بشكل حثيث من خلف الكواليس على محاولة تجنب الصراع المكشوف .

في الوقت نفسه ، فقد تلقت حكومة صاحب الجلالة تأكيداً عبر أكثر القنوات الدبلوماسية سرية ، بأن الحرب سوف تستعر ، وأننا سوف نستغلها بدرجة كاملة . وهذا بدون أن يكون لنا دور فيها ، وهذا أمر مفهوم» .

أطلق ڤارتنيان صافرة خفيضة إعجاباً بمكائد بلفور ، لكن إعجاب روستوف بات جلياً .

اكتفى كيڤوركيان بالانتظار ليسمع المزيد ، وقد اكتسى وجهه بقناع من غياب العواطف» .

سأل مويلز «إذاً ماذا سيكون دورنا يا سيد بلفور؟» .

«حسناً ، يجب أن تفهموا أن لا التاج ولا رئيس الوزراء يفكران بأي هجوم مباشر على السلطان نفسه . ذلك سبيل سلوكه خطر ، ويخشى رؤساء دولتنا والوزراء أن ذلك سيجعل منهم أهدافاً ، ولذلك فبدلاً من استهداف العرش نفسه ، فنحن سوف ننجر دعاماته حتى نضعفها» .

سأل ڤارتنيان «ما هو النجر؟» .

«أيها السادة ، حتى نوضح الأمر بعباطة ، ستذهبون بأنفسكم إلى الخط الأمامي وتركلون الأرجل من تحت عرش السلطان» .

«أظن أنني فهمت ما ترمي إليه يا سيد بلفور» .

«لقد اعتقدت أنك قد تفهم يا سيد مويلز» .

الفصل الثاني عشر

راقب حلمي باشا بينما قام السلطان بالترحيب بالموسيقيين الزائرين .

إنه يرحب بهم وكأنه ليس لديه همٌّ في الدنيا . إنه يرحب كما ينبغي على السلطان أن يفعل . بصفته خليفة لكل الإسلام . ذلك هو السبب في كون كرامته ملوكية مهيبة .

على كل حال ، أدرك حلمي باشا أن ذهن السلطان مثقل بالهموم .

وكيف له أن لا يكون كذلك؟ بصرف النظر عن التحسينات التي طرأت على الجيش ، إذا حصل اليونانيون على قوة عظمى إلى جانبهم . . . لا أريد أن أفكر في العواقب . . . . روسيا على الأغلب . . . ليس الروس بحاجة إلى عذر للتحرك ضدنا مرة أخرى . يا لهم من قطيع كلاب .

اليونانيون . . . تقول القوى الغربية أن الإغريق قد اخترعوا الحضارة . لن أناقش هذه النقطة ، مع أنه من ناحيتي ، فقد حصل ذلك قبل ألفي سنة . ليس يونانيو اليوم هم إغريق افلاطون وبريكليس . إنهم رعاع متعطشون إلى الأراضي : لا يهمني كم من الشعراء قد انضم إلى قضيتهم . الأمر هو نفسه مع هؤلاء الصهاينة . يتمتعون بدعم الغرب الذي يريد أن يعيد بعث إسرائيل التوراتية . فهل يجرؤ أحد منهم على أن يقارن نفسه بسليمان أو داود؟ أبداً! لماذا لا يرى تلك الحقيقة

الرومانسيون في بريطانيا وفرنسا؟ إن رؤيتهم هي عبارة عن سراب لا سبيل إلى تحقيقه . ومع ذلك ، فهم يدركون أننا لم نعد امبراطورية سليمان العثمانية . نعم ، هم يدركون ذلك بسهولة ، ولديهم رائحة الدماء في خياشيمهم . . . أين سينتهي أمرهم؟ سوف أقوم بتدمير هؤلاء اليونانيين المحدثي النعمة من كل قلبي . يا لتهورهم لدرجة التحرش بالباب العالي! سوف أعمل على أن يتذوقوا طعم دوائهم ، قبل أن يحضر أي من أصدقائهم لينقذهم مرة أخرى . . . . .

«حلمي باشا! تعال وتعرَّف على ضيوفنا المتميزين!» .

تجاوبت أصداء صوت السلطان في جنبات قاعة الاستقبال المفتوحة ، وأسرع الباشا للانضمام إلى نصف الدائرة الذي التفَّت فيه المجموعة حول الملك .

قال السلطان بحماس «في هذه الليلة ، ستكون لدينا أروع موسيقى في بلاطنا ، يعزفها أعظم الفنانين» . انحنى حلمي باشا للضيوف وردَّ الموسيقيون له البادرة .

«أيها المايسترو ليوبولد أوير ، هل تسمح لي بتقديم مستشاري حلمي باشا؟ أعتقد أنه استمتع بالإصغاء إلى حفلة موسيقية لك في البلاط بفيينا» .

أحنى أوير رأسه «إنه لشرف أن نلتقي بالباشا النبيل الذي سمعنا عنه الكثير . لكنني أخشى أن جلالتكم يمتدح جهودنا المتواضعة كثيراً جداً . سوف نسعى إلى التأكد من أنه لن يخيب ظنه» .

لاحظ حلمي باشا أن الموسيقار يتكلم الفرنسية بطلاقة ، رغم أن اللكنة ظلت جرمانية بطريقة رنانة . أخبرت التجربة الباشا أن لكنته عائدة إلى التشكيلة النمساوية أكثر منها البروسية أو الباڤارية ، لكن بقيت هناك نسمة مجرية معلقة لأولئك الذين يعرفون ما يستمعون إليه .

قال السلطان «أنت شديد التواضع . لقد تأثرت بأدائك الأخير لنا هنا إلى درجة أنني لم أعد واثقاً من رغبتي في سماع قطعة موسيقية أخرى ثانية . أليس ذلك صحيحاً يا باشا؟» .

خفض حلمي باشا رأسه موافقاً «صحيح يا صاحب الجلالة . لم يتحدث أحد في البلاط عن أي شيء آخر لأيام عدة» .

شعر الموسيقار بالزهو من المديح «إنني إذاً أصلي حتى ترتقي هذه الليلة إلى توقعاتكم» .

«لا شك عندي في أنها سترتقي . ولكن الآن لابد وأن تعذرنا ، الباشا وأنا ، لأننا مضطرون إلى الاهتمام بشؤون الدولة . سيحرص هؤلاء الرجال على تلبية جميع احتياجاتكم» .

انحنى جميع العازفين كرجل واحد ، وشكر القائد السلطان بعمق قبل أن يقودهم الخدم مبتعدين . صرف السلطان بقية حاشيته بحركة من يده ، واتخذ هو وحلمي باشا طريقهم باتجاه مكتبه .

«ما هي آخر التطورات يا باشا؟» .

«إن ڤون دير جولتز والجنرالات بانتظارنا . ستكون لديهم أحدث المعلومات من الجبهة» .

«هل تطورت الأمور مع اليونانيين إلى الدرجة التي يمكننا فيها الآن التحدث عن جبهة؟» .

«أقدم اعتذاراتي يا مولاي . إن استعمال مثل هذه الكلمات أمور متهور ، ولكن في الوقت نفسه ، اعتقد أن الرومان هم الذين قالوا *إذا كنت ترغب في السلام ، استعد للحرب*» .

هزَّ السلطان رأسه أثناء مرورهما مرة أخرى من أمام لوحة سليم الأول .

«هذا صحيح ، لقد كان اسمه فيجيتيوس ، وقد كتب هنا في

القسطنطينية في القرن الرابع على ما أعتقد. رغم أن البعض يقولون بأن العبارة تعود إلى زمن أبعد، إلى افلاطون».

«يا صاحب الجلالة، إنني أنحني دائماً احتراماً لمعرفتك الفائقة بحكمة الرجال. رغم ذلك، ومع أنني أظن أنك محق في التشكيك حول ما إذا كان بإمكاننا التكلم عن «جبهات» وتعابير عسكرية أخرى مشابهة، إلا أنني أيضاً أؤمن بأن الوضع مع اليونان قد وصل إلى مرحلة حيث أن أصغر تراجع من ناحيتنا، حتى أقل رمشة عين، ستكون لها عواقب كارثية».

«قل لي يا حلمي، بيني وبينك وهذا الممر، كيف تتوقع أن يتطور هذا النزاع؟».

«إن اليونانيين متحمسون للقتال، وهم يتمتعون بثقة كبيرة. يعتقدون أن القوى الغربية سوف تساعدهم، بصرف النظر عن العواقب. لكنني على أية حال أعتقد أن القوى الغربية لن تقحم أنفسها في القتال القادم».

«وما السبب في ذلك؟».

«هنالك الكثير من الدسائس في هذه الآونة بين البريطانيين والفرنسيين والألمان وحتى الروس. اعتقد أنهم يحضرون لعملية ما، حتى مؤامرة. ولكنهم جميعاً مضطرون إلى التوافق مع بعضهم بعضاً حتى يتدخلوا في حربنا. إن المخاطرة بتدخل مكشوف سوف تؤدي إلى المخاطرة باستفزاز الآخرين، بما يشابه ما فعلته روسيا قبل حرب القرم. لا، أعتقد أننا في هذه المرة سننفرد بقتال اليونانيين وحدنا».

«وكيف سيكون أداؤنا يا باشا؟».

«سوف نسحقهم».

وصلا إلى مكتب السلطان. وقف كل من ڤون دير جولتز وأدهم

باشا وأحمد حفظي باشا حول طاولة كبيرة انتشرت فوقها الخرائط ، وهم يتحدثون بحماس ويدقون بأصابعهم على مواقع مختلفة . كانوا منهمكين في نقاشهم لدرجة أنهم لم يلاحظوا أن السلطان قد دخل الغرفة حتى تنحنح حلمي باشا بأن سعل بصوت عالٍ .

عند هذا ، انفتل الثلاثة ووقفوا بهيئة استعداد

«يا صاحب الجلالة!» قال أحمد حفظي باشا .

قال السلطان «سعيد برؤيتك يا حفظي ، لقد قطعت كل المسافة من ايبيروس إلى هنا في وقت ممتاز . كيف هي دفاعاتك؟» .

أجابه الجنرال «دفاعات يا صاحب الجلالة؟ إن الرجال الذين أقودهم في أيونيا لا يعرفون سوى الهجوم ، وإذا حدث وقامت أي عصابة من الخونة ، سواء أكانوا يونانيين أو غيرهم ، بالتطاول على أراضي الامبراطورية العثمانية ، فإن أبنائي يقفون على أهبة الاستعداد لمطاردتهم وطردهم حتى الثقوب التي خرجوا منها والصخور التي زحفوا من تحتها!» .

«ذلك حديث قتالي حسن يا حفظي : ليس لدي شك في أن ما تقوله سيتحقق» .

تقدم أدهم باشا خطوة «هل يسمح لي جلالتكم بتقديم إيجاز لكم؟» .

وصل السلطان إلى جانب الطاولة «أخبرني بكل شيء يا أدهم باشا» .

لاحظ حلمي باشا باستحسان أن أدهم باشا متألق بزي الجنرال الذي يرتديه ومع أن لحيته الكثة قد خطها الشيب الرمادي ، إلا أنه زاد في إعطائه المظهر العاقل والنبيل .

هذا رجل لا يمكن إرهابه أو زعزعته . . . وهو القادر على قيادة قواتنا إلى النصر . . . .

أشار أدهم باشا إلى الموانئ اليونانية الجنوبية .

«كما تعرفون جلالتكم ، فقد أعلنت القوات الثورية في جزيرة كريت عن نيتها في الانفصال والانضمام إلى المملكة اليونانية . تقوم تعزيزاتنا على الجزيرة بإعادة النظام واعتقال قادة الجماعات ، الأمر الذي أدى إلى هروب كثيرين إلى سفن البحريات الأجنبية الموجودة في الميناء . إنني أقترح أن نقوم بطردهم جميعاً على الفور» .

إن الحديث عن ذلك اسهل من تنفيذه يا أدهم .

«تخبرنا مصادرنا الآن أن الحكومة اليونانية تنوي إرسال سفن محملة بالجنود إلى الجزيرة انطلاقاً من هذه الموانئ» .

سأل السلطان «سفن محملة بالجنود؟» .

«نعم يا مولاي . نتوقع سفينتين أو ثلاثة محملة بما يصل إلى حوالي ألفي جندي» .

«وهل هؤلاء ينوون أن يغزوا امبراطوريتنا؟» .

«على ما يبدو فإن هذا هو الوضع يا مولاي . لقد قاموا أيضاً بتدعيم أعدادهم في ثيسالي وقطاع حفظي باشا ، إيبيروس . حسبما أعتقد ، فإن كل شيء يشير إلى أن اليونانيين سوف يستغلوا القلاقل في كريت لتوسيع سيطرتهم على البر إلى ما وراء موريا» .

قال حفظي باشا «الكلاب» .

قال السلطان «حقيقة يا باشا . كم تبلغ أعداد قواتنا مقابل أعدادهم؟» .

«لدينا قرابة خمسة آلاف جندي على كريت نفسها . إنها كافية للتعامل مع قوتهم المعتدية . بعد ذلك ، فإن جيشنا مقسوم إلى تشكيلين . في الأيام القليلة القادمة ، أقدر أنه سيكون لدينا ما يقارب الثمانين ألف جندي ، ثلاثين إلى أربعين ألفاً في ايبيروس وربما يصل

إلى خمسين ألفاً في ثيسالي» . بدا على أدهم باشا الاقتناع والرضى بالأرقام التي استطاع أن يعددها لسلطانه .

سأل حلمي باشا «ماذا عنهم؟ ما هي أعداد قواتهم؟» .

أجاب أدهم «أقل قليلاً» وهو مستمر في التحديق بالخارطة وكأنه يستطيع أن يستوحي الرد بدراسة خطوطها . «نفهم مما تستطيع استخباراتنا أن تخبرنا به ، بأننا نتفوق عليهم عددياً بحوالي الربع» .

قال حلمي باشا «ليس هذا كافياً في أية حرب حديثة ، مع أنها تساعد . ولكن ماذا عن المدفعية الثقيلة؟ الفرسان؟ السفن؟» .

قال أدهم باشا «الوضع معقد» وظهرت عليه علائم انعدام الثقة بنفسه فجأة .

«هل قلت معقد؟» .

«نعم ، فيما يتعلق بقوتنا البحرية ، فإننا نتفوق على البحرية اليونانية عددياً ، ويفترض فينا أن نكون قادرين على بذر الفوضى في بحارهم . لكن سفنهم أحدث من سفننا ولديها القدرة على التسبب بالأضرار . ولكن على كل ، فإنني أقدِّر أن لا يكون هذا الضرر كافياً لتغيير نصرنا المطلق» .

سأل السلطان «ما هو نوع الضرر الذي يمكنهم التسبب فيه؟» .

«قصف موانئنا بالقنابل ، واحتمال إغراق أو إعطاب بعضٍ من سفن أسطولنا» .

«للإنصاف ، فإن كل صراع يجيء ومعه الاحتمال لمثل هذه الأحداث . هي الحرب في نهاية الأمر» . استنتج السلطان .

استمر أدهم باشا «فيما يتعلق بقواتنا البرية ، فأنا على ثقة من أنه بوجود أعداد قطع المدفعية الثقيلة والفرسان ، فإننا سوف ننتصر في جميع مسارح العمليات» .

تكلم ڤون دير جولتز للمرة الأولى «إذا سمحت لي يا صاحب الجلالة؟» .

«طبعاً أيها الجنرال . أنت تعلم أننا نقدر عالياً معرفتك ونصيحتك في هذه المسائل» .

«أثناء الحرب مع فرنسا ، كانت الأعداد في صالحنا . على الرغم من أن الولايات الألمانية كانت أصغر من فرنسا بكثير ، توفر لدينا ضعفي عدد جنودهم المدربين . ساعدنا ذلك الوضع كثيراً . ولكن الفرنسيين امتلكوا مدافع أفضل . كان ذلك قميناً بخلق حالة تساوٍ في الأعداد . في الحقيقة كان ذلك أكثر من كاف للتعديل . لكن لم يكن لدى الفرنسيين تنظيم ولا حتى دراية بأفضل الطرق في استخدام أسلحتهم . وكانت النتيجة أننا انتصرنا» .

أصغى السلطان وجنرالاته إلى الألماني بتركيز ، بينما استمر السلطان يهز رأسه ليظهر فهمه .

«منذ أن تسلمت قيادة المهمة الألمانية لتدريب قوات جلالتكم ، فقد حرصت على أن تكون البنادق التي يحملها جنودكم هي أحدث ما يمكن الحصول عليه . نتيجة لذلك ، فإن رجالكم أفضل تسليحاً من اليونانيين ببنادقهم ذات الطلقة الواحدة . يستطيع جنودكم الاشتباك مع العدو بدقة أكبر من مسافة أبعد . في الوقت نفسه ، فقد دربناهم ومرنّاهم بدنياً على الشؤون العسكرية بنفس مهارة جنود قيصرنا نفسه . إن جيشكم أفضل من جيشهم كرجل مقابل رجل . إذا استطعتم أن تقودوهم بحكمة وتلهموهم ليقاتلوا كما أعرف أنهم قادرون ، فسوف تنتصرون . لا تخلطوا بين الاستراتيجية والتكتيكات ، كما يبدو أنهم يفعلون : اعرفوا من أنتم وما الذي تقاتلون لأجله . تلك هي استراتيجيتكم : وسيتكفل جيشكم بالتكتيكات» .

قال السلطان «أشكرك أيها الجنرال البارون ڤون ديرجولتز . نحن ندخل هذه المعركة أكثر ثقة من أي وقت آخر في هذا القرن بفضل إنجازاتك . أنت رجل من الغرب ، فلذلك ، إلى أي درجة يحتمل حدوث التدخل الأجنبي في هذه الحرب القادمة حسب اعتقادك؟» .

«أعتقد أن هناك كثيرين ممن سيصرخون طالبين من القوى أن تساعد اليونانيين . اعتقد كذلك أن العديد من قادة القوى الغربية سيرغبون في إلقاء ثقلهم في الميدان رغبة في الحصول على مكاسب ما لأنفسهم . على أية حال ، أظن أن القوى منقسمة حالياً بدرجة عميقة فيما يتعلق برؤيتهم لمستقبل الامبراطورية . . . . يطوِّرون خططهم للانخراط ، إما فرادى أو بطريقة أخرى . هناك الكثير جداً من احتمالات الصدام مع قوى أخرى إذا هم تدخلوا . فعلى سبيل المثال لن يتحمل الروس أي استيلاء بريطاني آخر على مناطق عثمانية والعكس صحيح . فإذا أخذنا ذلك بالاعتبار ، فهناك الكثير جداً من المتغيرات التي تجعل أي توقع دقيق في منتهى الصعوبة» .

قال حلمي باشا «إن آراءك مبنية على أسس سليمة ، أيها الجنرال البارون . يا صاحب الجلالة بالنسبة للوقت الحاضر ، فإنني أنصح بأن نستمر في نهجنا الحالي بإظهار قوتنا ورفض التراجع في وجه التهديدات اليونانية . فإذا قامت القوى بفرض إحساسنا بوجودها ، فسوف نتعامل مع ذلك الوضع حسب تطوره» .

«نحن متفقون معك يا حلمي باشا» .

قال حلمي باشا «إنني أيضاً أحب أن أتولى قيادة قواتنا بشكل مباشر» .

«أخشى أنني لا أستطيع أن أسمح بذلك يا باشا» قال السلطان «فأنت تمثل قيمة عالية جداً بالنسبة لي هنا . يا حفظي باشا ، ستظل

أنت القائد المباشر للقوات في ايبيروس . يا أدهم باشا ستكون لك القيادة العامة لقواتنا في كل مسارح العمليات ، على كل حال . إنني واثق من أن القيادة المركزية تناسب مقترحكم للتنظيم ، أليس كذلك يا جنرال بارون ڤون ديرجولتز؟» .

هزَّ ڤون ديرجولتز رأسه موافقاً ، لكنه لاحظ خيبة الأمل لدى زميله الجندي المسن حلمي باشا .

سأل «هل تسمح لي جلالتكم بإبداء مقترح آخر؟» .

«أي شيء أيها الجنرال» .

«هل يمكن أن نحظى أنا وحلمي باشا بالإذن منكم للقيام بجولات على ميادين القتال وتقييم الأوضاع على الأرض ، حتى نكون في وضع أفضل لتقديم النصح لجلالتكم؟» .

ابتسم السلطان للمرة الأولى في الاجتماع .

«أستطيع أن أرى أنني في موقع الأقلية وأنه حتى العجائز مثلكما يريدان المشاركة في القتال . أنتما أدرى بما هو أنسب» .

أطرق كل من ڤون ديرجولتز وحلمي باشا إلى الأرض .

قال السلطان «ولكن ، أنا لا أستطيع أن أتحمل وجودكما هنا تتجولان في أرجاء القصر مثل صبيين عابسين . اذهبا ، واكتشفا ما يحدث هناك بإذني ، ولكن تذكرا أن أمري المباشر الصريح لكما هو البقاء على قيد الحياة . هذه كلمتي كمليككم . ابقيا بعيدين عن مرمى قذائف المدفعية وما شابهها» .

ابتسم كل من جنرالي السلطان «إننا نعطيك كلمتنا يا مولاي . قال حلمي باشا وهو يشعر بالرغبة في أداء رقصة سريعة» .

الفصل الثالث عشر

هناك بيت صغير خلف قصر يلدز ، وسط ساحة داخلية يمكن اغفاله بسهولة على أنه مسكن للخدم . لم يكن أي شيء يميز البيت . يحتوي على باب أمامي وأربعة شبابيك : اثنان علويان وآخران سفليان ، وصفين من أحواض الزهور المتألقة أمامه ، مشابه كثيراً لما قد يراه الشخص في منزل أي تاجر ذي كبرياء من الطبقة الوسطى .

مثل الأبنية الطويلة الشبيهة بالاسطبلات على الجانبين ، كان البيت خالياً من العيوب . تلتمع خشباته المطلية بالأبيض اللماع تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة ، ويمنحه الخط الأزرق مسحة جمال أخاذ لدرجة أنه حتى الناس الذين لا يهتمون بمثل هذا التزويق لا يظنون أنه أكثر من بيت عطوف عند النظرة الأولى .

لم يسمح إلا لأشخاص قلة منتقين بعناية بالحق في دخول هذا المختلى ومعاينته ، وأقل منهم أولئك الذين يقدرون على المجيء والذهاب حسب رغبتهم . فقد قضي على الكثير من السير المهنية الواعدة أو انهيت كلياً بعد أن قامت عينان غير موافق عليهما قد وجدتا نفسيهما تستمتعان بأزهار التوليب المعتنى بها ، وظل المخطئ في أغلب الأحيان جاهلاً بالاعتداء الذي قام به .

دارت قصص في وزارة الدفاع عن كيفية إحضار الرسائل التي يتوقع منها إحضار أنباء الترفيعات إلى جهاز البلاط الملكي أو أي منصب مرموق آخر ، وبدلاً من ذلك تجلب النفي إلى قرية طينية في

البانيا أو ربما موقع نتن في الصحراء الغربية . هكذا كانت العقوبات على دخول هذا الموقع غير البارز والمقدس برغم ذلك ، بدون تصريح .

لو حصل وتمت تسمية أحد ما من بين القلة المنتقاة وسمح له فعلاً بعبور العتبة ودخول البيت ، فإن الانطباعات الأولى سوف تتنوع بين الخيبة من الديكور المنزلي البسيط ، أو بالنسبة لأصحاب النظر الثاقب والعالم بالمهارة الحرفية ، الإعجاب بالمهنية العالية الموجودة في النشر والدهان والتنعيم للطاولات والكراسي المصنوعة من خشب اللزاب التركي . قد لا تكون القطع مزوقة وتبدو بسيطة للعين ، لكنها كانت تنطوي على توازن مدروس وغياب للزوايا الحادة وتلزيق مثالي للخشب . واضح أن حرفياً مثالياً قد سخر موهبته في عملها .

في الطابق العلوي ، كان البيت بنفس الأسلوب ، تقليدياً في غياب الديكور البهرجي ، فيما عدا خزانة المياه خلف أحد الأبواب ، والتي تخبر الزائر بأن المبنى مزود بالأنابيب والمجاري الداخلية ، وهي ميزة نادرة لبيت بذلك الحجم . كذلك هي مظاهر الإنارة الكهربائية نادرة إضافة إلى المفاتيح الكهربائية اللازمة لإضاءتها . سيدرك الزائر نفسه لدى رؤية هذه الإضافات فجأة أنه على الرغم من غياب مظاهر الثراء الخارجية أو الرقي ، فإن من يعيش في هذا البيت هو شخص متميز جداً حقاً .

هناك بضع درجات داخل غرفة نوم في مؤخرة البيت تؤدي إلى باب ، والذي بدوره يفضي إلى بلكونة خارجية واسعة وشرفة ، حيث سيكتشف الضيف الفضولي والمنبهر إلى حد ما ، المنظر الأكثر إثراءً للروح مما يمكن تخيله من مضيق البوسفور والقرن الذهبي ، إذا استدار نحو مقدمة البيت ولف عنقه ، فإن بحر مرمرة سيكون مرئياً من الخلف ، من فوق أسطح الأبنية ومآذن المسجد ومجمع القصر .

امتد التاريخ والزمن أمامهم من ذلك السطح ، وعكس المرور البطيء للسفن الحربية وسفن المواد الغذائية وقوارب الصيد عبر المياه ، مجيء وذهاب عصر أو الذي يليه ، عبر الزمن القديم وحتى الحديث .

لقد كان هو المنظر نفسه الذي دفع بالقياصرة الرومان إلى التخلي عن روما وبناء عاصمتهم الجديدة التي تشرف عليها هنا في الشرق . في ذلك الزمن ، وكما هو الآن ولكل الأزمنة فيما بينهما ، كانت المياه الزرقاء المسالمة لذلك المرفأ الطبيعي موضوع الحروب والمؤامرات لأعظم الامبراطوريات التي شهدها العالم على الإطلاق ، تتنافس للسيطرة عليها .

جلس السلطان عبد الحميد الثاني في هذه اللحظة في كرسي مريح طويل قابل للطي ، ينظر إلى كل ذلك وهو يرشف شايه بمنتهى الأمان . وصلت سفينة شحن جديدة إلى مرمى بصره فنهض مسرعاً ليشاهدها عن قرب من خلال عدسة تلسكوبه . أخبرته العدسة اسم السفينة وموطنها بالإضافة إلى تمكينه من رؤية وجوه البحارة أثناء قيامهم بعملهم على سطح السفينة .

تشرَّب السلطان كل التفاصيل ، وبعد أن شعر بالاقتناع ، عاد إلى الجلوس وكتب ملاحظة في دفتر الملاحظات الكبير المغلف بالجلد على الطاولة المحاذية له . تناول كأسه وأمسك به بكلتا يديه للحظة ، محدقاً أمامه قبل أن يتناول رشفة أخرى .

«هل هي سفينة حبوب؟» .

الصوت الذي أتى من ورائه جاء في رقة أوراق مخطوطات القرون الوسطى التي أكبَّ عليها في مكتبه ذلك الصباح . استدار مبتسماً ونظر إليها خلفه . أضاء وجهها الشاحب ليس فقط بالعينين الداكنتين الجميلتين اللتين نظرتا إليه بلمحة خفيفة من الشقاوة ، بل أيضاً

بالتعبير المجرد من كل همٍّ أو قلق . هي خليلته جواشه ماشه كادين ، ذات الوجه الملائكي ، باتفاق الدنيا كلها ، وحتى مجرد رؤية جمالها كانت كفيلة بتحسين مزاجه بصرف النظر عما جلبه ذلك النهار إليه من معضلات . جواشه ماشه اسم شركسي معناه «الملكة الصغيرة» ، هو الأكثر ملاءمة من أي اسم آخر سمعه السلطان على الإطلاق .

قال «هي روسية واسمها الـ«دومينيكا» وهي في طريق عودتها إلى شبه جزيرة القرم» .

رفعت يدها لتظلل عينيها ونظرت إليها على البعد . أشارت إلى السفينة الكبيرة التي توشك على عبور طريقها .

«وما هي تلك الأخرى؟» .

أعاد كأسه إلى الطاولة ونهض قائماً لينظر من خلال تلسكوبه «تلك هي الحميدية» .

أضاء وجهها أكثر من ذي قبل

قالت «هي سفينتك» .

سرَّه فرحها وأحسَّ بمقدار من الفخر مثل أي رجل يمكنه أن يشير إلى سفينة تحمل اسمه . هي زوجته التي تصغره بكثير إلى درجة أن كثيرين ظنوا أن الزواج لن ينجح ، وقد أثبتت نفسها بقدر أكبر بكثير من مجرد زينة لمناسبات الدولة ، خلال سني زواجهما .

استدارت لتنظر إليه بدون أن تنزل يدها عن عينيها .

«هل ستبقى السفينة في المدينة؟» .

«أنت تسألين ما إذا كانت ستذهب إلى الحرب؟» .

اكتسب وجهها مسحة تصميم هادئ جعلته أكثر جمالاً بطريقة ما .

«وهل هذا معناه أن الحرب ستقوم؟» .

نظر إلى كرسيه ، ثم هزَّ رأسه ، وكأنه أدرك فجأة أنه قد أطال الجلوس .

بدلاً من الجلوس ، خطا إلى الأمام وأخذ يراقب الحميدية .

قال «نحن لسنا راغبين في أي حرب» .

«ولكن الحرب ستقوم ، صح؟» .

جاء صوتها هادئاً لكنه عازم .

«نعم ، يبدو الوضع هكذا» .

راقبت أصابع يده اليمنى وهي تنقر على فخذه ثم تتشكل في قبضة .

«ما الذي سيحدث؟» .

«يخبرني الجنرالات أن الجيش سيقاتل وأنهم سيهزمون اليونانيين ، ولكننا إذا بالغنا في هزيمتهم فإن القوى العظمى سوف تتدخل . وسيكون ذلك حظاً سيئاً» .

«كيف يمكن للشخص أن يكون حكيماً إلى درجة أن يتجنب الأخطاء يا صاحب الجلالة؟» .

«ها ، ليس الرجال الحكماء حكماء لأنهم لا يقترفون الأخطاء . . . إنهم حكماء لأنهم يدركون الأخطاء التي يرتكبونها ويقومون بإصلاحها» .

«هذه الحرب . . . الم نكن نستعد لمثل هذه الاحتمالية في السنوات العشرين الماضية هذه؟»

«نعم ، لقد فعلنا ذلك يا سيدتي ، ولكن . . . .» .

«لديك جيش من مئات آلاف الرجال . . . . مدربون من قبل رجال مثل ڤون ديرجولتز ، وهو الأفضل في أوروبا . لديك سفن مثل الحميدية . . . لديك شعب سيقاتل دفاعاً عن أرضه . هل تنسى أن

أسطولك البحري هو الثالث في الدنيا من حيث الحجم؟» .

هزته كلماتها .

«إنني مدرك لذلك . لكن يفترض فيَّ أن أخطو بحذر . قد تكون أرقامنا مثيرة للإعجاب ، لكن البحرية البريطانية ما زالت تشكِّل ضعفي حجم بحريتنا مضافاً إليها الفرنسية والروسية مجتمعين . الجيش الروسي متواجد هناك في بلغاريا ، ينتظر الأمر ليزحف نحو أسوارنا» .

«لن يجرؤوا» .

«بل سيفعلون . بوجود السفن البريطانية في موانئنا ومليون ايڤان خلفنا ، سوف يملون علينا شروطهم هنا في القصر . ربما قد يسمحون لي بالاحتفاظ بهذا البيت الصغير» . ابتسم وأكمل «لكنني أشك في ذلك» .

«ليس هذا القول مضحكاً» .

اتجه إليها ووضع يده على ذراعها .

«أعرف» .

تناول يدها بيده ، وأجرى المقارنة بينهما . كانت يده كبيرة وخشنة ، ويدها صغيرة وتكاد تكون قابلة للكسر . تعجب كيف يمكن لأصابعها النحيلة أن تكون أصغر من أصابعه إلى هذا الحد ومع ذلك تبدو لعينيه طويلة ورشيقة . أدارت يدها ثم عصرت برجمته الوسطى بين إبهامها وشاهدها ، تتحسس الجلد المتصلب .

«هل كنت تتصارع مرة أخرى؟» .

تبدَّل وجهه من محيا ملك إلى تلميذ خجول .

«ربما . . . أنتِ تعرفين أنهم يتساهلون مع رجل عجوز مثلي» .

«أنا لست قلقة عليك أنت . إنك تبالغ في إلقاء هؤلاء الصبية

حولك» . ضحك عند هذا القول .

«سأقول لهم أن مليكتي قلقة على صحتهم» .

رفعت رأسها لتبتسم له بعينيها اللوزيتين العميقتين إلى درجة أنه يمكنه قضاء الساعات الطوال في مجرد التحديق فيها .

«يعجبني أن تطلق عليَّ ذلك اللقب» .

«هي الحقيقة» .

«الحقيقة أيضاً هي أنه ينبغي عليك أن تهزم أعداءنا . أرسل البحرية» .

«أعداؤنا غير مضطرين للقلق من الانقلابات والدسائس مثلنا» .

«كلا ، ولكنهم ليسوا خائفين من إظهار قوتهم . الرجل المريض يبقي نفسه في البيت . أرِهم الحالة الصحية السليمة لامبراطوريتك وكيف تنوي أن تتعامل مع كل من يهدد الخلافة التي تنوي أن تقيمها . سواء انتصرت أو انهزمت ، سيرى المسلمون في كل مكان أنك قائد لا يخشى القتال ، وسوف يتبعونك» .

أطلقت الحميدية صلية من مدافع سطحها لتؤشر على حلول المساء ، وكأنها ترد على كلماتها .

استدار كلاهما بسرعة باتجاه الصوت ثم انفجرا ضاحكين على توتر أعصابهما .

شدَّت بيدها الصغيرة على يده بقوة أدهشته .

قالت «أرِهم ما فعلته وأجبرهم على الجري عائدين إلى التلال التي جاؤوا منها» .

شدَّ من عزيمته بمقدار القوة والفولاذ اللذين تضمنهما صوتها . قال «نعم ، دعنا نرى كيف سيحبون ما أعددت لهم» .

الفصل الرابع عشر

لم يكن ثيودور هيرتزل قد أصبح عصبياً إلى هذه الدرجة منذ وقت طويل جداً . لم يكن واثقاً من الكيفية التي أمضى بها الليلة السابقة ، لكنه تدبر أمره بطريقة ما . كان قد زار الإنجليزي ويليام هيكلر في شقته بوسط ڤيينا وتحمل أمسية من النبوءات ودراسة الإنجيل . تجرع هيرتزل ، وهو الذي لم يكن يكثر من شرب الخمر سابقاً ، كمية أكبر من المعتاد وهو يستمع إلى الكاهن المبجل يشرح باسهاب مواضيع غريبة سحرته ، إضافة إلى توقعاته المنذرة بالكوارث لمستقبل اليهودية ، إذا لم يتم إيجاد وطن جديد لهم بعيداً عن أوروبا . في إحدى المراحل ، جلس هيكلر إلى آلة الأورغ الخاصة به وأنشد لهيرتزل أغنية صهيونية . بالنسبة لهيرتزل ، فقد بات في حيرة من معرفة كيفية الاستجابة ، وهو حدث غاية في الندرة . ظل يأمل في الحصول على مؤشرات في أسلوب التعامل مع دوق بادن في لقائهم المحتوم .

قال المبجل ، وهو جالس مستنداً براحة في كنبته ويشير إلى جبل من الكتب والصحائف والخرائط واللوائح التي تغطي كل سطح متوفر من مكتبه .

«وكما ترى يا سيد هيرتزل ، كل شيء موجود في لوائحي» .

لاحظ هيرتزل وجود معداد واقف على مكتبه ، مع أنه لم يستطع أن يفهم الغاية التي يمكن أن يخدمها هذا الجهاز لرجل دين وقسيس سفارة .

قال بأفضل ما يمكنه من المرح «صحيح أيها المحترم ، ولكن لو استطعنا أن نعود إلى موضوع الدوق أنا أعتقد . . . .» .

«بالطبع يا سيد هيرتزل ، نحن سننجح دون شك في استمالة الدوق إلى قضيتك ، وكذلك ربما القيصر الألماني بعد ذلك ، نعم ، نعم ، لقد سبق ورأيت كل ذلك . لأن لوائحي . . .» .

أغمض هيرتزل عينيه مذعوراً وتجرع شربة كبيرة أخرى من البراندي الراقي الذي قدمه له المبجل .

والآن ، في الصباح التالي ، بات يشعر بالتأثيرات السيئة لإفراطه في الشرب . سببت له عصبيته تجاه اللقاء الحتمي مع الدوق التعرق حتى في برد الشتاء ، والحق سبحانه يعرف أن جسمه غير قادر على فقدان الرطوبة في حالته الضعيفة هذا الصباح .

«تذكر» كان القس هيكلر قد قال في الليلة الفائتة ، عندما استطاع في نهاية الأمر أن يقنعه بالتحدث عن الاجتماع «أن الدوق رجل ذواقة . وأرجو أن تفهم أنني لا أقول ذلك بقصد التجريح أو الإهانة يا سيد هيرتزل . الدوق محب لأسرته ، رجل من الشعب ورجل بنفسه طبعاً ، بكل ما في الكلمة من معنى» .

استمر هيرتزل يهز رأسه موافقاً ، محاولاً أن يفهم كل شيء رغم وجود الشراب القوي يقرع في ثنايا دماغه .

«ويجب أن تتطرق بإيجابية إلى هذه الميول يا سيد هيرتزل ، نعم . ارسم له صورة من التاريخ ، من المغامرة . سيفهم الدوق ذلك . هل كنت تعرف أنه عاشق لقصص الغرب المتوحش الأمريكية؟» .

«لم أكن أعلم أيها المبجل» قال هيرتزل وهو يتساءل عمن سيلعب دور الهنود أو رعاة البقر في قصة ملحمة الخلاص اليهودي .

«وطبعاً حاول أن تتقرب من إحساسه القوي تجاه العائلة : وأن

الوطن في يهودا سيكون مكاناً مناسباً لتنشئة أطفالك فيه . أنت لديك أطفال أليس كذلك؟» .

«نعم لدي أيها المبجل» .

«رائع! رائع! نعم نعم ، أستطيع أن أرى أنه لن يكون لدينا ما نقلق من أجله» .

«لقد كان نيولينسكي على حق» ، فكر هيرتزل لنفسه أثناء عودته المتعثرة إلى فندقه تلك الليلة «إن المبجل يجعله يبدو مملاً إلى حد ما» .

طلب هيرتزل عربة لتحضره بصحبة المبجل إلى فندق الدوق الجميل بدرجة البذخ صباح اليوم التالي ، وقد ساعد النسيم الجليدي الذي ظل يهب من خلال الشبَّاك على إنعاشه إلى حد ما . دلهم الحمَّال المرتدي شعراً مستعاراً ، ويبدو مثل دمية مصغرة لإحدى شخصيات سيمفونيات موزارت ، عبر المدخل الرئيس حيث استقبلهما موظف آخر ، وهذا الآخر يرتدي زياً أقرب إلى المعاصرة ، أدخلهما هذا عبر الردهة نزولاً في الممر الرئيس ، قبل أن يتوقفا أخيراً أمام مصعد البناية .

هنا ، تم تسليمهما إلى رعاية مستخدم آخر ، الذي شغَّل الآليات التي ستصعد بهما إلى حيث استولى الدوق وحاشيته على الطابق كله .

«أنا على ثقة يا سيد هيرتزل ، من أنك تذكر قولي بأن الأفضل هو أن تسمح لي بعمل التقديمات الأولية؟ أقصد ، أنت لست بحاجة إلى قول أي شيء حتى يخاطبك الدوق نفسه» .

في العادة كان هيرتزل سينزعج قليلاً حينما يتم التكلم إليه كطفل ، لكن الحقيقة هي أنه كان متوتراً لدرجة منعته من الشكوى .

قال «نعم أذكر أيها المبجل ، أشكرك» .

توقف المصعد ، وخرجا ليتم استقبالهما من قبل رئيس الخدم الذي وقف بوضعية الانتباه قبل أن يمنحهما الانحناءة الأكثر أصالة .

ميَّل رأسه قليلاً «أيها السيدان : المبجل هيكلر» خاطب الرجل المبجل بابتسامة ثم استدار نحو هيرتزل «السيد هيرتزل ، إنه لشرف لنا أن نستضيفكما . أرجو أن تتبعاني ، إن الدوق وفريدريك الأصغر ينتظران في غرفة الاستقبال حيث يأملان في أن تشربا شاي الصباح» .

«إنها متعة كما هو الحال دوماً «يا عزيزي إيرنست!» لاحظ هيرتزل أن المبجل بدا سعيداً بحق لرؤيته الرجل مرة أخرى .

«وكيف حال الصغيرين؟ أنا متأكد أن هينريش صلب كالعادة ، ولكن ماذا عن إيما الصغيرة؟» .

افتر وجه ايرنست عن ابتسامة عند ذكر اسمي طفليه ، وأعجب هيرتزل بقدرة دماغ المبجل على حفظ التفاصيل .

«إنهما بخير . بخير! أشكرك أيها المبجل ، طبعاً لقد وصل هينريش إلى السن الذي يحتاج فيه إلى التنفيس عن طاقاته الزائدة ، لكنني أبقيه منشغلاً» .

«نعم ، نعم . أذكر أنه كان يحب الخلاء دوماً» . قال المبجل بما يقارب الحزن .

«فعلاً ، هو هكذا . اعتذاراتي أيها المبجل ، لكن يفترض فيَّ أن آخذكما إلى الدوق لأجل الشاي كما تعلم» .

«أنت محق تماماً ، محق تماماً يا ايرنست . قُد الطريق!» .

أدى تبادل الحديث غير المتكلف بين الاثنين إلى زيادة اضطراب هيرتزل عن الفترة السابقة . فقد أعدَّ نفسه لاستقبال أكثر صرامة بكثير . قادهما ايرنست وهو ما زال يبتسم إلى قاعة أخرى وأدخلهما

صالة استقبال واسعة باذخة. كانت مزوقة بإسراف، لكنها تمنح إحساساً هائلاً بالاتساع، لاحظ ذلك هيرتزل بسرعة.

فكر أنه حتى التاجر الكبير يمكنه أن يحظى ببقعة مريحة هنا. جلس رجل في قرابة السبعين إلى طاولة معدة لأربعة أشخاص في وسط الغرفة. وصلت لحيته البيضاء الطويلة إلى ياقة بذلته الصباحية، ولكن بما يشبه الغرفة، لم يكن تفصيلها المكلف زخرفياً ولا استعراضياً. وقف خلفه رجل في حوالي الأربعين بملامح أكثر قسوة، يرتدي زي ضابط ويربي شارباً ذا مظهر عسكري، واضح أنه تقليد لشارب القيصر.

تنحنح ايرنست «يا صاحب السمو الملكي دوق بادن، هل تسمح لي بتقديم المبجل ويليام هيكلر والسيد ثيودور هيرتزل».

قلَّد هيرتزل هيكلر في انحنائه. قرر أن يقلده ويتابعه في كل حركاته منذ الآن فصاعداً. نهض الدوق واقفاً ونظر إلى زائريه ببرود شديد للحظة، قبل أن يطلق صرخة أرعبت هيرتزل حد الموت.

«ويلهيلم! أيها المبجل الطيب! توقف عن ذلك الانحناء والتذلل وتعال انضم إلي في الطاولة. سوف نتناول الشاي وأعتقد أنه سيكون هناك *سترودل*، مع أن الإنسان لا يمكن أن يتأكد أبداً. أنت تعرف فريدي هنا، طبعاً».

أشار الدوق برأسه باتجاه الرجل الذي أدرك هيرتزل الآن أنه ابنه والوريث المحتمل، الرجل الذي سيصبح فريديريك الثاني يوماً ما.

«طبعاً، أعرفه» قال المبجل بأسلوبه اللطيف المعتاد.

«كيف حال تلميذي القديم؟».

ابتسم فريدريك قليلاً وفهم هيرتزل على أنه الحد الأقصى لمودته، الأمر الذي بدا مغايراً بدرجة صارخة مع مرح والده الواضح.

«إنني بصحة جيدة جداً ، أشكرك أيها المبجل . أرجو أن تكون أنت تعتني بنفسك جيداً؟» .

«نعم ، نعم . لا أستطيع أن أتذمر . طبيعي أن دراساتي تشغل وقتي ، وكذلك مهماتي الدينية . لكن طبعاً فإن ڤيينا مدينة رائعة» .

عاد الدوق إلى الجلوس وانهمك في غرف السكر وتحريكه في فنجانه ، بينما بذل ايرنست الذي مارس الآن دور الساقي ، أقصى جهوده للخدمة وعدم التعرض لأحد بنفس الوقت . عند ذكر ڤيينا ، اكفهّر وجه الدوق وتعبيره الودي ، ثم رفع نظره باتجاه المبجل بحدة .

«هل السفارة هنا تحسن معاملتك كما آمل؟ أذكر أنك قلت بأن لديك شيء من النسب البريطاني من ناحية أحد والديك ، صحيح؟» .

«آه ، نعم . جيد جداً أشكرك يا صاحب السمو» .

«حسناً ، أنت تعرف كيف هو الوضع أيها المبجل . قل كلمتك ، وسوف يكون لدينا شيء لك لدى عودتنا إلى بادن . هايدلبرج ، لماذا لا تدرس هناك؟ إنها راقية أليست كذلك؟ إن استضافة رجل يتمتع بمثل حكمتك هي شرف . وأهم من ذلك ، لماذا لم تجلس بعد؟ تعال تعال»؟

كان فريدريك الأصغر سناً قد جلس مسبقاً إلى جانب والده ، وأخذ يضيف الليمون إلى فنجان شايه . وضع المبجل يده بلطف على ظهر هيرتزل ووجّهه نحو الطاولة إلى يسار الدوق .

«يا صاحب السمو ، إنها بلدة من أجمل ما يكون» ، قال المبجل وهو يهم بالجلوس «لكنني أشعر بأنني سأكون أكثر فائدة لكل من ألمانيا وبريطانيا إذا استمررت في العمل للوقت الحالي لتقريب هذين البلدين العظيمين من الجهة البريطانية ، لقد منحتني سفارتهم هنا في ڤيينا هذه الفرصة» .

انشغل الدوق بتحريك محتويات فنجانه، وشخر عند هذه النقطة.

«فعلاً، حسناً إن ذلك مسعى نبيل ومقدس. والآن أيها المبجل» قال وهو يدير عينيه نحو هيرتزل للمرة الأولى «ربما يمكنك أن تخبرني لماذا أحضرت يهـ.....» رفع هيرتزل رأسه «صحافياً إلى طاولتي». أنهى الدوق جملته بضحكة أخرى. لابد وأن هيرتزل قد أطلق زفيراً مرئياً لشعوره بالارتياح لأن الدوق صفعه على ظهره بأسلوب مرح. ثبت أن العجوز قوي بدنياً، لأن النتيجة هي أن الضربة أخرجت ما تبقى من أنفاس هيرتزل من رئتيه.

استمر الدوق يضحك لنفسه ثم قال «اعتذاراتي يا سيد هيرتزل، إنني أستمتع فعلاً بنكاتي الصغيرة، أليس كذلك يا فريدي؟».

«أنت حقاً تستمتع يا بابا» قال فريدريك بابتسامة خفيفة.

«آه، حضر السترودل! إنهم يحسنون طهيها، أليس كذلك أيها السادة؟ طبعاً، كان لدينا ذلك الشيف في كارلزروهه، أليس كذلك يا فريدي؟ ماذا كان اسمه؟».

«لا أستطيع أن أتذكر بدقة يا بابا».

واضح أن فريدي لا يمتلك اللمسة العامة التي يستمتع بها والده، فكر هيرتزل في نفسه، *أو ربما لا يهتم كثيراً بالسترودل*.

كان ايرنست يقود نادلاً يرتدي سترة بيضاء إلى داخل الغرفة، حيث أفرد الأطباق الأربعة ثم أضاف القشدة إلى محتوياتها.

«ربما تظن يا سيد هيرتزل أن الوقت مبكر قليلاً على الحلويات، لكنني أقول *ناين* لذلك. يجب أن نستمتع بالحياة طالما نحن نقدر، أليس الأمر كذلك؟ والآن قل لي، أنت صحافي، ولكن هل أنت رب أسرة؟ أم أنك واحد من هذه الأنواع المكرَّسة، الذين يدعوهم البعض بالمتشددين،

يتفرغون لقضية ما، ولا يعود لديهم الوقت لأي شيء آخر؟» استمر الدوق يمضغ بتلذذ بينما هو يتفحصه بعناية. في الأثناء، استمر ابنه في رشف الشاي وتقييم هيرتزل كما فعل منذ دخول الاثنين إلى الغرفة.

«لدي أسرة يا صاحب السمو. إنها هنا في ڤيينا، تقوم زوجتي جولي برعاية البيت وأطفالي وإبقائهم في حالة جيدة. وهي تجعل النقود القليلة التي أجنيها تكفينا لأكثر مما يمكن أن أظنه ممكناً على الإطلاق».

«جيد جداً! ذلك جيد يا سيد هيرتزل. حينما أخبرنا المبجل هنا عن خطتك لترحيل اليهود إلى فلسطين، يجب أن أعترف بأنني كنت متشككاً. ونجلي فريدي هنا، حسناً يمكنك أن تتخيل ما فكر فيه».

اعترف ابن الدوق بكلمات أبيه بأقل رفَّة من شاربه واستمر في رشف الشاي.

«فعلاً، لقد فكرنا أنك واحد من هؤلاء المجانين مثل ماركس. هل علمت أنه كان يعتاش من النقود التي كان شريكه... إيه...» نظر الدوق إلى فريدريك.

«إنجلز» ذكَّره فريدريك.

«نعم، ذلك هو الشخص!» استطرد الدوق «نعم، كان إنجلز يختلس المال من تجارة عائلته ويناولها لماركس حتى يعيش عليها، بينما هو يكتب سخافته. لكن الرجل كان بنفس طيبته كمصدر رزق لعائلته كامتيازه كمفكر وكاتب. ظل ينام في فراش واحد مع خادمه لأنه لم يقدر على تخصيص مكان لنوم خادمه. فكر في هذا الوضع!».

توقف الدوق عن الكلام ليضع في فمه ملء ملعقة من السترودل.

«بينما أنت يا سيد هيرتزل، تبدو مكرّساً، لكنك لست مجنوناً كلياً. ذلك جيد».

بات هيرتزل مسروراً لأن الدوق قد صادق على اتزانه الذهني . رغم أنه بقي خائفاً من أن يكلفه هذا الصباح غالياً في عقلانيته .

«إنني . . . . . أشكرك يا صاحب السمو» .

«لا حاجة يا سيد هيرتزل . الآن ، يقول المبجل الطيب أننا نستطيع أن نساعدك بتنظيم لقاء مع القيصر . هل هذا هو حجم مطلبك؟» .

«هو كذلك يا صاحب السمو» أعجب هيرتزل بصراحة الدوق ، لكنه أحسَّ بأنه ينبغي عليه أن يقول المزيد . «أعتقد أن القيصر لديه بعض النفوذ مع سلطان الامبراطورية العثمانية ، الذي يستطيع بالطبع أن يمنحنا الوطن الذي نسعى اليه» .

تكلم فريدريك الأصغر الآن «لماذا يقدم هو ، القيصر أقصد ، على استخدام نفوذه الذي حصل عليه بصعوبة بهذه الطريقة؟» .

ادرك هيرتزل أنه ينبغي عليه التصرف بحذر . لم يكن قادراً على تعداد دوافع القيصر ببساطة كما فعل مع نيولينسكي في عربة القطار . لأن الدوق في نهاية المطاف هو عم القيصر . دأب هيكلر على شرب شايه وأخذ لقيمات من كعكته بصمت وعدم الاعتراض حتى الآن ، لكنه خاطر بإلقاء نظرة باتجاه هيرتزل ليرى كيف سيرد . أحسَّ هيرتزل بعيون جلساء الطاولة مسلطة عليه .

بدأ بقوله «لقد قدم القيصر دعمه لخط حديدي جديد سوف يربط برلين باستنبول ويذهب كل الطريق إلى بغداد . إنها البداية لانفتاح الامبراطورية العثمانية وتحديثها . الخطوط الحديدية تفتح الأسواق . لدى ألمانيا أفضل المنتجات المصنَّعة في العالم . سيكون العثمانيون بحاجة إلى هذه المنتجات من أجل اللحاق بباقي أوروبا» .

قاطعه فريدريك «ذلك درس جيد في العرض والطلب يا سيد هيرتزل ، لكنه أيضاً لا يفسر كيف سيكون إحضارنا لك إلى القيصر مفيداً» .

«سيأتي عدد كبير من المستوطنين اليهود الذين سيسافرون إلى فلسطين ويبنون الوطن، من ألمانيا: مواطنون ألمان يتكلمون اللغة الألمانية. أليس وجود المزيد من الألمان في المنطقة أمراً مستحباً على المستوى الابتدائي المحض؟ سوف نحتاج إلى مواد تساعدنا على البقاء. وهذه بالطبع سيتم شراؤها من ألمانيا. بمجرد أن نستقر، سيصبح مواطنونا تجاراً ورجال أعمال، إضافة إلى مزارعين. نستطيع أن نساعد على نشر النفوذ الألماني عبر البلدان العربية ونضمن أنه في حال حدوث أزمنة صراع، لا قدَّر الله أن يقفوا مع ألمانيا وليس مع قوة أخرى. يا صاحب السمو، إن ما يعرضه وطننا لكم وللقيصر هو المدخل الآمن المستمر والثابت لأسواق وأمن الامبراطورية الألمانية. إنها مشيئة الله أن تصبح أرض كنعان وطناً لليهود، يقول الإنجيل ذلك، إنني أعرض عليكم الفرصة لتساعدونا».

استمر الدوق وابنه في النظر إليه لوهلة، بصمت. أفرغ فريدريك فنجان الشاي ورفعه باتجاه ايرنست ليعيد ملؤه، بينما استند الدوق إلى ظهره وقد عقد يديه فوق بطنه الضخم، وهو يقيِّم هيرتزل. استدار نحو هيكلر.

«هل تصدق هذا الرجل أيها المبجل؟ إنه يطرح قضية جيدة، لكنني أحب أن أسمع ما لديك لتقوله».

حبس هيرتزل أنفاسه. فقد حاول أن يتطرق إلى محاسن أمرين هما التجاري والروحاني، لكنه لم يستطع أبداً وفي كل لقاءاته أن يعرف الاتجاه الذي يمكن للمبجل أن يسلكه.

«تخبرني كل دراساتي ولوائحي أن اليهود في أوروبا بحاجة إلى مكان لجوء، يا صاحب السمو. لقد قابلت هذا الرجل وتحدثت إليه وقرأت ما لديه ليقوله، وأنا مقتنع بأنه الشخص القادر على القيام

بالعمل . إنه يتمتع بدعمي» .

نظر الدوق إلى ابنه ، الذي رفع يده التي يشرب بها الشاي بطريقة عفوية وكأنه يقول ، *ما هو الضرر الذي يمكن أن يسببه؟*

«إذاً سوف اتكلم مع ابن أخي عندما أراه في المرة القادمة وأرتب للقاء كليكما يا سيد هيرتزل . في الواقع ، أعتقد أنه قال شيئاً عن جولة سيقوم بها للشرق الأدنى في المستقبل القريب ، ألم يقل ذلك يا فريدي؟» .

هزَّ فريدي رأسه موافقاً .

«في هذه الحالة ، سيكون من اللائق أن يلتقي كلاكما في هذا الوطن المستقبلي الذي ترغب فيه ، أليس كذلك يا سيد هيرتزل؟ سوف يقوم بزيارة المواقع والإشراف على مد الخطوط الحديدية الألمانية ، ويمكنك وقتها أن تريه أين سيكون بيتك ، ها؟» .

أنهى الدوق كلامه بضحكة وأشار إلى ايرنست ليقترب ويقدم له المزيد من السترودل .

للمرة الأولى في ذلك الصباح ، ابتسم هيرتزل .

«اشكرك يا صاحب السمو ، سيكون ذلك . . . ذلك هائلاً» .

الفصل الخامس عشر

عاد آرثر بلفور إلى لندن ، وهو جالس مسترخياً في مكتب وزير الخارجية حيث يفضل جاسكوين - سيسيل أن يدير أعماله .

فكر لنفسه : *خالي هذا إنسان متعلق بعاداته* .

«ما هو انطباعك عنهم يا آرثر؟» .

«لقد بدوا لي كمجموعة جدية بما يكفي ، لكنهم متشوقون للعمل . لقد دأب رجلنا مويلز على تحسين لياقتهم البدنية هناك في الريف ، يأخذ قليلاً من الدهن من مكان ما ويضيفه إلى مكان آخر من اجسامهم حيث تدعو الحاجة اليه ، ذلك النوع من العمل» .

تكلم بلفور بثقة ، وهو مؤمن بالعملية ، ذلك أمر مؤكد ، ولكن . . هؤلاء الشرقيون معرضون للإثارة بدرجة عالية ، وهو يعرف مقدار عدم انصياعهم للأوامر .

إن عدد المحاولات الفاشلة في تجنيدهم ، فيما عدا ڤارتنيان وكيڤوركيان هي دليل على ذلك ، وحتى هذين الاثنين يسببان له القلق ، خاصة ڤارتنيان .

من الناحية الأخرى ، فقد أعجب بالفولاذ البارد الذي شاهده في عيني كيڤوركيان . فقد ظهر له مثل شاب قادر على دفع ذلك الفولاذ داخل بطن أي شخص ، أي شخص يعترض طريقه .

قال بغير اكتراث «قل لي يا خالي ، هل كان حلمي باشا هذا بصحبة السلطان عندما زارنا في الستينات؟» .

كان رئيس الوزراء قد أدار ظهره ليتفحص الخارطة للمرة الألف. كثيراً ما كان بلفور يظن أنه يعرف الخطوط الحدودية بالضرورة بحلول هذا الوقت إلى درجة تؤهله لأن يصبح رسام خرائط لا بأس به.

«ما الذي قلته يا آرثر؟».

«هذا الباشا يا خالي. هل سافر مع السلطان حينما قابلته؟».

فكر جاسكوين - سيسيل للحظة «لا، لست أذكر أنني قابلته. أقول هذا وأنا أذكر أن كل فرد من المجموعة التركية كان باشا من نوع أو آخر. لقد بدوا لي متشابهين تماماً».

«ماذا عن السلطان نفسه؟».

«آه، لقد كان شخصية مثيرة للاهتمام. مظهره يشبه الآخرين، ما عدا كمية زائدة قليلة من التطريز على زيه بالطبع. ولم يكن هو السلطان وقتها. لم يكن قد أصبح سلطاناً بكل الأحوال. كان احد اعمامه سلطاناً. طبيعي أنه تصرف كفرد من العائلة المالكة. يحترم نفسه وغزير المعرفة أيضاً. كان ديربي العجوز رئيس وزراء في حينها وقد سأله السلطان عن قانون الإصلاح الذي كان سيصدر في ذلك العام. لم يمتدحه كثيراً ولم ينتقده بنفس الوقت. لاح لنا الشاب وكأنه مهتم بصدق بردود الفعل التي قد يثيرها ذلك القانون. فقد قال لديربي العجوز «ألا تخشى من أن إعطاء ذلك الكم من الفقراء في بلادك حق التصويت سوف يؤدي إلى هبوط لا مناص منه في التأييد لحزبك المحافظ؟».

خشيت يومها أن يصاب ديربي بلوثة، فعلاً. وبعدها انتفض ديزرائيلي بسرعة البرق قائلاً «يا صاحب السمو، سيفهم الشعب دوماً أن العمل الطيب يستحق رد فعل طيب آخر!» استدار السلطان نحوه واطلق ضحكة مدوية على هذا الرد، وبعدها انسجم الرجلان بدرجة

كبيرة . طبعاً حصل هذا الكلام قبل مؤتمر برلين بسنوات .

لست متأكداً مما إذا كان الرجلان قد التقيا بعد ذلك . ومع هذا فقد أثبت السلطان نفسه كشخص قدير وفي منتهى الدماثة ، ولم يكن ضعيفاً كما قد تتوقعه . نأمل أن تعطيه هذه العملية التي نديرها حالياً الدفعة الصغيرة التي يحتاجها لكي يرى الأمور من منظارنا . بالمناسبة ، متى سيغادر أولئك الأشخاص؟» .

كان بلفور يصغي بتركيز تام ويعرف الوقت بدرجة كافية ، لكنه أخرج ساعته من جيبه ليتأكد .

قال وهو ينظر إلى تحت «ينبغي أن يقفزوا إلى ظهر السفينة بينما نحن نتكلم يا خالي» .

«جيد ، جيد» .

«بالمناسبة يا خالي ، ما هو المنصب الذي كان ديزرائيلي يشغله في ذلك الوقت؟» .

«هممم . . . . دعني أتذكر . أعتقد أنه كان وزيراً للمالية ورئيساً لمجلس العموم . يشبه وضعك الحالي بدرجة كبيرة يا آرثر» . حدج الرجل الأكبر سناً قريبه الأصغر بنظرة عارفه .

«لماذا تسأل؟ هل وضعت عينك على الجائزة الكبرى؟» .

«لا داعي للعجلة يا خالي ، لا داعي للعجلة» .

***

زوَّدهم مويلز بجوازات سفرهم وأوراقهم المتنوعة لدى استقرارهم في الفندق لقضاء الليلة . شعر أن تسليمهم الوثائق قبل أن يغادروا البيت الكبير يغري البعض بالمشاكل ، لكن الانتظار حتى لحظة صعودهم إلى السفينة يظهر انعدام ثقة قاسياً لرجال سرعان ما سوف يعهد اليهم بحياته . أنزل روستوف وكيفوركيان في غرفة واحدة ، بينما

أخذ هو وڤارتنيان غرفة أخرى . لم تحدث أية متاعب إضافية منذ مباراة الملاكمة : في الواقع ، فقد انسجم الرجلان كثيراً ، لكن لم تكن هناك فائدة ترجى من توتير الأجواء ، فكر مويلز .

جلس ڤارتنيان على السرير المفرد قبالته تماماً في هذه اللحظة ، يقلِّب جواز سفره الجديد ويتفحصه .

قال «وهكذا ، هل هذه بلدتكم بورتسموث سيد مويلز؟» .

«ذلك صحيح يا ڤارتنيان» .

«وماذا يفعل الشخص في بورتسموث في الليل يا سيد مويلز؟» .

«يفترض في الشخص أن ينتظر مغادرة سفينته ويحصل على نوم ليلة مريحة يا ڤارتنيان» .

«ولكن يا سيد مويلز ، الساعة هي مجرد السابعة مساءً ، ونحن لن نغادر قبل التاسعة من صباح الغد . ذلك ليس نوم ليلة . ذلك ما تسميه بالإنجليزية البيات الشتائي» .

ابتسم مويلز «لن نحصل إلا على القليل من الراحة بوصولنا هناك يا ڤارتنيان . أقترح أن تحصل على يمكنك من الراحة الآن» .

قال ڤارتنيان «لقد ذهبت إلى مناطق قتالية في السابق . وأعرف أن العديد لا يرجعون . ولو أتيح لهم استرداد وقتهم ، أنا متأكد من أنهم لن يقضوه نائمين في غرفة مثل هذه» .

فكر مويلز في تلك العبارة للحظة . إن ڤارتنيان شخص يجب مراقبته حتماً ، ولكن في نفس الوقت هو محق .

«يا ڤارتنيان ، ليست هذه مهمة انتحارية : نحن عائدون ، فلا تشكك في ذلك» .

«أنت تقول هذا الكلام يا سيد مويلز ، وأنا اعتقد أنك صادق . ولكن مرة أخرى ، نحن ذاهبون إلى حرب . ليست هناك حقائق ثابتة

في الحرب . يمكن أن نكون مختبئين في أجمة ، ورأسك مطاطئ وبعيد عن المشاكل ، وبعد لحظة - كا - بووم! تصيبك قذيفة أطلقها رجل لا تستطيع حتى أن تراه من مسافة ميل . ذلك هو ما يمكن أن يحدث يا سيد مويلز . لقد رأيته» .

بدأ تصميم مويلز يتأرجح .

قال أخيراً «ربما شراب واحد إذاً ، لمجرد جلب الحظ الحسن» .

«آه! هذه هي النفسية يا سيد مويلز . دعنا نحيا اليوم ، لأنه في الغد ، من يعرف؟» أخرجا روستوف وكيڤوركيان من غرفتهما وانطلقوا .

بعد ثلاث ساعات ، كان كل من مويلز وروستوف قد سحبا ڤارتنيان بعيداً عن شجارين قريبي الحدوث بعد أن استعرض قدراته المثيرة للإعجاب في رمي السهام والمصارعة بالأيدي .

وقف كيڤوركيان بعيداً ، يحمل كأسه الكبيرة بيده ويراقب الأحداث تتواصل ببرود وقلة انغماس .

عند هذه المرحلة ، أصبح على ثقة عميقة من معرفته بفريقه . شجاعة ڤارتنيان أمر بعيد عن الشك ، كما هو تهوره ، الأمر الذي قد يسبب القلق لأي قائد عاقل ، ولكن الرئيس الحاذق سيعرف كيف يستغل هذا السلوك بشكل مفيد .

بات مويلز على ثقة معقولة بأنه واحد من هؤلاء الرجال . روستوف شخصية متوازنة بارع في الرماية ويتحرك بفعالية ويقاتل بشراسة عندما يضطر إلى القتال ، وفقط عندما يضطر .

في البداية شكل له كيڤوركيان غموضاً ، لكن مويلز بدأ يدرك أي نوع من الرجال هو .

إن حب ڤارتنيان للحياة ظاهر لكل من يراه ، وقد بدأ مويلز يفهم أن هناك سبب وجيه وراء تعلقه الشديد بالحياة ورغبته في انتزاع الكثير

منها . في البداية بدا كيڤوركيان بتصرفه غير المكترث وميله إلى الانزواء وكأنه غير منسجم . لكن قدراته تفوق التساؤل فهو قناص بالفطرة ، ومع ذلك بدا وكأنه يفتقر إلى الدافع ، فهو يكتفي باتباع الأوامر ، رغم أنه وكما يقول روستوف ، كان فتاكاً في حرب البلقان . عندما ألح عليه مويلز بالأسئلة حول هذه المسألة ، اكتفى روستوف بهز رأسه وقال كلمة واحدة «پليڤنو» .

طبيعي أن مويلز قد سمع عن المعركة أو بالأحرى الحصار . نجح الأتراك الذين تفوق عليهم الروس والرومانيين بثلاثة اضعاف ، في الاحتفاظ بخطوطهم في قلعة متهاوية اسمها پليڤنو وأوقفوا العدو لشهور . الأمر الذي وضع الرأي العام إلى جانب العثمانيين في بلدان كثيرة ما كانت لتهتم لو اختلف الوضع .

بقي ما أنجزه كيڤوركيان هناك غامضاً . فلا هو ولا روستوف أفصحا عن أية معلومات إضافية ولم تكن لدى ڤارتنيان أي فكرة .

«لقد كنت حينها على الجانب الآخر «قال لمويلز بعد العديد من اقداح الجعة في إحدى الليالي على مسافة من البيت الريفي «وكنت أركض باقصى سرعة لي باتجاه الجبال» .

سأله مويلز «تقصد جبال الكارپاث؟» .

همهم ڤارتنيان «بل جبال القفقاس» وهو يرفع قدحه طالباً المزيد من عامل البار .

تعلم مويلز بضعة أشياء عن كيڤوركيان جراء مراقبته خلال الأسابيع الفائتة .

بدا أنه لا يجد متعة في أي شيء على الأقل خارجياً : بدلاً من ذلك ، كان يجد قناعة داخلية في أداء مهمته بأقصى قدراته . كان روستوف شبيهاً له ، لكن بالنسبة لكيڤوركيان فقد جعل عمله

الإحساس بأنه مهمة ذات نداء داخلي خاص .

لم يكن شيء يقنعه ما لم يصل إلى الدرجة القصوى . في كل مرة يجهز فيها متفجرة موقوتة أو يطلق رصاصة على هدف ما ، كان كيڤوركيان يصوِّب على تفوق محسوب . لم يشارك في عراك ڤارتنيان وروستوف لأنه لم يكن لديه ما يكسبه من المشاركة ، وتلك هي اللحظة التي فهم فيها مويلز الحقيقة : ليس الوضع أن كيڤوركيان لا يستمتع بشيء ، بل هو يستمتع بكل شيء . بالنسبة له ، فإن الحياة اختبار ، امتحان ينبغي عليه اداؤه بأفضل ما يمكن ، وأي شيء لا يمكنه التميز فيه ، يقف مبتعداً ويكتفي بالانفصال الهادئ لمتفرج .

هناك في الأحراش ، حينما اقترب منه روستوف للمرة الأولى ، فقد قدم لكيڤوركيان تحدياً لا مثيل له ، وهو تحدٍّ سيشكل الامتحان الأقصى لقدراته . وهكذا ، هو موجود هنا في هذه اللحظة .

تلقى مويلز لكمة في ظهره

دوَّى صوت ڤارتنيان «أنت هادئ مثل فتاة خجولة . تعال! سنلعب بالسهام .

كان التردي في لغة ڤارتنيان الإنجليزية مع إغراقه في السكر مسألة مضحكة محببة . فعندما يتعتعه السكر ، يتبنى في بعض الأحيان لهجة اسكتلندية محلية ، الأمر الذي يضحك مويلز بلا حدود .

«الآن أنت تضحك مثل بنت صغيرة . تعال ، اشرب وارقص معي مويلز . أعرف أن لا أحد من هذين الاثنين سيرقص» . لوَّحت ذراع ڤارتنيان الضخمة فوق روستوف العابس ، وكيڤوركيان الذي بدا قلقاً . استمر كلاهما في العناية بقدحيهما من الجعة كأنهما وليدان بكر لهما لأكثر من ساعة حتى اللحظة . وصل مويلز إلى قدحه الثالث : وأصبح مضطراً للاعتراف بأن لڤارتنيان تأثير على الكمية .

«ڤارتنيان، أنت تعرف أنني لا أرقص، كما أن ممارسة أي لعبة معك، خاصة مقابل المال، فإنها تميل إلى ترك الشخص فلنقل، حسناً، مفلساً».

«ذلك صحيح، ها! وأنت رجل قصير البنية ابتداءً. لكنك لست فتاة يا مويلز، وسأخبرك بذلك الآن. لذلك يجب أن أذهب وأعثر على واحدة بنفسي. ربما يعرف هؤلاء البحارة المكان الواجب الذهاب إليه . . .» مشى مترنحاً باتجاه مجموعة أخرى من البحارة المرتدين الزي الأبيض، المتجمهرين بضجيج أصواتهم حول البار. نهض روستوف واقفاً يراقب.

«ڤارتنيان!».

انفتل الأرمني باتجاه النداء، فقد توازنه وارتمى رجوعاً إلى وسط المجموعة التي كان يتجه إليها بصعوبة، وسكب المشروبات من كل الجمع. دفع البحارة ڤارتنيان وأعادوه أدراجه من باب الغريزة أكثر من العداء، فسقط فوق الطاولة.

انتظروا ردة فعله لبضع ثوانٍ، ولم يتأخر نهوضه وهو يحمل قدحه بيده، ثم رمى بنفسه عليهم وهو يهدر.

نظر مويلز بيأس إلى المنظر الذي يتحقق أمامه وأخرج تنهيدة.

قال للآخرين «هلموا بنا!».

بعد ثانية كان الرجال الثلاثة قد نهضوا مبتعدين عن طاولتهم إلى وسط المعمعة، باذلين أفضل جهودهم لإنقاذ صديقهم أولاً، ثم ليتحولوا إلى مشاركين كاملين في العراك، وقد تطايرت القبضات والركلات في فوضى عارمة. تلقى مويلز ضربة قوية على جبينه أذهلته، لكنه نجا من المزيد من الأذى حين وقف كيڤوركيان أمامه وقاتل على نمط الحرس الخلفي أثناء تراجعهما. نظر الإنجليزي عبر

الجمع ليرى روستوف يعمل على البحارة بطريقة نمطية ، خافضاً رأسه بأسلوب الحماية المحكم الذي استخدمه في نزاله مع ڤارتنيان .

وهكذا ، اتحد أسلوبه مع حركته الدائبة لجعل اللكمات التي تأتيه تنزلق عن كتفيه بدون أذى ، بينما هو ينتظر فرصته ليضرب بلكماته التي تسبب الإعاقة . في الأثناء ، تحول ڤارتنيان إلى زوبعة سكرى ، تطير ذراعاه في كل اتجاه وتصيب أي شخص أو أي شيء عديم الحظ إلى درجة الوقوع في مرماها .

خلال أقل من دقيقة ، التحم الفريقان في شبه تعادل ، فالبحارة غير راغبين في المخاطرة بتلقي المزيد من الأذى ، ومجموعة مويلز الأقل عدداً غير قادرة على هزيمة الحشود الأكثر عدداً أمامهم .

بعد هنيهة من التردد ، تراخى أعلى البحارة رتبة ، على الأقل بحكم سنه ثم قال «حسناً إذاً ، فلنترك الموضوع عند هذا الحد ، هلاً فعلنا؟» .

نظر إلى مويلز متعمداً ، والذي هزَّ رأسه موافقاً .

اتخذ كل واحد في الفريقين خطوة حذرة إلى الخلف ، ثم أخرى قبل أن يشعر الجميع بوجود مساحة كافية بينهما تسمح بالاسترخاء . عاد صاحب الحانة الذي كان قد اختبأ ببساطة تحت النضد ، إلى الوقوف واستأنف تقديم المشروبات .

نظر إليه روستوف بما يشبه الإعجاب «اظن أن هذا الرجل معتاد على المشاجرات» .

«أظن ذلك» قال مويلز بارتياح واضح في صوته . استدار نحو ڤارتنيان .

«مرة أخرى يا ڤارتنيان ، فعلاً؟ لن يكون هناك المزيد من مثل هذه الأمور عندما نصل إلى اليونان» .

تبنى ڤارتنيان تعبيراً خجولاً ، أو أي تعبير يمكنه من مقاربة الخجل .

«اعتذاراتي يا مويلز . دعني أقدم لك شراباً» .

«لا ، أظن أننا حصلنا على كفايتنا لليلة واحدة ، كلنا . هيَّا بنا» .

استعد روستوف وكيڤوركيان للمغادرة ، لكن ڤارتنيان تشبث بموقفه للحظة .

حدَّق فيه مويلز بدون أن ترف رموشه ، وعندما شاهد ڤارتنيان النظرة وأدرك ما يأتي خلفها ، بدأ يمشي باتجاه الباب . قاد روستوف المسيرة ، بينما سار مويلز في آخر الصف وهو يهز رأسه ويعجب مما ستجلبه الأسابيع القليلة القادمة .

الفصل السادس عشر

بعد إثارة الليلة الماضية ، جاء الصعود إلى ظهر الباخرة في الصباح التالي كعنصر من عكس الذروة . الهواء الشتائي يحمل قرصة في ثناياه ، والشمس تشرق ببرود من سماء خالية من الغيم . حصلوا على أمكنة في إحدى بوارج البحرية ، السفينة نارسيسوس القادمة من ميناء هال والمنتقلة للانضمام إلى بقية أسطول البحر الأبيض المتوسط كجزء من دورتها المنتظمة . مع أن قبطان السفينة قد أبلغ مويلز بأنه صدرت للطاقم أوامر بالبقاء بعيدين عنهم ، إلا أنه يفضل صدور المجاملة نفسها من الزوار . فوجئت المجموعة لدى رؤية نفس البحارة الذين تعاركوا معهم الليلة الماضية يشغلون السطح في هذه الآونة .

جاء الأكثر مفاجأة ظهور البحار صاحب الرتبة الأعلى الذي أوقف المجريات في المشرب ، واقفاً إلى جانبهم ليس بزي بحار عادي ، بل ملازم أول .

أدى مويلز التحية للرجل ، الذي أعاد له البادرة .

قال الملازم بصوت مقتضب «صباح الخير يا سيدي ، لقد حسبتك ضابطاً ليلة أمس وهذا مؤكد ، لكنني لم أفكر أننا سوف نتشارك في مهجع ، كما يقال» .

«ولا أنا أيها الملازم» أجاب مويلز «آمل أن لا يتسبب إزعاج الأمس بإبطائكم في هذا الصباح؟» .

قال الملازم «لا على الإطلاق» . أدرك مويلز أن هناك مجرد تلميح

إلى لكنة استرالية في لهجة الرجل «إن إفراغ القليل من البخار مفيد للرجال قبل أن نبحر. ليس هناك ضابط يستحق رتبته ولا يعتقد أنه من الأفضل ترك كل ذلك الهراء على اليابسة، بدلاً من جلبه إلى هنا على السفينة طيلة الرحلة».

اضطر مويلز إلى الموافقة «حقاً. لقد حاولت أن أجري حسابات مختلفة لما سوف تستغرقه هذه الرحلة القصيرة. ما هي آراؤكم ياسيدي؟».

«تستطيع النارسيسوس أن تقطع سبع عشرة عقدة بسهولة، لكن لدينا بعض التوقفات التي سنجريها على طريقنا نحو المتوسط. أقدِّر الوقت بأكثر من أسبوع بقليل، وسوف نبحر حول الليڤانت أو ربما حتى بحر إيجه. هذا على الأقل هو ما قيل لي. يفترض فينا أن نراقب المجريات حول اليونان على ما يبدو. طبعاً، يمكن أن تكون تلك مجرد خدعة للتغطية على وجهتنا الحقيقية، أو ربما لا تكون. أنا واثق من أنك لست مضطراً لأن تخبرني بمهمتك يا سيدي».

«هذا صحيح أيها الملازم... آه؟».

«جاونت سيدي، سعدت بمعرفتك».

«مويلز. جميل أن أقابلك أيضاً يا جاونت».

«حسناً، يستحسن أن أباشر مهامي. أنا واثق من أنني سألتقيك في الأنحاء يا سيد مويلز».

«أنا على ثقة. أشكرك يا جاونت».

طأطأ الضابط الفتى برأسه وانصرف، وبقي مويلز واقفاً يتعجب كيف لم يخطر بباله أن يسأل جاونت عن سببّ ارتدائه ملابس بحار عادي في الليلة الماضية. ومع هذا، هنالك أمور أكثر أهمية ينبغي القلق عليها مثل المهمة، وثانياً كيفية الإبقاء على ڤارتنيان بعيداً عن

المشاكل لمدة أسبوع على متن سفينة متوسطة الحجم .

لكن لم يكن هناك سبب لقلقه . فقد جاء توقع جاونت صحيحاً بأن الاحتفالات في بروتسموث ستحرق أية طاقة زائدة ، وهكذا هدأ ڤارتنيان مع بقيتهم ، يراجعون خططهم ومعلوماتهم الاستخبارية للعملية القادمة . دأبوا على الجلوس وحدهم بعد الإفطار في القمرة الصغيرة المخصصة لأربعتهم ، يفرشون خرائطهم ويفتحون ملفاتهم . ظل مويلز على إصراره بأن لا يكتفوا بمعرفة كل هدف بما أمكن من التعمق ، بل أيضاً معرفة موظفيه وإجراءات أمنه . كان قد حصل على كدس ملفات من دائرة الاستخبارات في القيادة العامة ، وسرعان ما اصبحوا يدرسون ليس فقط الاشخاص ، بل أيضاً الطرق والأبنية العامة والفنادق في الأمكنة التي يحتمل أن يعملوا فيها .

تدارس بلفور ومويلز مسار الأحداث الأكثر احتمالاً بكثير من التفصيل ، لكن بقي الكثير مما هو عرضة للتغيير ، وأدرك مويلز أن كل ما درسوه على البارجة قد يصبح غير ذي فائدة في النهاية .

لهذا السبب ، جاءت الخطة التي استقروا عليها خليطاً من بساطة تكاد تكون طفولية وتحتوي على كمية كبيرة من الارتجال كضرورة مضافة . بعد أن يصلوا إلى اليونان ، كان يفترض فيهم الاتصال بعناصر متنوعة قادرة على تزويدهم بالوثائق والأزياء .

سيرتحلون عبر البلاد بهذه الأزياء والوثائق ويجتازون الخطوط التركية ، حيث يبدلون تخفيهم إلى مظهر جنود للسلطان بمجرد عبورهم . ستجيء معرفة كيڤوركيان وڤارتنيان الوثيقة باللغة بفائدة لا تقدر عليهم ، كما ستفيدهم اتصالات ومنافذ روستوف في الخطوط الروسية والبلغارية بعد أن ينجحوا في الفرار .

سيقومون باستخدام أكثر الوسائل المباشرة المتاحة لهم في تصفية

هدفهم بمجرد تحديد موقعه ، والتي يمكن أن تتشكل من أي شيء بدءاً بانفجار موقوت حتى طلقة من مدى بعيد ، لكن مويلز وبلفور اتفقا على أن الأكثر احتمالاً بين هذه الوسائل هو كمين مباشر يضم كل هذه التكتيكات . تأتي معرفة الطرقات في هذه اللحظة لتحتل الأهمية القصوى ، وظل مويلز يأمل أن تبقى الطرقات التي يدرسونها في هذه الآونة هي نفسها التي سيجدون أنفسهم عليها أثناء تصديهم لطريدتهم .

عرفوا أيضاً أن هدفيهم سوف يتنقلا مصحوبين بأعداد كبيرة من الحراسة إذا كانا قريبين من الخطوط الأمامية بأي درجة ، لذلك يتوجب عليهم أن يكونوا دقيقين في التوقيت . سوف ترسم الخرائط والملفات والكتب حول التدريب والخطط التي سرقوها من الاكاديميات الأجنبية العسكرية ، الفارق بين النجاح والفشل والحياة والموت بالنسبة للأربعة كلهم .

كذلك أصرَّ مويلز على أن يستمروا في برنامج تمارين أثناء وجودهم على السفينة ، وهكذا أصبح من الممكن رؤية أربعتهم يهرولون في محيط سطح السفينة ، ثم يتوقفون بعد دورتين ليؤدوا تمارين الذراعين والكتفين ثم الساقين والتي كان يصرخ بها مويلز . مرت الأيام سريعاً نسبياً على هذا المنوال مابين الدراسة وأوقات الطعام والتمارين والأوقات الليلية . توقفت البارجة مرة واحدة فقط في رحلتها في لشبونه ، وفوجئ مويلز ليكتشف أن كل فرد من المجموعة كان سعيداً بالبقاء على السفينة طيلة فترة التوقف .

أخيراً وبعد أكثر من أسبوع على مغادرتهم بقليل ، لاحت لهم جزيرة كبيرة أثناء هرولتهم على السطح ، وأكد العاملون قريباً منهم أنها كريت فعلاً .

استدار روستوف نحو مويلز وقال «هيَّا بنا نستعد» .

هزَّ مويلز رأسه ومشى أربعتهم عائدين إلى قمرتهم لحزم أمتعتهم . التقوا بالملازم جاونت في طريقهم .

قال «يرغب القبطان في تبادل كلمة معك يا سيد مويلز» .

التفت مويلز إلى الآخرين «نظموا الحقائب ووضبوا الملفات بشكل منفصل . لن نحتفظ إلا بالخرائط العسكرية غير المعلَّمة . سأعود بعد قليل» .

وافق الآخرون وبدأ مويلز يسير بصحبة جاونت في الاتجاه المعاكس .

سأل «وهكذا سوف تغادروننا؟» .

قال مويلز «هذا ما أخشاه أيها الشاب . يحتاج الشباب إلى مدِّ أرجلهم قليلاً ، ولابد لي من الاعتراف بأنني لا أحبذ حياة البحرية هذه» .

قال جاونت «إنها تستغرق بعض الوقت حتى تألفها . أعتقد أن الشخص ينبغي أن ينخرط فيها منذ صغره» .

«الى أي حد كنت أنت صغيراً؟» .

«ثلاثة عشر» .

نظر إليه مويلز

«أوه ، لا تنظر اليَّ بكل هذا الاستغراب يا مويلز ، هذا أمر اعتيادي جداً في هذه الحياة» .

«أعتقد أن حياة هي الكلمة يا جاونت . لم تكن لدي أي فكرة عن أن الرجال ما زالوا يباشرون العمل في ذلك العمر . على الأقل الضباط منهم» .

«يستغرق العمل وقتاً طويلاً للتعرف على الحبال ، كما تقول

العبارة القديمة . ولكن بالطبع ، ليست هناك حبال كثيرة لتعلمها في هذه الأيام . الأمر يتعلق أكثر بحجم كل مدفع وقوة المحرك بالأحصنة . آه ، هذه هي قمرة القبطان» .

تصرف قبطان النارسيسوس بنفس اللطف والدماثة تجاه مويلز ، لكنه أوضح أن أي إنزال لأي من قواربه سوف يحدث فقط بعد هبوط الليل . لقد تم ترتيب الإشارات مع القوات اليونانية الموجودة على الجزيرة . وسوف يتم رسو القوارب على اليابسة بدون انكشاف امرهم ، إلا إذا داهمهم قارب تركي مسلح وهذا احتمالية بعيدة .

قال مويلز «جيد جداً أيها القبطان ، سأحيط رجالي علماً بالوضع» .

انقضت بقية ذلك النهار في انتظار قلق مضطرب . بدأ ڤارتنيان وبعده روستوف في الوقوف على قدميهما والدفع باتجاه الإقلاع بمجرد أن نزلت الشمس تحت خط الأفق ، لكن كان للقبطان رأي آخر . أخيراً شاهد عمال الإشارات التوالي الصحيح للرموز الضوئية المنطلقة من الشاطئ قرابة العاشرة ليلاً . فأعطي الأمر . تحتم على جاونت أن يقود قارب الإنزال وبمجرد وصول طاقم مويلز إلى الشاطئ بسلام ، أن يعود إلى البارجة نارسيسوس .

قطعت الرحلة إلى داخل البر بصمت مميت بينما ظل الرجال يتلفتون بحثاً عن أي بادرة حياة على الجزيرة التي تقترب ، لكن لم يكن هناك ما يمكن رؤيته . توقع مويلز طقساً دافئاً ، لكنه ظل يرتعش ولفّ نفسه بإحكام داخل معطفه . وصل القارب إلى الشاطئ . بدأ البحارة يناولونهم الحقائب في الوقت الذي ركع فيه ، أشعل المصباح وسحب الغطاء ثم أغلقه بطريقة منتظمة . لاح ضوء بالإجابة من فوق الكثبان الرملية بما يوازي إشارته .

«حسناً، ها أنت ذا أيها الشاب» همس جاونت من فوق المركب «أتمنى لك أفضل الحظ».

«شكراً، أنا . . .» لم يتسنَّ لمويلز أن يكمل إذ انطلقت صيحات من مكان بعيد على الشاطئ. أثبتت العتمة أن الأصوات لم تكن لها وجوه بعد، لكنها بدت لمويلز غير ودية بدرجة قطعية. انضمت فرقعة نيران البنادق التي لا سبيل لإنكارها، متبوعة بالرصاصات تخترق الهواء حولهم، وكأنها تؤكد افتراضه. ثار الرمل من أثر الاصطدام على بعد أقدام قليلة من مكان ركوعهم.

«حسناً، أظن أن الأفضل هو أن نبتعد يا مويلز. وكما قلت، أتمنى لك الأفضل».

قال جاونت بهدوء رغم توتر الموقف، وراقب مويلز من وضعية قرفصته، جاونت يخرج مسدسه من جرابه ويبدأ بإطلاق النار على الشاطئ، بينما استعمل رجاله مجاذيفهم لدفع القارب إلى عرض البحر.

بحلول هذا الوقت، بدأ رفاقهم على الكثبان يردون بنيرانهم، وأخذ مويلز زمام المبادرة. لاحظ أن روستوف وڤارتنيان منبطحين على بطنيهما، يسددان ولكن لا يطلقان النار، مفضلين أن ينتظرا حتى يكشف عدوهما عن نفسه. في هذه الآونة ألقى كيڤوركيان المصباح وركع بدوره، ممسكاً بمسدسه ومنتظراً.

قال «أعتقد أننا يجب أن نتوجه إلى الأرض العالية يا سيد مويلز».

«اعتقد أنك محق. روستوف، ڤارتنيان! انطلقا أولاً، هل أنتما جاهزان؟».

«جاهز» قال روستوف بدون أن يلتفت.

«الآن!» فتح كيڤوركيان ومويلز النار من مسدسيهما وأطلقا النار على غير هدى في العتمة ، بينما نهض رجلا المقدمة وحملا حقائبهما وبدآ يركضان . بعد أن أفرغ كيڤوركيان ومويلز طاحونتيهما من الرصاص ، تبعا الآخرين بسرعة . وصل روستوف وڤارتنيان إلى قمة الكثبان الصغيرة واتخذا موقعاً لإطلاق النار بين الشجيرات البرية وأخذا يمشطان الشاطئ تحتهما لتغطية التحرك . لحقا الآخرين وأخذا يعيدان تعبئة المسدسين .

كانت النيران التركية آتية من مكان قريب ، لكنه من شبه المستحيل رؤية أي شيء بسبب العتمة : لم تكن أي طلقة تمتلك أدنى فرصة لإصابة أي شيء مهم .

سأل مويلز وهو يعيد تذخير مسدسه بأصابع مرتعشة «ماذا بعد إذاً؟» .

قال كيڤوركيان «اليونانيون موجودون في مكان ما هنا . لقد رأيت الضوء» .

«نحن حتماً هنا يا صديقي» .

تسبب الصوت القادم من خلفهم بإجفالهم جميعاً ، واستداروا ليروا شاباً في أواخر عشرينيات عمره ، منبطحاً على معدته كما فعلوا هم وأمامه بندقية قديمة .

قال بإنجليزية مفعمة باللكنة ، لكنها مفهومة «أنا نيكولاس كوستاكوس . وسأكون دليلكم بشكل ما ، إذا تكرمتم أيها السادة باتباعي . بسرعة الآن رجاءً» .

وجد مويلز نفسه في عدد من المواقف المتوترة قبلاً ، حيث كانت المخاطرة كبيرة ومتعددة ، لكنه لم يجد نفسه في موقع قتال مكشوف كهذا . فوجئ مرة أخرى بدرجة الهدوء والأدب التي بدا عليها كل من حوله .

عندما شعر كيڤوركيان بتردد مويلز ، أجاب عنهم .

«أنا كيڤوركيان . تقدم على الطريق وسوف نتبعك» .

هزَّ كوستاكوس رأسه مرة واحدة وبدأ يزحف مبتعداً في الاتجاه المقابل . تبعوه واستمرت الرصاصات تئزُّ من فوق رؤوسهم أثناء انسحابهم .

الفصل السابع عشر

الجياد تعدو خبباً على طول الطرق الموحلة تحت سماء أرجوانية ماطرة. أصر السلطان على أن يرافق حلمي باشا طابور من الحرس الراقي قوامه أربعون رجلاً لحمايته والجنرال ڤون دير جولتز في كل الأوقات، بالإضافة إلى طاقمهم الاعتيادي. حاول الرجلان أن يثنياه، مشيرين إلى أنهما سيكونان تحت حماية أفضل من تلك التي يحظى بها الجنرالات القادة، لكن الملك لم يستمع إليهما. بات حلمي باشا قلقاً من مسألة وجود مجموعة من خمسين رجلاً والتي ربما ستجلب لهما انتباهاً أكثر مما لو سافرا بطريقة أكثر سرية، لكنه لم يكن في موقع يسمح له بالمناقشة.

سأل حالياً «من تعتقد أنه يستفيد أكثر من هذه الأرض الموحلة، هم أم نحن أيها الجنرال البارون؟».

قال ڤون ديرجولتز وهو ينظر إلى حوافر حصانه الموحلة المثقلة تحته «تقضي استراتيجية الامبراطورية بالدفاع. على الأقل في البداية يا باشا. إنهم يرغبون في الهجوم للاستيلاء على الأرض منكم. في هذه الحالة فإن الوحل وطبيعة الأرض تخدمان المدافع. إنها تبطئ حركة المهاجم. ينبغي علينا أن نخطط لهجماتنا المعاكسة بعناية، على كل الأحوال. يمكن للميزة أن تنقلب إلى عكسها بنفس السرعة عندما يحين وقتها».

هزَّ حلمي باشا رأسه موافقاً وسجل كلمات الجنرال في ملاحظة

ذهنية . إن الشجاعة مطلوبة من جانب كل رجل ، لكن الرجال لا يجرؤون على التهور في هجماتهم . لن تحتمل الامبراطورية خسارة أخرى : مع كل حرب تالية ، أصبحت المعارك أقرب إلى بوابات استنبول . هذه حرب هم مجبرون على الفوز فيها . مروا راكبين بطوابير من المشاة يسيرون بخطى منتظمة وبصف فردي ، عبر الوحل ، لوازمهم وبنادقهم مشدودة إلى ظهورهم وعيونهم شاخصة إلى الأمام .

فكر حلمي باشا لنفسه «إنهم يعرفون أنها قادمة . يمكنهم أن يروها الآن ، وهم يخططون لها» .

مروا على فترات عديدة بمجموعات من الجنود يسحبون مدفعاً صغيراً أو وحدة مدفعية .

قال ڤون دير جولتز من خلفه «ليسوا بالقوة المهيمنة التي أحب أن أراها يا باشا ، لكنني أعتقد أنهم يكفون لدحر اليونانيين إلى الوراء» .

«عندما يحين الوقت أيها الجنرال البارون ، لكن ما زال لدينا الوقت . أعتقد أن اصحاب الشأن هناك ، رغم كونهم يونانيين ، لن يهاجموا في هذا الطقس . يجب أن ننتظر حلول الربيع» .

«ذلك الوقت يلائمنا حتماً يا باشا . ينحصر تفوقهم في ضرب الوحش الأكبر بقوة وسرعة . إذا سمح للوحش - ولا أقصد الإساءة هنا طبعاً - أن يستجمع قواه ، فإن بضعة أميال من الوحل لن تشكل فرقاً بكل الأحوال . فهو سيقوم بالدوس عليهم بسهولة» .

«لنعتمد على ذلك إذاً ، أيها الجنرال البارون . انظر ، هذا هو مقر قيادة أدهم باشا أمامنا : دعنا نسمع ما لديه ليقوله» .

أوقفا جواديهما وترجلا خارج البيت الذي جرت مصادرته بشكل مؤقت لحاجات الجيش . استمرت أرتال الرجال تمشي مارة بهما أثناء سيرهما بين الحراس . في الأثناء ، أمسك حرسهما بلجامي جواديهما

وانتظرا في الوحل . تراكض الضباط ذوو الرتب الصغيرة في الداخل ، غادين ورائحين وهم يحملون الملفات المتنوعة ، لكنهم توقفوا لأداء التحية لدى رؤيتهم الضابطين رفيعي الرتبة داخلين . عرف حلمي باشا أن المكتب ، أو على الأقل ما يمكن أن يؤدي مهمة مكتب في هذا البيت ، ستقع في الخلف ، فاستمر في المسير بدون أن يسأل حتى وصل إلى هناك . دخل المكتب وحيًّا الجنرال متبوعاً بالبارون خلفه .

«كيف تسير الاستعدادات يا جنرال أدهم باشا!» .

كان الجنرال مستغرقاً وسط حديث إلى مساعديه وضباطه ، لكنه قفز واقفاً على قدميه لدى رؤيته الرجلين اللذين دخلا إلى الغرفة وأدى التحية ، كما فعل طاقمه كل بدوره .

«أنت على الرحب والسعة في مقر قيادتنا الأقل من فخم يا جنرال حلمي باشا ، أرجوك أن تجلس» .

ألقى الجنرال بنظرة ذات مغزى حاد إلى الرجلين الواقفين أمامه مباشرة ، فانصرفا مبتعدين بسرعة مضاعفة . اقترب حلمي باشا والبارون ڤون ديرجولتز لأخذ مكانهما وجلسا فيما غادر بقية الضباط الغرفة .

«وهكذا قل لي يا أيها الجنرال . يبدو لي أن الرجال في وضع جيد . إنهم يمشون بانتظام وهم مسلحون كما نتمنى على الأغلب ويبدون لي في هذه المرحلة وكأنهم قادرون على التهام الصخور» .

كان الجنرال أدهم باشا يشير إلى المطبخ لإحضار القهوة أثناء حديث حلمي باشا لكنه وجَّه انتباهه الكامل إليه في هذه اللحظة .

«أشكرك يا حلمي باشا ، هذا مديح رفيع من رجل في مقامكم . إن الرجال مصممون فعلياً على أنهم إذا اضطروا إلى القتال ، فسوف ينتصرون . لم نتلقَّ من كريت إلا القليل من الأخبار خلال الأيام

القليلة الماضية : كيف تسير الأحداث هناك؟ ذلك هو المكان الذي سيبدأ منه هذا القتال في نهاية المطاف ، حتى ولو أنني أنوي على الزحف بهذا الجيش من هنا حتى أثينا لإنهائه» .

«الوضع ما زال كما كان حينما غادرت يا جنرال . لقد رفض اليونانيون أن يسحبوا جنودهم أو يكبحوا جماح داعميهم المخربين . لقد أرسلنا التعزيزات إلى الموقع ، لكنه من غير الحكمة أن ندفع بهم إلى البحر في الوقت الحالي . تقوم القوى الغربية بإرسال المزيد من السفن الحربية مع كل يوم يمر ، فإذا بادرنا إلى الهجوم ، سنصبح المعتدين . ينبغي أن ننتظر ونمتص أي هجوم يقومون به ، وبعدها فأنت محق تماماً ، سيندفع الجيش الموجود على هذه الجبهة إلى الأمام باتجاه موريا وأثينا ويكسب هذه الحرب» .

«ها ، القوى الغربية . . .» ظهر احتقار أدهم باشا جلياً في صوته ، لكنه تذكر وجود البارون بنفس السرعة التي تكلم فيها وارتفع حاجباه الكثيفان بحدة .

«أنت تعرف أنني لا أقصد الإساءة إليكم أيها الجنرال البارون» .

لوَّح ڤون ديرجولتز بيده باستخفاف ، واستأنف أدهم باشا .

«أعتقد يا سيديَّ ، مما سمعناه من السكان المحليين ، أن اليونانيين سوف ينتظرون حتى نهاية شباط وبعد ذلك سيقوموا بتحركهم . كونا على ثقة بأننا سنكون مستعدينّ» .

هزَّ حلمي باشا رأسه «تخبرني خدمات السلطان الاستخبارية نفس القصة» .

ردَّ له الجنرال هزة الرأس «إذاً نحن علينا أن نستمر في استعداداتنا ببساطة ونستعمل أعدادنا المتفوقة وفرساننا ومدفعيتنا عندما يحين الوقت» .

«تبدو هذه كخطة حكيمة أيها الجنرال . وعلى كل حال ، الجنرال البارون وأنا نرغب في الوقت نفسه بالمضي قدماً على خط الجبهة والتفتيش اكثر على الرجال والتحضيرات . . . من بعد إذنكم بالطبع» .

ظهر على الجنرال السرور لهذه المجاملة «أنت لست بحاجة إلى ذلك يا باشا . اسمح لي بأن أصطحبك» .

«أرجوك يا جنرال . ليست هناك حاجة لذلك . أنت لديك حرب يتوجب عليك إدارتها ، ونحن هنا لمجرد الملاحظة والمراقبة . أنت القائد» .

هزَّ أدهم باشا رأسه ثانية «إذا لفت أي شيء انتباهكم يا سادتي ، وتعتقدون أنه ينبغي أن أعرفه ، أرسلا لي رسولاً خيالاً إلى هنا أو إلى مقر قيادتي التالي . لا أريد أية أخطاء في هذه الحملة» .

«نحن متفقون في هذه المسألة يا جنرال . ليس لدينا نقص في الخيالة ، أليس كذلك يا بارون؟» .

هزَّ الجنرال البارون رأسه نفياً «حتماً ليس لدينا نقص يا باشا» .

***

عندما أوصل اليونانيون الرجال الأربعة إلى بيت آمن وبعيد عن الدوريات التركية على الشاطئ ، كانوا مبتلين ويرتعشون من شدة البرد .

سأل روستوف دليلهم كوستاكوس «ماذا يحدث الآن؟» .

تكونت مجموعة كوستاكوس منه ومن ستة رجال آخرين ، انشغلوا جميعاً في العمل على إشعال النار وسحب مراتب القش لفرشها في أرجاء البيت المكون من غرفة واحدة .

قال كوستاكوس مجاملاً «الآن ننام وغداً عند الفجر ، نغادر» .

سأله مويلز «وإلى أين سنذهب؟» .

«إلى ابتيرا عن طريق اركادي . سنبقى هناك منتظرين حلول الليل . ثم يقلكم قارب من الميناء في سودا» .

«ولكن أليس ذلك بعيداً عن الخطوط التركية بكل تأكيد؟ «نظر مويلز إلى روستوف ، الذي بدا عليه نفس القدر من الانزعاج .

«نعم ، لقد اكتشفنا أن هدفكم ليس قادماً إلى كريت في آخر الأمر» .

جاء دور ڤارتنيان ليسأل «الى أين إذاً؟» .

«يجب أن تفهم أنهم لا يخبرون شخصاً مثلي الكثير من الأمور المهمة» . حمل صوت كوستاكوس نبرة اعتذار «نعرف أن التعليمات قد صدرت لنا لإرسال قاربكم إلى موريا ولا أعرف شيئاً بعد ذلك» .

قال مويلز «حسناً . الواضح أن فتيتنا المسؤولين عن تنظيم هذا النوع من العمل متخلفون قليلاً . لابد وأن نتواجد في مكان ما على البر الرئيس قريباً من الحدود . فهناك سيحدث القتال الحقيقي في نهاية الأمر» .

رغم أن أحداً من الكريتيين لم يصدر عنه أي رد فعل ، إلا أن كوستاكوس تصالب .

«أعتقد أننا قمنا بشيء من القتال الحقيقي عندما أخرجناكم من الشاطىء أيها الإنجليزي . وربما يحصل المزيد حتى نوصلكم إلى قاربكم . لكن إذا كنت تفضل فسوف نترككم الآن لتسلكوا طريقكم بأنفسكم» . لم يخف تغير اللهجة على الرجال الآخرين المرافقين لكوستاكوس ، رغم جهلهم باللغة الإنجليزية ، فأداروا رؤوسهم . نهض في هذه اللحظة الاثنان اللذان كانا جالسين القرفصاء إلى جانب النار ، رفعا البندقيتين عن حضنهما ووقفا مصوبين سلاحيهما باتجاه القادمين الجدد بغير توتر .

قال مويلز «أقدم اعتذاراتي يا نيكولاس» . صدر من خلفه صوت احتكاك . كان كيڤوركيان قد أخرج سكين الصياد وبدأ يشحذ حدَّها بالحجر الذي يحمله بمنتهى الهدوء .

استطرد مويلز «لم أقصد أي إساءة لك أو لرجالك . أنتم تحظون بامتناننا لمساعدتكم لنا على الشاطئ ، واحضارنا إلى القارب ، وهكذا فأنتم سوف تساعدوننا وتخدمون قضية كريت اكثر» .

هدأ كوستاكوس نوعاً ما بهذا الكلام وتراخى فتبعه رجاله .

قال «هلمَّ بنا ، لقد خزنَّا نبيذاً في هذا البيت . دعونا نشرب وندفئ أنفسنا» .

قال مويلز «أشكرك» مع أن ڤارتنيان كان أول من استفاد من قنينة مقدمة .

تكلم روستوف بلهجة خفيضة «هل سنصل في الوقت المناسب؟» .

قال مويلز وهو يفكر بسرعة «يصعب القول . هناك الكثير من المتغيرات . نحن نعرف من استخباراتنا أن الهدف سيقوم بجولة تفتيش مفصلة ، وربما يرغب في مراقبة أية اشتباكات افتتاحية . في نفس الوقت ، نحن نعرف أن السلطان قد يستدعيه في أي وقت ليعود إلى العاصمة . كذلك ، فكل ما طال وقت وصولنا إلى الهدف ، فإن احتمالية اكتشاف جواسيس السلطان لنا تصبح أكبر» .

قال روستوف «نحن لا نستطيع أن نتخلى عن هذه المهمة الآن» .

أجابه مويلز «بل نستطيع . لا فائدة من زج أنفسنا في الخطر بدون ضرورة» .

«خطأ أيها الإنجليزي . ربما تكون حكومتك أكثر تفهماً لتقلبات ظروف عملنا . من الناحية الأخرى ، فالشخص الذي يعود صفر

اليدين في روسيا لا يأكل . هل تفهم؟ إنه الشخص الذي ينبغي أن نجعل منه أمثولة للآخرين» .

نظر إليه مويلز وفهم موقفه «حسناً يا روستوف ، سوف نستمر . ولكن يجب أن تفهم أنني لن أشارك في أي مشروع اعتبره متهوراً» .

بدأ ڤارتنيان يشعر بتأثيرات النبيذ «يا سيد مويلز ، لا تتكلم عن الطفح الجلدي فقد عانيت منه ما يكفي . كانت هناك فتاة في ابردين . . . .» .

قاطعه كيڤوركيان «لِمَ لا نقتل أي شخص يخصهم على الجزيرة الآن . حتماً أي باشا مثل غيره في الأهمية؟» .

«اهدأ» قال روستوف .

قال مويلز «يا كيڤوركيان ، لا تذكره إلا (بالهدف)» .

سار إلى حيث استمر الأرمني في الجلوس يسن سكينه مستنداً الى الجدار .

همس له بأقل صوت يمكنه النطق به «تذكر أن لديهم جواسيس في كل مكان» .

رفع كيڤوركيان نظرة باتجاهه ونفض كتفيه ، لكنه اعترف بالمقولة .

استدار مويلز وخاطب الثلاثة كلهم «تذكروا انه تم اختيار الهدف لأنه سيمثل أقوى تأثير على الحكومة والسلطان بضربة واحدة . نحن لا نستطيع ببساطة أن نغير الهدف لأن الظروف قد اختلفت . . .» ونظر إلى ڤارتنيان «وتغيرت» .

هزَّ ڤارتنيان رأسه مشيراً إلى تفهمه وتناول جرعة من النبيذ .

قال روستوف «كم من الوقت سوف يستغرقنا الوصول إلى بر اليونان الرئيس يا كوستاكوس؟» .

كان كوستاكوس مقعياً حول النار مع رجاله .

غـداً وبعض من الليل للوصـول إلى سـودا ، ربما نفس الوقت في قارب صـيـد . لن يوقـفكم أحـد ، أنا متـأكـد . يومـان «ناول قنينة إلى روستوف الذي سحب جرعة طويلة» .

«يومـان آخـران على الأقل بعـد ذلك للوصول إلى الجبـهـة» . قـال مويلز «نحن ننظر إلى حوالي أسبوع . لنأمل أن هدفنا مخلص لواجبه بقدر ما نعتقد» .

الفصل الثامن عشر

كان حلمي باشا يقضي وقتاً ممتعاً في مراجعة انتشار الجيش ومراقبته . وقد قام منذ مغادرته مقر قيادة الجنرال أدهم باشا بالركوب والتجوال على المواقع المختلفة لما سوف يعرف قريباً بجبهة ثيسالي . كان الرجال الذين تحدث إليهم متحمسين لكنهم جميعاً يسيطر عليهم تصميم شرس على أنه متى ما قامت الحرب فإن الغلبة في المعركة ستكون لهم . كان يقترب بصحبة ڤون ديرجولتز كثيراً وكثيراً جداً من الخطوط اليونانية كما أخبرهما ضباطهما ، يتفحصان مواقعهم وأسلحتهم بواسطة مناظير ميدانية مقربة ، بينما استمر اليونانيون بأزيائهم البيضاء يبادلونهم التحديق العابس . أكّد له ڤون ديرجولتز أن الجيش العثماني إذا قورن برجل مقابل رجل ، فهو أفضل من اليوناني كما أنهم فوق ذلك يمتلكون الميزة العددية إلى جانبهم . لكن حلمي باشا كان يعرف أن المدفعية والفرسان قادرين على إبطال تفوق المشاة المتكدسين .

زخبرهم جواسيسهم على الجانب الآخر المقابل أن اليونانيين يمتلكون المدافع ، لكنهم يحتفظون بها تحت الأغطية . لم يشاهد مدفعاً واحداً في أي من جولات مراقبته . مجرد صفوف من الرجال الجوعى والذين يعانون من البرد بلا شك . فيما عدا قلقه حول الأمكنة التي يحتفظ فيها اليونانيون بمدافعهم ، يغالبه شعور أفضل حول هذه العملية مما أحس به منذ زمن طويل جداً .

قال ڤون دير جولتز صباح أحد الأيام وهو يركب إلى جانبه «تخبرني مصادري في ألمانيا بأشياء جيدة جداً» .

«آها ، صحيح؟» .

«حسناً ، أنت تعرف أننا معشر البروسيين اليونكرز نساند بعضنا ، أليس كذلك؟» .

قال حلمي باشا مع ابتسامة صغيرة «لقد سمعت كلاماً عن ذلك» .

«حسناً ، اتضح لي أن صديقي الطيب البارون جوتفريد ڤون ليكر قد تم تعيينه الملحق العسكري في اليونان السنة الماضية» .

كان حلمي باشا مستغرقاً في تفحص الطبيعة الجغرافية للوادي الذي يعبرانه ، لكنه أدار رأسه عند سماع هذا .

«الى أي درجة هو مقرب منك أيها البارون؟» .

«إنه طيب جداً . نحن كما تعلم نبقى على اتصال دائم» .

«لم أعرف ذلك . وكيف يجد صديقك البارون منصبه الجديد؟» .

«إن رأيه والرأي في ألمانيا بشكل خاص هو أن اليونانيين قد انتشروا أكثر مما ينبغي» .

كيف تمددوا ، إذا سمحت لي؟» .

«لقد حقق اليونانيون نجاحات في السنوات الأخيرة القليلة . فقد قاموا بالتعبئة بقدر القوات العثمانية تقريباً وحققوا مكاسب ووسعوا حدودهم . أدى هذا إلى إحساسهم بالثقة . وكذلك أدى إلى افقارهم . نحن لا نتكلم هنا عن أمجاد القدماء عندما نتكلم عن يونان اليوم . هذه بلاد فقيرة ، وقد افتقر اليونانيون بدورهم عبر القرون . يقال لي انهم مفلسون . حسب رأي الملحق ڤون كلير فإنهم مدربين بشكل سيء وغير مستعدين بما يكفي . يعتقد أن هذا قتال ينبغي عليهم أن لا يبدأوه .

لكنهم سيفعلوا لأنهم واثقون من انفسهم ولأنهم يعتقدون أن القوى سوف تساعدهم» .

«ليس إذا بادروا بمهاجمتنا» .

«ربما ليس في البداية ، لكن حديث جنرالك أدهم باشا عن الزحف إلى أثينا سيكون أمراً اكثر مما سيقبله الغرب» .

فكَّر حلمي باشا في هذا القول لبضع لحظات .

«آه ، لو أنني أعود لأصبح مجرد جندي بسيط أيها البارون» .

ضحك ڤون ديرجولتز لنفسه «نعم ، تصبح الأمور أسهل عندما يكون كل ما يتوجب عليك فعله هو الركوب وإطلاق النار» .

قال الباشا «أتفق معك» .

واستمرا في الركوب .

في النهاية ، جاءت رحلة المجموعة إلى الميناء خالية من الأحداث . أخبرهم كوستاكوس أن هذا الجزء من الجزيرة واقع بأيدي اليونانيين بثبات ، رغم أن كلماته جرى تكذيبها إلى حد ما بوجود دورية الخيالة التي اضطروا إلى تجنبها . لم تحدث اشتباكات بالأسلحة النارية على غرار ما حدث لدى نزولهم إلى البر ، لكن أصبح واضحاً أن هذه أرض ما زالت موضع نزاع بين الجانبين ، اليوناني والتركي .

فكر مويلز : بل ثلاثة جوانب في الواقع ، لأنه توضَّح من شذرات محادثاته مع كوستاكوس أن أهل كريت أنفسهم شعب بعقلية مستقلة ، وأنهم يحملون نوعاً من الإحساس باستنكار الطبيعة الاستعلائية ليونانيي البر الرئيس .

ركع الرجلان المتقدمان عن المجموعة الرئيسة بحوالي مئتي ياردة على إحدى الركبتين . تبعتهم بقية المجموعة . بدا الوضع بالنسبة لمويلز وكأنهم يسيرون فوق سهل مسطح مع انخفاض ضيق على يمينهم باتجاه الغرب .

فكَّر «لابد وأننا مرئيون لمسافة أميال من حولنا هنا» .

قام الكشاف على الجهة اليمنى بأداء حركات معينة بيديه ورد عليه كوستاكوس بالمثل .

بعدها أدى الكشافان المتقدمان تلويحة مشتركة ، ثم نهضوا واستأنفوا المسير مسرعين .

تكلم كوستاكوس «تعال يا مويلز ، تمشى معي قليلاً» . وبدأ ينحرف مبتعداً عن وسط السهل متجهاً نحو الوادي . تبعه مويلز ولاحظ أن روستوف حافظ على قربه . أدرك أن الروسي لا يثق بهؤلاء الرجال بدرجة مطلقة ، تماماً بما يشبه حالته .

عند الوصول إلى الحافة ، انفتح المنظر الطبيعي أمامهم ، وهو منظر رائع في رائعة النهار .

فالأرض تتوالى على شكل موجات . لاحت لمويلز على شكل بلاد جبلية جافة ، حيث ينبغي نبش المحاصيل من التربة بصعوبة . لكنه أصبح مضطراً إلى الاعتراف بأنه استمتع طويلاً بالفاكهة التي قطفها الكريتيون من أشجار النخيل .

أشار كوستاكوس إلى بناية تقف وحدها بين الحقول المغبرة . لاحظ مويلز أنها أقرب إلى كونها كنيسة .

سأله كوستاكوس «هل ترى هذه يا مويلز؟» ثم التفت إلى روستوف خلفه «وأنت أيضاً يا روستوف» .

تقدم روستوف لينضم إليهما ثم نظر

قال كوستاكوس «هذه هي اركادي» .

نظر إليه مويلز بدون أي تعبير

«هل تعرف ما هي يا مويلز؟» .

قال روستوف «أعرف» .

نفض مويلز رأسه نفياً ونظر إليهما .

شرح كوستاكوس «قبل ثلاثين سنة من الآن ، جاء الأتراك وحاصروا ألف كريتي يوناني في ذلك الدير هناك» .

لم يكن مويلز قد سمع هذه القصة أبداً ، واتضح أن كوستاكوس يرويها لمصلحته هو وحده . أصبح واضحاً أنه لم ينس ملاحظة مويلز عن كون القتال الحقيقي يحدث على البر الرئيس .

«نعم يامويلز ، ألف رجل وامرأة وطفل ، حوصروا من قبل قرابة عشرين الفاً من رجال السلطان ومدافعه ، اتخذ قائدهم موقعه فوق هذه التلة ، ربما غير بعيد عن المكان الذي نقف فيه الآن . طلب منهم الاستسلام ، لكنه حصل على رصاصات كجواب . لذلك اطلقوا المدافع وركضوا نازلين التلة هنا حاملين سلالمهم وبنادقهم . حصدهم الرجال الموجودون على الأسوار . هجموا مرة بعد أخرى وقد حفرت المدافع والبنادق ثقوباً في الجدران . لو كان النزول إلى هناك آمناً الآن ، لأريتك . لكن لم تكن هناك فائدة ترجى . أرسلوا طالبين المزيد من المدافع في تلك الليلة ، بينما ذهب اثنان من رجالنا لطلب المساعدة . لم تكن هناك أيه مساعدة يمكن تقديمها ، بل وجد المزيد من المدافع في الصباح التالي ، وتمكنوا في نهاية المطاف من نسف بوابات الدير على الفور . ثم دخلوا مثل الأمواج كما أظن أنكم تقولون في إنجلترا . تكسرت موجة بعد الأخرى ، حتى لم يعد هناك المزيد من الرصاص ، فبدأوا يقاتلون بأيديهم وسكاكينهم . استمر القتال ساعات طويلة . مذبحة . بعد أن تمت خسارة كل شيء ، وأصبح الأتراك على وشك الاستيلاء على الدير ، جمع الراهب النساء والأطفال ومن بقي حياً من الرجال في مكان واحد ، أدى صلاة ثم أشعل فتيل البارود الذي بقي . يقال إن الانفجار قتل من الجنود ما يعادل أعداد الناس الذين قتلوا في الاشتباكات» .

حدَّق فيه مويلز على اتساع عينيه .

«هل قام بتفجير النساء والأطفال؟» .

«نعم ، أصبحوا كلهم شهداء . هذه هي الطريقة التي نقاتل فيها في هذه الأرض . حتى القساوسة» .

حدَّق كوستاكوس في عيني الإنجليزي

«تذكر ذلك عندما تذهب إلى القتال الحقيقي» .

استدار وذهب ليلتحق برجاله .

في الأثناء . استمر روستوف ينظر في بقايا الدير تحته بعدم اكتراث طيلة الوقت ، لكنه أدار وجهه إلى الأعلى متفكراً باتجاه الشمس الغاربة .

«هناك ما يسرُّ إليَّ يا مويلز بأن الكهنة الطيبين في كنيسة إنجلترا خاصتكم قد لا يمتلكون الشجاعة الكافية لمثل هكذا عمل» .

بدأ مويلز يسترجع السيطرة على أفكاره «أعتقد أنك محق يا روستوف . لأن شاي ما بعد الظهر يناسب أذواقهم أكثر . وأستطيع أن أنتفع بشيء منه في هذه اللحظة» .

«عندما تكون في كريت ، افعل ما يفعله الكريتيون وأنا أقول إنني سأرغب بقليل من الفودكا ، لكنني سأرضى بالمزيد من ذلك النبيذ الطيب . هل ستنضم اليَّ؟ يمكنك أن تخبرني عن مواطنك داروين وكيف توصل إلى الاستنتاج القاضي بأننا قرود كلنا . ألم يكن هو نفسه رجل كنيسة؟» .

«نعم ، لقد تحدَّر من ذلك التيار . هلم بنا نذهب ، لقد اكتفيت من هذا المنظر» .

***

وصلوا إلى الخليج في وقت باكر من اليوم التالي لكنهم اضطروا إلى البقاء في التلال المشرفة عليه طيلة الصباح وما بعد الظهيرة ، ينتظرون هبوط الظلام .

قال لهم كوستاكوس «عندما يحين الوقت ، سننزل بسرعة ونضعكم على القارب . ستكونون صيادي سمك خلال الرحلة . يصر القبطان على أن تعملوا أثناء وجودكم على سفينته . لن يقبل بأي . . . . كيف تقولها . . . . كلب بحر؟» .

أصلحه مويلز «تكاسل . أنا واثق من أننا سنتمكن من القاء بضع صنارات لساعات قليلة أو ربما حتى شبكة» .

هزّ كوستاكوس رأسه بغياب ذهني وهو يمسح المنطقة يميناً ويساراً «كما تقول ، الشبكة والصنارة» .

سأل ڤارتنيان المستلقي على بطنه مثل الآخرين ، يشرف على الخليج والبحر من ورائه

«ما هو مدى مهارتك في استعمال الشبكة يا كيڤوركيان؟» .

أجابه كيڤوركيان «بقدر مهارتي في استعمال السكين تقريباً يا ڤارتنيان» .

«آه ، سنرى . سوف أراهنك الآن على أنني سوف اصطاد كمية من السمك أكثر من ثلاثتكم مجتمعين» .

قال روستوف «مستحيل» .

قال ڤارتنيان «راقبني أنت . سوف أصطاد لك عشاءك . لاداعي لأن تشكرني مقدماً . ولكن ربما لا تكون مجاملة صغيرة خارجة عن مساقها» .

ابتسم روستوف على هذه المقولة رغماً عن إرادته .

قال مويلز «لن يكون هناك أي سمك للوهلة القادمة . إلى أي

درجة نحن بأمان على هذه التلة يا كوستاكوس؟» .

أجابه الكريتي «بأمان تام . إن رجالي خافرون وراءنا ، وبإمكاننا أن نشاهد كل الاقترابات في البلدة من هذا الموقع بدون أن يلاحظنا أحد» .

«ربما ننام قليلاً اذاً يا مويلز . إنه عصر يوم جميل ، ويمكننا أن نصطاد السمك هذه الليلة» .

«ڤارتنيان ، أنت لست في إجازة ، ولكن لا بأس إذا نمت ، بعد أن تناولني الخرائط من حقيبتك» .

بحث ڤارتنيان في عجالة للحظة ثم مررها إليه قبل أن ينقلب على ظهره ويعقد يديه فوق عينيه . أفرد مويلز الخطط لما بدا وكأنه المرة الألف وبدأ يدرسها ، خاصة المناطق الشمالية القريبة من الحدود . كان واثقاً من أن الهدف سيتواجد في ثيسالي ، لكن البانيا باتت احتمالية أخرى ، وأصبحت لديهم فرصة أن يتم العثور عليهم في الجبال هناك بقدر فرصتهم في العثور على أي شخص بأنفسهم . كان واثقاً إلى حد كبير من أن روستوف والأرمنيين لن يعدموا الاتصالات التي ستمكنهم من عبور اليونان حتى الجبهة ، لكن الإنسان لا يمكن أن يتأكد أبداً . لقد أثبت كوستاكوس أنه جدير بالاعتماد عليه حتى الآن . ولو أنه مشاكس ، وربما أن مويلز يميل إلى المبالغة في الحذر . ولكن مرة أخرى ، فإن ائتمان الآخرين على مصيرهم كلياً هو مجلبة للمتاعب . بينما انشغل الآخرون بترتيب أسلحتهم وتنظيفها واستمر ڤارتنيان في النوم ، استمر هو في الإنكباب على الخرائط إلى أن بدأت الشمس تنزل أخيراً ويبهت الضياء .

اتخذوا طريقهم عبر الشوارع المهجورة لبلدة الميناء الصغيرة واتجهوا رأساً نحو القوارب . انتشر رجال كوستاكوس أثناء هرولتهم أمام

الآخرين وأوضحوا لهم الممر الصحيح المؤدي إلى القارب الصغير الذي كان يتمايل ويضرب جدار المرفأ برفق .

حلَّ كوستاكوس الحبال التي ثبتته بدون أي احتفالية واستخدم حذاءه العسكري لدفعهم بعيداً . رفع يده ولوح بها ، ثم لم يبق سوى اربعتهم وصياد السمك العجوز .

تكلم وجهه وملابسه اكثر مما يستطيعه أي تقديم عن نوع الحياة التي قضاها ، ولم يحاول أن يزعج نفسه بمجرد التحدث إليهم بأي طريقة وأي لغة . بدلاً من ذلك ، أشاروا وجههم عندما أراد منهم التصرف ، وربما ألقى إليهم بأداه مثل قضيب أو مجذاف إلى يد أحدهم مع دفعة له ليبدأ في استخدامه .

ظلوا قريبين من الشاطئ طيلة وقت الرحلة ، ومع خفوت أنوار ميناء سودا الشحيحة أصلاً ، أصبح بالإمكان رؤية المزيد من القناديل التي تشكل نقاطاً على مدى الرؤية . كان القارب مفتوحاً لعناصر الطبيعة ، بدون حتى غرفة صغيرة للقائد ، لكنه كان يتسع لجلوس خمستهم براحة نسبية ، وبدأوا بعد هنيهة يغفون . أيقظهم صياد السمك صباح اليوم التالي عندما بدأ يخطو بتثاقل في المساحة المحصورة ليتفقد الشبكات والشراع . بدأوا يتحركون الواحد تلو الآخر ، بدءاً بكيڤوركيان ثم روستوف ومويلز ، وأخيراً تحرك ڤارتنيان على كره منه ، تمطى ونظر حواليه ليجد أنهم في وسط البحر المفتوح . كان يمكن رؤية الخطوط التي لا يمكن الخطأ بشأنها لسفينة حربية في المدى ، لكنها باتت أبعد بكثير مما يمكن للتعرف على جنسيتها أو تصنيفها .

أخرج روستوف منظاره المقرب وأخذ يتفحصها بمنتهى التمحيص .

«لا يمكنني القول ما إذا كانت تركية أو يونانية . لأنه من المستحيل تمييز الألوان من هذه المسافة . وربما حتى أخاطر بالقول إنها

يحتمل أن تكون إحدى سفن البحرية البريطانية أو الروسية» . أنزل منظاره . «سوف نعرف عما قريب» .

في الأثناء ، وقف الآخرون إلى جانبه واستدار كيڤوركيان إلى الصياد . سأله بمجموعة من الايماءات والإشارات عما إذا كانوا سيعبرون مسار السفينة .

هزَّ الرجل العجوز رأسه بحدة وحرك ذراعه بطريقة أخبرتهم أنهم سيسلكون مساراً بخط مستقيم نحوها . ثم دفع كيڤوركيان عن طريقه حتى يتمكن من المضي في عمله .

تبين في النهاية أن السفينة هي يونانية حربية مدرعة تقوم بدورية اعتيادية ، أو اعتيادية بالقدر المتاح مع وجود الحرب تلوح في الأفق . لتلك الغاية ، كانت تبحث عن فريسة أكبر بكثير من قاربهم الصغير ، ومروا بها بدون أية مشاكل . بعد ذلك بوقت قصير ، لاح البر الرئيس أمامهم فبدأوا بتحضيراتهم للرسو . نفَّذ ڤارتنيان وعده وأخذ يخزن السمك الذي اصطاده بداخل حقيبته ، ويبهجهم بكيفية وجود نقطة ليمون لتجعلها أطيب مذاقاً .

قال مفكراً «ربما سنمر بشجرة ما» .

أخرج روستوف منظاره المقرب مرة أخرى وأخذ يراقب الشاطئ اثناء اقترابهم .

قال «يكاد يبدو أنه مهجور . لست أرى سوى رجل واحد على الشاطئ ، وهذا كل شيء» .

سأله مويلز «هل يمكنك التعرف عليه؟» .

«نييت . هو شخص لم أره من قبل . ما الذي قاله كوستاكوس عن الأشخاص الذين سوف يستقبلونا؟» .

«لا شيء غير أن أوامره تقضي بايصالنا إلى هنا . لا أعتقد أنه كان

يكذب حينما قال إنهم أخبروه بالقليل . تلك هي أكثر السبل أماناً للنجاح» .

ناول روستوف المنظار إلى مويلز الذي وضعه على عينيه ونظر بنفسه .

كان هناك رجل أصغر منه في السن ببضع سنوات يقف على الشاطئ . انعكست الشمس على شعره الأشقر ، ووقف بغير تكلف واضعاً يديه في جيوبه .

الرجل ملتح ، الأمر الذي جعله يبدو أكبر سناً ، وبدا هيكله الضخم منحسراً لجهة نحافته .

استطاع مويلز أن يميز وجنتيه الغائرتين المنكمشتين حتى من مسافة مئتي ياردة .

قال لروستوف «ولا أنا تعرفت عليه» .

«حسناً ، دعنا لا نخاطر مطلقاً «مد روستوف يده إلى داخل معطفه وأخرج مسدسه وتفحصه ليتأكد من وجود رصاصة في بيت النار .

قال مويلز للاثنين الآخرين «توليا حمايتنا من القارب . سأشير لكم بإشارة الأمان عندما أتأكد من سلامة الموقف» .

قال روستوف «سأعطي إشارة بدء إطلاق النار بأن اطلق النار على رأسه» .

ابتسم ڤارتنيان على هذا التعليق وسط لحيته ، رغم إدراك مويلز المؤكد بأن روستوف لم يكن يمزح لثانية واحدة . صعد القارب إلى اليابسة فوق الرمل الناعم على الشاطئ وألقى الصياد العجوز مرساته عن الجانب قبل أن يرمقهم بنظرة قالت إن وظيفته قد انتهت . مسح مويلز الشاطئ بعينيه ، فلم يظهر وجود أي شخص آخر ما عدا الشكل

المائل إلى الغرابة الماثل أمامهم حالياً . قفز عن جانب القارب فتقدم الرجل خطوة إلى الأمام .

«أنا إدوارد جوريس من الاتحاد الثوري الأرمني» .

فوجئ مويلز بما سمعه مما بدا مثل لكنة فرنسية .

«أنا مويلز وهذا» انتظر حتى قفز الروسي في الماء إلى جانبه «وهذا روستوف» .

ذهبت عينا جوريس إلى المسدس المشهر في يد روستوف . «يفترض فيَّ أن آخذكم إلى هدفكم وكذلك سوف اساعدكم في إتمامه . إن أزياءكم وحاجياتكم الأخرى موجودة في العربة» .

لاحظ مويلز أن الرجل يتمتع بنظرات غريبة ، ليست نظرات المتطرفين الوحشية ، بل شيء قريب جداً منها . هذا الشيء لم يخف على رجل حاصل على مثل تدريب مويلز ، وتكلم في هذه اللحظة .

«سوف ترشدنا إلى حيث نحتاج الذهاب . بعد ذلك يصبح ارتباطك معنا في حكم المنتهي» .

نظر جوريس إلى الأعلى حيث استمر الأرمنيان بالوقوف في القارب ينظران إلى أسفل ، وقد استلا بندقيتيهما .

«باريف دزيز إنكير» .

استدار مويلز ليرى كيفوركيان وفارتنيان يردان بهزتي رأس جديتين ، رغم أنهما ظهرا بدورهما محتارين تجاه الرجل .

سأله روستوف «هل لديك وسيلة نقل؟» .

«نعم ، أرجو أن تتبعوني . إنها على مسافة قصيرة خلف الشاطئ . سوف تضطرون إلى إخفاء هذه البنادق لدى مرورنا بالقرية وما بعدها . يحتمل أن يثير الغرباء الشكوك : والغرباء الذين يحملون اسلحة نارية يثيرون شكوكاً أكثر» .

رفع مويلز ذراعه فألقى إليه ڤارتنيان بحقيبته .

«تولَّ القيادة يا جوريس» .

حدجه روستوف بنظرة حادة بينما استدار جوريس وبدأ يمشي صاعداً الشاطئ .

أصبح واضحاً أن الروسي لم يعجبه الالتقاء في هذا المكان ، لكن مويلز أدرك أنه لا خيار آخر لديهم . لحقه أربعتهم صاعدين التلة الصغيرة المحاذية للشاطئ ، ومع وصولهم إلى القمة ، شاهدوا عربة مزارع صغيرة أمامها حصان يبدو عليه التعب .

قال ڤارتنيان «أرى أننا سنسافر بفخامة» .

ألقوا بحقائبهم إلى الداخل ثم تسلقوا . جلس موريس قبالة جوريس على لوحة السائق وجلس روستوف خلفهما مباشرة في مؤخرة العربة . جلس كيڤوركيان وڤارتنيان متقابلين في المؤخرة ، مدلين أقدامهما عن الجانب . أخرج ڤارتنيان قنينة من حقيبته ونزع الفلينة بأسنانه . لاحظ مويلز أنهما قد أخفيا بندقيتيهما عن الأنظار تحت القش الذي يغطي أرضية العربة . على أية حال ، لم تفارق يد ڤارتنيان سلاحه ، حتى عندما سحب جرعة طويلة ومرر القنينة إلى رفيقه .

فكر مويلز : بندقية في يد وقنينة في الأخرى ، لا شيء يمكن أن يختزله أفضل من هذا . حوَّل انتباهه إلى الرجل الذي يمسك بالأعنة إلى جانبه .

«ما هي المسافة يا جوريس؟» .

«أظن أنها ميلان حتى القرية وأبعد بكثير نحو هدفك . سنحصل على التموين من أصدقائنا في القرية ثم نتخذ طريقنا إلى الشمال . يجب أيضاً أن تحصلوا على ثياب جديدة» .

نظر مويلز إلى سترته وثيابه المتسخين . بعد الرسو على شاطئين

والمسير عبر جزيرة كريت، أصبح وسخاً.

اعترف قائلاً «لا شك أننا سوف نستفيد من ملابس بديلة أكثر أناقة».

«ليس أكثر أناقة كما تقولها» أجابه جوريس بشيء من السخرية «يجب أن تبدون مثل الفلاحين: أنتم الآن في اليونان ولستم في ساڤيل راو».

التفت مويلز ليرى روستوف مبتسماً على إحراجه.

«مويلز، الصبي محق، فأنت يمكن أن يظنوك كونت في روسيا».

بدأ مويلز يشعر بالضيق من التحدث إليه باستعلاء: كوستاكوس أولاً والآن هذا المدعو جوريس وحتى روستوف.

بدأ يقول «والآن اسمعني هنا يا روستوف . . .».

قال جوريس مقاطعاً «أنا لست صبياً».

«ماذا؟ ما هذا الذي تقوله؟» كان روستوف متكوماً خلفهما. العربة تتحرك ببطء عبر درب ريفية مهجورة وضيقة جداً.

«لقد قلت أن تلتزم الحذر في طريقة كلامك معي يا روستوف».

شاهد مويلز الحركة من زاوية عينه ولكن مع إدارته لرأسه، كانت ذراع روستوف قد انطلقت.

استقرت ماسورة مسدسة في مؤخرة رأس جوريس، خلف الأذن مباشرة، ثم دفع الرجل الأصغر سناً بها ليتأكد من معرفته أنها هناك.

«أظن أنك ستكتشف يا صبي، أنني رجل حريص جداً: حريص جداً حقاً. والآن».

توقف عن الكلام لحظة ليسحب زناد المسدس بطرقة مسموعة: لابد وأنها جاءت عالية لقربها من أذن جوريس «هل لديك نصيحة أخرى قبل أن نستأنف؟».

تمتم جوريس بشيء ما ، لكنه لم يكن أكثر من بعض الهواء يتسرب من فمه .

«ماذا كان ذلك أيها الصبي؟ لا أستطيع أن أسمعك» . دفع روستوف بالمسدس إلى رأسه بقوة مرة أخرى .

قال مويلز «روستوف . . .» .

أصدر جوريس صوتاً كأنه يسعل أو يتنحنح «لقد قلت كلا» .

«ذلك هو أول شيء ذكي سمعتك تقوله «أعاد روستوف الزناد إلى مكانه وخفض المسدس .

سأله مويلز «هل كان ذلك ضرورياً حقاً؟» .

اكتفى روستوف بنفض كتفيه . نظر مويلز إلى جوريس . شاهد يديه وقد ابيضتا حول الأعنة ، وقد شخصت عيناه محدقتين إلى الأمام . بدا لمويلز وكأنه يحاول جاهداً أن لا يبكي . كان ڤارتنيان وكيڤوركيان قد استدارا وشاهدا الحادثة بكاملها ، ثم استدارا إلى الخلف مرة أخرى ، وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامتين صغيرتين .

سأل مويلز «أين هو الهدف يا جوريس؟» .

أجاب بصوت مرتجف «ثيسالي ، نحن ذاهبون إلى ثيسالي» .

***

«لماذا إذاً لم يأمر بإخراج الأسطول يا خالي؟» .

كان بلفور جالساً على طرف المكتب عاقداً ذراعيه ، يحدق في خارطة جاسكوين - سيسيل .

«الأمر في غاية البساطة حقيقة يا آرثر ، البحرية التركية ضخمة وهي أيضاً قوية» .

«وهكذا يبقى سؤالي قائماً ، لماذا لم يستخدمه . صحيح أن لدى اليونانيين سفن قليلة ، ولكنهم إذا أطلقوا بضع صليات على الصبية

الذين أنزلهم على كريت ، فإن العثمانيين سوف يدحرونهم» .

«يا آرثر أنت تغفل عن الصورة الكبيرة . أكرر البحرية قوية وعظيمة . في بلاط السلطان ، ذلك أمر خطير . ليس لديهم الإجراء البرلماني الموجود لدينا هنا . إن البحرية قادرة على تمجيد السلطان أو إنهائه . إذا أرسلهم إلى هناك فقد يشعرون بقليل من الاستقلالية ، ويبنون قواعد نفوذ خاصة بهم بحيث يأخذ مكانه جنرال ما يحظى بشعبية . ألم تقرأ التاريخ الروماني؟ ذلك هو بالضبط ما يخشونه هناك ، على الرغم من صعوبة تصديقه في عالم اليوم سيقوم جنرال أو اميرال ما متحمس بسحب العرش من تحتهم» .

«وفي هذه الحالة : إذا أرسل البحرية يحتمل أن يحتفظ بكريت ، ولكنه يخاطر بفقدان الامبراطورية؟» .

«بالضبط . انظر إلى كيفية إرساله حلمي باشا إلى هناك ليبقي عينيه على موقف الجيش . إنها سياسة الكلب يأكل الآخر هناك يا آرثر» .

«حسناً ، دعنا نرى كيف تكون نتيجة ذلك التحذير الصغير ، إيه ياخالي؟» .

«فعلاً يا آرثر ، فعلاً» . عاد جاسكوين - سيسيل إلى مسح الخارطة بعينيه مرة أخرى ، وكأنه يبحث عن أي تغييرات ، ثم استدار ليتفحص مفكرته الموجودة على طاولة مكتبه «هل ترغب ببعض طعام الغداء؟ لقد سبب لي كل هذا الكلام عن الإبحار الجوع» .

«معك حق ، المكان المعتاد؟ دعني أنتقي النبيذ إذا لم يكن لديك مانع» .



لاحظ حلمي باشا أن وضع جيش ثيسالي يتحسن في كل يوم يمر . لائق بدنياً ، محترف وسريع . ما كانت المناورات والتدريبات لتبدو لعينيه أفضل .

قال وهما يركبان سوية «أقول لك إنك تجترح المعجزات يا ڤون ديرجولتز» .

«يا باشا ، ما زال هناك الكثير مما يتوجب عمله . هذه مجرد البداية . لكن البداية هي نصف المعركة ، إذا فهمت قصدي» .

«نعم حقاً . هل جاءتك أية أنباء من عملائك في الوزارات الألمانية؟» .

«سوف يقوم اليونانيون بتحركهم عما قريب . سيصدر إعلان ما ، ثم يتلوه هجوم . بعد ذلك سيأتي هجومنا المضاد ، والذي أعتقد أنه سيكون البداية الحقيقية للحرب» .

«لقد حصلت على الأخبار نفسها من القصر . يقوم السلطان بالمراقبة وتجميع الأخبار من شبكته الخاصة هناك . لقد طلب أن نعود قبل بدء الأعمال العدوانية ، لكنه سيتفهم إذا لم يكن ذلك ممكناً» .

«فهل سنعود إذاً؟» .

نظر حلمي باشا خلفه إلى حيث يثير حراسه ومئة وستين حافراً من خيولهم عاصفة من الغبار أثناء ملاحقتهم لهما .

«أعتقد أن انسحابنا في هذا الوقت سوف يضعف قوة الجيش في هذا القطاع بدرجة ملفتة ، خاصة إذا أخذنا القوات الموجودة تحت تصرفنا بعين الاعتبار» .

ظهر على ڤون ديرجولتز السرور الشديد من هذا القول «وأنا أوافق من كل قلبي يا باشا» .

«لا تقلق أيها الجنرال البارون . سوف نشهد بعض القتال في هذه

الحرب» . مرًّا بجمع من الرجال جالسين إلى جانب الطريق .

«سلام أيها الرجال!» . رفع يده بالتحية وردًّ الرجال البادرة إليه وهم يهتفون .

استمروا في الهتاف حتى بعد أن خلَّفهم الحراس في غيمة من الغبار .

الفصل التاسع عشر

أصيب هيرتزل بحالة عصبية ، ولكنه بكل الأحوال عصبي دائماً هذه الأيام . كانت السفينة البخارية تحمله عبر البحر الأبيض المتوسط ، وشمس الربيع تمنح المياه حماماً بزرقة رائعة . عبروا جزر كاپري ، ساحل ايپروس ، وسرعان ما سيقتربون من الليڤانت وجهته النهائية . لا شك أن نفوذ روثتشايلد ونقوده قد أمَّنا لهيرتزل مقعداً على مائدة القبطان كل ليلة ، فاستغل هو الفرصة ليسأل الرجل عن التطورات في نصف البحر الشرقي .

«وهكذا فأنت تتوقع حصول معركة بحرية أليس كذلك يا كابتن؟» سأل هيرتزل بين لقيمات من لحم البقر المشوي الفاخر .

«فعلاً يا سيد هيرتزل نعم . فهل تعرف على سبيل المثال أن العثمانيين يمتلكون ثالث أكبر أسطول بحري في العالم؟» .

«لابد وأن أعترف بأنني لا أعرف» .

«طبعاً ، هذا هو الوضع! يبدو لي الأمر في غاية البساطة أنه إذا كانت القضية المتنازع عليها هي مجرد جزيرة ، في هذه الحالة كريت ، فإن المنطق البسيط يفرض أن البحرية سوف تحدث كل الفارق . انظر إلى ما فعلته البحرية الملكية من أجلنا» .

«نعم ، صحيح . هنالك تلك الحقيقة . لكنني لست واثقاً من أن القضية على ذلك القدر من البساطة . . . .» .

«يا عزيزي السيد هيرتزل ، الأمر في غاية البساطة . خذ على

سبيل المثال الاشتباك الصغير في زنجبار قبل سنتين . أصيب الأمير أو الزعيم أو بصرف النظر عما يسمى نفسه ببعض الغرور الذي لم يعجب حكومة جلالة الملكة ، فأرسلت السفن . لقد قيل إن العملية كلها لم تدم أكثر من أربعين دقيقة : أقصر حرب في التاريخ . والآن قل لي ، لماذا قد يمتنع السلطان عن إرسال سفنه لتفعل الشيء نفسه؟» .

يكره هيرتزل أن يحشر في زاوية شبيهة بهذا الوضع . فالإنسان لا يناقض القبطان على طاولته . معروف عنه أنه يقول رأيه بصراحة ، لكن ربما ليس هذا هو الوقت أو المكان المناسبين . ومع ذلك لم يتمكن من كبح جماح نفسه .

«حسناً يا كابتن . أحد الأسباب هو أن زنجبار ليست لها حدود مشتركة مع إنجلترا» .

توقف القبطان عن دفع الطعام في أرجاء طبقه وجلس ساكناً .

«اعذرني ، ماذا قلت؟» .

«ما عنيته هو أن البريطانيين ، خلافاً للأتراك في صراعهم القادم مع اليونانيين ، ليسوا مضطرين للقلق من قيام سلطان زنجبار بإنزال بري على لندن أثناء جلب انتباههم إلى مكان آخر . إن اليونان وتركيا تتشاركان في حدود برية مثيرة للاهتمام ، الأمر الذي افترض أنه يحتمل المقام الأول في عقول افراد الحكومتين» .

«ربما يكون هذا هو الوضع يا سيد هيرتزل ، ولكن لماذا الاحتفاظ بسلاح البحرية سجيناً في القسطنطينية ، في الوقت الذي يمكنه فيه أن يكون أكثر فائدة بكثير في المياه المفتوحة؟» .

«ربما لأن الأساطيل البحرية الغربية للبريطانيين والفرنسيين والألمان تقوم بدوريات في المياه ، وإذا تذكرنا الدعم الذي أظهرته هذه الدول لليونان في الماضي ، وسوف يكون من غير الحكمة بتاتاً إعطاءهم حجة

للهجوم، أليس كذلك؟ أضف إلى ذلك أن الروس لديهم سفن حربية في البحر الأسود أليس كذلك؟ فلماذا يحركون البحرية إلى الغرب حينما يحتمل أن يأتي الهجوم من الشرق بنفس السرعة؟».

«لا أصدق هذا. البحرية الملكية موجودة هناك بصفة مراقب فقط، وليس لبريطانيا العظمى أي اهتمام استراتيجي بهذا الصراع مهما كان نوعه».

أصبح بإمكان هيرتزل أن يشعر بانتباه المدعويين الآخرين إلى العشاء على المائدة وهم يلتفتون نحوه، فقرر أن يتنازل عن رأيه.

«كما تقول يا كابتن، أنا واثق من أن الوضع كما تصفه. كذلك أنا واثق من أن لحم البقر هذا ممتاز. لقد تفوق رئيس طهاتك على نفسه هذه الليلة».

هزَّ القبطان رأسه، لكن بات واضحاً أن الضرر قد وقع «كما تقول يا سيد هيرتزل. نحن نعرف لحم بقرنا المحمر إذا لم نعرف شيئاً آخر».

ابقى هيرتزل رأسه مطأطئاً طيلة بقية الوجبة وهو يأمل أن لا تستمر المعاملة الباردة لبقية الرحلة.

فكَّر «لدي ما يكفيني لأقلق عليه. آمل فقط أن يكون اللقاء مع القيصر الألماني أكثر لطفاً من هذا...».

***

جلس السلطان إلى مكتبه بينما كانت مراسلات الصباح تقرأ له. عند هذه النقطة، أصبحت أعداد الجنود وطرق الإمدادات والإرساليات اليومية هي الشاغل الرئيس ليومه.

«لقد أرسل الجنرال أدهم باشا لائحة تفيد بأن العدد الحالي للقوات يقف عند قرابة خمسة وخمسين ألف رجل جاهز، مع إمكانية انضمام ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف قبل بداية القتال. طلبه الوحيد

هو استمرار وصول التموين إلى الحدود كما كان سابقاً وأن يكون مخزون الذخيرة متاحاً له بدون تحفظات أو قيود بمجرد بدء القتال» .

قال السلطان مفكراً «مفهوم بدرجة كافية . هل من أخبار من حلمي باشا وڤون دير جولتز؟» .

«لقد وردنا خبر من حاشيتهما بأنهما مستمران في تفتيشهما للجبهة وأن كل ما شاهداه حتى الآن يطابق المعايير المقبولة» .

«لا بد وأننا نحسن العمل ما دام كلاهما سعيداً . متى يعودان؟» .

«لقد طلبا رسمياً أن تمنح جلالتكم لهما الوقت الكافي لإتمام تفتيشهما لضمان أن جميع عناصر قواتكم المسلحة مستعدة وجاهزة لتضيف إلى مجدكم ومجد الامبراطورية» .

رفع السلطان حاجبيه استغراباً وتشككاً عند هذه الجملة .

«وما الذي سمعته بشكل غير رسمي؟» .

«تجيء أخبار من حرسهما الشخصي بأنهما ينويان البقاء هناك إلى أن يندلع الصراع ويقتربا من القتال بقدر ما يستطيعان» .

ألقى السلطان بقلمه إلى الطاولة بقوة .

«اكتب ملاحظة . لا! انتظر . سأفعل ذلك بنفسي» . تناول القلم الذي ألقاه لتوه وأرسل في طلب «خادمي» . أنت تعرف الشخص الذي أقصده» .

انحنى السكرتير «كما ترغبون يا مولاي» .

***

پلاكوتو هي لعبة شبيهة في أسلوبها بنرد الطاولة وكما في معظم الأشياء ، تتطلب مزيجاً من المهارة والحظ . يعتمد الربح فيها على إحضار حجارة الشخص من أحد جانبي اللوحة إلى الآخر قبل أن

يفعل الخصم ويتم تحقيق هذا بإلقاء الزهر . وبما أن أبناءهما قد كبروا بما يكفي للعناية بكروم الزيتون والبرتقال بدون مساعدتهما ، فقد جلس جورج وثيودوروس في الظل خارج المشرب معظم الأيام ليمارسا اللعبة ، وقد أبقيا كأستين صغيرتين من النبيذ إلى جانبهما .

بمقدورهما رؤية كل القادمين والذاهبين على الطريق وهما جالسان هناك يوماً بعد يوم .

لم يكن هناك الكثير لرؤيته ، لكنهما راقبا اليوم عندما استأجر الفرنسي الشاب الذي مكث في الأرجاء منذ أيام ، عربة ونزل بها إلى الشاطئ وعاد بها الآن مع أربعة رجال غرباء بقدره وتوقف خارج المشرب والمتجر مباشرة . نزل اثنان من الغرباء الجدد من العربة ودخلا المتجر بصحبة الفرنسي . بينما بقي الاثنان الآخران الجالسان في مؤخرة العربة مكانهما . جلس الأكثر نحافة من الرجلين خافضاً رأسه ، لكن الأضخم ذا اللحية السوداء بادل العجوزين تحديقهما وشرب جرعات طويلة من قنينة النبيذ التي يحملها . بعد دقائق قليلة ، عاد الثلاثة الذين دخلوا المتجر خارجين ، كل منهم يحمل صندوقاً يحتوي على سلع متنوعة وناولوها إلى الاثنين الجالسين في العربة .

انسحب الرجال الخمسة من أمام المشرب وأكملوا طريقهم ببطء بدون أدنى تحية أو حتى انحناء رأس .

بمجرد أن داروا حول الزاوية واختفوا عن النظر ، أطلق جورج صافرة خفيضة .

جاءت طفلة راكضة خارج الباب . أدخل جورج يده في جيبه واخرج قلم رصاص صغيراً وقصاصة ورق استخدمها ليخربش بضع كلمات على الطاولة . طواها مرتين ثم ناولها إلى الفتاة الواقفة إلى جانبه بصبر . راقب ثيودوروس كل هذا بغير اهتمام . بعد أن أدخلت

الفتاة الورقة في جيب فستانها الأمامي بأمان . أمسك جورج بذراعها وهمس بأذنها بشيء ما .

طأطأت الفتاة مرة واحدة وانطلقت تركض صاعدة الطريق في نفس الاتجاه الذي سلكته العربة قبل لحظات . راقب الرجلان ذهابها أيضاً حتى غابت عن النظر . رفعا كأسيهما وطرقاهما ببعضهما ثم عادا إلى الاهتمام باللعبة الجدية الجارية ، پلاكوتو - مزيج من المهارة والحظ .

«جوريس!» صاح ڤارتنيان من مؤخرة العربة «هل تظن أنك كنت ستجد حصاناً أبطأ من هذا حينما ذهبت إلى السوق؟ أنا فقط أسأل لأنه نهار جميل وأنا أستمتع بمشاهدة الريف في هذه الأنحاء بعمق . على هذه السرعة ، ربما تفوتنا الحرب بجملها» .

حافظ جوريس على الصمت والنظر إلى الأمام .

صاح مويلز مجيباً «أحصر تفكيرك بالمهمة القائمة يا ڤارتنيان» لكنه قال لجوريس بصوت أقل «على كل حال ، هو محق ، سوف نحتاج إلى وسيلة نقل أسرع . أحصنة . هل يمكن توفيرها؟» .

هزَّ جوريس رأسه «ذلك ممكن . هل لديكم نقود؟» .

قال روستوف «لدينا نقود . أين هي البلدة التالية التي لديها سوق؟» .

«هناك إما إيثون أو إسبرطة . إنهما كبيرتان بما يكفي لأن تمتزج مع الناس ، وقد لا يثير منظر شراء الأجانب للخيول الكثير من الشكوك» .

قال روستوف «ومع ذلك سيظل من الممكن تذكرنا إذا سأل أحدهم» . ثم استدار إلى مويلز

«لماذا أرسلوا لنا أجنبياً بدلاً من محلي مثلما حدث في كريت؟ كأننا لم نكن بارزين بما يكفي بدون وجود فرنسي بين صفوفنا» .

«أنا بلجيكي» .

«ماذا كان ذلك يا صبي؟» .

«لا شيء» وازدرد جوريس ريقه «كان يتوقع أن ينزل الهدف إلى كريت ليشرف على العمليات هناك . لقد كنت في طريقي إلى هناك عندما اتصل بي الاتحاد وأمرني بمقابلتكم هنا . إن التغيير في الخطط يعني أننا نرتجل» .

فكر مويلز أن هذا النوع من العمليات لا يصح فيه للشخص أن يرتجل . لكن على الأقل ستمنحنا هذه العربة البطيئة اللعينة الوقت لنفكر .

وهكذا حدث أنهم وصلوا إلى ايثون أولاً واشتروا أحصنة بدون الكثير من المتاعب . اشتروا أربعة جياد لائقة بينما بقي جوريس في العربة .

«سنتجه من هنا إلى شرق ميجارا وغرب أثينا «أخبر مويلز الآخرين أثناء سيرهم راكبين . «سوف نتجنب كليهما ونتوجه إلى ثيسالي مباشرة . يومان على الأغلب» . نظر خلفه إلى جوريس «هل لدينا من نتصل به هناك؟» .

هزَّ جوريس رأسه نفياً . بات يبدو عليه الامتعاض لكونه الأخير في الأهمية بدرجة واضحة . من ناحيته ، لم يخفِ روستوف استمراره في كراهيته للرجل الأصغر سناً .

قال «حسناً . كم سنقترب من أثينا؟» .

قال مويلز «سنكون قريبين جداً . ربما يتوجب علينا الاقتراب من الضواحي لكي نصل إلى ثيسالي من هنا : الأرض ضيقة جداً» .

«امنحوني يوماً لأدخل وأخرج راكباً . سوف أعثر على كل ما نحتاج معرفته من أصدقاء لي هناك» .

لم يكن مويلز متأكداً من نوعية الأصدقاء التي يقصدها ، لكن

ذلك أفضل من الدخول ببساطة إلى ما يحتمل أن يكون منطقة حربية تضطرهم إلى ممارسة لعبة الاستغماية .

«حسناً . افعل ذلك . أي شيء هو أفضل من لا شيء» .

هزَّ روستوف رأسه موافقاً ولكز حصانه .

الفصل العشرون

انتهت رحلة هيرتزل البحرية غير المريحة عندما نزل في بيروت وانتقلت السفينة مع قبطانها إلى رحلتها نحو الاسكندرية . بحلول هذا الوقت حلَّ الربيع بكامل بهائه وبدت سورية مثل حديقة مقارنة بفصل الشتاء الذي تعيشه ألمانيا والتي غادرها لتوه .

فكَّر أن هذا عالم من العجائب فعلاً ، بينما كان يحمل إلى داخل المدينة عبر التلال المغطاة بأشجار الأرز . حيَّاه مدير مكان أقامته بحرارة لدى وصوله .

«يا سيد هيرتزل ، أنت على الرحب والسعة في فندق ليڤانت . أرجو أن تسمح للصبي بأن يأخذ متاعك إلى غرفتك ، بينما نحن ننهي المعاملات الرسمية . على كل حال ، فأولاً هنالك رسائل لك» .

سأل هيرتزل متفاجئاً «الآن؟» .

اتخذ المدير نظرة اعتذار وقدم المغلفات «رجاءً» .

لدى دخوله المدينة ، أحسَّ هيرتزل بارتفاع في معنوياته ، لكن الإرهاق حلَّ عليه فجأة وأصبح كل ما يرغب فيه هو إبريق من القهوة المركَّزة وسرير عريض وكتاب يهدهده حتى ينام . تنهد وتناول المغلفات التي قدمها الرجل إليه .

«هل هناك مكان أستطيع فيه قراءة هذه وربما أحصل على بعض القهوة؟» .

«غرفتكم بالطبع وسوف أرسل لك القهوة، فهل تحب أن . . . .» هزَّ هيرتزل رأسه نفياً.

«كلا أشكرك. لكنني أخشى أن يثبت إغراء أسرَّتكم الفخمة هنا في الليڤانت أنها إغراء أقوى من أن يقاوم».

تغير التعبير على وجه الرجل من المرتبك إلى المتعاطف وهزَّ رأسه متفهماً.

«ولكن الحقيقة يا سيد هيرتزل. إذا أحببت أن تتبعني فإن قاعة الطعام لدينا هادئة بدرجة رحيمة في هذا الوقت من النهار، وسنحضر لك كل ما تحتاجه».

«إنني اشكرك».

تفحص هيرتزل المغلفات أثناء سيره عبر الردهة خلف الرجل، وهي قاعة استقبال تفوح برائحة الثراء الذي اعتاد عليه من خلال شراكته مع روثتشايلد، ولكنها مغايرة بدرجة كبيرة للحياة البسيطة التي لاحظها في الحقول خلال رحلته قادماً من الميناء. أحسَّ بسماكة المغلفين اللذين يحملهما بيده، وقدَّر أن كل منهما يحتوي على ورقة من النوع الثمين أو كرتونة مطوية في الداخل. لم يأتيا من الوطن. لم يتعرف على الخط، ففي كل الأحوال لا زوجته ولا المحررين في الصحيفة يعرفون أين سيتوقف بالضبط.

فقد نظمت الرحلة على عجل وعندما غادر لم تكن الخطة أكثر من إنزاله في أكثر الموانئ ملاءمة. تعجب من التغيرات التي طرأت على حياته بحيث صار الآن يبحر في أرجاء المتوسط ويقابل الملوك، ويشتاق لأسرته.

الخطابان يا ثيودور، الخطابان . . .

لم يكن هذان خطابا عمل تجاري أو رسمي، لكنهما ينطويان على

قــدر من السلطة . أحسَّ هيـرتزل أن ذلك الإحـســاس يصـدر عن ملمسهما . شعر وكأنه يفترض فيه أن يتناولهما مرتدياً قفازين .

إذاً سيكون ذلك المرسل هو روثتشايلد .

على كل حال ، فقد جاء الخطاب الآخر غامضاً . قاده المدير في قاعة الطعام إلى كرسي قريب من النوافذ الهائلة في الطرف القصي من القاعة والمشرف على شاطئ بيروت . الطاولات معدة لخدمة وجبة العشاء في وقت لاحق من ذلك المساء ، ولكن في الوقت الحالي على الأقل ، فإن القاعة تحت تصرفه وحده . جلس على الكرسي الذي سحبه له المدير ، وبعد أن اطمأن مضيفه المهذب إلى أنه مرتاح ، صفق بيديه بصوت مرتفع وظهر نادلان ، واحد ليعيد ترتيب طاولته للقهوة والآخر ليجلب المنعشات نفسها ، تمنى هيرتزل في هذه اللحظة لو أنه اكتفى بالذهاب إلى غرفته ، لكنه ألفى نفسه أكثر تأدباً بوجود هذا التكريم من حوله . جلس وانتظر حتى انتهوا من عملهم وأصبح وحيداً أخيراً . تناول المغلف الذي افترض أنه من روثتشايلد وفتحه مستخدماً سكين الزبدة .

فتح الورقة وأغمض عينيه لوهلة ، آملاً أن يزول الإرهاق عنه ثم قرأ .

ثيودور ،

آمل أنك قد وصلت إلى فندق ليڤانت سالماً . لقد تم إرسال برقية قبيل وصولك واتخذت كل الإجراءات الضرورية لسفرك . وصلتنا أخبار أن القيصر الألماني سيقابله بعد ظهر يوم ٢٨ نيسان . سيكون في ذلك الوقت بالقدس . فكر في الموضوع . سوف تتمكن يا ثيودور من عرض قضيتنا عن الوطن أمام أكثر الداعمين نفوذاً للسلطان في المدينة المقدسة نفسها . هل يوجد أي شيء آخر ليخبرك بأن محاولاتنا

ستؤدي إلى النجاح؟ لدي كامل الثقة فيك . لقد فعلت الكثير جداً حتى الآن . انجح في هذه الزيارة الأخيرة وسوف ينادى بك كموسى جديد!

يجب التوقيع على جميع المصاريف والنفقات باسمي . لا تجعل أي شيء يوقفك أو يعترض طريقك عند هذه المرحلة يا ثيودور . إن شعبك بحاجة إليك .

صديقك

إدموند جيمس

لم يستطع هيرتزل أن يغالب شعوره بالضحك . واضح أن البارون غارق في الإثارة لأنه لم يوقع من قبل أبداً باسمه الأول على أي من الرسائل المتبادلة بينهما . تنهد هيرتزل مرة أخرى .

ينبغي أن أكون سعيداً بسروره ولكنني أخشى أن ذلك يضيف إلى مسؤولياتي . يقول موسى!

شعر هيرتزل بكثير من التوتر أثناء مقابلته للدوق وابنه . ويفترض فيه الآن أن يقابل امبراطور الامبراطورية الألمانية ، الرجل الملقب بسيد الحرب المطلق ، وسيقابله في القدس .

هل يمكن أن تكون هناك لحظة أعظم أو امتحان أكثر عظمة!

فتح الخطاب الثاني . التقطت عينه وتعرفت فوراً على النسر الأسود لأسرة هوهنزوليرن في الأعلى . بدأت يده ترتجف .

عزيزي السيد هيرتزل

يدعوك صاحب الجلالة الامبراطورية والملكية القيصر ويلهيلم الثاني للامبراطورية الألمانية باحترام لتقابله صباح اليوم الثامن والعشرين من نيسان في غرفته بفندق الملك داود بالقدس في تمام

الساعة التاسعة. لقد طلب مني القيصر أن أفهمك بأن هذا اللقاء سيكون غير رسمي.

ننظر بشوق إلى سرورنا بصحبتك.

المخلص

والترڤون ريختر

أسقط هيرتزل الخطاب إلى الطاولة وتجرع كامل محتويات فنجان القهوة الموجود أمامه.

في ليالي الأوبرا وحفلات الاستقبال اللاحقة، روى قصة تأكيد لقائه بالقيصر، وكثيراً ما علّق قائلاً أن أول ما خطر بباله هو أن روثتشايلد كان مخطئاً ولو لمرة - وأنه سيقابل القيصر في الصباح وليس بعد الظهر.

بعد ذلك، احتضن رأسه بين يديه.

***

«أرجو يا باشا، أرجوك إكراماً لله تعالى، أن ترجع إلى الخلف. المكان ليس آمناً!».

أصيب الرائد المسؤول بالذعر «أيها الجنرال البارون. أنت أيضاً أرجوك. سوف يأتون قريباً. يجب عليكما أن ترجعا».

التفت حلمي باشا إلى الخلف حيث جلس ڤون ديرجولتز على صهوة حصانه، ينظر من خلال منظاره الميداني المقرب. ربما كان يشبه نوعاً من الحيوانات التي تسكن جوف الأرض في أول قدومه إلى بلاط السلطان، لكن حلمي باشا لم يستطع أن ينكر التحول الذي فرضته المعركة القادمة على الألماني الذي أصبح الآن يعتبره صديقه.

التف فمه في ابتسامة جادة حينما رفض ڤون دير جولتز تحذيرات

الرجل بزمجرة خفيضة كثيفة بالألمانية ، والتي طرقت أذن حلمي باشا المتخلفة وكأنها تعني «خراء على ذلك» .

خاطب الرجل بلهجته الميدانية ناظراً إليه إلى تحت «أيها الرائد تورجوت! تأكد من أن الرجال منتظمون وجاهزون لتنفيذ الأمر بالتحرك . هل هذا مفهوم؟» .

فتح الرائد فمه وكأنه سيعترض ثم تراجع عن الفكرة حينما شاهد النظرة المرتسمة على وجه قائده . بدلاً من ذلك تهيأ وأدى تحية حادة .

«مفهوم سيدي!» بعد ذلك ابتعد ماشياً بقوة متعمدة على طول الخط ، وهو يلقي بالأوامر إلى الرجال المنبطحين خلف أكوام صغيرة من التراب تؤدي عمل حمايتهم .

شكلت طواقيهم الحمراء مع بنادقهم الموجهة إلى الأمام ورؤوسهم المشرعة إلى فوق وتراقب ، خطاً يمتد إلى أبعد ما تراه العين من كل جهة . عثر هو وفون ديرجولتز ورجالهما الأربعون على بقعة تبعد حوالي خمسين ياردة خلف الخط الرئيس وسط أجمة الأشجار .

أصبح الجو مشحوناً بالترقب : لم يعرف ما إذا كان هو الخوف للبعض ولكن ليس بالنسبة له .

«كم أحب هذا يا الهي» .

لم يكن قد أحسَّ بمثل هذا الحيوية من قبل حقاً . هو شيء لا يمكنه أن يشرحه لأناس لم يدخلوا معركة بأنفسهم . أصبح بإمكانه الإحساس بالدم يضخ في كل أنحاء جسمه ، واصلاً إلى أطراف أنامله الملتفة على عنان جواده . شعر بقليل من الإغماء لدقيقة لشدة تركيزه القوي ، ومع ذلك أحسَّ بخفة تعادل الريشة ، وبعدها انداح ذلك الشعور ولم يعد يحس بشيء على الإطلاق . فقد كانت الساعة هي

الأطول والأقصر في حياته . أدرك أن ڤون دير جولتز الجالس إلى جانبه لديه نفس الإحساس .

وردت الأخبار في وقت متأخر من ليلة البارحة ، أثناء تناولهم وجبة العشاء في خيمته .

وصل المراسل ووقف إلى جهة كتفه بأدب أثناء استماعه إلى أحد ضباطه يروي حكاية غير مسلية عن السكان المحليين . كان انزعاج الرجل واضحاً ، ومع استمرار الضابط في كلامه ، بدا عليه الانزعاج أكثر فأكثر . استدار الباشا أخيراً نحوه وسارع المراسل بدفع الملاحظة إلى يديه . قرأها حلمي باشا بصمت بينما تراجعت الأحاديث في أرجاء المدينة بهدوء . حاول الرجال أن يقرأوا التعبير المرتسم على وجهه بينما مسح ڤون ديرجولتز يديه بمنديل وألقى إليه بنظرة عارفة .

«أيها السادة» جاء صوت حلمي باشا حازماً ولكنه مشحون بالتوتر بوضوح .

«لقد تناهى إلى علمي أن سفيرنا قابل وزير الخارجية اليوناني هذا اليوم وأبلغه قرار قطع العلاقات الدبلوماسية في وجه الاعتداءات المتكررة على أراضينا . نتيجة لذلك ، فهناك حالة حرب قائمة» .

ساد الصمت للحظة ثم ضرب احد الضباط بقبضته على الطاولة وانفجرت صرخات التشجيع . بقي حلمي باشا جالساً بينما نهض رجاله وابتدأوا يصدحون بالنشيد . شاركهم في روحهم المعنوية العالية قبل أن يأمرهم بالتوقف ويقترح نخباً للسلطان ، تمَّ أداؤه بدرجة من الحماس توحي وتسامح الشخص إذ يعتقد أنهم قد كسبوا الحرب مسبقاً .

انقضت بقية الليلة في التحضيرات والتنظيم وتجهيز الجياد وتفقد المؤن لدى مسؤول الإمداد . بقيت لديه ساعة فراغ فجلس ليكتب

رسائله ثم يغتسل لدى المغسلة الصغيرة .

والآن ، ها هو جالس هنا ينتظر . اقتربت الساعة من التاسعة والرجال في مواقعهم على الأرض منذ قبيل الفجر .

فكر لنفسه أنهم يشعرون بالبرد والتقلصات .

أعرف أنني أشعر بذلك .

أملوا في صباح مشمس ولكن رغم خلو السماء الزرقاء من الغيوم ، إلا أن الشمس بقي عليها أن تبدد الضباب عن الحقول أمامهم : نتيجة لذلك ، فقد أصبحت الرؤية محدودة بقسوة .

يحتمل أن يكونوا يتحركون على بعد ما يقارب المئتي قدم ولا نعلم بهم طالما أبقوا على أصواتهم منخفضة .

التقطت عينيه بارقة أمامه وراقب الشعلة أثناء صعودها إلى السماء .

«هل أنت مستعد أيها الجنرال البارون؟» .

قاطع انفجار أول قذيفة مدفع كلام الألماني قبل أن يتمكن من الرد . سقطت إلى يمينهم لجهة الشرق وارتفع الرجال والتراب في الهواء وعادوا إلى السقوط . بدأت الصرخات .

سقطت قذيفة أخرى في الجهة المقابلة محدثة نفس التأثير . تراجعت جيادهم قليلاً نتيجة الصدمة الأولى ولكنها كانت مدربة على أن لا تقف على أرجلها الخلفية أو تهرب من أصوات المدافع . سقطت القذيفة الثالثة أمامهم مباشرة وراء خط الرجال الأحمر بقليل ، لكنها أصابت البعض بقطع الشظايا القاتلة أثناء انفجارها لحظة الاصطدام بالأرض . بعد هذا أصبحت الانفجارات تأتي متوالية بلا ترتيب ، وكأنها تتبع لحناً مستمراً ثامپ ثامپ ثامپ . هنالك مفهوم خاطئ عن أن القذائف والقنابل تنفجر محدثة ضجيجاً عالياً ، لكن

حلمي باشا عرف من التجربة أنها في الواقع تسقط محدثة صدمات ارتجاجية ، وتضرب الشخص كما الموجات الصوتية . أنت لا تدرك أن هناك قطعة منك قد نقصت أو أنك انفتحت مجروحاً جراء الركام المتطاير المليء بالتنبوءات ، إلا بعد أن تتوقف أذناك عن الطنين . تراجعت حدة قصف نيران المدفعية فتمكنا من معاينة خط القتال . تم إحضار الجنود الاحتياط إلى الأمام لسد الفجوات التي أحدثتها الضربات المباشرة وقام الممرضون وحملة النقّالات برفع أو سحب ما تمكنوا من الوصول إليهم من الجرحى . ترك القتلى حيث هم في الوقت الحالي . تراجعت حدة صرخات المشرفين على الموت لتصبح شهقات بكاء ، لكن حلَّ محلها الآلاف من زعقات جديدة مرعبة . خرج اليونانيون من الضباب بأزيائهم البيضاء مشهرين بنادقهم التي ثبتت عليها الحراب . نهض بعض الرجال المنبطحين في الصفوف الدفاعية عند رؤيتهم لأول مرة ، استداروا وهربوا ، بينما ركض الضباط أو ركبوا الخيول خلف الصفوف ، يصرخون على الجنود بأعلى أصواتهم لكي يحافظوا على الصفوف . راقب حلمي باشا بينما حاول جندي صغير السن بدرجة خاصة أن يهرب مبتعداً مذعوراً ، لكنه لم يتمكن من قطع خمس ياردات قبل أن يزرع رقيب ضخم الجثة قبضته في وجهه ويلقيه أرضاً فاقداً الوعي .

بعد ذلك استدار الرقيب إلى الرجال الثابتين في مواقعهم وصاح بهم «احتفظوا بمواقعكم!» .

بدأ اليونانيون يقتربون ، فسحب كل من حلمي باشا وفون ديرجولتز سيفيهما ، وتبعهما رجال فصيلتهما .

تغيرت في هذه اللحظة صرخات الضباط مع اقتراب المهاجمين أكثر فأكثر «أوقفوا! أوقفوا طلقاتكم!» انتظر الضباط ثم انتظروا أكثر

قليلاً . لابد وأن اليونانيين الزاعقين ظهروا للرجال الراقدين على الأرض مثل موجة بيضاء توشك أن تدوسهم جميعاً .

إن ارتداءهم تلك الفساتين الصغيرة القصيرة أمر مضحك . يكاد المرء يظن أن هذا سباق ماراثون .

استولى نوع من الجنون عليهم وهم يقتربون أكثر فأكثر وقد اشتعلت رئاتهم من فرط الجهد . سمح لهم الضباط الأتراك بالوصول إلى مسافة مئة ياردة من الخط ، ثم خمسة وسبعين ، ثم خمسين .

لحظتها تغيرت الصرخة مرة أخرى «أطلق النار!» فتحت البنادق نيرانها على طول الخط وتكرر الأمر معها «أطلق النار! أطلق النار!» انهارت الهجمة وأصيب الرجال الذين لم يسقطوا بدرجة من الذهول بحيث استداروا ولم يعد العثمانيون الراقدون على الأرض يرون غير ظهورهم .

انطلقت صيحات النصر الشبيهة بما سمعه الباشا في خيمته الليلة الماضية وترددت أصداؤها من حوله ، ورفع رجاله طواقيهم يلوحون بها في الاتجاه العام للجانب اليوناني . أوصل حلمي باشا حصانه إلى جانب ڤون دير جولتز .

«هل يذكرك هذا بمعركة جراڤيلوت أيها الجنرال البارون؟» .

«لقد كانت جراڤيلوت أكبر قليلاً يا باشا ، وجانبنا هو الذي بادر بالهجوم ضد الفرنسيين في ذلك الوقت . ولكن صحيح وبكل الاعتبارات فإن المعركة هي معركة» . رفع ڤون ديرجولتز رأسه دافعاً بذقنه إلى الأمام «وبالمناسبة ، هاهم قادمون مرة أخرى» .

اندفع اليونانيون خارجين من الضباب المتلاشي بسرعة بعد أن اعادوا تجميع قواتهم . لم تسمع أية صرخات قتال هذه المرة ولا صيحات ثوار : صاح فيهم ضباطهم بقليل من التشجيع وكان ذلك جلّ

ما في الأمر . لم ينتظر الضباط العثمانيون اقترابهم إلى مسافة مئة ياردة هذه المرة . فقد صرفت البندقية الماوزر الجديدة ذات المدى البعيد لكل رجالهم : وقد حان وقت استخدامها . أعطي الأمر بإطلاق النار بحرية . تحطمت الموجة بفوضى أعم من المرة الأولى واستدارت البقية الباقية لتهرب .

أصدر الضباط الأمر بتركيب الحراب بدون أن يمنحوا الرجال فرصة للهتاف مرة أخرى .

انصاع الرجال للأمر وهم ما زالوا راقدين ثم بدأ الهجوم المعاكس .

قام الصف العثماني قومة رجل واحد وبدأ آلاف الرجال يركضون خلف السرايا اليونانية المنهارة التي تجرأت وهاجمت صفوفهم وأطلقت نيران مدافعها على أصدقائهم .

صدرت عنهم صرخة جهنمية تجاوزت ما تمكن المهاجمون من زعيقه حتى أنها سببت لحلمي باشا قشعريرة من حدة التوقع . انتظر حتى قام المشاة بعبور الميدان ثم أدار حصانه إلى الخلف ليواجه حراسه الشخصيين .

«أيها الرجال! لقد صدرت لكم الأوامر بمصاحبتي وحمايتي أثناء تجوالي على الجبهة . ليست لدينا أوامر بالاشتباك مع العدو : نحن هنا فقط لنراقب» . أشار إلى الخط أمامهم .

«أظن أنني سأقوم بجولة لذلك القطاع أمامنا في هذا الصباح لأرى ما يمكنني العثور عليه . لن أطلب من أي رجل أن يخالف أي أمر ، لكنني أقول لكم الآن أنه ينبغي عليكم أن تنضموا اليَّ وسأمنحكم كل الحماية التي أقدر عليها . ماذا تقولون؟ هل ستقاتلون معي؟» .

ردَّ الرجال بصرخة خشنة بالموافقة ، فانحنى لهم حلمي باشا

احتراماً ثم أدار حصانه عائداً إلى الأمام وهاجم . سرعان ما وجدوا أنفسهم راكبين عدواً فوق جثث القتلى اليونانيين بينما قادهم حلمي باشا مشهراً سيفه عالياً بذراعه الأيمن وحوافر الخيل تضرب التراب تحته بقوة . وصلوا إلى الخطوط اليونانية حيث كانت بقايا سراياهم تحاول أن تقدم دفاعاً ما وتحوّل القتال إلى معمعة من العراك يداً ليد . شاهد يونانياً يتصارع مع مجند تركي ويلقي به إلى الأرض ثم يرفع حربته بعد أن وقف فوقه ليسدد الضربة القاتلة . وجَّه إلى رقبة الرجل ضربة من الخلف بسيفه وأحسَّ بصدمة الاتصال تزحف إلى أعلى ذراعه . لم يشاهد نتيجة ضربته الأولى لأنه وصل فوق دفاعاتهم المنهارة وألفى نفسه فجأة يطوح بسيفه يمنة ويسرة حوله وقد كادت عيناه تعميان عن تفاصيل أعدائه ، فقد اكتفى باستهداف أي شيء أبيض اللون يراه .

استمرت المعركة على تلك الشاكلة معظم النهار . بمجرد أن تخطوا الصفوف اليونانية الأولى ، اندفعوا إلى مدى أعمق باتجاه الجنوب يبحثون عن الجيوب المتبقية ويقضون عليها .

لم يحدث أي اشتباك كثيف آخر في ذلك النهار ، بل مجرد تحرشات ونيران قناصة أثناء مرافقتهم للمشاة وقاموا بهجمات بين الفينة والأخرى على الطوابير المندحرة .

خطر بباله في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم أن هذه لم تكن لعبة قط وفأر ، بل هي الكلب الذي يطارد قطاً ويجبره على تسلق شجرة . أخيراً ، وعندما لم تعد الجياد قادرة على المزيد من الطراد ، جلسوا وشربوا القهوة المغلية فوق نار المعسكر .

تناول ڤون ديرجولتز رشفته الأولى وأطلق زفيراً ينم عن السعادة . جلس بطريقة غير لائقة بضابط كبير وقد أسند ظهره إلى جذع شجرة مقطوعة .

قال بقناعة ورضى «إنني أعتقد فعلاً أنه لا يوجد مذاق أفضل من قهوة نار المعسكر بعد معركة يا باشا» .

رشف حلمي باشا قهوته ووافق «إنني أؤمن بأنك مصيب في ذلك التقييم أيها الجنرال البارون . ولكن قل لي : ألم تكن هذه عملية سهلة جداً حسب تقييمك؟ هل يحتمل أن يكون اليونانيون يخدعوننا ليجرونا إلى كمين؟ ما كان للقتال في هذا الصباح أن يسير لصالحنا بأفضل مما حدث» .

تناول ڤون ديرجولتز رشفة أخرى وبدا عليه التفكير .

«سأتردد شخصياً في أن أقول لرجالي القابعين في ميدان القتال بأن المعركة هذا الصباح كانت (سهلة) كما تقول . أقول إن الأمور كان يمكن أن تتخذ مساراً أصعب بكثير بالنسبة لنا هذا الصباح ، وهذا صحيح . ومع هذا فإن ما سمعناه من استخباراتنا ، سواء من اتصالاتي أو مصادر السلطان ، يبدو أنه يتوافق تماماً مع ما شاهدناه اليوم . لقد اختار اليونانيون قتالاً لا يقدرون عليه هم ولا جيشهم . فيما يتعلق بنا ، يجب أن نحرص على عدم الإفراط في الثقة بالنفس والتحرك بأسرع مما يجب ، ولكن بنفس الوقت ، فقد أوصلنا عملنا وكل تحضيراتنا إلى هذه اللحظة . هذا هو ما خططنا لأجله وهو يعمل لصالحنا . إن تهورنا في هذه الآونة سيكون كارثياً بقدر أي كمين يستطيع اليونانيون أن ينصبوه لنا» .

هزَّ الباشا رأسه موافقاً وتناول رشفة أخرى من كوبه . لقد أدوا ما فيه الكفاية ليوم واحد .

الفصل الحادي والعشرون

انقضى وقت طويل على هيرتزل وهو واقف خارج فندق الملك داود . عندما نزل من العربة التي وفرها له روثتشايلد بنظر ثاقب ، تجمهرت حوله مجموعة من الأولاد الصغار ، يشدون سترته ويرفعون أيديهم . تجاهلهم وبقي متسمراً في مكان وقوفه .

أخبرته ساعة جيبه في طريق قدومه من الفندق الذي يقيم فيه أنه مبكر أكثر من ساعة ، وهكذا فقد أدرك رغم حالته المضطربة أنه ليس في عجلة من أمره . استمر الصبية في تمثيليتهم لفترة تدعو إلى الإعجاب قبل أن يتوقفوا واحداً بعد الآخر . وقفوا بعد بضع دقائق ليراقبوه ، تتقلب تعابيرهم المحتارة من وجهه إلى الفندق لتعود إليه مرة أخرى في محاولة لاكتشاف ما ينظر إليه هذا الرجل المجنون حتماً . في نهاية حيرتهم وصلت عربة أخرى ليست بدرجة فخامة عربة هيرتزل فركض الصبية مبتعدين ليجربوا حظهم مع الزوجين الأكبر سناً اللذين خرجا منها . بمجرد أن قام البوابون بإدخالهما عبر الحراس إلى الداخل ، عاد الصبية إلى هيرتزل لمراقبة ما إذا طرأ أي تغيير على حالته . عندما لم يلحظوا أي تعبير ، اكتفوا بمراقبته لبضع دقائق أخرى قبل أن يملوا ويباشروا بلعبة كرة قدم غير رسمية مستخدمينه كمرمى .

انقضت الأيام القليلة الماضية على سطح سفينة أخرى حملته إلى يافا ، قضاها وهو يستعيد بذهنه مجريات اللقاء : ما سيقوله وما يحتمل أن يقوله القيصر وكيف سيجيب عندما يطرح عليه القيصر أسئلة

محددة . في الوقت نفسه ، بقيت الفكرة الثابتة والقائلة أنه سيزور القدس ، مدينة أسلافه والعاصمة المستقبلية للوطن الذي سيبنيه .

إذا عقدت العزم فلن يعود الأمر حلماً

ظل يرقد في قمرته ليلاً ويكرر هذا القول لنفسه مراراً وتكراراً . كان يحاول في فترات الصباح أن يكتب لكن الكلمات تأبى أن تحضر إليه فيجد نفسه يحدق ساهماً في البحر إلى الخارج مرة أخرى ، يتدرب على لقائه بالقيصر داخل دماغه .

مهما حصل فهذه إرادة الله . لن أستطيع أن أنجز إلا ما تسمح به قدراتي .

جلبت رؤيته لمناظر المدينة عواطف قوية لدرجة أشعرت هيرتزل بأنه يمشي في الهواء . نقر سقف العربة وطلب من السائق أن يتوقف ، الأمر الذي نفذه الرجل المرتبك .

قرر هيرتزل أن يدخل المدينة ماشياً على قدميه وبينما هو يخطو خطواته الأولى أحسَّ وكأنه يسير عبر بوابات السماء فعلاً .

تذكر الآن أنك لا تذهب إلى هذا الرجل وأنت تنحني وتتذلل كأنك ممثل ما . أنت يهودي شريف وقائد لأمتك وتطالب بما هو حق لهم .

مع وصوله إلى هذه الفكرة ، تسمرت عيناه على جبل المكبر تحته ، بينما انسلَّت الشمس المائلة إلى الغروب من وراء غيمة وغمرته بالضياء .

يا صهيون . لقد عدت إلى بيتي .

جاءت انطباعاته الأولى عن الأرض المقدسة بأنها يعمها «الفقر والحرارة والألوان الرمادية» : حسبما كتبه في مفكرته ، لكن القدس شيء آخر ، شيء آخر كلياً . راقب في الصباح التالي بينما اتخذ

القيصر دخوله إلى المدينة المقدسة وهو يقود قطاراً توراتياً فعلاً في حجمه . كل شيء في هذه الآونة يضج بالحياة ، كل هذا الضجيج والحرارة والرمل ، أصبح بطريقة ما حقيقياً أكثر من حقيقي . أصيب هيرتزل بالذهول . تجول في أنحاء المدينة بحالة انبهار .

فقد دبت الحيوية في المدينة مع الإثارة التي جلبتها زيارة القيصر المرتقبة ، والآن حان الوقت لكي يقابله هو بنفسه . سار باتجاه الأبواب الضخمة فرمقه البواب الواضح أنه ألماني بنظرة غير راضية قاربت حد الإزدراء . فهو في هذا المكان بلحيته الكثة وقبعته البيضاء المسطحة فإن هيرتزل حتماً شخص غير عادي وذلك أقل ما يمكن أن يقال . واضح أن الرجل لم تكن لديه أدنى فكرة حول تقييمه .

فهو ليس عربياً ، لكنه بدا بالنسبة للتيوتوني المرتدي ملابس راقية ، غير أوروبي أيضاً .

مدَّ يده إلى داخل جيب سترته «أنا ثيودور هيرتزل ولديَّ مقابلة مع القيصر» .

أخرج بطاقة وناولها إلى الرجل «بطاقتي» ، نظر الرجل إلى البطاقة لكنه لم يقم بأي محاولة لأخذها . على أية حال ، برز له رجل آخر من المجهول ووقف عند كتفه . هزَّ الرجل المرتدي بذلة رمادية أنيقة على النمط الألماني رأسه بلحيته المشذبة وشعره المتراجع .

«لن يكون ذلك ضرورياً يا سيد هيرتزل . إن القيصر ينتظرك في الطابق العلوي بتشوق» .

أحرج هيرتزل وأعاد البطاقة إلى جيبه .

«أنا فيليب أمير يولينبرج . سوف أصطحبك ، فهلا سمحت؟» .

مدَّ يولينبرج ذراعه فأفسح البواب المجال بكياسة كانت مفقودة قبل بضع لحظات . دخل هيرتزل يتبعه يولينبرج . قاد الأمير الطريق عبر الردهة

وحتى مصعدي الفندق . عادت الذاكرة بهيرتزل على شكل وميض إلى لقائه بدوق بادن قبل بضعة شهور ، لكن ذلك كان في ڤيينا ، أرض الوطن بالنسبة له . أما هذه فهي القدس وهو الآن يوشك أن يقابل امبراطوراً . أصبح كل ذلك صعباً على الفهم دفعة واحدة ، بدا وكأن يولينبرج أحسَّ بعدم ارتياحه .

«أنت لست متوتراً أليس كذلك يا هيرتزل؟ إن صاحب الجلالة يجسِّد الرجل العظيم الذي يتخيله الناس بدرجة كاملة . أقول دوماً إنه هيرمان العصر الحديث . ومع ذلك فهو سيكون مع شخص مثلك مثالاً للصبر والتعاطف» .

ألقى هيرتزل بنظرة جانبية إلى يولينبرج . احتكت كلمات الرجل ولهجته بأعصابه المتوترة أصلاً . فهل يحاول الرجل أن يتعمد إهانته ، أم أنه مجرد تنازل أرستقراطي؟

«أشكرك أيها الأمير يولينبرج . لا أستطيع أن أخبرك بحجم التشريف الذي أحسُّه لكوني سأحظى بالمثول أمام جلالته» .

«أنا على ثقة من أنك لا تستطيع» .

لم يعد هناك أدنى شك في مشاعر يولينبرج تجاهه .

فهل سيكون القيصر على نفس المنوال؟

لم يتسن لهيرتزل الكثير من الوقت ليفكر بهذه النقطة لأن المصعد توقف وانفتح الباب على رجل آخر ينتظر لتحيتهم .تذكر هيرتزل أن الجسم الضخم والشارب كانا مألوفين لديه عند اللمحة الأولى ، لكنه لم يتذكر الاسم حتى تكلم يولينبرج

«ستذهب مع الكونت ڤون بولو لتقابل القيصر» .

رئيس الوزراء! سيكون رئيس الوزراء حاضراً في لقائنا!» .

انعقد لسان هيرتزل من شدة المفاجأة للحظة ، لكنه تمكن من هزِّ

رأسه وابتلاع ريقه . لم يصافحه ڤون بولو بدوره ، بل اكتفى بالقول «من دواعي سروري يا سيد هيرتزل . لو سمحت» ثم استدار وسار في الممر مبتعداً . نظر هيرتزل إلى يولينبرج محتاراً ، فأدى الرجل إشارة انصراف بيديه للحاق . انطلق هيرتزل فيما يقارب الجري . أدرك ڤون بولو فور توقفه عند باب على اليمين ، قرعه مرة ثم دخل . عندما تبعه هيرتزل شاهد القيصر ينهض من خلف مكتبه . كان يرتدي زي سلاح الفرسان باللون الأزرق الداكن وشاربه مرفوع إلى الأعلى بطرازه الذي يتميز به . عندما راقب هيرتزل الموكب بالأمس ، كان القيصر يرتدي ثوباً وغطاء رأس البدوي العربي ، ولكن الآن ، بدا له شخصياً تماماً كما يظهر في لوحاته الرسمية . مشى القيصر من خلف مكتبه واقترب من هيرتزل ، الذي تمالك نفسه وقدم انحناءة عميقة .

«يا صاحب الجلالة الامبراطورية ، إنني سعيد جداً بالشرف الذي اغدقته عليَّ . نهض هيرتزل ورأى أن القيصر واقف أمامه مباشرة ، وخلافاً ليولينبرج ورئيس وزرائه ، كان يمد يده . مدَّ هيرتزل يده ولم يدرك أنه ترك القفاز عليها إلا بعد أن أمسكها القيصر ، وهذه هفوة في قواعد التشريفات ما كان روثتشايلد ليسامحه عليها ، لو كان موجوداً بالطبع .

«سيد هيرتزل ، هذا شرف لي أيضاً . هذه بلاد ذات مستقبل! لقد رأيت هذا أثناء رحلاتي . وأنت تعتقد أنك قادر على صنع ذلك المستقبل ، صحيح؟» .

فوجئ هيرتزل مرة أخرى ، أولاً بمدى حفاوة القيصر وثانياً بقوة قبضة الملك التي أحسَّ بها مثل ملزمة حول كفه .

«آمل ذلك من خلال دعمكم يا صاحب الجلالة ، أنا أؤمن بأننا نستطيع أن نعيد الحياة إلى هذه الأرض» .

«تعال أخبرني بمخططاتك . لقد أخبرني كل من بولو ويولينبرج هنا عن محتويات كتابك . إنني أتفهم بشكل كامل . لكن سماع الأمر من فمك سيقدم لي مساعدة لا تقاس» .

وصل القيصر إلى درجة الدينامية المفرطة في الطاقة التي أظهرها ، لكن هيرتزل فكَّر أن هنالك أيضاً نفحة من شدة الاهتياج في شخصيته . فقد وصل إلى الجهة الأخرى من الغرفة وسحب كنبة أمامه ليجلس فيها هيرتزل .

«هنا ، اجلس هنا» . قال وهو يدق على الوسائد . تقدم هيرتزل وتراجع القيصر ليدور حول مكتبه ويجلس ، متمدداً ليشعر بالراحة .

زأر القيصر «سامحني . شاي! يجب أن نحصل على الشاي!» ونظر إلى بولو . استدار هيرتزل ليشاهد بولو يجري خارجاً من الغرفة .

تنزيل منصب مستشار ألمانيا إلى صبي شاي . هذا يوم استكشاف بحق وحقيق .

«يا سيد هيرتزل أنا لا أشرب سوى الشاي الإنجليزي . آمل أنك تحبه ، صحيح؟» .

«طبعاً يا صاحب الجلالة» .

«فتّاق (هائل)» .

صلّى هيرتزل لأنه لم يرد على استخدام القيصر للكلمة الإنجليزية . فقد سمع من العارفين ببواطن الأمور ، من دائرة روثتشايلد بشكل رئيس أن القيصر لديه علاقة معقدة مع أقاربه وتراثه الإنجليزي ، والذي كثيراً ما ينتقل من البغض تجاه الإنجليز إلى حب الإنجليز خلال مدة أسبوع ، وأحياناً حتى أثناء محادثة ما . جلس في هذه اللحظة مقابل ضيفه بدون مجرد رمشة عين . أصبح واضحاً أنه ينتظر من هيرتزل أن يبدأ الحديث .

«من أين ينبغي أن أبدأ ، ياصاحب الجلالة الامبراطورية؟» .

قال «من أي مكان تشاؤه» .

سحب نفساً عميقاً وانطلق في الخطبة التي كان قد أعدها وراجعها وتدرب عليها بلا نهاية . نراجع القيصر في كرسيه وأصغى بعينيه البراقتين ووجهه الذي لوحته الشمس .

انقضت ساعات والأربعة جالسون حول النار في التلال ، ولكن لم يكن هناك أي علامة على عودة روستوف . كان قد أبلغهم في وقت سابق من الصباح بأن ينتظروه هناك ، وأنه سيعود بعد أن يذهب إلى أثينا راكباً . بينما هم يراقبونه ينزل ويغيب في المدى ، استدار ڤارتنيان نحو مويلز .

«من الذي تظن أنه سيقابله هناك» .

أجابه مويلز «يصعب القول ، إذ ربما يكون شخصاً من السفارة الروسية ، أو ربما شخص من أيام قتاله في البلقان . بكل الأحوال ، سوف نبقى ننتظر» .

هزَّ ڤارتنيان رأسه . استدار وراقب كيڤوركيان للحظة وهو يعتني بالجياد .

«سأقوم بجمع الحطب» .

هزَّ مويلز رأسه بشرود ، وهو ما زال يراقب الدرب الذي سلكه روستوف . كان عقله يجتاز ما بدا مثل مئة سيناريو واحتمالات مختلفة . لأن هذا الارتجال يخالف جميع أفكاره السليقية وتدريبه ، لكنه شعر أنه لا يملك أي خيار آخر هنا ، حيث هو معتمد على هؤلاء الرجال الآخرين لنجاحه .

نهض جوريس وهَرول خلف ڤارتنيان قائلاً بشيء من الحماس

«سوف أساعدك» .

نفض ڤارتنيان كتفيه «كما تقول» واستمر في طريقه .

كان هو وكيڤوركيان يحملان نفس الشعور بالتعادل تجاه جوريس منذ أن قابلهم عند رسوهم . فمن ناحية ، قال إنه عضو في الاتحاد ويعمل من أجل تحرير وطنهم ، ولكن من الناحية الأخرى فإن عصبيته الواضحة وحماسه الزائد أشعرهما بالانزعاج .

اعتاد كلاهما منذ زمن طويل على التمييز بين المتطرف والمحترف ، ونص الاتفاق غير المصرح عنه بينهما على أن أياً منهما لا يريد أن يكون قريباً من البلجيكي الغريب الأطوار عندما يبدأ إطلاق النار .

والآن وبعد أن حلَّ الغسق وبدأ الليل يطبق عليهم ، تحلقوا حول النار ينتظرون .

بحلول هذا الوقت كان الثلاثة إضافة إلى روستوف قد انسجموا في أعمالهم الروتينية أثناء اللحظات الهادئة . أشعل كيڤوركيان نفسه بالأسلحة ، يُزيِّت البنادق ويُعبِّئ أمشاط ذخيرة إضافية ثم يمضي الساعات وهو يشحذ سكينه تلك .

ويعبُّ ڤارتنيان جرعات من القنينة الحاضرة دوماً ثم يمررها عليهم بين الفينة والأخرى ، وعندما لا يحظى بقليل من الأحاديث ، فهو ينطلق في الغناء لنفسه بهدوء يناقض شخصيته . حاول مويلز أن يشغل تفكيره بكتاب ، حيث يقرأ على ضوء النار ، لكن الآخرين كانوا يرونه يغلقه أحياناً لفترات قصيرة ويحدق في ألسنة اللهب ، غارقاً في التفكير . هذه الليلة تململ جوريس غير المعتاد على هذا النمط من الانتظار وتهيج ، هبَّ واقفاً على قدميه ليتمشى ثم يعود إلى الجلوس مرة أخرى ويتسبب لهم بكثير من الإزعاج . أما عادة روستوف فهي التمدد على الأرض واضعاً يديه خلف رأسه ليحدق في النجوم فوقه :

أخبر مويلز في إحدى الليالي أنه يحب أن يعثر على المجرات المختلفة ثم يجري حساباته من مواقعها في أي اتجاه يقع بيته الكائن في أوديسا .

في وقت سابق ، أمضوا الوقت في النظر إلى الاكروبوليس تحتهم بمناظيرهم الميدانية أثناء انعكاس الشمس الغاربة عليه ، حيث أخبرهم مويلز عن كيفية اقتلاع الرخام المستخدم في بنائه من جبال بينتيلي حيث يخيمون حالياً . انتهت الأحاديث الصغيرة التي دارت بينهم بحلول الليل وبات كل واحد منهم يتساءل بطريقته الخاصة كم من الوقت سوف يضطرون إلى الانتظار .

فجأة ، أصبح بمقدورهم سماع أصوات حوافر جواد وكأنها ترد على تساؤلاتهم ، نظروا إلى الأعلى باتجاه الصوت . لقَّم كيڤوركيان البندقية التي يحملها وسحب مسمار الأمان ، لكن الفارس الوحيد كان شخصاً واحداً لا غيره . سحب روستوف عنان جواده وقفز بخفة من السرج .

قال «ممر ميلونا» .

نهض مويلز واقفاً ، ممسكاً بكتابه إلى جانبه «أي ممر؟» .

«لقد قيل لي أن الهدف متجه إلى ممر ميلونا . إن اليونانيين يتراجعون في فوضى عارمة . يبدو أن ثقة العثمانيين بأنفسهم عالية وأنهم مصرون على مطاردتهم كامل الطريق حتى المدينة الواقعة تحتنا هناك» . وأشار إلى أنوار أثينا الخافتة .

«فلماذا إذاً لا نكتفي بالانتظار هنا؟» سأل ڤارتنيان . ناول القنينة إلى روستوف الذي اقترب وتناولها بإيماءة ثم شرب .

«يقول الخبر إن الهدف يخاطر حالياً ويتواجد في أمكنة لا يفترض تواجده فيها . تخبرني أثينا أنه قاد هجوماً للفرسان بصحبة الألماني قبل بضعة أيام . إذا كنا سنعتمد على حظنا ، فإن اليونانيين يحتمل أن يؤدوا مهمتنا نيابة عنا ، ولكن يبدو مما يتم تداوله في أرجاء المدينة أنهم

لا يقومون بأي شيء يذكر في هذه الحرب» . توقف ليشرب مرة أخرى «ما عدا الهروب» .

أخرج مويلز الخرائط من صندوقها وبدأ يتفحصها بجانب النار .

«مر ميلونا . . . إلى أي درجة تأكدت جماعتك من أنه سيكون هناك؟» .

رفع روستوف كلتا يديه «بالدرجة الممكن التأكد منها . إن القتال يتجه إلى هناك ، وهو على ما يبدو من النمط الذي يحب أن يشاهد القتال عن قرب . إذا استبقناهم إلى هناك ، سوف نستفيد من حالة الفوضى ونعثر على موقع نستخدم فيه المتفجرات ثم ننسحب بانتظام» .

فكر مويلز في الاقتراح «حسناً . كيف هي حالة حصانك؟» .

«إنه بحاجة إلى الاستراحة . بكل الأحوال ، سيتوجب علينا المغادرة قبل النور الأول» .

«أوافق . نحن على أهبة الاستعداد» . التفت مويلز إلى جوريس الذي كان يصغي بتركيز

«أشكرك على مساعدتك يا ادوارد ، ولكن يجب علينا أن نستمر من هنا وحدنا . خذ عربتك وعد بها إلى المدينة في الصباح وسوف تتصل بك جماعتك هناك» .

حاول جوريس أن يعترض وقد ارتسمت خيبة الأمل على كامل تعابير وجهه التي حفرت خطوطاً عميقة من طول المران . لكن التحديق بالنظرات الجامدة من الرجال الثلاثة الواقفين خلف مويلز أوقفه .

الفصل الثاني والعشرون

لم يكن هيرتزل متأكداً تماماً من كيفية سير المقابلة . فقد استمع القيصر بأدب إلى كل ما قاله ، لكنه امتنع عن إعطاء أي التزام بطريقة أو بأخرى . جلس يولينبرج قبالتهم طيلة الوقت عاقداً يديه فوق صدره ويحلهما كل هنيهة ليمسد لحيته الرمادية القصيرة غارقاً في التفكير ، لكنه لم يقل أي شيء على الإطلاق . حرص هيرتزل على أن يذكر مقدار امتنان الشعب اليهودي للقيصر مستقبلاً على رعايته ، بالإضافة إلى الإمكانيات والفرص التجارية لألمانيا إذا ما تم تأسيس الوطن ، لكنه بات يتساءل عما إذا كان ذلك كافياً . استمر القيصر في جلسته المستندة إلى الخلف ، وبات جلياً من هيئته أنه يشعر بضرورة أن يقول شيئاً عميقاً .

بدأ هيرتزل يحس بقلبه ينبض بقوة أشبه بالضربات داخل صدره .

مال هيرتزل إلى الأمام متسرعاً قليلاً «أنا آسف ، ماذا قلتم يا صاحب الجلالة؟» .

«المسيح يا سيد هيرتزل» .

لم يعد هيرتزل واثقاً مما إذا كان ينبغي عليه أن يتلفت في أرجاء الغرفة بحثاً عنه أم يعطي رأيه .

«هل قلتم المسيح يا صاحب الجلالة؟» .

«يا سيد هيرتزل ، لم يكن المسيح يهودياً . هل كنت تعرف ذلك؟

أقصد على الأقل بالمعنى المناسب» . نظر القيصر باتجاه يولينبرج طالباً التوكيد ، فلم يتأخر ذاك بابتسامة وهزّة رأس .

«نعم يا سيد هيرتزل ، وكما ترى فإن يولينبرج يوافق . ما كان للسيد المخلّص ولا هو حقاً عضواً في الجنس اليهودي» .

توقع هيرتزل أشياء عديدة عندما أنهى نداءه ولكن لم يكن هذا من بينها .

تولت نقرة على الباب مهمة إنقاذه من الاضطرار إلى الرد ، حين دخل خادمان لتجديد الشاي . جلس مستنداً في كرسيه وراقب عملية السكب .

قال القيصر «آه ، الشاي! نعم ، المزيد رجاءً . والآن ماذا كنت أقول؟ نعم نعم يا سيد هيرتزل . هذه بلاد تحتمل الكثير من احتمالات التقدم . بلاد لها مستقبل . صح؟» .

«نعم يا صاحب الجلالة . أعتقد أننا قادرون على جلب ذلك المستقبل لها بدعمكم» .

كرر القيصر «بلاد لها مستقبل» ، عندما انحنى الرجل الذي يقدم الشاي إلى الأمام ليصب في كأس هيرتزل ، رفع القيصر يده اليمنى فجأة وصفعه بقوة على مؤخرته . أجفل كل من الخادم وهيرتزل وقفزا مذعورين .

«ها ها! لقد نلت منك يا هانس» .

«نعم يا صاحب الجلالة» .

فهم هيرتزل من جواب هانس الكئيب أنها لم تكن المرة الأولى التي يتلقى فيها مثل هذه المعاملة .

«ها ها!» بدا القيصر مسروراً من نفسه بدرجة هائلة . «سيعلمك ذلك درساً . والآن يا سيد هيرتزل ، سوف نثير هذه المسألة مع السلطان

عند لقائنا التالي ونوضح بجلاء أنها تحظى بدعمنا في هذه المرة. إنه مدين لنا بجميل أو اثنين، أليس كذلك يا يولينبرج؟».

لم يحاول يولينبرج أن يصدر عنه أي رد فعل بأي اتجاه هذه المرة، لكن القيصر بدا غير مهتم واستمر في رشف شايه برضى وقناعة.

«قل لي باختصار، ما الذي يجب علي أن أطلبه من السلطان؟».

توقف هيرتزل للحظة ثم ارتعش صوته «شركة ذات امتياز - تحت الحماية الألمانية».

حدَّق فيه القيصر بحدة ثم نظر إلى يولينبرج وبولو بالتناوب.

«حسناً! شركة ذات امتياز، يعجبني ذلك. شركة الهند الشرقية الخاصة بنا، ماذا تقولون؟».

وضع فنجانه وصحنه على الطاولة، ثم نهض ومدَّ يده. أطبق على الكف الممدودة نحوه بالقبضة الشبيهة بالملزمة مرة أخرى، وهزَّها، قبل أن يطلق سراح هيرتزل الذي تنفس الصعداء وعاد للجلوس.

«نعم، بلاد لها مستقبل. قل لي يا سيد هيرتزل، هل زرت مدينة بيت لحم؟».

انقضى بعض الوقت قبل أن يخرج هيرتزل من سهومه ويدرك أن القيصر كان يرشف شايه وينتظر رداً على السؤال لبعض الوقت بصبر وأناة.

«اعتذاراتي مرة أخرى يا صاحب الجلالة، ماذا؟».

***

بمجرد أن استقروا على وجهتهم وانطلقوا في طريقهم، لم يتوقفوا إلا لسقاية الجياد وإطعامها. خلال هذا الوقت، ظل مويلز يتفقد خرائطه وبوصلته ليتأكد من أنهم مستمرين على الدرب الصحيح. تقضي خطتهم بتجنب الطرقات بقدر المستطاع والركوب عبر الجبال.

صادفتهم دوريات راجلة مرة أو مرتين، لكنهم حثوا جيادهم وحافظوا على مسافات بعيدة. في المرة الثانية صاح بهم اليونانيون وحتى أطلقوا عيارات تحذيرية. لكن أحداً من الأربعة لم يكلف نفسه عناء الالتفات. فقد أصبحت عيونهم مركزة على الجائزة الأكبر الآن، وبدأوا يشعرون بها تقترب. بات مويلز يعجب مما إذا كان الثلاثة الآخرون مصابين مثله بتقرحات السَّرج، لكنهم لم يشيروا إلى ذلك أو يذكروه.

لم يكن ركوب الخيل واحداً من أنشطتهم الرئيسة أثناء وجوده في انجلترا، فأصبح الآن يشعر بالندم على ذلك. ورغم كل هذا، لم يعد هناك مزيد من الوقت للتفكير بهذا الأمر.

استدار كيڤوركيان إلى الخلف باتجاه الآخرين من حيث كان يركب في المقدمة. فقد وصلوا إلى منطقة حرجية صغيرة عند سفح الجبل، توفر لهم تغطية جيدة.

«نتوقف لنأكل» لم يلفظها بصيغة سؤال بل مجرد عبارة وقفز أثناء كلامه إلى أرض الغابة. تبعه مويلز والآخرون: ممتنين على ضرورة قولها. لبوا حاجات الجياد أولاً، ثم جمعوا الأغصان والعيدان الساقطة وسرعان ما وجدوا أنفسهم جالسين حول نار مخيم. أخرجوا الخبز اليابس والجبنة اللذين شكلا وجبتهم، وتم تمرير القنينة. مضغوا وشربوا بصمت إلى أن شبع كل واحد منهم.

سأل ڤارتنيان بعد صمت طويل احتراماً للهضم «إذاً ما هي خطتنا؟».

قال مويلز «يجب أن تنفذ الخطة في المجال المفتوح، في مكان هادئ ويفضل أن يكون مهجوراً. تذكروا، هذه ليست مهمة انتحارية. فنحن نريد أن نهرب فيما بعد. ماذا أخبرك زملاؤك عن تحركاته؟» وتحول بنظره إلى روستوف.

«يقولون إنه يتحرك بصحبة حراسة شخصية ضخمة ، يفترض أن يصل عددها إلى خمسين رجلاً ، ولا يفكر كثيراً بسلامته الشخصية . لقد راقبه اليونانيون قبل اندلاع القتال وهو يركب حتى يصل إلى خطوطهم الأمامية ومراكزهم الحدودية . يمكننا أن نستفيد من غياب الحذر هذا . سندخل المنطقة لابسين أزياءنا ونتأكد من وضعية الخطوط ثم ننصب الكمين في بقعة ملائمة . يستحسن أن تكون انحناءة في طريق خلفية هادئة تقل فيها إمكانية وصول تعزيزات سريعة» .

سأل كيڤوركيان «ما رأيك بطلقة من مسافة بعيدة؟ أستطيع أن أصيب عصفورين بطلقة واحدة بدون أي مشكلة» .

«وبعدها نهرب من خمسين رجل على خيلهم في منطقة حرب؟»

هزَّ روستوف رأسه .

«لا ، إن ذلك يصل إلى حد تسليم أنفسنا طواعية . نحن في روسيا نعرف بعض الأمور عن الاغتيال . لقد شهدت الأمر من مسافة قريبة . إذا كان مقدراً لنا أن نهرب يجب أن يتوفر لنا طريق هروب وأن لا نقدم على العملية في منطقة مزدحمة . في مكان ما خارج الأماكن المطروقة ويجب أن تكون تحركاتنا عنيفة إلى درجة تعجز فيها المجموعة عن اللحاق بنا» .

قال مويلز «وأنا أفضل الأمر على هذه الشاكلة . هذا عمل سياسي : نحن نقوم بإزالة عقبة تعترض طريق مستقبل بلد كل واحد منا . نحن محترفون يقومون بتنفيذ مهمة ولسنا متطرفين» .

قال ڤارتنيان «الأمر كما تقوله يا مويلز» بلهجة تنطوي على أكثر من أثر للسخرية .

سأل كيڤوركيان بهدوء «قل لي يا روستوف . ما هي الاغتيالات التي شهدتها؟» .

«لقد كنت صغير السن . . أعتقد أن الإنجليز يسمون الرتبة عريف ، في خدمة القيصر الروسي» .

قال ڤارتنيان «نيقولا» .

«لا ، قبله ، الكسندر» .

«والده؟» .

هزَّ روستوف رأسه نفياً «والده مرة أخرى ، الكسندر الثاني . إن القيصر نيقولا هو حفيده» .

بدا على كيڤوركيان الاهتمام «هل قمت بحراسة القيصر؟» .

«لقد قام بذلك المئات منا ، بل الآلاف . عندما يسافر القيصر في هذه الأيام ، فإن الجنود يصطفون على طول الطريق من سانت بطرسبرج إلى موسكو للاطمئنان على سلامته وسلامة أسرته . لم يكن الأمر كذلك في تلك الأيام» .

«ما الذي حدث؟» .

«اعتاد القيصر على الذهاب إلى القدَّاس كل يوم أحد في عربة يرافقها الحرس وعددهم خمسة منا وخادم بولندي يجلس معه في الداخل . كان قد حرَّر الأقنان وأسس منظمات الزيمتسڤو لحكم المناطق المحلية على شكل قانون إصلاحي ، لكن ذلك لم يكن كافياً للبعض . كنا نغادر الاستعراض العسكري في ذلك الصباح متجهين إلى الكنيسة . كان ذلك هو اليوم الأول من شهر آذار وهو تاريخ سأذكره دائماً . لم يكن هناك شيء خارج عن المألوف : واستمررنا في المسير كما نفعل دائماً . ثم انفجرت القنبلة . اكتشفت فيما بعد أن تلميذاً قد ألقى بها وأن العربة أدت مهمتها في حماية القيصر ، رغم أن الرجال الجالسين فوقها قتلوا . أصبت بصدمة عنيفة إلى درجة أن رأسي اصطدم بالسقف ومرت لحظة لم أعرف فيها أين أنا» .

توقف روستوف ليتناول القنينة من مويلز وسحب منها جرعة طويلة وقد تركزت عيناه على الأرض بينما ظل عقله يتذكر .

«استيقظت وأنا أصرخ مع الآخرين (القيصر ، القيصر! احموا القيصر!) كان رجلاً قوي البنية وتحمل الانفجار كما فعلنا نحن وأخذ يقول (أنا بخير أيها الفتية فلا تقلقوا ، أنا بخير) . جمعنا أنفسنا وفتحنا الباب المفضي إلى الشارع . ألفينا أنفسنا فوق جسر حيث لفحنا الهواء البارد وزاد في صحوتنا قليلاً . خرجت أولاً مع القوزاقي الأقرب إلى الباب . وجدنا جنوداً يمسكون بشاب من ذراعيه وهو يحاول أن يقاوم . صرخ قائلاً شيئاً لم أتمكن من فهمه . أصبح كل شيء في تلك اللحظة بلا معنى ، ثم ساعدنا القيصر على الخروج إلى النجاة ، أو هكذا اعتقدنا . خرج القيصر واقفاً على قدميه وكنا منهمكين في استدعاء عربة أخرى أو زلاجة ، لكن حطام عربتنا كان يسد الطريق . ظل يقول أنه ينبغي علينا أن نتفقد الجرحى ، لكن أسوأ الزعيق كان يأتي من جوادينا ، كانا حيوانين جميلين ، وباتا الآن مغطيان بالدماء وقد بترت سيقانهما . في الثانية التي أدركنا فيها أننا مضطرون للمشي مع القيصر نحو عربة أخرى ، تنزلت عليَّ ما يمكن أن تسميه لحظة صفاء هناك في وسط المعمعة . كان الصبي الذي يمسكونه يصرخ منادياً باسم ما . استمر في تكراره المرة تلو الأخرى . نظرت باتجاه الناس المصطفين على الجسر فرأيت شاباً آخر يرتدي ثياب الطالب ، رافعاً يديه في الهواء . كانت اللحظات التالية هي الأوضح في حياتي وبعدها لم أعد أذكر شيئاً على مدى ساعات» .

توقف روستوف بهدوء بينما انتظر الآخرون .

«ركضت باتجاه الشاب الذي يرفع يديه . أذكر أنني سحبت مسدسي وصوبته نحوه وأنا أصرخ . صرخ هو بدوره . أذكر أنني لمحت

شيئاً يطير من يده وفوق كتفي لكنني استمررت في الجري . كدت أصل إليه حينما انفجرت القنبلة خلفي ورفعتني فعلياً لتلقي بي عليه . فيما بعد ، أخبروني في المعسكر أنهم اضطروا إلى سحبي عنه عنوة بينما استمررت في ضربه على أنحاء رأسه بمسدسي . ضربات عنيفة . أصبحت النكتة إنني كنت أصعب على الإمساك بي من القاتلين . وصل إلى الرمق الأخير من حياته ووصلت أنا إلى الجنون وقد غمرني دمه . جلست في حالتي تلك لساعات طويلة في المقصف لاحقاً ، أصوب المسدس نحو أي شخص يقترب مني حتى أقرب أصدقائي» .

سحب جرعة أخرى من القنينة : كان هذا أكثر كلام سمعوه من روستوف على الإطلاق .

«استعدت وعيي في النهاية . كان القيصر قد لقي حتفه . مات وقد بترت ساقاه وتشوه وجهه كلياً ، ثم سألت عن مكان وجودهما . شاهدوا النظرة في عينيَّ فخافوا من عدم إخباري . ذهبت إلى الزنازين حيث كان أصدقائي قد تصرفوا بخشونة ، لكنهم عندما رأوني داخلاً مثل شيطان من الجحيم بوجهي وشعري الدبقين بالدم الأحمر ، ابتعدوا مثل الأطفال . أجبرنا ذلك الأول على أن يخبرنا كل شيء ، وأنا أعني كل شيء يعرفه في تلك الليلة» . رفع روستوف عينيه «كان اسمه نيقولا . ثم عملنا على ضمان أن يكون آخر من يتم شنقه حتى يصفه رفاقه بالخائن مع آخر نفس يسحبونه . أما الثاني والذي تعاركت معه فهو هرينيويكي . لقد قيل لي إنه صاح بالقيصر عندما ألقى القنبلة (ما زال الأمر باكراً على حمد الله وشكره!) أجبرته على أن يصيح متوسلاً ذلك الرب . جعلته يغني . ثم وفي اليوم التالي ، خرجت واعتقلت بقية مجموعتهم الصغيرة ومارست معهم نفس الأعمال .

كان ذلك أقل ما يستحقونه» .

توقف روستوف وجمع شتات أفكاره وكأنه يحاول أن يتذكر السبب الذي دفعه إلى إخبارهم تلك القصة . ثم تذكر .

«وهذا هو السبب في وجوب اهتمامنا بمسألة الحراس الشخصيين . لقد كنت في أمكنتهم وأعرف أنني كنت سألاحق الرجال الذين هاجموا القيصر إلى آخر المعمورة . ينبغي علينا أن نفصل هدفنا عن الحراس الشخصيين هناك على الطريق ونتعامل معهم إذا كان مقدراً لنا أن نبقى أحياء» .

لم يكن الآخرون على وشك الاختلاف معه . أشغلوا أنفسهم باطفاء النار وإعادة سرج الخيل بهدوء ، قبل أن يركبوا وينطلقوا في ليلٍ تزايدت عتمته .

الفصل الثالث والعشرون

قالت «ما أكثر الصور» .

أفرد السلطان الصور فوق كامل مساحة مكتبه وانتشرت علب منها حول الأرضية خلفهما ، ركعت جواشه ماشه كادين على الأرض وقد ضمت ذيول فستانها تحت ركبتيها : راقبها سعيداً بمرحها بينما هي تلتقط صورة بعد الأخرى لتتمعن في محتوياتها .

«آه ، هذا جمل» قالت هذا ثم ارتسمت تكشيرة صغيرة لتعبر وجهها «ولكن كيف تعرف من أين أتت؟» .

قال «انظري خلف الصورة» .

قلبت الصورة وقرأت الكتابة على ظهرها «دمشق! إنها من دمشق! ما كنت أعرف أن لديهم جمالاً في ذلك البعد لجهة الشمال» .

أدار السلطان رأسه جانباً وهو يفكر

«أليس جائزاً أن تكون هذه من أجل الاستعراض؟» .

زمت كادين شفتيها دافعة بهما إلى الخارج ثم إلى الداخل .

«ربما . . . يظهر حتماً أن هناك العديد من الناس في الأنحاء» .

جلس إلى جانبها متربعاً على الأرض وأخذ ينظر في الأكوام .

سألته «لماذا لا نزور دمشق؟ إن قيصر ألمانيا يقوم بزيارة لتلك المناطق . لقد سمعت أن لديه خمسة وسبعين خيمة في مخيمه» .

«إن القيصر محظوظ لأنه غير مضطر إلى القلق على بقاء قصرٍ له حينما يعود إلى موطنه» .

«ما الذي تعنيه؟» .

«أقصد أن هناك احتمالاً ضئيلاً بأن يكون أحد أبنائه أو جنراله فون مولتكه قد سرق عرشه عندما يدير ظهره» .

«هل تخشى حدوث ذلك فيما لو غادرت استنبول؟» .

«نعم أخشى» جاء صوته أخف حتى من العادي «جاء وقت كان السلاطين فيه قادرين على مغادرة المدينة وحتى الذهاب في حملات مع الجيش ، لكن تلك الأيام قد ولَّت . لابد من بقائي هنا» .

عندما يتحدث بهذا الشكل ، كانت ترى نمط الحياة التي قبلها عندما تسلَّم العرش بعد أخيه . تتذكر أحياناً أنها طالما عرفت وتجاهلت أو أنكرت ببساطة الأمر الواضح والذي يستطيع الكل أن يراه .

أعطى هذا الإدراك معنى جديداً للصور التي تحيط بهم . فهذا الرجل الذي اعتقدت أنه مطلق القوة عند زواجها منه ، هو في كثير من الأمور طائر حبيس في قفص . إن انكبابه على الصور القادمة من جميع أنحاء امبراطوريته وكذلك مناظيره المقربة وهواياته ، هي كلها الأغاريد التي يغرد بها مثل ذلك العصفور .

رأى منظر وجهها المتأسي وعينيها اللتين تطفر منهما دموع الإشفاق ، فعاد إلى السيطرة على أحاسيسه بسرعة .

«ولكن بالطبع ، سافرت كثيراً عندما كنت أميراً . نعم ، العديد من الأسفار إلى فرنسا وانجلترا . أعتقد أنه توجد سجلات في مكان ما تفيد بأنني أكثر السلاطين سفراً على الإطلاق» .

ومع ذلك استمرت في النظر إليه متعاطفة فمزقه الألم .

قال في محاولة لتغيير الموضوع «إليك ، دعينا نحاول أن نرى إن كانت لدينا أية صور لشركيسيا وبلاد القفقاس . ربما تستطيعين أن تخبريني شيئاً ما عنها» .

نظرت إلى وجهه الذي يشع بالطيبة والتعبير الحنون وغالبتها البسمة .

كثيراً ما قال الشعراء العثمانيون أن النساء الشركسيات اللاتي هنَّ مثل زوجته ، الأجمل في الدنيا كلها ، وما كان للسلطان أن يخالفهم في هذه اللحظة بالذات .

هي جميلة فعلاً ولكنها أكثر من ذلك بكثير بالنسبة له . فهي الشخص الوحيد في القصر الذي يتصرف معه السلطان على سجيته : يسترخي ويستمتع بقدرٍ من الحرية من أعباء وهموم شؤون الدولة ومؤامراتها . كانت جميع نسائه في الحريم جميلات ، لكن أياً منها لم تمتلك الدفء وتشع بالراحة التي تقدر هذه الشركسية الجميلة الصغيرة أن تهبها له .

فهي تقول رأيها بصراحة وقادرة على التحدث بأية مواضيع يختارها . منذ أوائل علاقتهما الفريدة ، أسعدته حين اكتشف أنها قارئة شغوفة مثله . ولكن بينما كان هو يقرأ كتب التاريخ السياسي والفلسفة وقصص شيرلوك هولمز ، انصرفت هي إلى قراءة دواوين الشعر والأدب الكلاسيكي ، والاستماع إلى كافة أنواع الموسيقى مثله تماماً . باتت لديهما أمور مشتركة كثيرة جداً بحيث وجد نفسه يقضي معها المزيد والمزيد من الوقت الذي يسمح به جدول أعماله المزدحم . في هذه اللحظة ، بينما هي مستلقية براحة في حضنه وهو يمسد رأسها ويمشط شعرها الحريري بأصابعه ، أعترف أن الحياة أكرمته برغم صعوباتها ومحنها . لم يكن الحب مطلوباً أو متوقعاً منه . فهو السلطان ومع ذلك ، فهي أقرب شيء إلى كونها الشريك والصديق الذي نَعُمَ به على الإطلاق فأدرك أنه يحبها بعمق وشغف .

رفعت عينيها إليه وابتسمت قائلة «كم أحب أن تمشط لي شعري

بأصابعك» . نزل برأسه نحوها وقبّل جبينها . كانا جالسين كلاهما فوق مراتب مريحة على أرض المكتب .

قال «وأنا أيضاً أحب وجودنا سوية بهذا الشكل . رجل وامرأة مثل كل الأزواج العاديين يستمتع أحدهما بصحبة الآخر» .

«بدون أية هموم أو مصاعب يا صاحب الجلالة . نعم أتمنى لو كان الوضع هكذا دوماً» .

نهضت جالسة ونظرت في عينيه بتعمق «لكننا نعرف أن الوضع لن يستمر بهذا الشكل ، لأنك يا سلطاني تحمل أعباء امبراطورية جالسة على كاهلك» .

«اعرف ذلك يا حبي ، فأنا خادم لشعبي رغم كوني مليكهم . إن قدري هو محاولة إنقاذ العالم الاسلامي من الكوارث القادمة نحونا» .

جلست كادين منتصبة وقد عبرت محياها الملائكي غمامة من القلق

«أية كوارث يا صاحب الجلالة؟» .

لم يرد السلطان على الفور . نظر إلى صفوف الكتب والأرفف في الغرفة خلفها ثم تنهد بعمق .

«لا داعي لأن تشغلي نفسك بتلك الشؤون يا زوجتي الجميلة . إنني أتحدث عن السياسة . إن القوى العالمية تقوم بتشكيل محاور خطيرة وسوف يعثرون على حجة سواء طال الزمن أو قصر لإيقاد نيران حرب رهيبة ، وسوف نقع نحن مع العديد من الأمم المسلمة في وسط هذا النزاع الكارثي» .

«ولذلك تحاول أنت أن توحدهم جميعاً تحت مسمى الخلافة ، لتجعل منهم قوة عظمى مساوية لأي تحالف غربي أو حتى متفوقة عليه» .

ابتسم لها واحتضن خديها الجميلين بيديه .

«إنها الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا كمسلمين أن ننجو من هجمات الغزو الاستعماري الغربي على ثقافتنا وتقاليدنا» .

«ويصاحب مثل ذلك التوحيد القوة الاقتصادية التي بدورها ستقاوم شهوات وأطماع القوى الاستعمارية ، أليس الأمر كذلك يا سلطاني؟» .

نظر إليها بإعجاب وهزَّ رأسه بالإيجاب «هو كذلك يا حبي» .

تصالبت في جلستها وقد تحمست للإفاضة في التعبير عن آرائها «لست أفترض أن أعرف الكثير عن السياسة ولكنني كثيراً ما تساءلت عن سبب رفضك السماح لليهود بوطن في فلسطين . هل كان السبب مسألة مبدأ فقط أم أن هناك اعتبارات سياسية أخرى؟ ربما خوفك من أن يتم استخدامهم ضدك كبيادق مستقبلاً من قبل الألمان أو الأوروبيين؟» .

فوجئ السلطان للحظة . لم يجرؤ أحد من مستشاريه على التشكيك في قراره حول الموضوع . فهذه مسألة حساسة بالنسبة له وقد تسببت له بالأرق ليالٍ عديدة فيما مضى : إذ كان يدرك تماماً ما مدى حاجة امبراطوريته إلى الأموال المعروضة عليه ، لكنه بقي مقتنعاً بأن واجبه بصفته الخليفة الجديد يفرض عليه خلاف ذلك . طأطأ برأسه غارقاً في التأمل ومسَّد لحيته عدة مرات قبل أن يحدق في زوجته مباشرة . ثارت مخاوفها من احتمال أنها تجاوزت صلاحياتها أو حدودها معه وأحنت رأسها . همَّت جواشه ماشه بالاعتذار حينما نهض فجأة واتجه نحو الكنبة الضخمة المزوقة المركونة جانباً . جلس عليها ورفع يده اليمنى ليمنعها من الاستمرار في الكلام .

أن تثير إحدى زوجاته أسئلة حول قراراته في شؤون الدولة أمر غير

عادي بالنسبة له . ومع ذلك فإن جواشه ماشه بعيدة كل البعد عن العادي . فهي لا تشبه أياً من الأخريات في حريمه بأي صفة .

«إن المسألة قضية مبدأ يا عزيزتي ، مسألة إيمان . لقد ضحينا من أجل ديننا الحنيف المجيد على الدوام» توقف ونظر إليها بجدية قبل أن يستأنف «لو أنني وافقت على عرض هيرتزل ، لكانت الفائدة السياسية ستعود كلها إليَّ ، لأن المجتمع اليهودي سيصبح مديناً لي بالفضل وتحت سيطرتي في منطقتنا . والآن بما أنني رفضت طلبهم ، فهم سوف يبحثون عن تحالفات أخرى في الغرب لخدمة قضيتهم . . . . وربما ينجحون في نهاية المطاف بتحقيق أهدافهم ويصبحون كما تقولين . . . بيادق في أيدي الأحلاف الغربية» .

«أظن يا زوجي أن ما تقوله هو أن السياسة الحكيمة تقضي بأن تجعل اليهود مدينين لك بالفضل ، بدلاً من أعداء محتملين للإسلام» .

هزَّ السلطان رأسه مرة أخرى وأشار إليها لتعيد الاقتراب منه . كوَّرت نفسها في حضنه واستمتعت بسكون اللحظة . توسع منخراها عندما وصلت إليها رائحة جسمه المألوفة ودفؤه فأغمضت عينيها برضى وقناعة .

***

من السهولة بمكان التعرف على الأجنبي في المشارب والبارات ، حتى في أثينا .

بدت المدينة القديمة لجوريس كتوليفة من أكواخ القرى أكثر منها مدينة ، وجود بضعة مبانٍ حكومية أكبر حجماً موزعة في الأرجاء . بدا له الاكروبوليس والبانثيون كمجرد خرائب ، بوجود الحجارة والصخور الملقاة حولهما من حيث يراهما من الأسفل . ظل يعب الخمر طيلة الطريق نزولاً من الجبل ودخل المدينة وهو يتمايل من جانب إلى الآخر

فوق عربته . بحلول ذلك الوقت ، زايلته لسعة الرفض وأحلّت الغضب محلها . من هم حتى يأمروه بما ينبغي عليه عمله؟

ناول أعنة العربة إلى الصبي الواقف أمام أول مشرب صادفه ثم دخل متعثراً . وجد الناس في الداخل صعوبة في فهم ما يقوله في البداية : فهو لم يدرك أنه يخاطبهم بالفرنسية ، لكن مقصده كان واضحاً بما يكفي فناولوه كأساً تحتوي على سائل صافي اللون . تذوقه فأدار أنفه رافضاً نكهة اليانسون ، ما دفع عامل البار وزبائنه إلى الضحك . جربوه بدلاً من ذلك بكأس من الموسكات القوي ، وبدا عليه الرضى بذلك . بعد وهلة إنقضت لحظة الإثارة التي جلبها الأجنبي الثمل عندما لم يتمكن هو ولا هم من فهم أحدهما للآخر ، وهكذا اكتفوا بتجاهله . من ناحيته ، بات جوريس سعيداً بما يكفي لأن يشرب ويدير نظره بين الفينة والأخرى بعيني السكران نصف المغمضتين وقد ارتسم على وجهه تعبير غبي متغضن .

بعد أن شرب ثلاثة وأربعة كؤوس ، قام واحد من رجلين كانا جالسين بهدوء داخل الباب مباشرة وذهب ليقف بجانبه . لفت انتباه عامل البار وقال «تريس» . ثم ابتسم للآخرين بطريقة ودودة وهو يراقبهم في المشرب المزدحم .

صبت الكؤوس الثلاثة وقدمت فوضع الرجل أحدهما امام جوريس . رفع الرجل الكأس الأخيرة باتجاه صديقه وهو ما زال واقفاً ، فانضم إليه هذا عند النضد إلى جانب كرسي جوريس .

قال الرجل الأول لجوريس بلهجة فرنسية سليمة «قل لي أيها الصديق . ما طبيعة عملك في أثينا؟» .

كان الرجلان قد ظهرا مثل كاتبين عاديين حتى تلك اللحظة برغم كونهما غريبين ، ربما قد وصلا من الريف لتوهما ، أو قادمين من

الشمال . لاحظ الزبائن الدائمون أن هناك شيئاً أكثر أهمية مما حسبوا سابقاً وحولوا أبصارهم ليدفنوها في كؤوسهم أو يباشروا في أحاديث هادئة متوترة فيما بينهم . بدا جوريس غير مهتم ولا مدرك لكل ما يدور حوله . فقد استمر يطوح رأسه إلى الأمام والخلف ، فحاول الرجل مرة أخرى .

«اشرب كأسك أيها الصديق» . وقرَّب الكأس إلى يده أكثر «ما هي وجهتك أيها الصديق؟» .

حمل الرجل نبرة اهتمام في صوته ، لكن كان هناك المزيد تحت اللهجة الودودة . لم يرغب الزبائن ولا عامل البار بكل تأكيد في معرفة ما يجري لعدم معرفتهم باللغة الفرنسية .

تناول جوريس الكأس ونظر إليها عابساً بينما يده ترتعش «إلى جهنم بكل ذلك» .

أفرغ الكأس بجرعة واحدة ورفع الرجل إصبعه طالباً كأساً آخر . تحرك عامل البار لإطاعة الأمر .

ربت الرجل الثاني على كتف جوريس . هو أثقل وزناً وأضخم من الرجل الأول ، لكن كلاهما لديه الشعر المسرَّح والمفروق بعناية ، والمزيت مثل شاربيهما الكثين . يمكن اعتبارهما شقيقين .

«إلى جهنم بماذا أيها الصديق؟» .

«إلى جهنم بهم جميعاً» وقعت تحديقة جوريس على الكأس الأخيرة الموضوعة أمامه ، فابتسم لثانية قبل أن يخطفها . نظر الرجل الثاني إلى رفيقه الذي أشار إلى وجوب التحلي بالصبر بأن رفع يده اليمنى وكفها باتجاهه . اقترب ومال إلى جوريس واضعاً ذراعه حول كتفيه .

«ما الذي فعلوه يا جوريس؟» رفع البلجيكي رأسه لدى سماع

اسمه يذكر، لكن أهمية الأمر تلاشت بسبب سكره الشديد «أخبرنا. فنحن معك».

«لقد تركوني» بدأ جوريس يتكلم بغير وضوح «لقد ذهبوا وقالوا لي أن أترك الأمر إليهم. سيدّبروا الأمور بأنفسهم. لم يعودوا بحاجة إليَّ. لا...».

«ذلك أمر رهيب، إلى أين اتجهوا؟».

«وماذا يهم ذلك؟ إنني ضائع. لقد قدمت حياتي إلى الاتحاد والآن يتم إلقائي جانباً بمجرد أن وضعتهم على الطريق».

«الطريق إلى أين يا جوريس؟ ربما تتمكن من اللحاق بهم؟».

انشغل جوريس في هذه اللحظة بتفحص كأسه الفارغة ثم صرخ بالفرنسية «مزيد من النبيذ!».

ظهر التردد على عامل البار، لكن صديق جوريس هزَّ رأسه موافقاً فظهر الكأس الجديد.

«أين يمكنك أن تلحق بهم يا جوريس؟ ألا يحتمل أن يكون لديك وقت كافٍ؟».

«كلا، إنهم يركبون الجياد. ليست هناك وسيلة يمكنني بواسطتها الوصول إليهم قبل أن يصلوا إلى ميلونا».

تبادل الرجلان نظرة وانفعل الزبائن لدى سماعهم الاسم المألوف لديهم.

«وهل ذلك هو المكان الذي ذهبوا إليه يا جوريس؟ ميلونا؟».

«نعم، ممر ميلونا. ذلك هو. لقد ذهب أربعتهم إلى هناك وتركوني هنا. ما الذي يفترض فيَّ أن أفعله الآن؟».

ضرب الرجل على ظهره متودداً «آه، ما كنت لأقلق في مكانك، ستعثر على عمل يناسب مهاراتك. إليك هذا» سحب من جيبه لفافة

كبيرة من الدراخمات . «اشتر لنفسك المزيد من الكؤوس . ولكل الآخرين أيضاً» .

تنقلت عيناه من عامل البار إلى كل شخص آخر مكتوِّم حول النضد الصغير ، متمعناً في وجه كل شخص بدوره ومتوقفاً ليوضح نيته .

«شكراً يا جوريس . أتمنى لك حظاً سعيداً» .

وصل الاثنان إلى الباب ثم الخارج . أغمض الرجل الأول عينيه ورفع ذقنه ثم سحب نفساً عميقاً من هواء الليل . فتحهما مرة أخرى ليرى أن رفيقه قد أخرج مسدسه من جيب سترته ثم رفعه مهدداً .

قال وهو يهز رأسه «لقد حصلنا على ما نريده وهو لا يشكل تهديداً» .

اختفيا في الأزقة الخلفية المعتمة حيث لا يمكن ملاحقتهما .



راقب هيرتزل الأطفال أثناء تمارينهم بلا انقطاع . يجب على كل شيء أن يتم بمنتهى الكمال ، كل شيء . اصطف السكان العرب المحليون على جانبي الطريق وقد حضروا لرؤية الموكب ، وهناك وقف هيرتزل ومجموعته الصغيرة في الوسط تماماً . كان بإمكانه أن يرى القطار الضخم في البعد وهو يشق طريقه بتثاقل وسط غمام الصباح . ظل يتحرك ببطء وقد جلس في مقدمته القيصر على صهوة حصانه ، مرتدياً الزي المحلي والذي أعطاه مظهر البدوي . *لا شك في أنه يرغب في أن يجسد شخصية صلاح الدين وقد أعيدت ولادته ، أم هل يا ترى يفضل أن يكون ريتشارد قلب الأسد؟* تساءل هيرتزل عما إذا كان هنالك بدو يربون شواربهم معقوفة إلى أعلى مثل نمط القيصر .

سرعان ما اقترب القطار الطويل ، رغم بقاء الحرارة بدرجة لا

تحتمل . لماذا لم يفكر بإحضار قماش مظلل أو حتى شمسية كبيرة إلى جانب كل شيء آخر؟

كنت أيضاً سأتوقف لشرب بعض المرطبات لو أنني . . . .

على أي حال ، فات الوقت الآن . أصبح القيصر وشاربه واضحين للعيان ، وأدار هيرتزل عينيه فيما حوله ليتأكد للمرة الأخيرة من أن كل شيء في مكانه . عندما وصلت الحاشية الملكية إلى مسافة مئة قدم من الحشد ، ظهرت كوكبة فرسان من الجيش العثماني فجأة من الخلف وركبت مشكلة قوساً عريضاً حوله وباتجاه الناس ، لتكوّن جناحاً من الحماية الذي يمتد على طول الطريق المغبر نحو البلدة . رفع هيرتزل قامته إلى أقصاها ورفع يده . كان القيصر على مسافة منه يحدق باستعلاء إلى الأمام بعينين شاخصتين ، لكنه تلفت في هذه اللحظة لينظر إلى الحشد الخليط ، كما كتب هيرتزل لاحقاً في مفكرته ، وقابلت عيني عينا هيرتزل . رفع يده في تحية جوابية وحتى أنه ابتسم للرجل الذي كان ضيفه قبل بضعة أيام . استدار هيرتزل إلى يمينه وهزّ رأسه باتجاه معلم الأطفال الذي أعطى إشارته الخاصة به إلى الصفين الصغيرين .

بدأوا ينشدون

المانيا ، المانيا فوق الجميع

فوق الجميع ، في العالم . . .

عندما وصل إلى مسافة استطاع منها أن يسمع النشيد ، اتسعت ابتسامة القيصر لتصبح ضحكة وسحب عنان حصانه إلى جانب هيرتزل . «سيد هيرتزل! أنت تشرفنا وتشرف مجموعتنا . كيف حالك؟» .

«إن الشرف لي يا صاحب الجلالة . إنني ألقي نظرة على البلاد

وأقابل بعضاً من أطفال كيبوتزنا» . أشار هيرتزل برأسه إلى فرقة الإنشاد . رفع القيصر يده السليمة في تلويحة وأشار برأسه أيضاً بطريقة ودية مفاجئة .

«كيف وجدتم جلالتكم الرحلة؟» .

«الطقس حار جداً! ولكن كما قلت لك فإن لهذه البلاد مستقبلاً» .

قال هيرتزل «هي ما زالت مريضة» .

انحنى القيصر فوق رقبة حصانه ومد يده إلى هيرتزل ليصافحها .

قال بصوته الجهوري الخشن «كل ما تحتاجه هو الماء ، الكثير من الماء» .

«نعم يا صاحب الجلالة ، مشاريع ري على مقياس كبير» .

«أرض ذات مستقبل يا سيد هيرتزل» .

صلّى هيرتزل داعياً أن يكون الرجل الذي أحضره من القدس قد التقط الصورة . منحه القيصر ابتسامة أخيرة ثم انطلق في طريقه إلى البلدة . استأنف الأطفال النشيد مع مغادرته .

ركب يولينبرج مرافقاً له إلى الخلف وأعطى لهيرتزل ابتسامة ودية أثناء مروره ، ولكنه لم يتوقف ليتكلم . انتظر هيرتزل حتى ابتعد القيصر مسافة احترام قبل أن يهرع راكضاً إلى حيث وقف رجله ، يعبث بكاميرته وحاملها ذي الأرجل الثلاثة .

«هل حصلت عليها؟ هل حصلت على الصورة؟» .

«اعتقد ذلك يا سيد هيرتزل ، أعتقد ذلك . طبعاً يجب أولاً أن تفحص الصور السّلبية ، لكنني واثق من أنني حصلت على صورتكما معاً هناك ، بدرجة مقنعة» .

لم يتمكن هيرتزل من العثور على مصور غير بريطاني أثناء بحثه ،

واستغرقه الأمر هنيهة حتى يفهم ما سمعه لتوه، لكنه فهم أن الأمر إيجابي.

«كم من الوقت؟».

«بضعة أيام، على ما أظن. فأنا مضطر إلى إقامة غرفتي المظلمة الخاصة وكل ذلك».

حتى بضعة أيام انتظار في بيت لحم بدت لهيرتزل وكأنها الأبدية، ولكنه افترض أن كل شيء سيسير حسب الخطة. سيكون روثتشايلد وبقية داعميه بحاجة إلى سماع هذه الأنباء.

***

استدار مويلز عائداً إلى مواجهة النار أثناء استراحتهم في وقت لاحق من تلك الليلة. منحت البطانية بعض الدفء للجزء العلوي من جسمه، لكن بقيته أصيبت بانعدام الإحساس فوق الأرض الباردة. بقي ڤارتنيان جالساً يؤدي دوره في الخفارة. حدَّق في النار بتركيز لاحظه مويلز من قبل، مع أنه كان يجيء في العادة قبيل شجار في حانة ما بدلاً من لحظة استذكار هادئة. تحرك مويلز جالساً وضم ركبتيه إلى صدره محتفظاً بالبطانية فوق كتفيه.

«لماذا تقوم بهذا العمل يا ڤارتنيان؟».

لاحظه الأرمني وهو يتحرك لكنه لم يبدِ أي رد فعل. تناول عصا قصيرة عن الأرض وأخذ يدورها بين أصابعه.

أجاب «لنفس السبب الذي يجعلنا نقوم به كلنا. نحن نحمي شعبنا وأرضنا، ربما حتى نفترض أننا نحمي إلهنا. كل واحد يقوم بالعمل بطريقته الخاصة، حتى الرجال الذين نقاتلهم. ما الذي تفعله أنت هنا أيها الإنجليزي؟ كيف تعتقد أن أفعالك التي تقوم بها في هذه البقعة النائية سوف تساعد بلادك؟».

فكر مويلز للحظة «أنا موجود هنا لأحمي الامبراطورية يا ڤارتنيان، إنني أنفذ أوامر العرش والبرلمان».

«آه نعم، أريدك أن تعلم أنني استمتعت كثيراً بوقت وجودي في اسكتلندا. لقد رأيتها أنت بالطبع، لكنها تختلف قليلاً عن القسم الذي يخصكم من الجزيرة، على ما أظن. هناك أنتم تمتدحون ملكتكم وبلادكم، وتقنعون أنفسكم بطريقة ما أنكم ورثتم ملكاً ورئيس وزراء منتخب «الملكية الدستورية» كما يقال، وهذه لا تنطوي على أي تناقض في التسميات. أنا أحب الروس، حتماً روستوف القابع هناك والذي برغم ادعائه النوم، يسمعني في هذه اللحظة بدون شك. لا يقدم الروس أية ادعاءات عن نواياهم. لديهم قيصرهم المعين من قبل الله، والله يريد لهم أن يمتلكوا القسطنطينية. الأمر بسيط، أرأيت؟ إنهم لا يخفون أفعالهم تحت رداء مزيف من الاستقامة والنزاهة».

«وهل هذا هو السبب لكونك تقاتل في سبيل بلادك؟ لإقامة روسيا صغيرة وعليها قيصر صغير؟».

«كلا، أنا لا أقدم ادعاءات زائفة بأن لدي فكرة عن الشكل الذي سوف تتخذه بلادي.

ربما تكون الطريقة البريطانية حتى مع تناقضاتها، هي السبيل إلى التقدم. لقد أحسنتم صنعاً أليس كذلك؟ ولكن أيضاً كذلك فعل الروس. إنهم أقوياء صلبين. أكبر بكثير من كل البلدان الأخرى. أعتقد أنني سوف أرغب في رؤية أميركا يوماً ما. إنهم يحسنون صنعاً بدورهم، بدون ملكات ولا قياصرة ولا حتى رؤساء وزارات. ربما يكون ذلك هو النموذج الذي ينبغي على بلادي أن تطبقه».

«صحيح ولكنهم ثرثارون وأجلاف ولديهم ذوق رهيب في القبعات. هل ترغب في سماع نصيحتي؟».

ابتسم ڤارتنيان «أرجوك» .

«جرب كندا . إنها باردة ولكن الناس هناك يعرفون كيف يتصرفون مع الصحبة الراقية» .

«سأنفذ ما تقوله يا مويلز» . قال ذلك مع ضحكة هادئة ، «بعد أن ننفذ خطتنا وننجح في الهروب ، فقد وعدتني حكومتك بأن ترسلني إلى أي مكان أطلب الذهاب إليه داخل الامبراطورية . فهل ربما ستزورني هناك؟» .

«سوف أحب ذلك يا ڤارتنيان . أحصل على القليل من النوم الآن ، سوف أقوم بالخفارة» .

ألقى ڤارتنيان بالعصا إلى داخل النار وتناول بطانيته .

«أشكرك ، أليس من المحتمل أن نجري الاتصال في الغد؟» .

«نعم ، غداً . يمكننا أن نرتب أمر الزيارة بعد ذلك» .

الفصل الرابع والعشرون

انبلج الفجر التالي عن يوم أكثر دفئاً وصفاءً من أي يوم آخر منذ نزولهم إلى اليابسة .

بدا وكأن الصيف قادم إلى البلاد وكل شيء أكثر حيوية مما سبق . لاحظ مويلز رائحة الزهور على الأشجار اثناء مرورهم ، حيث استمر العبق يحيط به لمسافة طويلة .

أشرقت الشمس بدفء لم يكن قاسياً حتى مع اقتراب الظهيرة ، ما أشعرهم بدفء ظهورهم مقابل الأنسام الباردة التي قابلتهم اثناء ركوبهم عابرين الأودية . بعد إفطار مقتضب جداً لم يزد عن لقمتي خبز ابتلعها كل منهم مع كوب الماء ، أسرجوا خيولهم وانطلقوا في مسيرة سريعة لمدة ساعة أو أكثر لم يتوقفوا خلالها إلا ليريحوا الجياد عند جدول ماء صغير ، غير موجود حتى على خرائطهم التي لم يتوقف مويلز عن تفحصها .

قال روستوف بينما هم يعدون خبباً «سننزل اليوم إلى الحفرة . نبقى بملابسنا الحالية حتى نعثر على فتحة في الخطوط ، ثم نبدل الملابس في الجهة الأخرى . بعد ذلك ، يصبح الأمر مجرد سؤال عن الاتجاهات . يمكنكما أن تتوليا ذلك ، صح؟» طأطأ كل من فارتنيان وكيڤوركيان رأسيهما بالموافقة .

«جيد . سوف أساعدكما ببعض الكلمات التي لدي إذا احتاج الأمر . مويلز ، أنت الضابط ، ولذلك أنت لن تتكلم . فهم لا يتكلمون

أبداً . حاول أن تبدو أكثر تميزاً إذا استطعت» .

لم يتأكد مويلز مما إذا كان يجب عليه أن يشعر بالإهانة من هذا الكلام ، لكنه قرر أن هذا الوقت غير مناسب لإثارة مشكلة .

«صحيح . وكيف ستعرف أننا نقترب من خط الجبهة؟» .

قال كيڤوركيان «سوف تشعر بالتغير في الجو» .

«في ماذا؟» .

قال روستوف «سوف تعرف ، صدقني» .

حاول مويلز أن يظهر بمظهر غير المهتم ، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن قد اقترب فعلياً من معركة بهذا القدر أبداً . لقد تم تعيينه مسؤولاً عن هذه المهمة اسمياً ، لكن الرجال الذين برفقته هم أصحاب المعرفة التي سترجح بقاءهم أحياء : إذا لم يسمحوا لتهورهم أن يسيطر عليهم ، بالطبع» .

ماذا عن الجانب اليوناني؟ هل من المحتمل أن يتركونا نمر بكل بساطة؟» .

«فهمت مما قيل لي في أثينا أن لدى اليونانيين حالياً مشاكل أكبر بكثير من أربعتنا . من غير المحتمل أن تحصل لنا مشاكل معهم» . بدت على روستوف علائم ثقة متزايدة مع اقترابهم من ثيسالي . كذلك بدا أن ڤارتنيان وكيڤوركيان يجلسان منتصبين القامة في سرجيهما . «في حالة حصول أي اعتراض لنا ، لدي أوامر بإرسال خبر إلى أثينا» التفت روستوف نحو مويلز «لن تحصل أية مشاكل» .

***

جلس الجنرال أدهم باشا في الخيمة التي شكلت مقر قيادته ، يقرأ التقارير الصباحية باستمتاع متزايد . مثل حلمي باشا بعد الاشتباك الأول ، كان قد أصابه القلق من أن يكون الإنهيار البادي لخط الجبهة

اليوناني حيلة من نوع ما ، ربما حتى إلهاء عن هجوم جانبي أكبر حجماً . على أية حال ، سرعان ما تبين ، بعد تقدم يكاد يكون مبالغاً في حذره عبر كامل خط الجبهة وبأعداد هائلة أن الانهيار هو فعلاً ما ظهر على حقيقته ، وأنه لن يكون هناك أي هجوم مضاد سريع من قبل اليونانيين . كان أحمد حفظي باشا يرسل تقارير من ايبيروس تفيد بأن اليونانيين يتقهقرون هنالك أيضاً ، حتى الأخبار من كريت نفسها كانت جيدة . اتخذ أدهم باشا قراراً مسبقاً بالبقاء على أهبة الاستعداد واليقظة والاستمتاع في نفس الوقت بكل لحظة من هذا النصر مادام يمكنه ذلك .

شكلت كومة المراسلات جبلاً صغيراً فوق الطاولة ، والتي انهمك هو ومساعدوه الاثنان في العمل عليها تدريجياً . كان الجنرال يقرأ بعضها لنفسه ويقوم الرجلان الأصغر سناً بلفت انتباهه إلى أي شيء يعتقدانه يستحق الاهتمام .

«لقد أصبحت المعركة تسمى (دوميكه حربي) (حرب الأمواج) في استنبول ، بينما تطلق عليها الصحف اليونانية تسمية (الحرب سيئة الحظ)» . قال أحدهما وهو يقرأ قصاصة من صحيفة .

أجابه المساعد الآخر «همـمم! سوء الحظ هو أن يدلق منظف النوافذ بعض الماء عليك . ولكن ، إذا ذهبت إليه وهززت سلمه أولاً ، فإن الخطأ واقع منك . كان الأجدى بهم أن يسموها الحرب الحمقاء» .

ضحك الجميع على هذا التعليق ، حتى الباشا .

قال الجنرال «يمكنك أن تخبرهم بذلك بنفسك عندما نصل إلى أثينا ، سنكون قد استعدنا كامل ينى شهير وتيرحالا قريباً» .

ألقى المساعد الأول بقصاصة الصحيفة فوق الكومة المقروءة وتناول ملاحظة ، بعد أن مزق المغلف عنها بسكين صغير . اختفت ابتسامته أثناء قراءته .

«أيها الجنرال هذه رسالة مباشرة من أثينا» . وضع الرسالة أمام القائد الجالس الذي قرأها بسرعة . . عندما أنهى قراءتها ، سحق الورقة بيده .

«اكتب رسالتين متطابقتين . على أن ترسلا على الفور إلى حلمي باشا والسلطان نفسه . السلطان وحده! لا أريد أياً من تنابلة البلاط!» .

تبادل الرجلان نظرة ثم جهزا قلمين وورقتين

«تفضل أيها الجنرال» .

***

لم يكذبوا على مويلز بشأن أي شيء . فقد تغير الهواء بمجرد وصولهم على بعد عشرة أميال من الجبهة ، واختفى الإحساس الرائع الذي يكاد يصل إلى البهجة في ساعات النهار الباكرة .

ثم بدت لعينيهم الصفوف الأولى من الانسحاب . بضعة رجال هنا وهناك في البداية ، أزياؤهم البيضاء متسخة وممزقة ، ثم مجموعات أكبر من خمسة أو عشرة وأخيراً مجموعات كبيرة ، كافية لأن تقاتل لو أراد أفرادها القتال . لم يكن هؤلاء يحملون أية علائم مرئية أو جراح . كان ذلك مقدراً عليهم مستقبلاً .

هزّ ڤارتنيان رأسه بينما هم يمرون وسطهم «جبناء ومتهربون» قال لمويلز هامساً «أحقر الحقراء» .

لم يستطع مويلز إلا أن يوافق . ليس هؤلاء الرجال من النمط البطولي : كان ذلك واضحاً بدرجة مؤلمة . لم يجرؤ أحد منهم على مجرد رفع عينيه باتجاه الرجال المارين على ظهور جيادهم .

فكر مويلز «هكذا يعيشون في كل يوم . يبقون رؤوسهم مطأطأة ويبتعدون عن المتاعب ، ينجزون أقل قدر ممكن من العمل ويعيشون حيوات طويلة ، بقناعة نسبية بلا أهداف ولا غايات ، ويفرخون

عائلات بأعداد كبيرة لتكمل ذلك الوجود النبيل والقيام بالأعمال ذاتها بالضبط» .

بعد انقضاء حوالي الساعة ، حدث تغيير شبه خفي على الرجال الذين يصادفونهم .

فقد بقي بعض الضباط بين هذه المجموعات ، وقد شكلوا صفوفاً منتظمة ، طبعاً غير منضبطة الخطى ، ولكن مع قليل من النظام . احتفظ كثير منهم بأسلحتهم أيضاً ، ولكن لم يكن واضحاً ما إذا كانوا سيقاتلون أو يقدرون على القتال في يوم آخر . جاءت عربات الإسعاف والجرحى الماشين في المؤخرة . شاهدوا رجالاً بأعضاء وعيون ناقصة ، جالسين أو راقدين في الأقسام الخلفية من عربات المزارعين الخشنة ، بعضهم يصرخ كلما داست العجلات الخشبية على عقبة في الطريق لترسل صرخاتهم الرعشة في عمود مويلز الفقري في المرات الأولى لحدوثها . شاهد بعض الرجال الأصحاء يسيرون معهم مسندين رفيقاً في السلاح أو صديقاً ، لكن لم يكن بينهم الكثير . لا شك في أن أغلبية المرضى قد ماتوا بحلول هذا الوقت ، وألقي بهم في مؤخرة العربات ، لكن أحداً لم تكن لديه فكرة إلى أين هم متجهون . لم يستطع مويلز أن يتذكر القرية أو البلدة الأخيرة التي مروا بها وكانت بحجم معقول . مضوا في طريقهم ومع ذلك لم يوقفهم أحد ليسألهم .

قال روستوف «دعونا نخرج من الطريق عند ذلك المنعطف هناك . يبدو أن ذلك الحرش يمتد إلى مسافة بعيدة شمالاً وسوف تمنحنا الأشجار غطاءً جيداً» .

قال كيڤوركيان «غطاء جيد لكمين أيضاً» .

«ربما ، لكنني أحب أن أراهن مما رأيته هنا بأن الخطوط اليونانية ستكون منتشرة إلى هناك على الأقل ، هذا إذا كانت موجودة على

الإطلاق . إذا قابلتنا دورية تركية ، فسوف نتعامل معها كما نراه مناسباً» .

«على الرغم مما يظهر من التراخي في الشأن الأمني ، لا أستطيع أن أتخيل لا الأتراك ولا اليونانيين سوف يسمحون لنا بعبور هذا الطريق بكل بساطة» . حاول مويلز أن يعكس الثقة من كلامه «إن الحرش هو أفضل رهان لنا» .

«اتفقنا» جاء صوت ڤارتنيان معززاً .

«ليكن لك ما تريده» .

أعجب مويلز بكيڤوركيان الذي استطاع أن يبدو واهناً تقريباً في هذا المكان بعد كل مشاهد المعركة .

«لنذهب إذاً» . لكز روستوف حصانه وانطلق الاثنان فوق الحقل باتجاه الأشجار . تبعهما الآخران .

تبين أن عبور الخطوط جاء أسهل مما خططوا له .

«لقد هرب اليونانيون مبتعدين عن الأتراك مسافة طويلة» علَّق مويلز أثناء مرورهم بين الأشجار . كان الحرش رطباً ومشبعاً بالبرودة وهادئاً إلى درجة منعشة ومظللاً بعد أنين الجرحى وغبار الحرارة في الطريق التي خلفوها .

تمهلوا أثناء مرورهم بين الأشجار وراقب مويلز كيف أخرج روستوف الذي تولى القيادة مسدسه من جرابه وأمسك به عند وركه وهو يتلفت بحذر . قام مويلز بنفس العمل ، بينما أبقى الأرمنيان بندقيتيهما في حضنيهما بطريقة قريبة من المسترخية . استمر أربعتهم بهذه الطريقة قرابة عشر دقائق ثم عشرين ، قبل أن يرفع روستوف ذراعه ويشير إليهم بالتوقف . لم يكن هناك أي صوت يمكن سماعه ، لكن الرجال استطاعوا أن يروا ضوء النهار يخترق الأشجار . بدأت أشجار الحرش

تتناقص، وبدت خلفها حقول مليئة بالصخور.

قال روستوف «انتظروا هنا». وترجَّل.

ربط عنان حصانه إلى غصن متدلٍ ومشى إلى الأمام. استمر في الانحناء عند نهاية خط الأشجار ثم ركع وهو يمسح الأرض أمامه بعينيه. شاهد أمامه مباشرة وفي المكان الذي بدأ الحقل فيه يرتفع ليشكل تلة صغيرة، ما كان يبحث عنه. أبقى عينيه إلى الأمام وهو يتراجع إلى حيث ينتظره الآخرون.

سأله ڤارتنيان «ماذا يوجد أمامنا؟».

«رجلان بالألوان العثمانية. كشافان على الأغلب. يحتمل وجود المزيد، لكنني لم أرَ غير هذين الاثنين يراقبان الحرش. إنهما راقدان على بطنيهما هناك، يراقبان».

سأله مويلز «هل نلتف حولهما؟».

هزَّ ڤارتنيان رأسه رافضاً «سوف نصادف موقعاً آخر في مكان ما بسبب قربنا الشديد من خط الجبهة، الاحتمال الأكبر أن يضم أكثر من شخصين. كلا، سنقوم بارتداء أزيائهم ونركب في الخلاء المفتوح. يجب علينا أن نندمج ونركب مارين بمواقع عديدة لمسافة أميال أمامنا، وهذه نقطة تصلح مثل غيرها لنبدأ منها».

وافق الآخرون بهز رؤوسهم وترجلوا. كان كيڤوركيان قد أخفى الأزياء قدر استطاعته بداخل لفات النوم التي يحملونها، والتي فتحوها الآن ولبسوها.

جاء لباس الضابط على مقاس مويلز بدرجة مقبولة ولباس العريف مطابقاً لمقاس كيڤوركيان كأنه قفاز. بدا عليه السرور فعلاً رغم إرادته. أما لباسي روستوف وڤارتنيان فقد كانا ضيقين إلى حد ما، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله ملحوظاً بعد أن يمتطيا جواديهما. فقد كان

العـديد من المجندين اليـونان يرتدون أزياء غـيـر لائقـة . لـم يكـن هنـاك سبب للافتراض بأن العثمانيين سيختلفون عنهم . أخذ ڤارتنيان يعبث بأكـمامه «هذا لباس يصلح لطفل» محاولاً أن يسحبهما لتحت حتى يغطيا معصميه على الأقل .

قال روستوف «أنت تبدو في غاية الوسامة» . هازئاً من انزعاجه . عبس ڤارتنيان ورد عليه بإشارة من يده افترض مويلز أنها لن تكون مقبولة في الدوائر الأرمنية المحترمة .

«حسناً ، تقدموا راكبين بظهور منتصبة . انتشروا لدى اقترابهم منهم حتى يعرفوا عددنا . كيڤوركيان ، أنت في المقدمة . مويلز أنت في المؤخرة . ڤارتنيان كن يقظاً» .

تسلم روستوف منصب قيادة الجماعة بدون أن ينطق بكلمة أو يثير ضجة بلا مجهود ، الأمر الذي أثار إعجاب مويلز وحفيظته بنفس المقدار . فقد ظل هو الذي يقود الطريق خلال وجودهم في إنجلترا وأثناء الرحلة إلى هنا . لكن هنا وفي العـراء فـقـد فـرضت خـبـرة الروسي الأعمق نفسها بألف طريقة مختلفة وانتظم الجميع في نسق مطيع له . لم تكن هناك أي نية متعمدة أو شريرة حول الأمر من قبل ڤارتنيان أو كيڤوركيان ، بل أدرك مويلز أنهما يستجيبان ببساطة للرجل الذي يعتقدان أنه قادر على قيادتهم عبر هذه المهمة وإخراجهم أحياء .

ظل الأمر يزعجه بكل الأحوال ، لكنه لم يتأكد مما إذا كان السبب هو أسلوب روستوف غير المتكلف الذي يحسده ، أم أنه يخشى من أن يقودهم الروسي إلى موقف متهور .

لكز كيڤوركيان حصانه وساروا باتجاه الحقل المكشوف . بدا الكشافان واضحين بسهولة للعيان فوق التلة وأصبح بالإمكان رؤية رأسيهما يرتفعان على البعد لمرأى خروج الأغراب بين الأشجار . لم

يتهاون الرجلان وانحنيا فوق منظاريهما . سمعهما مويلز يصرخان بشيء ما ولكن لم تكن لديه أي فكرة عن قصدهما . ردَّ كيڤوركيان صائحاً ولم يتأخر الجواب . احتفظ ڤارتنيان خلفه ببندقيته في حضنه ولكن لم يقم هو ولا روستوف بأي حركة لرفع سلاحيهما . أحسَّ مويلز بيده اليمنى تتحرك وتحوم فوق الجراب على وركه ولم يتمكن من إيقاف نفسه عن سحب المسدس إلا بصعوبة بالغة . بدأ يتعرَّق ونزلت خطوط العرق على وجهه على الرغم من أنه مثل الآخرين ، تخلوا عن الطواقي التي ترافق الألبسة .

أصبحوا الآن قريبين من الكشافين ، ومهما كان الذي قاله كيڤوركيان ، فلا بد أنه أشعرهم بالأمان لأن الرجلين نهضا وخفضا بندقيتيهما . تبادل الأربعة بمن فيهم ڤارتنيان ما بدا لأذني مويلز وكأنه مسلسل سريع الطلقات من الكلمات والجمل ، وقد تولى أحد الجنديين وهو رجل أكبر سناً في أوائل أربعينيات عمره معظم الحديث ، بينما أبقى الآخر - شاب نحيل أسمر البشرة - عينيه في الأرض ، ولم يرفعهما إلا مرة واحدة لينظر إلى مويلز ، الضابط .

ظهر أن الرجلين أكثر من مقتنعين بما كان يقال لهما وحاول كل من ڤارتنيان وكيڤوركيان أن ينهيا الموقف والاستمرار في المسير وهما يهزان رأسيهما باتجاه مويلز ويتكلمان بسرعة .

حافظ مويلز على أداء دوره المفترض بأنه في موقع القيادة بأن ظل مكشراً وبلا أي تعبير . أدى الكشاف الأكبر سناً تحية تلويح ودية ردها كيڤوركيان إليه ثم أشار بنفس اليد باتجاه الحرش . أدار الكشافان عينيهما باتجاه الأشجار ونظر كيڤوركيان إلى روستوف وهزَّ رأسه . ارتفع مسدس الروسي ووضع رصاصة بكل هدوء في رأس الرجل الأكبر سناً . قفزت قدما الجندي الصغير في الهواء لشدة صدمته من الصوت

وراقب سقوط الرجل الميت . وقف يحدق في صديقه لوهلة ثم استدار ونظر إلى روستوف فوقه بتعبير هو مزيج من اليأس والاضطراب مع الصدمة والرعب . استمر في الإمساك ببندقيته من ماسورتها وشدها إلى جسمه ، وكأنها حرز للحماية أو بطانية أمان ، وقد شدها إلى صدره بكلتا يديه ، لكنه لم يأتِ بحركة تنم عن نيته في استخدامها . حدق روستوف في عينيه للحظة ثم أطلق النار مرة أخرى . سقط الفتى إلى الأرض .

الفصل الخامس والعشرون

ألقى حلمي باشا نظرة لمجرد لحظة على الملاحظة ثم سلمها إلى ڤون دير جولتز .

مسح الألماني المحتويات ورفع رأسه «هل معنى هذا أننا سنعود؟» .

«كلا» .

كان الاثنان يتمشيان ليراقبا الوادي تحتهما . لم يجريا أي تواصل يستحق التحدث عنه مع العدو منذ وقت المعركة . بين الفينة والأخرى ، كانا يسمعان صوت رصاصة تدوي من خلف شجيرة أو جدار أثناء مرورهما بقرية أو بمر ضيق ما ، ولكنهم بقوا سالمين فيما عدا رصاصة أصابت فخذ أحد الرقباء .

تخلى كل من الباشا والجنرال البارون عن الرياش والميداليات وكل الأدوات التي تدل على كونهما ضابطين رفيعين ، فشعرا بأمان نسبي ، حتى هنا في الأرض الحرام بمنطقة ثيسالي .

«لقد جئنا وشاهدنا يا باشا . نحن نعرف أن الحرب في أيدٍ أمينة . وربما حتى نشكل إلهاءً للرجال الذين يديرون هذه الحرب إذاً كانوا سيقلقون على سلامتنا . ربما حان وقت عودتنا إلى القصر وتقاسم الأخبار الطيبة مع السلطان» .

استدار الباشا مبتسماً لينظر إلى صديقه «أنت لا تعني ذلك بجدية» .

«بل أنا جاد . صحيح أن هذا الأمر يخالف غرائزي الطبيعية» .
ركع للحظة والتقط عشبة .

«إن ميدان المعركة خطير جداً في أفضل الأوقات ، ولكن إذا صح محتوى هذه الرسالة ، فقد أصبحنا الآن أهدافاً» .

«لن أهرب من هؤلاء الرجال ، بغض النظر عمن يكونون» .

«ليست المسألة هروباً ، بل هي قضية أولويات . أنت مستشار للسلطان ولست رجل قتال . ليس هناك أي عار في إبعاد نفسك عن الخطر» .

ألقى ڤون دير جولتز بالعشبة بعيداً وراقب كلاهما كيف حملتها الأنسام .

«ليس هناك شيء مثل إبعاد أنفسنا عن الخطر بالنسبة لرجال مثلنا . ربما تعتقد ذلك لأنك مستشار أجنبي وأنك بطريقة ما محايد في البلاط ، لكن لديك أعداء أيها الجنرال البارون ، رجال يغارون منك ويكرهون نجاحك وشعبيتك . لو لم يكن ذلك هو السبب لبحثوا عن سبب آخر» .

«يا باشا : لا تختلف سبل العمل في البلاط عن سياسات الجيش إلا بأقل القليل حيثما نظرت . نحن مضطرون بالضرورة إلى إزاحة الآخرين جانباً لتنفيذ أي عمل . من غير المحتمل أن يقوم موظفو البلاط الغيورين بالتصيد في هذه السهول هنا ، بكل الأحوال . أسوأ ما يمكن أن تتوقعه من أشباههم هو أنهم سيحاولون أن يهمسوا بالسم ضدك في أذن السلطان . هؤلاء الرجال الذين يحذرنا منهم أدهم مختلفون . إنهم صيادون» .

«وماذا بعد إذا عدت إلى استنبول؟ هل أخبىء نفسي في القصر؟ لقد رأيت بنفسك السلطان فوق سطح بيته الصغير في مؤخرة القصر ، يراقب السفن تدخل القرن الذهبي وتغادره من خلال منظاره المقرب .

ليست هذه حياة بالنسبة لي . سوف أنزل إلى الشاطئ كما فعلت على الدوام ، لن يتغير ذلك ، ما الذي يمكن أن يمنع هؤلاء الرجال من زرع قنبلة أو إطلاق نار علي في الشارع وبكل بساطة؟ يبدو أنهم وصلوا إلى هذا الحد ، ولذلك لن يشكل الذهاب إلى استنبول مشكلة لهم . الأفضل هو خوض هذه المعركة هنا في الخارج بدلاً من التسلل هروباً والأمل بأن لا يتحقق الأسوأ» .

«لقد صليت دائماً عندما يحين وقتي أن يحدث ذلك فوق ميدان المعركة» .

وقف ڤون ديرجولتز منتصب القامة .

«لن يزول الخطر أبداً ، ولكن قد لا تحين أبداً فرصة مراقبة أبنائنا وهم يقتحمون الطريق عبر قلعة ميلونا . أريد أن أراها ، وإذا كان هؤلاء . . . . . اليائسون المتهورون يريدون أن يبحثوا عنا ، سيكون العثور علينا من سوء حظهم . سأتفهم بالطبع إذا كنت ترغب في العودة أيها الجنرال البارون» .

رفع ڤون ديرجولتز يده فأحضر إليه جواده .

«يا باشا ، لقد وصلت إلى مرحلة أعتبر فيها هذا الجيش هو جيشي . لن أفوت على نفسي لحظة اختراقه» .

امتد الوادي فسيحاً تحتهما وهناك في مكان ما ، أدركا أن المعركة قائمة .

***

في تلك الليلة ، جلس هيرتزل في غرفة الفندق الضيقة ببيت لحم إلى الطاولة الصغيرة في الزاوية ، وكتب رسالة إلى روثتشايلد على ورقة من قرطاسية الفندق . جلس للحظات والريشة تحوم في يده قبل أن يخط كلمة واحدة . فهذه هي المرة الأولى التي يتمكن فيها من تجميع

أفكاره بعد النشاط المحموم والشد العصبي الذي رافقه خلال الأسبوع الماضي وخلّف لديه إحساساً عارماً بالإجهاد. بعد الألفة التي ابداها روثتشايلد في رسالته الأخيرة، لم يعد هيرتزل واثقاً من الطريقة التي سيخاطب بها داعمه.

أخيراً انتصر عليه السخط وبدأ يكتب.

أيها البارون الأعز

نظر إلى الكلمات للحظة، مذعوراً من أنها ودودة جداً ومع ذلك مغرقة في رسميتها، ثم نفض رأسه ليلغي شكوكه واستمر.

لقد حققنا أعظم نجاح لنا. فقد وافق القيصر على أن يستخدم نفوذه مع السلطان لتأمين وطن لنا في فلسطين. لا تستطيع الكلمات أن تعبر عن مدى ارتياحي. لقد منح هو ورئيس الوزراء ڤون بولو والمستشار يولينبرج كلهم الدعم لاقتراحي أثناء اجتماعنا، وقد قال القيصر إنه سيثير المسألة شخصياً في لقائه التالي بالسلطان، والذي يتوقع حصوله في نقطة ما أثناء رحلة عودته من الليڤانت إلى المانيا.

استطرد هيرتزل ليشرح ظروف رحلته واللقائين مع القيصر. لقد أدى اطفال الكيبوتز دورهم بشكل كامل، وهو على ثقة الآن من أن الملك الألماني لن يدخر جهداً ودعماً لما سيكون في نهاية المطاف، قطعة صغيرة من ألمانيا داخل الامبراطورية العثمانية.

تساءل للحظة عما إذا كان لم يكثر الشرح. لكنه نفى الفكرة بنفس السرعة التي دخلتها إلى رأسه. لا يستطيع أحد أن يصل إلى أي مكان في الدنيا بدون مساعدة الآخرين. فقد احتاج إلى داعمين ليحقق لكتابه النشر، ثم إلى رجال ذوي إرادة صلبة مثل روثتشايلد حتى ينظر الناس إليه بجدية عندما لم يتمكن الحالمون من إيصاله إلى مكان ما.

استغرب من دوافع رجال مثل نيولينسكي، وفكر في أوقات

أخرى بمدى عقلانية هيكلر، لكن الأبواب لن تنفتح من تلقاء نفسها. لقد شاهد النظرة المرتسمة على وجه بولو لحظة دخوله على مقر القيصر في الفندق. في غياب النفوذ، وبدون دعم خلفه، فإن رجالاً مثل بولو لا يمكن أن يتنازلوا لمجرد النظر إلى صحفي مثل هيرتزل. وذلك في نهاية المطاف، هو مقام هيرتزل، رجل كلمات بسيط. لكنه أصبح الآن شيئاً آخر. فقد استخدم البارون صفة «موسى الجديد». اذاً لا بد من أن يحرص على أن لا يسبب هذا الوصف الغرور.

ومع ذلك بقي لديه شك مناكف بأنه قد قدم للقيصر أكثر مما ينبغي. ولكن على كل حال، لم يكن هناك شيء آخر. لأن القيصر لا يمكن أن يغامر بعلاقته بالسلطان بدون وجود مصلحة له في المشروع. فهو لا بد وأن يحصل على شيء من النتيجة. سيتفهم ذلك كل من روثتشايلد ونيولينسكي وحتى هيكلر. كل ما تبقى الآن أن يتمكن القيصر من تقديم قضيته إلى السلطان بطريقة مقنعة وأن يرمي بكامل ثقله خلفها. ذلك هو كل شيء.

أنهى رسالته إلى روثتشايلد وتركها على الطاولة ليتم إرسالها في الصباح. لقد أخذت الحرارة وتعب السفر وعلى الأخص الجهد الذهني الذين أخذته الرحلة منه مأخذها، ما يعني أن سرير الفندق أصبح ملاذاً مرحباً به. سوف يتناول إفطاراً ضخماً في الغد ويستمتع ببقية وقته في الأرض التي سرعان ما ستصبح موئلاً للآلاف من قومه. لقد تم إنجاز عمله للوقت الحالي.

***

«أنت هادئ يا مويلز».

أبطأ روستوف حصانه ليتراجع إلى حيث يمشي مويلز الهوينا خلف رفاقه الثلاثة.

«ليس هناك الكثير مما يقال يا روستوف» .

«هل ربما أنت غاضب؟» .

«لست غاضباً ولكن هل كانت هناك حاجة حقيقية لقتل هذين الرجلين؟» .

«ما كنا لنخاطر بأنهما قد يخبران مسؤوليهما أنهما شاهدا أربعة رجال على ظهور الجياد يخرجون من الخطوط اليونانية . كان لابد من ذلك الإجراء» .

«أما كان ممكناً إخراجهما من طريقنا بوسيلة أخرى؟ نقيدهما ونتركهما بين الأشجار حتى يعثر اليونانيون عليهما؟» .

نظر روستوف نظرة قريبة من الشفقة باتجاه مويلز

«لن يعود اليونانيون من ذلك الاتجاه . أنت تعرف ذلك فقد رأيتهم . ذلك جيش مهزوم . هذان الرجلان هما العدو» .

«لقد كانا جنديين يا روستوف : نحن لسنا قتلة» .

«سوف نتسلل إلى هدفنا ونستغل السانحة لقتله ، وربما عدد لا بأس به معه في الوقت نفسه . ألا يعتبر هذا قتلاً؟» .

«تلك هي الأوامر يا روستوف» .

«حقيقة . أوامرك تقضي بأن تصل إلى هدفك وهو حي وغير مأسور ثم تقوم بتصفية ذلك الهدف . أليس الوضع هكذا؟ كان هذان الرجلان قادرين على العثور علينا لحظة عودتنا إلى منطقتهم . كانا سوف يتسببان في تعقبنا والقبض علينا كجواسيس» .

اتخذ فم مويلز شكل خط مشدود ونظر تحته إلى الأعنة في يديه .

استطرد روستوف «كانوا سيخلعون هذه الألبسة عن اجسامنا ثم يعذبوننا . ثم يطلقون النار علينا ويلقون بنا في أقرب حفرة هذا إذا كنا محظوظين . أو ربما عرضوا أجسادنا العارية في ميدان بلدة ما ، مدلين

من خطاطيف اللحم مع عبارات تحذير حول رقابنا» .

«ليس هذا المقصود يا روستوف ، هناك أسس وقواعد . . . .» .

«أوه ، أظن أن هذا هو المقصود يا مويلز . أنت تعرف الحقيقة ولكنك لم تعترف بها بعد . انظر إلى هذين الاثنين أمامنا . ليسا سعيدين ولا فخورين بما جرى ، لكنهما يدركان ضرورة القيام به . ربما ستوافق أنت بمرور الوقت» .

«لا أظن ذلك يا روستوف» .

«أظن أن هذه الرحلة تثبت لك أنها تجربة تعليمية . يا صديقي : أنت لا تريد أن تعرف ما هو الوضع في أي سجن تركي . ذلك هو السبب في أن ثلاثتنا يريدون أن يفعلوا كل ما نقدر عليه لنبقى خارج أحدها» .

سمعوا نداء تحذير من أمامهم وخرج جنود عثمانيون من بين الأشجار على الجانبين : قال كيڤوركيان شيئاً سمعه مويلز مثل عبارة مقتضبة وهدأ الجنود .

طرح القائد وهو الأكبر سناً مرة أخرى ، سؤالاً على الأرمنيين أجابه ڤارتنيان بلهجة دمثة ، تأكد مويلز من أنه سمع كلمة ميلونا .

ضحك الرجال من كلماته وأشاروا لهم بالمضي قدماً .

سأل مويلز روستوف بمجرد أن أصبحوا خارج مدى السمع «ماذا قال لهم؟» .

«لقد التقطنا كلمة السر من الكشافين الأولين . على ما يبدو فإن كيڤوركيان قادر على أن يكون رجلاً مسلياً وممتعاً إذا أراد . لقد قال لهم فقط أن ضابطاً يتمتع بمثل سلالتك النبيلة لن يتكبر على المشاركة في ألعابهم ثم سرد لهم كيف قمنا بمطاردة اليونانيين الخونة عبر الأحراش . لقد أعجبوا كثيراً بحماسنا» ابتسم روستوف إعجاباً بالخدعة .

«إنهم متراخون بعض الشيء ، أليسوا كذلك؟» .

«إنها راحة نابعة من الثقة بالنفس . إنني أجازف بالقول إنه لو لم تكن الحرب تسير لصالحهم بدرجة ممتازة ، لما كانوا منفتحين بنصف القدر الحالي» .

«كم تبعد ميلونا؟» .

«يبدو أننا في القطاع الخطأ . يتحتم علينا أن نستدير ونتجه غرباً ، لكن ربما يكون الأفضل أن نستمر في الاتجاه شمالاً في الوقت الحالي إلى أن نجتاز الخطوط الأمامية . سيكون جنود التموين أقل رقابة في الخلف وسنكون قادرين على المناورة نحو الهدف بطريقة أفضل . كذلك لن يتوقع أحد أن يحدث هجوم من المؤخرة في هذه المرحلة من الحرب» .

«أتفق معك ، فإذا كانت نقاط مراقبتهم الأمامية بهذا الشكل ، فلا بد أن المناطق الخلفية أشبه بالملاعب في هذه الآونة» .

«ملعب» فكر روستوف في الكلمة للحظة . «ربما أنت محق بطرق أكثر مما تعتقد يا مويلز» .

لم يعد مويلز راغباً في الاستمرار بسؤاله وبدلاً من ذلك نادى على ڤارتنيان الذي تلفت حواليه بفضول واهتمام .

«هل قالوا أي شيء عن ميلونا؟» لا يحب مويلز أن لا يفهم كل ما يقال حوله . فهو يتقن اللغة الروسية وذلك أكثر مما يستطيع معظم زملائه في الخدمة أن يتباهوا به ، لكن التركية والعربية كانتا بعيدتين عن إدراكه .

«لقد سألت عما إذا كانت هناك أية أنباء وقالوا لي إنها ستكون معركة عظيمة وإنهم آسفون لأننا لن نشهدها» .

شعر مويلز بالضيق «هل أخبرتهم عن وجهتنا؟» .

«كلا بالطبع . لقد قلت بأننا ذاهبون لمقابلة العقيد المسؤول عنا بعد أن قمنا بعمليات خلف الخطوط اليونانية» .

«حسناً . حاول أن تبقي أسئلتك عمومية . لأن أية كلمة طائشة سوف تغرقنا» .

«لا داعي لأن تقلق يا مويلز . كيڤوركيان وأنا رجلان في منتهى الحرص .

***

تكاثرت نقاط الرقابة والدوريات مع تقدمهم في الطريق ، حتى وصلوا إلى نقطة يسيرون فيها على طريق ريفية ملأى بمئات الرجال الجالسين ليستريحوا . كلما سئلوا كان كيڤوركيان يتولى الإجابة بسرعة ثم يطلق ڤارتنيان تعليقاً يرغم السائل على الضحك . نظروا إلى وجوه الرجال ، وبدا كل واحد فيهم تقريباً مسترخياً . كانوا مستلقين على ظهورهم في العشب الدافئ يدخنون غلايينهم أو يمررون أكواباً من الماء أو القهوة الباردة .

ما كان للتناقض مع الجنود اليونانيين الذين رأوهم أن يكون أكثر حدة . في إحدى المراحل ، أصدر ضابط الأمر للانتظام فنهض الرجال وأعادوا تحميل لوازمهم على ظهورهم . أعيد توزيع البنادق التي كانت قد أوقفت بعناية مستندة إلى بعضها ، لأصحابها ، ثم صدر أمر ثانٍ في موعده المناسب وقام الرجال بتشكيل طابور . صرخة أخرى واستدار الرجال يساراً دفعة واحدة وصفاً منفرداً منتظرين الإشارة للتحرك . فلما جاءت مشوا بخطوة منتظمة وصمت مطبق .

أخيراً وبعد انصراف الرجال وأصبح بمقدورهم معاودة الكلام ، استدار مويلز إلى روستوف

«إنهم يمشون مثل الألمان» .

هزَّ روستوف رأسه «نحن موجودون هنا لإنهاء مثل هذه الإصلاحات» .

فهم مويلز منطق الرجل ، لكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على أن يتفق مع روستوف . كل ما قاله هو «سنرى إلى أي حد سيخدمهم هذا التنظيم في ميلونا» .

دخلوا راكبين إلى قرية صغيرة وأصبح واضحاً أنهم حالياً خلف الخطوط الأمامية بمسافة جيدة . فالجنود هنا يتصرفون باسترخاء أكثر من الجنود الذين شاهدوهم على الطريق في وقت سابق . القرية مملوءة بالعربات المحملة حتى الامتلاء بالمؤن وتكاد تنفجر لكثرة المعدات . توزع عدد قليل من الخفراء هنا وهناك ، لكنهم لم يبد عليهم الاهتمام بظهور الغرباء الأربعة على صهوات الجياد . فقد أثبتت الأزياء العسكرية التي أحضرها لهم جوريس أنها أدوات مفيدة . لم يستطيعوا أن يروا أياً من السكان المحليين على الإطلاق : فهم إما مختبئون أو هربوا إلى التلال عند اقتراب الجيش العثماني . شاهد مويلز بضع لافتات في ساحة القرية ، لكن الحروف اليونانية بدت له أكثر غموضاً من الأحاديث التي استرق السمع إليها بالتركية .

مسح كيڤوركيان الساحة بعينيه وتفحص الأبنية المختلفة ، ثم استدار باتجاه الآخرين وأشار برأسه ناظراً بعيني روستوف . هزَّ روستوف رأسه فلكز كيڤوركيان حصانه ودار حول بعض العربات ثم اختفى عن أنظارهم . أحضر الثلاثة الآخرون جيادهم إلى مضخة ماء القرية وسمحوا لمطاياهم بالشرب من الحوض . في هذه اللحظة ، أخذ بعض الخفراء يرمقونهم بنظرات أكثر تمحيصاً ، لكن أياً من هؤلاء الفتية لم يوقفهم أو يلقي عليهم أسئلة . ترجل ڤارتنيان وشغَّل المضخة ممسكاً بمطرته تحت التيار . ملَّ الخفراء وابتعدوا وهم يتمتمون لبعضهم بعضاً

بهدوء . بمجرد امتلاء المطرة ، قدمها ڤارتنيان إلى مويلز أولاً ثم إلى روستوف فهز كلاهما رأسيهما ، أدارها إلى فمه وشرب وكأنه قد جفَّ من العطش . بعد أن أفرغها ، انحنى فوق المضخة ليعيد ملأها .

راقبه مويلز بغير اهتمام ، بينما ركَّز روستوف اهتمامه على العربات المتنوعة . كان يمكن سماع الرقباء وهم يتجادلون فيما بينهم ، وخرج أحدهم مسرعاً من مبنى كان حتماً فيما مضى حانوت نبيذ القرية . دار حول العربة ممسكاً بسجل سميك ، وأجفل قليلاً حينما شاهد ما بدا مثل ضابطين على جواديهما يحدقان إلى الأسفل حيث هو . بادله روستوف التحديق بثبات ، فطأطأ الرجل رأسه بعصبية وتفحص العربة للحظة عابرة ثم أسرع عائداً إلى داخل الحانوت . استمر ڤارتنيان في تشغيل المضخة .

عاد كيڤوركيان بعد بضع لحظات حاملاً كيساً قماشياً وسخاً على كتفه وصاح بخشونة على ڤارتنيان بالأرمنية . رفع ڤارتنيان المطرة ليتأكد من امتلائها بنظرة مرحة ثم أعاد إغلاقها بالفلينة وقفز إلى ظهر جواده ، وبعدها أصبح الجميع خارج القرية يمشون خبباً وسط الريف .

ثار فضول مويلز وسأل بمجرد أن أصبح خارج مدى سمع أي من الخفراء «ماذا لديك هناك يا كيڤوركيان؟»

«وجبة الغداء يا مويلز! ألست تشعر بالجوع بعد كل هذا الركوب والهواء النقي؟» .

قرقرت معدة مويلز وأدرك أنه يشعر بالجوع أكثر من أي وقت منذ مدة طويلة . بمجرد أن عثروا على منعطف مهجور في الطريق ، ترجلوا وربطوا الجياد . قلب كيڤوركيان الكيس وأفرغ محتوياته على العشب . سقط منه أرغفة خبز أبيض طازج وما شابه الجبنة وسجق وتشكيلة من الفواكه إضافة إلى الزيتون المخلل .

تحلق أربعتهم بجانب الطريق يمضغون الطعام بصمت . أخرج ڤارتنيان قنينة أخرى من كيس سرجه . خطر ببال مويلز أنه لو لم يتواجدوا في منطقة حرب ومعرضين لخطر القتل كجواسيس ، لكانت هذه واحدة من أفضل النزهات التي استمتع فيها .

حبات العنب باردة وحلوة المذاق بدرجة ملحوظة ، والجبنة طرية ويمكن نشرها على الخبز ذي القشرة بسهولة . جلسوا مسترخين قانعين تحت دفء الشمس ويمررون القنينة بين بعضهم فيما أصبح عادة لهم ، غارقين في أفكارهم الخاصة .

كسر روستوف الصمت أخيراً «لقد أبدعت يا كيڤوركيان» .

أطلق كيڤوركيان ابتسامة صغيرة «أشكرك يا روستوف . أنت تعرف أنني أشعر بالسرور حينما تكون أنت مسروراً» .

استطرد روستوف «أنت تحسن التحرك بين الأتراك» .

كان كيڤوركيان متكئاً إلى الوراء مغمضاً عينيه وقد ارتسمت على محياه نظرة رضى ، لكنه فتح عيناً واحدة ونظر بها إلى روستوف أمامه .

«إنني مقدِّر لإعجابك» .

«لقد كنت أعجب مما إذا كانت الشجاعة التي أبديتها في بليڤنو ما زالت موجودة ، لكن الواضح انها كذلك» .

استمع ڤارتنيان ومويلز إلى هذا الحوار بصمت ، ولا أحد منهما يعرف إلى ماذا سيؤدي .

جلس مويلز واضعاً يديه على رقبة حذائه ، بينما مرر ڤارتنيان يده اليسرى فوق لحيته غير المحلوقة وحمل القنينة باليمنى .

استند كيڤوركيان في جلسته ببطء يكاد يكون حذراً وقد فتح كلتا عينيه .

«أنت لطيف جداً يا روستوف . نحن جميعاً مدركون للمهارات

التي تجيء بها أنت إلى هذه المهمة الصغيرة» .

«لكن مهاراتي أصبحت الآن في الدرجة الثانية لمهاراتك يا كيڤوركيان . وإذا كنا سننجح في اعتراض طريق هدفنا بدون لفت أي انتباه غير ضروري أو إضاعة الوقت في البحث عنه فسوف نحتاج إلى معلومات» .

الفصل السادس والعشرون

مرة أخرى عثر عليهم الفجر في حفرة أخرى على مسافة بجانب الطريق . لم يكونوا بحاجة إلى الركوب لمسافة طويلة : في الواقع ، لو فعلوا لخاطروا بمصادفة دورية قادمة . الأفضل هو الاختباء وانتظار الفجر لتفحص الوثائق التي أحضرها كيڤوركيان . فقد نجح في التسلل إلى المعسكر في الليل وإحضار عدة وثائق وحقيبة جلدية من خيمة ڤون ديرجولتز بينما كانت هيئة الأركان العليا مجتمعة في مقر إقامة حلمي باشا للتشاور .

تسلل كيڤوركيان إلى المعسكر بعيد الواحدة من ذلك الصباح . انتظره الآخرون على مسافة قريبة ، عبر حفرة في وسط حقل . اختبأوا خلف شجيرة ضخمة قرب مدخل الطريق ، حتى إذا مرت بهم دورية ما ، يكونوا مختفين لكنهم بنفس الوقت سيكونون قادرين على الفرار بسرعة بمجرد عودة كيڤوركيان إليهم .

تواجد العديد من الخفراء يدورون حول محيط المعسكر ، لكنهم كانوا متفرقين إلى حدٍّ ما ، واستطاع كيڤوركيان أن يكتشف كل واحد منهم من أنوار الشعلات المنصوبة خلفهم . وصل هو والآخرون والأخرين إلى أقرب مسافة شعر أنها منطقية بعد هبوط الظلام .

عثر الأربعة سوية على بقعة مرتفعة قليلاً وسط سياج من الشجيرات راقبوا من خلفه تحركات الخفراء في مجيئهم وذهابهم لساعات .

عبر كيڤوركيان من تحت بضعة خطوط للأسلاك الشائكة التي تحد المعسكر زحفاً على بطنه وحده، متحركاً ببطء شديد وسط الأوحال. استمتع ڤارتنيان في وقت سابق بتلطيخ وجه كيڤوركيان بطلاء الأحذية الأسود قبل أن يودعوه ويكاد خفير ما أن يتعثر به قبل أن يمكن رؤيته.

سأله مويلز «هل أنت واثق من أنه ڤون ديرجولتز نفسه؟» وقد جاء صوته همسة في الظلام.

«إنه هو بنفسه. فقد سمعت الألماني عندما تحدث مع مساعده في البداية، ثم شاهدت وجهه».

قال روستوف «في هذه الحالة فإنني أتوقع أن تكون زوراقه ممتلئة بمواد قراءة ممتعة لنا».

قال مويلز «ولكن على كل حال هناك مشكلة واحدة».

«ما هي؟».

«هل تتكلم أنت الألمانية؟».

أكَّد الصباح مخاوفه. بالنسبة لمجموعة مثلهم خبيرة باللغات بقدر خبرتهم، فقد صارع الأربعة لفهم كلمة واحدة من اللغة التيوتونية المكتوبة على الوثيقة التي سرقها كيڤوركيان.

«ألا تتشارك الإنجليزية مع الألمانية في العديد من الكلمات يا مويلز؟ مثل الإيطالية والفرنسية؟ حتماً يمكنك أن تترجم بعضاً من هذا». ناوله ڤارتنيان حفنة من الأوراق، ناظراً إليه باستجداء.

بالنسبة لدور كيڤوركيان، فقد جلس يحدق في صفحة واحدة، وكأنه لا يصدق تماماً المخاطرة التي أقدم عليها مقابل ربح زهيد كهذا.

«دعونا نرى: كريج تعني الحرب» قال مويلز مدركاً انه انما يتعلق بالقشات. «ومينش تعني رجل أو شخص أنا واثق من ذلك.

جريشيش واضح أنها تعني يوناني . . . .» .

توتر روستوف «هل يحتمل أن يعني ذلك أن الشعب اليوناني في حالة حرب؟ أخشى أننا سنحتاج إلى شيء أكثر تفصيلاً من هذا» .

جرَّب مويلز مقاربة جديدة «واضح أن هذه الأوراق ليست رسمية : إنها تبدو مثل نوع من التقارير . أغامر بالقول أن الجنرال يرغب في الحصول على كتاب آخر من هذه الحرب . ڤارتنيان ، ابحث في الكومة التي لديك وحاول أن تعثر على وثيقة بعنوان مطبوع ، وليس مثل هذه الصفحات البيضاء المكتوبة بخط اليد» .

تفقد ڤارتنيان الأوراق التي يحملها في يده ثم بحث داخل الحقيبة . سحب حفنة أخرى وقلَّبها أيضاً . رفع صفحة تحمل الصفة الرسمية وهو يبتسم .

«هل تريد شيئاً مثل هذه مثلاً يا مويلز؟» .

أمال مويلز رأسه متفحصاً ورأى ما كان يبحث عنه .

«هذا هو . هل هي بالألمانية يا ڤارتنيان؟» .

«هي كذلك ولكن ما هذا الذي تحتها؟» حرَّك ڤارتنيان الورقة بنعومة فخرجت في يده من تحتها ورقة أخرى . كانت ملصقة بالأخرى بنوع من الصمغ .

قال «إذا لم أكن مخطئاً ، فهذه باللغة التركية» . وهو يرفعها .

اقترب روستوف وكيڤوركيان وبدأ ثلاثتهم يتفحصون الكتابة ، يهمهمون لأنفسهم ويشيرون إلى كلمة ما بين الفينة والأخرى .جلس مويلز على العشب ينتظر بينما هم يتشاورون .

فقد بدت له الأحرف كلها متشابهة مثل أي حرف غير روماني . خربشات على الصفحة بالحرف العربي . بعد حوالي دقيقة ، توصل الثلاثة إلى ما بدا مثل توافق ، فمال مويلز إلى الأمام .

«تقول إنهما خارجان هذا الصباح . على ما يبدو أنه الترتيب المعتاد ، أي حلمي باشا وڤون ديرجولتز بالإضافة إلى جهازهما الوظيفي وطاقم الحراس الشخصيين» .

غرق روستوف في تفكير عميق وهو ينقل المعلومات الجديدة إلى مويلز .

«هل تبين الوثيقة الطريق التي سيسلكونها؟» .

«نعم . إنهم ينوون التحرك صعوداً إلى الجبهة حيث يقوم الجيش الرئيس بمحاصرة ميلونا» .

«هذا ما نأمل فيه بالضبط ، لكنهم الآن يعلمون بوجود هذه الأوراق بين أيدينا ، فهل سيغيرون طريقهم أو خططهم؟» .

كان روستوف مقعياً فارتمى إلى الخلف على عقبيه ، غارقاً في تحليل الموقف داخل رأسه .

«ذلك هو السؤال يا مويلز ، هل سيغيروا؟» .

***

في وقت لاحق من ذلك الصباح ، رقد مويلز وروستوف على المرتفع الحاد بين الأشجار ، يحدقان في الامتداد القصير للطريق تحتهما . تبادلا تمرير المنظار الميداني المقرب بينهما وانتظرا . لم يتمكنا من رؤية ڤارتنيان على الأرض تحتهما ، فقد اختبأ بين الأشجار والشجيرات . كان راقداً على مستوى الطريق ومعرضاً للخطورة أكثر منهما بكثير ، لكنه رفض أي وضع آخر أثناء تصميمهم للخطة . هما يعرفان أن كيڤوركيان جالس إلى يسارهما فوق أحد الأغصان قبيل المنعطف ، ينظر إلى الأسفل وينتظر .

اختاروا هذا الامتداد بسبب بعده النسبي ولأنه بمجرد التفاف المجموعة المتحركة حول المنعطف وركوبهم صعوداً إلى الامتداد القصير

نحو المنعطف التالي ، فسوف يصبحون محصورين بين المرتفع الحاد إلى يسارهم والأشجار الكثيفة إلى يمينهم .

اتفق كل من روستوف ومويلز على أنها منطقة قتل طبيعية . كذلك فإن إخفاء الأرمنيين كل في طرف يعني أن الجماعة ستكون محصورة عندما يأتي الهجوم مثل حوت مسحوب إلى الشاطئ .

ذلك إذا جاؤوا .

سأل روستوف «هل تعتقد أنهم سيعرفون بأننا عثرنا على الأمر بين الأوراق؟» .

«لا أدري . سيعرفون أن شخصاً ما قد سرق أوراق الألماني ، وأنه ربما كانت الأوامر بينها . الحذر الطبيعي يعني أنه يتوجب عليهم تغيير خططهم . من الناحية الأخرى ، إذا أرادوا أن يذهبوا إلى ميلونا والمعركة ، فهم مضطرون إلى المرور من هذا الطريق . لا أرى أي إمكانية أخرى» .

«ماذا ستفعل يا مويلز إذا فكرت أن شخصاً ما يعرف خططك؟» .

«لست واثقاً يا روستوف ، أنا لا أنتمي إلى هذا الجزء من العالم . لم تشيَّد امبراطوريتنا بالركوب مباشرة إلى وسط قتال بالنيران» .

«أما امبراطوريتنا فقد بنيت كذلك» .

ابتسم مويلز وهزَّ رأسه . عاد إلى النظر من خلال منظاره وقد أدفأت الشمس ظهره .

«إذاً ربما يكون هذا سبباً لأن نعمل سوية يا روستوف . ربما نتمكن فيما بيننا أن نجد التوازن الصحيح» .

«أنا أعتقد أنك تنوي على عمل شيء ما يا مويلز» . مضغ روستوف قطعة من العشب الجاف للحظة وهو سارح في التفكير . «هل تعتقد أن ڤارتنيان يمكنه أن يصمد حتى يتجاوزوه؟ لقد أظهر لنا ما

يمكنه أن يفعله ، لكنني لست متأكداً من قدرته على الصبر» .

«سوف يرغب في قتل أكبر عدد ممكن : وقد أوضحنا له أنه إذا أراد أن يفعل ذلك فهو مضطر إلى اتباع الخطة» .

«لقد أبدى منتهى الحماس لتولي أكثر المواقع خطورة» .

«لنأمل أن يتمكن من السيطرة على ذلك التوق في حال حضورهم» .

رفع روستوف يده طالباً المنظار ورفعه إلى عينيه مرة أخرى ، ناظراً إلى نفس الامتداد في الطريق تحته . أخذت الشمس ترتفع في السماء وبدأ النهار يصبح أكثر دفئاً .

لاحظ مويلز أن الغيوم تنقشع بحلول الظهيرة ويصبح الجو بعدها جميلاً . نظر إلى ذراعه وقد رفع كم القميص عنها استعداداً للعمل القادم فلاحظ أنه قد اكتسب سمرة محببة عبر الأسابيع الماضية . أشعره ركوب الخيل وطعام البحر الأبيض المتوسط البسيط بقدر من السعادة لم يعد يذكره منذ أيام لهوه في جامعة إيتون .

قاطع صوت اقتراب الخيول حلمه النهاري وتوتر هو وروستوف على الفور .

خفض رأسه برد فعل غريزي وسحب ذقنه إلى الداخل وهو يراقب بينما دار أول المرافقين حول المنعطف تحته . كتم أنفاسه حينما عبروا نقطة اختفاء ڤارتنيان ، وهو يكاد يصلي أن يحتفظ الأرمني بنفسه مخفياً عن الأنظار تحت أوراق الشجر .

على أية حال ، لم تحدث أي حركة وتمهل الفارسان الأوليان إلى سرعة الخبب .

جاء بعدهما فارسان آخران ثم مجموعة أكبر ، أحصى منها مويلز قرابة خمسة عشر فارساً في المجموع . تمهلوا في سيرهم لدرجة ادرك

معها أنهم ينتظرون شخصاً ما .

قال لروستوف «ها قد جاء دورنا» . كانت بندقية الروسي ممدودة من كتفه بموازاة الأرض فمد ذراعه الأيمن وتناولها ثم أدارها بمنتهى البطء في الاتجاه المطلوب وأدار جسمه إلى وضعية إطلاق النار . أخرج مويلز مسدسه ووضعه إلى جانب بندقيته التي كان يمسكها من جهة المقبض . قرر أن لا يتحرك إلا عندما يضطر إلى التحرك .

اقترب المزيد من الجياد ، وظن مويلز لوهلة أنه شاهد حركة من بقعة ڤارتنيان .

التفت إلى موقع كيڤوركيان في الجهة المقابلة ، لم يكن هناك شيء يتحرك مطلقاً .

أصبحت المجموعة الجديدة أقرب الآن ، أفرادها يطردون خيلهم بسرعة . انهمكت المجموعة المتقدمة في تفحص الشجيرات والنباتات الأخرى ثم برفع عيونها لتتفحص الممرات من فوقها ، لكن أفرادها عادوا الآن لينتظروا أن تقوم بقية المجموعة بعبور المنعطف . منعت الشمس التي سخَّنت ظهرَي مويلز وروستوف الكشافة من رؤية وجودهما . هدرت مجموعة من أكثر من عشرين فارساً فجأة عابرة المنعطف ومتجهة صعوداً نحو المنعطف الثاني .

افترق أفراد المجموعة الأولى ليسمحوا لهؤلاء بالمرور ثم لحقوهم .

استغرق مرورهم واختفاؤهم عن الأنظار بضع ثوانٍ ، لكن مويلز بات على ثقة من أنه شاهد الزي الأزرق وإشارات رتبة الباشا ، بالإضافة إلى أزياء الميدان الرمادية التي لا يمكن إلا أن تكون لڤون ديرجولتز وجماعته من الألمان في وسط المجموعة . رفع بندقيته وسدَّد متسائلاً عما إذا كان كيڤوركيان يرى من عشه في الأشجار ما يراه هو .

لم يضطر إلى الانتظار طويلاً . بمجرد أن اقترب الفرسان الأوائل

من المنعطف الثاني ، انفجر اللغم مبعثراً الرجال والجياد على الطريق الضيقة . لم يتمكن الفرسان القادمين خلفهم مباشرة من إيقاف مطاياهم بالسرعة المطلوبة فتعثرت مجموعة الخيل الثانية بأجساد الأولى وتزحلقت وتعثرت . أطلق كيڤوركيان النار حسب الخطة الموضوعة ، فأصاب ضابطاً ألمانياً يبدو عليه الذهول في صدره وقتله . أدرك مويلز وڤارتنيان أن دورهما حلّ وباشرا بإطلاق النار على من ظل راكباً من المجموعة . كان هناك قرابة عشرين ممن تمكنوا من البقاء في سروجهم ، يدورون ويصرخون بكلمات غير مفهومة .

لم يكن من الصعب إصابتهم . عندما رأى أحد الضباط رجلين آخرين يسقطان من نيران مويلز وروستوف الابتدائية ، اختار الجزء الأفضل من الشجاعة وانطلق عائداً من حيث أتى . تبعه الآخرون دفعة واحدة بمن فيهم الباشا .

أشغل كيڤوركيان نفسه بالقضاء على أي من الناجين أصحاب الحظ السيىء الذين نجوا من الانفجار وهم يحاولون النهوض على أقدامهم متعثرين ، فلما لم يعد ير أحداً حياً ، نقل نيرانه إلى المجموعة المنسحبة والتي أخذت تبتعد عنه . استمر صديقاه من فوق المرتفع في رشق المنسحبين أثناء طرادهم من تحتهما مباشرة . عثرت كل طلقة على هدف لها .

في اللحظة التي عادت فيها البقية الباقية إلى المنعطف وظن أفرادها أنهم قد نجوا . فجّر ڤارتنيان اللغم الثاني وسحب سلك الإعثار . لم يبقَ فارس في سرجه هذه المرة .حاول أفراد البقية الباقية على قيد الحياة أن يسحبوا أسلحتهم ، لكنهم تلقوا النيران من اتجاهات مختلفة ولم تعد لديهم أي فرصة في هذه اللحظة . تراجعت حدة إطلاق النار تدريجياً حتى توقفت وسرعان ما توقف حتى زعيق الخيول الجريحة

فقد أثخنت فيهم الإصابات من الانفجارين بحيث فقدوا الأمل على ما يبدو .

انتظر مويلز وروستوف بضع لحظات حتى يعم السكون ويطمّنوا نفسيهما بأن العملية انتهت . تبادلا نظرة وهزا رأسيهما . نهضا وعاينا المشهد . استطاعا أن يشاهدا الضحايا الأول متكومين وقد ماتوا جميعاً . ثم ارتمى الآخرون الذين تمكنوا من إسقاطهم عن سروجهم أثناء محاولتهم الهروب منتشرين على الطريق . تمددت أكبر مجموعة في زاوية ڤارتنيان ، فقد جاء توقيته دقيقاً لدرجة قضت على كل إمكانية للفرار . أخذا ينزلان بحذر منزلقين عن المنحدر المليء بالحصى نحو الطريق .

جاء كيڤوركيان ماشياً نحوهما ، يختار سبيله من بين الجياد والرجال المحطمين عند قدميه .

أبقى البندقية مسددة إلى أسفل من جهة وركه : ليطمئن إلى أن أحداً منهم لن ينهض مرة أخرى . خرج رأس ڤارتنيان من بين الشجيرات ورفع يده اليمنى في تحية . أصبح كل شيء على ما يرام . احتفظ مويلز بمسدسه في يده من باب الحذر فالإمكانية قائمة في أن ينهض أحد الجرحى وينتهز الفرصة ليطلق النار ، خاصة إذا تخلى مهاجموهم عن الحذر في هذه اللحظات .

صدر أنين من بين الأجساد في المقدمة وكأنه جواب على أفكاره . تحرك ڤارتنيان بخفة تجاه الصوت رافعاً بندقيته على كتفه . ألقى نظرة على الرجل الجريح للحظة قبل أن يطلق النار .

ترددت أصداء الطلقة فيما أصبح الآن هدوء الصباح ، وكأنها فكرة مستعادة في أعقاب المذبحة التي وقعت قبل مجرد لحظات . نظر إلى مويلز وهزّ رأسه . أعاد إليه مويلز البادرة ، ثم اقترب هو وروستوف إلى

حيث يمكنهما رؤية ضباط القوة الراقدين سوية .

برزت من بينهم علامات رتبتي الباشا والجنرال الألماني . أحسَّ مويلز بشعور الترقب لدى الآخرين كما هو لديه . رقدت الجثتان متلاصقتين جنباً إلى جنب ، الباشا وجهه إلى أسفل والألماني على جانبه . ركع روستوف وحدَّق متمعناً في وجه الجنرال . كان سليماً من الانفجار والسقوط عن الجواد بدرجة ملفتة . تعجَّب بغياب ذهني مما إذا كان الوجه قد تحول إلى اللون الرمادي بسبب اختفاء الشمس خلف سحابة عابرة .

قال «مويلز ، يجب على ڤون ديرجولتز أن يرتدي نظارة طبية بسبب قصر النظر لديه ، صحيح؟» .

احتاج مويلز إلى لحظة حتى يرد بالإيجاب .

قال روستوف متفكراً «يمكن طبعاً أن تكون قد سقطت» . وتابع التحديق بحدة في الوجه الراقد أمامه . كان كيڤوركيان قد وصل إليهما ، فوقف هو وڤارتنيان على مسافة إلى الخلف بينما اقترب مويلز وركع بجانب روستوف .

قال «هذا ليس ڤون ديرجولتز» .

حدَّق ڤارتنيان من فوق كتفيهما قائلاً «وماذا عن الباشا؟» .

نهض روستوف ومد يديه ليقلب الجثة . لم يكن الوجه هو الذي درسوه في الصورة أثناء وجودهم في انجلترا .

قال روستوف «لا أدري ولكن لا يمكن أن يكون هناك باشا آخر يتجول في هذه المنطقة مع جنرال ألماني» .

قال كيڤوركيان «هل يكفي أننا قتلنا كل هؤلاء الرجال؟ من الذي يهتم إذا لم يكن هذان حلمي باشا وڤون ديرجولتز؟ فلنخرج من هذا المكان قبل أن تصل دورية أخرى» .

قاطعته طلقة أخرى وصدى آخر . راقب رفاقه الثلاثة دائرة حمراء تظهر على صدره ثم تبدأ بالنمو إلى الخارج . اختفى كل تعبير في وجه كيڤوركيان وانفتح فمه ثم أغلق وكأنه يحاول أن يتكلم . نظر إلى تحت حيث الثقب في قميصه ثم رفع يده ليلمس الدماء وكأنه لا يصدق ما يراه تماماً .

جاء رد الفعل الأول من روستوف . ارتمى على الأرض منبسطاً وزحف نحو الشجيرات الواقعة خلفهم مباشرة . أدار ڤارتنيان بندقيته باتجاه المرتفعات التي جاءت الطلقة منها ، وفجأة أصبحوا هناك . اصطفت كتلة من الرجال فوق الحافة الصخرية حيث اختبأ مويلز وروستوف في البداية ، وأصبح من السهل رؤيتهم والبنادق التي يشيرون بها إلى أسفل بكل وضوح . رفع مويلز مسدسه بدوره لكنه أدرك أن الوضع ميئوس منه . بقي كيڤوركيان يحدق في الدماء على يده حتى خارت قواه وسقط على ركبتيه .

بدا وكأن سقوطه قد أيقظ شيئاً ما بداخل ڤارتنيان الذي هجم باتجاه المرتفع ، هادراً ويطلق النار بتهور . فكر مويلز *يا لك من رجل مجنون* . ارتمى خلف بعض الجثث المتكومة بحثاً عن الحماية وبدأ يطلق النار وهو يفكر أنه مجنون ولا بد بدوره لمجرد محاولته الرد على النار .

وقف كل من حلمي باشا وڤون ديرجولتز فوق المرتفع الصخري يراقبان هذه الوقفة الأخيرة . لم تقترب الرصاصات القادمة من تحت من أي منهما بأية درجة . وصل ڤارتنيان إلى مسافة عشرة أقدام من المرتفع حينما أعطى الباشا الإشارة بهزة من رأسه .

زمجر ڤون ديرجولتز بالأمر «أطلق النار» .

أخرست الصلية ڤارتنيان وسقط إلى الخلف على الطريق . أحسَّ مويلز بصدمة من رصاصة في مكان ما من نصفه السفلي أدت إلى

إصابته بالشلل . استمر في تسديد مسدسه باتجاه المرتفع ، لكن أصبعه أبى أن يسحب الزناد . أحسَّ بالتعب في هذه اللحظة ، وتدلى رأسه كما لو كان طفلاً . قاوم الشعور قدر استطاعته ، لكنه استسلم في نهاية الأمر ، وكأنه على وشك النوم . كان شعوراً مدهشاً .

الفصل السابع والعشرون

فيما بعد ، تمشى حلمي باشا وڤون ديرجولتز في الأنحاء يتفقدان المشهد ، فيما يشابه ما فعله قتلتهما المحتملون قبل وقت قصير .

«لو أننا وقعنا وسط هذه النيران المتشابكة ، لما كان بوسعنا عمل الكثير يا باشا» . قال ڤون ديرجولتز .

«لا ، لا شيء» كان حلمي باشا واقفاً فوق جثة كيڤوركيان الذي أصبح الآن واحداً من العديد الراقدين فوق الامتداد القصير للطريق . استدار نحو عريف صغير السن جاء راكضاً وأدى التحية «هل هناك أية إشارة على وجود الرجل الرابع حتى الآن؟» .

«لا شيء يا سيدي . إنهم يكملون البحث في الأحراش خلفنا وقد انتشروا باتجاه البيوت الزراعية الموجودة أبعد إلى الخلف» .

«حسناً اعثروا عليه . يفترض أنه قد تم إغلاق هذه المنطقة . كيف يستطيع رجل أن يخترق محيطاً في منطقة حرب؟» .

بدا على العريف الإحراج فحدّق في قدميه .

«وماذا عن الشخص الذي ما زال حياً؟» أومأ ڤون ديرجولتز برأسه إلى حيث كان مويلز يتلقى العلاج من قبل طبيب عسكري . أحاط به أربعة جنود مشهرين حرابهم باتجاهه ، لكنه بات جلياً أن الرجل الجريح لا يشكل أي تهديد . فقد استلقى على ظهره ولم يعد يتحرك .

«يحاول الطبيب أن ينعشه ، لكن ليس لديه الكثير من الأمل لأن يصمد طويلاً . لقد نطق ببعض الكلمات عندما بدأ يعود إلى وعيه» .

نظر إلى الخلف «إنهم يعتقدون أنه الإنجليزي» .

نظر حلمي باشا إلى جسد مويلز المسجى باهتمام متجدد .

قال ڤون ديرجولتز «اطرحوا عليه أسئلتكم ما دمتم قادرين ثم احرصوا على أن لا يعود يسمع منه شيء» .

حدّق فيه حلمي باشا بحدة للحظة ثم استدار نحو العريف وهزَّ رأسه «احرصوا على تنفيذ ذلك» .

أدى الشاب التحية مرة أخرى ومشى مبتعداً .

قال ڤون ديرجولتز «لا يستحق الجواسيس والقتلة سوى نوع واحد من العدالة يا باشا» .

«تلك هي الطريقة التي تنفذ بها الأمور أيها الجنرال البارون» .

راقب حلمي باشا بينما تمَّ رفع مويلز من تحت ذراعيه وسحبه عن الطريق إلى جهة الشجيرات . كانوا قد ربطوا عقدة الشنق مسبقاً والقوا بالحبل فوق غصن يبدو قوياً .

سأل ڤون ديرجولتز «هل تظن أننا سنحصل منه على أي شيء؟» .

«يؤسفني القول إن الاحتمال هو كلا . إذا كان هو الإنجليزي فما هي احتمالات أن يتكلم اللغة التركية؟ ربما يكون لديك حظ أوفر لو حاولت أن تكلمه بالألمانية» .

«إن مساعدي هيلموت يتكلم قليلاً من الإنجليزية» .

تلفت ڤون ديرجولتز حواليه ثم أطلق الأمر للصبي ليحضر إليه . اتسعت عينا هيلموت وهو يصغي إلى تعليماته ، لكنه تحرك باتجاه حشد الجنود المحيطين بمويلز بهيئة الواثق .

كانت العقدة قد وضعت حول رقبة الأسير ، وقد أوضح أحد الضباط ما سيحدث إذا لم يبدأ بالكلام . أصيب مويلز بالذعر إلى درجة واضحة ، لكنه بقي على صمته . مشى هيلموت ببطء عبر

الجنود العثمانيين حتى وصل إلى مسافة قريبة تمكنه من الهمس للسجين . أمسك به حارسان وكأنه على وشك الانتفاض ومحاولة الجري هارباً . في الحقيقة ، فقد أدت الرصاصة في ظهره عملها ، وما كان ليتمكن من مجرد الوقوف بدون مساعدة . تدلّت ساقاه أسفل خصره بدون حياة .

«هل يقدر رجلك هذا على تحمل المشهد أيها الجنرال البارون؟» سأل حلمي باشا .

«إن هيلموت فتى صلب لكنه يفتقر إلى الخبرة ، وهو مضطر إلى تعويد نفسه على هذه الجوانب من الحرب إذا كان مقدراً له أن يتسلم منصباً قيادياً في يوم ما» .

لم يقدرا على سماع أي شيء يقال من هذه المسافة ، لكنهما راقبا باهتمام بينما تكلم هيلموت بهدوء وأدب إلى السجين الذي هزَّ رأسه نفياً لدى سماعه اللغة الإنجليزية . تقدم أحد الضباط من خلف هيلموت ووجه ضربة قوية إلى وجه السجين بقبضة مضمومة . تلقى مويلز الضربة مع نخرة من حلقه ونفض رأسه كأنه يحاول أن يتخلص من لسعتها . بدأ الدم يسيل من أنفه المكسور .

اقترب هيلموت وتكلم ومرة أخرى كان الصمت هو الرد . هذه المرة دار الضابط الذي لكمه إلى خلفه ووجه ضربة متعمدة إلى الجرح في ظهره . جاء رد فعل السجين على شكل صرخة . استمر الحارسان في رفعه ولم يرخيا قبضتيهما على ذراعيه بينما هو يقاوم بعنف بكل ما تبقى لديه من قوة . نظر هيلموت إلى الخلف باتجاه ڤون ديرجولتز الذي أشار بالاستمرار بتعبير متجهم . ركع الضابط الفتي في هذه الآونة وحاول للمرة الأخيرة وكأنه يرجو الرجل الجريح . بدأت عينا مويلز تدوران في محجريهما لشدة الألم في ظهره ، وأخذ يسحب الهواء

بجرعات هائلة من خلال أنف المدمى ، لكنه استمر في هزّ رأسه رفضاً . نظر هيلموت إلى الأرض للحظة ثم أعاد النظر إلى قائده . عندما لم يلمح أي تغيير ، استقام وأومأ إلى الرجل الواقف خلفه ممسكاً بالحبل . بدأ الرجل يسحب والحبل يشتد .

عندما لم يعد هناك ارتخاء في الحبل ، ابتعد الحارسان اللذان يمسكان بذراعي مويلز فسقط إذ لم يعد هناك ما يرفعه سوى الحبل . انضم الحارسان إلى الرجل في الخلف وبدأ الثلاثة يشدون الحبل أكثر . استدار هيلموت بحزن وبدأ يسير مبتعداً . لم يشاهد قدمي السجين ترتفعان عن الأرض ، لكنه سمع شهقات الاختناق تتحول إلى حشرجة تقيؤ لرجل مشرف على الموت .

عاد حلمي باشا وڤون ديرجولتز إلى صعود المرتفع الصخري باتجاه جواديهما .

قال حلمي باشا «يجب أن أكتب للسلطان وأخبره بأن التهديد قد انتهى» .

أجابه ڤون ديرجولتز «للوقت الحالي . ماذا عن جثث أولئك الأسرى اليونانيين هناك في الأسفل؟» .

«سوف يقوم رجالي بتخليصهم من ازيائهم وسيتم دفنهم في الأحراش . يجب أن يبقى هذا الأمر سراً . ليس في مصلحة السلطان ولا الامبراطورية أن يكتشف العالم ما حدث هنا في هذا اليوم» .

الفصل الثامن والعشرون
قصر يلدز، استنبول

إن شيرلوك هولمز قادر باستنتاجه أن يحل أي لغز، أو هكذا خيل للسلطان على الأقل. واجبات الملك عديدة والأيام طويلة ولذلك فقد كانت الكتب المحتوية على القصص القصيرة لمغامرات هولمز المفضلة لديه. كان يقرأ قصة «الرجل ذو الشفة الملتوية» والتي تنطوي على عبرة مفادها أن الناس قد ينتحلون مظاهر مختلفة وشخصيات مختلفة حتى يحصلوا على الربح في كثير من الأحيان. في العادة فإن وجهاً يشع بالطيبة قد يخفي نوايا أقل من ودية، لكن الرجل ذو الشفة الملتوية كان مختلفاً. جلس السلطان في أكثر كرسي مريح له وقد مدَّد رجليه أمامه فوق مسند القدم الملوكي، وفكر في الغاية التي قد يمتلكها الرجل حتى يخفي هويته الحقيقية من أولئك المحيطين به.

اقترب منه بهدوء خادم يحمل صينية وانحنى. رفع السلطان بصره نحوه من فوق الكتاب.

قال الرجل «مولاي، لقد وصلت برقيتان».

استند السلطان في جلسته وترك الكتاب يسقط في حضنه.

قال «اقرأهما لي».

تناول الخادم البطاقة الأولى وتنحنح.

ثم بدأ «من رئيس الوزراء جاسكوين - سيسيل، شارع داونينج، لندن».

رفع السلطان حاجبيه لدى سماع الاسم واستند في جلسته أكثر قليلاً

«أيها السلطان المبجل . أرجو أن تجدك هذه البرقية في أحسن حال . يرغب البرلمان البريطاني أن يهنئ بقرب انتهاء الخط الحديدي الحجازي ، نيابة عن الملك . نأمل أن تقوي هذه الوصلة الحيوية أمن الامبراطورية العثمانية لأجيال قادمة . إنني أنظر بشوق إلى لقائنا القادم الذي نحب فيه أن نستكشف السبل الكثيرة التي يستطيع فيها بلدانا العظيمان العمل سوية لصالح أمننا المشترك . المخلص السير روبرت جاسكوين - سيسيل ، الماركيز الثالث لسالزبوري» .

اكتسب وجه السلطان تعبيراً مرتبكاً .

قال «وماذا عن الثانية؟ دعني أحزر . هل هي من رئيس الوزراء الفرنسي؟» .

نظر الخادم إلى البطاقة على الصينية أمامه وكأنه لا يعرف الجواب مسبقاً .

«آه ، نعم يا مولاي» .

أشار له بكتابه أن يبتعد «لست بحاجة إلى أن تقرأها لي . أنا أعرف ما تقوله مسبقاً . لو كان هؤلاء الحمقى بقدر ذكاء شيرلوك هولمز فقط» توقف ونظر إلى المجلد الذي يحمله «أو آرثر كونان دويل ، فلربما نجحوا» .

انحنى الخادم «نعم يا مولاي . هل لديكم جواب؟» .

«نعم ، ميرسي وثانك يو» نهض عن كرسيه أثناء كلامه وبدأ يمشي باتجاه نموذج الخط الحديدي الحجازي في الطرف القصي من الغرفة «ثم اطلب لي خادمي الشخصي وحلمي باشا إذا كان قد تعافى من مغامرته . لدينا تخطيط ينبغي علينا القيام به» . توقف مفكراً

«وأرسل في طلب وزير الماليــة ، سنكون بحــاجــة إلى تحــرير بعض الأموال» .

تراجع الخادم خارجاً من الغرفة بينما وقف السلطان يتمعن في النموذج .

قال بهمسة «لقد حرَّك البيض جنودهم (بيادقهم) . والآن حانت فرصة السود لإخراج فرسانهم» .

الفصل التاسع والعشرون

مثل جميع السجون، كان الطقس بارداً هذا الصباح. انقضى وقت طويل منذ أن وطأت قدما روستوف داخل ساحة معسكر مثل هذا، ولم يتغير فيه شيء.

لا تتغير أمكنة مثل هذه أبداً. ستظل كما هي حتى نهاية الزمن.

لم يستطع أن يرى أحداً غير الرجلين الواقفين جنباً إلى جنب ينتظران حتى تتوقف العربة التي يجلس فيها.

عندما توقفت، تمشيا إلى الخلف أثناء نزوله منها متمهلاً. فالنزول صعب بوجود القيد الذي يربط يديه إلى بعضهما بعضاً. جاءت تحيته على شكل دفعة في كتفه من عقب بندقية مصحوب بنخزة تأمره بالتحرك. رفع روستوف رأسه ورأى أن الباب المؤدي إلى البناية الحجرية الوحيدة في الساحة مفتوح.

هذا هو حفل استقبالي. إنني متفاجئ لأنهم لم يقتلوني هنا ببساطة.

بدأ يمشي باتجاه الباب بتثاقل. السلسلة حول كاحليه طويلة بما يكفي لحركته، لكن السير المنتظم أمر مستحيل.

لقد كانت عودته إلى روسيا سهلة نسبياً. بمجرد أن تخلص من الكمين، فقد ركض وركض، مستعيناً بكل المعرفة التي راكمها عبر سنوات تواجده في تلك الأمكنة، حتى يوصل نفسه إلى الأمان. بقي

موضوع إفلاته ومروره مما كان محاولة واضحة للإحاطة بمجموعته غموضاً، لكن لم يكن من الحكمة أن يبقى هناك ليكتشف الحقيقة. لم يأكل شيئاً لثلاثة أيام وكان يشرب من الجداول التي عبرها في الريف. لم يشاهده الناس الذين صادفهم في طريقه، ولم يكن الجنود الموجودون في هذه الأمكنة على أي درجة من اليقظة أو الاستنفار.

بات واضحاً أن العودة إلى روسيا مخاطرة هائلة، لكن القبض عليه في المناطق العثمانية بدون أي سلاح ولا مال يعني الموت المحتوم في حالة اكتشافهم لحقيقته. غامر وأعلن عن نفسه لدى بلوغه الحدود البلغارية.

وها هو الآن هناك.

«دڤيچيني!».

وجه له الحارس بعقب البندقية ضربة أقوى.

لقد أعجب بالآخرين: مويلز وكيڤوركيان وڤارتنيان لكنه لم يندم على موتهم. سيفكر فيهم ولكن بدون ندم. ربما كان من الأفضل لو أنه هاجم ذلك المرتفع الصخري وتسبب في قتل نفسه مثل ڤارتنيان. كان ڤارتنيان سيختار ميتة مثل تلك بدلاً من موت بطيء هنا بدون أدنى تردد.

لم يكن أحد ينتظره داخل البناية، مجرد صف من الزنازين المغرقة في الصغر. بقضبان ضيقة وأرضيات حجرية، فتح الحارس الأول باب أقرب زنزانة ودفعه الثاني بقوة كافية ليدخله إليها وهو يتعثر. تمكن من البقاء واقفاً على قدميه ثم استدار ليحدق فيهما.

أقفل الحارس الأول الباب ثم وقف يتأمله للحظة.

«احصل على الراحة. سيكون هذا بيتك عندما لا تكون تعمل».

حاول روستوف أن يقف منتصباً قدر استطاعته، يبادلهما التحديق

بدون أن يرمش جفناه . استمر الحارس يحدق فيه لوهلة ثم استدار .

«سيحصل هذا على بعض الطرود اللذيذة من سانت بطرسبرج» قال للآخر أثناء خروجهما .

«أستطيع من الآن أن أتذوق النقانق والأجبان والمربيات» .

أغلقا الباب الرئيس خلفهما وترك روستوف واقفاً في العتمة النسبية لزنزانته .

الفصل الثلاثون
لندن

«إن صاحبة الجلالة غاضبة وكذلك هو أمير ويلز» .

كان جاسكوين - سيسيل وبلفور جالسين في مكتبهما المعتاد وبينهما صينية ملأى بالشاي والبسكويت .

«طبعاً هي تعرف أنه لا يمكننا أن نعمل في فراغ» . أسند بلفور كرسيه إلى الخلف على رجلين كما هي عادته واستسلم للتفكير .

«أعني أنها تعرف ماهية المخاطر التي تنطوي عليها هذه المغامرات الصغيرة . طبعاً الأمر مؤسف بالنسبة لمويلز . رجل فاضل ، لكن ربما كانت عملية من ذلك الحجم أكبر من قدراته . لا بد وأن الأتراك عرفوا ما ينوون عليه منذ لحظة رسوهم في كريت . كذلك أشعر بقليل من الأسف على كل أولئك الأسرى اليونانيين الذين ألبسوهم ودفعوهم إلى الركوب نحو فوهة مدفع فتياننا» .

رفع جاسكوين - سيسيل بصره

«هل كان لديهم مدفع؟» .

نفض بلفور رأسه نفياً «اعتذاراتي ، أنا أتكلم بشكل رمزي . لقد فهمت أنهم فجروا لغمين في نقطتين فعالتين ثم حصروا من لم يتم نسفه إلى أشلاء بنيرانهم من فوق . ونجح الأمر بدرجة رائعة على ما يبدو . المشكلة الوحيدة هي أنهم الأشخاص غير المعنيين . هم مجرد

مجموعة من المجندين الأثينيين الذين سحبوهم من أقرب معسكر» .

هزَّ رئيس الوزراء رأسه .

«لن أطيل المكوث في هذا المنصب يا آرثر» رفع يده عندما بدأ ابن شقيقته يحاول الاعتراض . «أنت تعرف هذا كما أعرفه أنا . لقد تخلصت باريس من بورجوا سلفاً ، والاحتمال الأكبر هو بسبب ما حصل في اليونان . ويتلقى الروس هزيمة من اليابانيين . إن حقيقة استعداد موسكو وسانت بطرسبرج لحمام دم لا تساعد الأمور» .

أصاخ بلفور باهتمام في هذه اللحظات .

«سرعان ما ستجلس في مقعدي يا آرثر . سأكون جالساً أشرب الشاي في حديقتي وألعب الكروكية حينها . لقد خلقت لنا هذا المصيبة الصغيرة أعداء هناك . لن أطلب منك أن تهدر أموالاً بريئة وراء الأموال المتسخة ، لكنك مضطر إلى الاستمرار . حتى أنك يجب أن توتر الوضع أكثر . هل فهمتني؟» .

«نعم يا خالي» .

«جيد . يجب عليك في هذه المرة أن تبقي أبناءنا خارج اللعبة . لا أريد أن يتم تعليق المزيد منهم على جانب الطريق في وسط مكان تخلى عنه الله في اللامكان . سنقود من الخلف تماماً في هذه المرة» .

رفَّت عينا بلفور «مفهوم» .

استطرد جاسكوين - سيسيل «سنحصل على المساعدة في هذه المرة من بعض الجهات الأخرى أيضاً» .

«ماذا؟» .

«هل سمعت بأن حفيد ملكتنا قد تعهَّد قضية الصهيونية منذ أيام زيارته للقدس؟» .

«القيصر؟ نعم لقد سمعت شيئاً ما . اللعنة ، هذا مثير للاهتمام .

طبيعي أنه ليس من الصعوبة بمكان أن نفهم ما ينوي عمله» .

«طبعاً لا . حسناً ، يبدو أن القيصر يعتقد أنه وضع السلطان في جيبه بدرجة من العمق إلى درجة جعلته يصدق أن كل ما عليه هو أن يصفق وسوف ترقص استنبول» .

«لدي شعور بأنه ربما يكون قد توسع أكثر مما يقدر عليه» .

«هذا أقل ما يمكن قوله . لقد أرسل إليه السلطان رداً مقتضباً إلى درجة جعلت رسائله إلينا تبدو مثل رسائل حب من جروغارق في الغرام حد المرض» .

«هل قال السلطان كلا؟» .

«كلا فعلاً . إنه رجل متدين والتخلي عن أرض مقدسة مثل تلك يتعارض مع كل ما يمثله ويؤمن به» .

«ومع ذلك ، إذا لم يكن هناك ما يجري عمله بشكل خاص لتلك المنطقة . . . .» .

فكر بلفور ثم استجمع شتات أفكاره . «فإذاً أين يقف القيصر الآن فيما يختص بالسلطان؟» .

«ما زال يرفض دعم أي من سياساتنا فيما يتعلق بالامبراطورية العثمانية ، ولا حتى سياسات الروس أيضاً . على أية حال فهو سيقف على الحياد ويتركنا نمارس أعمالنا ، طالما أنها لا تتدخل بأي من المصالح الألمانية وما إليه» .

«ذلك شيء مهم . ولكن يحتمل أن يغير القيصر موقفه مرة أخرى ويصبح الداعم الأعظم له» .

«يا آرثر ، تحرك ما دمت قادراً على الحركة . لم يبقَ لدي سوى أشهر قليلة في الحكم ولذلك اترك كل هذه الأمور بين يديك . لا تسمح لنفسك بأن تفشل مرة أخرى» .

نهض بلفور وشد ظهره ليستقيم وهو يمسد شاربه الرفيع عبر شفته . قال «إذاً ، سأعيد رمي الكرة في الملعب . . . وأباشر اللعبة مرة أخرى» .

الفصل الحادي والثلاثون
جنيف ١٩٠٥

القنصلية الفرنسية قصر فخم قديم موجود بشكل متعمد في إحدى الضواحي ذات الأبنية المتباعدة ، وقد اتضح السبب في ذلك هذه الليلة . أضيئت حديقتها الأمامية الأنيقة بمشاعل غازية ومصابيح كهربية خاصة استوردت من باريس خصيصاً لإنارة واجهتها البيضاء المزخرفة بالجص .

أضيء كل شباك بأنوار ساطعة ، وكان بوسع الضيوف أن يسمعوا الموسيقى النابعة من الداخل أثناء سيرهم الهوينى في العربات أو أثناء ترجلهم من عرباتهم أمام الشرفة . جرى إكساء الخدم بأزياء وربطات عنق بيضاء لهذه المناسبة بدلاً من الباروكات والألبسة على طراز لويس الرابع عشر والتي كثيراً ما جرى تفصيلها لمثل هذه المناسبات ، فجاءت النتيجة راقية وأنيقة ، سوف تعاني السفارات والقنصليات الأخرى حتى توازيها عندما يحين دورها لتقيم حفلاً لمناسبة .

يمكن رؤية أضواء البيت العتيق من مسافة أميال بكل اتجاه ، واستغل العديد من الناس غير المدعوين المناسبة للتمشي أو الركوب مارين لمجرد التحديق الأبله وإدراك ما يمكنهم من الجو القائم .

صدحت الموسيقى في الداخل من الفرقة الصغيرة وملأ الأزواج الراقصون الحلبة ، بينما ساهم دفء مئات الأجساد والشمعدانات الضخمة في تدفئة القاعة إلى حد التعرق . أفرغ السير ويليام كوينهام

جرين ، السفير البريطاني إلى الفدرالية السويسرية ، كأس الشمبانيا الذي يحمله بيده بجرعة واحدة واستبدله بآخر مليء من صينية نادل مار .

حامت عيناه في أرجاء الغرفة وتعرفت على القادة العسكريين المجتمعين بميدالياتهم وأطواقهم ، واليساريين ببذلاتهم الجدية السيئة التفصيل والصحفيين الذين أداروا ظهورهم للمشرب ، ثم العديد من الممثلين المسرحيين الذين أقام كل منهم حلقة وبدأ يروي قصصه للجمع الكبير .

مثل العديد من الرجال في الغرفة ، انسحبت عينه عائدة أكثر مما يرغب باتجاه مدام ماريانا ، بينما هي تعبر القاعة بصحبة زوجها ادوارد . لم يكن جرين متأكداً من عمرها الحقيقي ، لكنه قرر أنها امرأة فتية ، لم تتجاوز أوائل الثلاثينيات حتماً .

هي ناضجة بما يكفي لتعرف كيف تسحر أكثر العقول الرجالية حدة وتثير إعجابهم ، لكنها أيضاً تمتلك المظاهر التي تجتذب انتباههم في المقام الأول .

من الناحية الأخرى ، فإن ادوارد رجل أكبر سناً بكثير . تساءل جرين عن السبب الذي جمعهما إلى بعضهما أصلاً . حتماً هما لم يكلم أحدهما الآخر أو ينظر في عينيه أثناء رقصهما ، بل على العكس ، انطلقت هي تحدق إلى يمينها ويسارها .

تساءل جرين بغياب ذهن ما إذا كانت تستمتع بمسح الحشد المتجمع بقدر استمتاعه .

ظهر أمامه العقيد پوپوف ، رئيس الشرطة الروسية السرية ، وتبادل الاثنان الإيماء بالرأس . تمركز پوپوف عند كتف جرين وبدأ بدوره يدير بصره .

قال جرين «أقول يا پوپوف، لقد اتخذت الأحداث في روسيا مساراً جميلاً» .

لم يصدر عن پوپوف أي رد فعل، بل استمر بدلاً من ذلك في التحديق أمامه ببرود .

سأل «ما الذي تقصده؟» .

قال «هناك حديث عن ثورة ما . إن القيصر في طريقه إلى السقوط» .

تناول پوپوف رشفة من الشمبانيا» لن يحدث ذلك أبداً» .

«أنا امنحه عقداً من السنوات، ربما حتى اثنا عشر عاماً إذا كان محظوظاً» .

استدار پوپوف في هذه اللحظة ليقابل تحديق جرين . هو يعرف أن السفير البريطاني سيجري استبداله آخر السنة بالسير جورج بونهام، وأنه سيرسل إلى بلغارد بعد سويسرا . إن صربيا بلد يحظى باهتمام روسي خاص، وتعجب پوپوف الآن عما إذا كان جرين يناكفه ببساطة أم أنه يحاول أن يقيِّم حقيقة الموقف في كل من موسكو وسانت بطرسبرج .

قال بتغيير دفة تدرب عليها «المنطقة البالغة الأهمية هي تركيا» .

تقبل جرين رفض پوپوف إعطاءه المعلومات المحددة بدون اعتراض .

«نعم، حسناً إن الأعمال الأرمنية البشعة تبرهن على أنها تشكل تحدياً كبيراً للسلطان . يبدو أنهم سيقومون بأي شيء تقريباً للتخلص من الرجل المسن في هذه المرحلة» .

قال پوپوف «بإمكانك أن تفهم ما يشعرون به . يجري ذبح الآلاف منهم» .

«سيجادل البعض بأن المسألة أخذ وعطاء من الجانبين، وهذا هو وضع الأكراد الذين يتلقون بدورهم خسائر جسيمة».

شرب پوپوف جرعة أخرى «حاول أن تقول للأرمن ذلك الكلام».

«يبدو جلياً أنهم متعطشون للدماء في هذه المرحلة». نظر جرين إلى پوپوف بحدة «دماء السلطان».

عبرت ماريانا وهي ترقص من أمامهما، ما تسبب بتحول نظرة پوپوف، فالتفت جرين ليرى ما ينظر إليه الرجل.

قال مبتسماً «أقول يا پوپوف، ألست تنوي أن تطلب من زوج السيدة ماريانا أن يسمح لك بمراقصتها؟»

شخر پوپوف قائلاً «حتماً لا».

«حسناً، إنها واحدة منكم، أليست كذلك؟».

«حتى لو كانت، ما كنت لأصل منها إلى ذلك القرب، يقولون أنها قادرة على قراءة الأفكار».

فكر جرين قليلاً فيما اعتبره تفكيراً خرافياً روسياً، قبل أن يشاهد رئيس شعبة الأمن الفرنسي، وهو المرادف للفرع الخاص لديهم، يتمشى نحو ماريانا ويقبل يدها.

قال لها بضع كلمات ودودة وخلال لحظة، كانا قد شبكا أيديهما وانطلقا في رقصة ڤالس رسمية رائعة.

«هل رأيت؟» ظهرعلى پوپوف السرور «إنها قادرة على مشاركته بكل شيء، وساعتها ماذا سيكون مصيرنا؟».

اتخذ جرين نظرة محتارة متسائلة «نحن؟ أنتم يا سيدي تسيطرون على بلغاريا والجبل الأسود وصربيا وأرمينيا بحزم، بينما تضطر حكومة جلالة الملكة إلى الاكتفاء بقبرص الصغيرة».

ابتسم پوپوف وأفرغ كأسه ثم انحنى قبل أن يتحرك مبتعداً ليقوم

بالمزيد من الاختلاط . بقي جرين حيث هو واستأنف مراقبة الراقصين .

هناك على حلبة الرقص ، تحرك كل من رئيس الأمن وماريانا بمنتهى السهولة بين الأزواج الآخرين وبعد انتهاء الرقصة الأولى ، انحنيا وباشرا في الرقصة التالية .

قال رئيس الأمن «لكنك تبدين جميلة اليوم يا مدام ماريانا» .

قالت ماريانا «أنت تقول هذا لأن السلطان لا يريد أن يسلم امبراطوريته إليكم ببساطة . سوف تضطرون إلى القتال من أجلها ، تماماً كما قال القيصر الروسي» .

لم يظهر كثير من خيبة الأمل على رئيس الأمن لدى سماعه هذا الاحتمال .

«أخشى أن تلك الأيام قد انتهت . نحن الآن مضطرون إلى التآمر . ولكن حتى زميلي العقيد بوبوف ، الذي تلطف وعرفنا ببعضنا بعضاً ، بالإضافة إلى (الشباب) في الاستخبارات البريطانية ، يعانون من قلة المعلومات . المعلومات التي ، إذا سامحتني على القول ، قد تكون متوفرة لديك» .

سمح الإيقاع المريح للموسيقى الوترية لهما أن يستمرا في التحدث بصوت خفيض بدون أن يخطئا في خطوة أو في الإيقاع .

بدأت ماريانا بالقول «يا سيدي العزيز ، إن الاحتياطات التي اتخذها السلطان عبد الحميد رهيبة فعلاً . ولا حتى أنا أعرف ما يدور خلف أسوار قصر يلدز» .

عرف رئيس الأمن أن ماريانا لا تمارس معه لعبة الخجل أو الغنج . فقد أصبح السلطان في السنوات الأخيرة أكثر ميلاً إلى العزلة ومهووساً بالأمن ، وأصبح الآن من الصعوبة بمكان لأي عميل أو حتى دبلوماسي

موافق عليه أن يقترب أكثر مما يجب .

قال «هناك وسيلة واحدة تمكننا من ، فلنقل ، الاختراق» .

تصنعت ماريانا تعبيراً ينم عن الصدمة «أوه يا سيدي ، انتبه إلى كلماتك» .

«اقبلي اعتذاراتي . اسمحي لي أن أشرح : خلال الحرب مع روسيا : كانت أي حركة من قبل جنود مصطفى علمدار باشا المخيفين كافية لبث الرعب في قلوب المجندين في الجيش الروسي . لكن جنود الباشا أصبحوا غير أكفياء . هل تعرفين لماذا؟» .

«أخبرني أرجوك» .

«بسبب انشغالهم بالنساء» ترك رئيس الأمن عبارته الفجة حتى تؤتي مفعولها قبل أن يستطرد «على الرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا أقوياء جداً ، إلا أن دائرتنا استخدمت عدداً من النساء اللاتي يتمتعن بجمال هائل . . . .» .

أضافت ماريانا «وأخلاق مشكوك فيها» .

«آه نعم . لكن النتيجة كانت أن العثمانيين خسروا بلغاريا والجبل الأسود وصربيا لصالح روسيا . أقدم علمدار باشا على الانتحار بأن استلقى فوق إصبع ديناميت . مع غياب قائدهم ، تفرق جنوده في مشارب استنبول وحاناتها وباراتها وأندية القمار فيها ، ولم يعودوا يشكلوا أي تهديد» .

«وهكذا أنت تقول بأن الاعداء الوحيدين القادرين على التأثير بالعسكر العثمانيين هم النساء الساحرات؟» .

«أنت يا مدام ، لست فقط ساحرة بل أيضاً ذكية . لكنني أخشى أن نكون بحاجة الى . . . . آه . . . . تعزيزات» .

«لا شك عندي بأنني أستطيع أن أساعد في ذلك الأمر» .

«ممتاز . مع . . . جهازك *الوظيفي* ، سوف نكون قادرين على افتتاح المزيد من نوادي القمار والحانات في استنبول حيث سيتم توظيف مثل أولئك المستخدمين» .

لم تتغير تعابير ماريانا طيلة وقت تحدثه . احتكّ بكتفها رجل بملابس أنيقة أثناء مروره ، فاستدارت نحوه «مرحباً يا جورج» .

ابتسم الرجل ورد لها التحية «ماريانا»

أعادت انتباهها إلى الفرنسي .

«نعم» قالت «سيقوم جهازنا الوظيفي بالاهتمام *بالجهاز الوظيفي* للجيش التركي ، حتى يوصلوهم إلى حالة انعدام القدرة على . . . . النهوض للقتال» .

«فعلاً» أحسّ رئيس الأمن بالانفراج لأن الرقصة سارت على ذلك النحو من الإيجابية .

«سوف أتشارك في هذه المسألة مع زميليّ الإنجليزي والروسي» .

اقترب أكثر وهمس في أذنها «سوف نقوم بشلّ قدرات الجيش التركي واستخباراته» .

أثناء حديثه ، التقت عيناها بعيني زوجها الواقف عند حافة حلبة الرقص . كان ادوارد يشير إلى درج في الزاوية القصية من القاعة ، حيث كان الرجل الذي احتك بكتفها لتوه ، جورج ، يتوجه حالياً . أومأ ادوارد برأسه في إشارة خالية كلياً من الحصافة ورفع حاجبيه مثل ممثل هزلي مسرحي . كشرّت ماريانا ، لكنها عادت إلى الابتسام حين ابتعد رئيس الأمن قليلاً ونظر اليها .

قالت «هل تسمح بأن تعذرني؟» .

«بالطبع» . تراجع رئيس الأمن ومدّ يده إليها ليسمح لها بالانصراف . انحنت ماريانا وتحركت نحو زوجها . بمجرد وصولها إليه ،

شبكت ذراعها بذراعه وتحرك كلاهما نحو الدرجات ، بدون أن ينظرا إلى الخلف ولو لمرة واحدة . راقبها رئيس الأمن باهتمام طيلة الطريق .

اعترض طريقهما على الدرجات رجل آخر أضخم بنية . مشت مريانا نحوه بغير تكلف .

قالت «تسرني رؤيتك يا ڤاهان» .

نقل ڤاهان نظرة منها إلى إدوارد ثم عاد إليها ، مستمتعاً بلحظة نفوذه حتى أقصاها ثم قال «هيَّا بنا نذهب» . قادهما إلى باب يلي الدرجات ، وبعد أن ألقى نظرة فاحصة خلفه ليتأكد من عدم وجود شخص يراقب ، فتح الباب وأدخلهما .

الغرفة مضاءة بنور خفيف ، لكنها مفروشة بأثاث مريح وقد ملأت الهواء رائحة السيجار والويسكي الفاخر . جلس جورج عاقداً ساقيه في كنبة ضخمة مقابلهما .

قال «أرجوكم ، اجلسوا جميعاً» .

لم تكن العبارة دعوة بقدر ما جاءت مثل الأمر ، فأطاع كل من ماريانا وإدوارد ، فجلس هو على إحدى الطنافس القريبة من الباب بينما احتلت هي الكنبة المماثلة لمقعده مقابله تماماً . بقي ڤاهان واقفاً مستنداً إلى مكتبة من الأرض إلى السقف خلفهما وقد عقد ذراعيه أمامه .

سحب جورج نفساً عميقاً من سيجاره وتمهل حتى نفثه في الهواء فوقه . راقب الآخرون بصبر وهم ينتظرون أن يقول شيئاً ما .

قال «لم أستطع أن أغالب استراق السمع إلى محادثتك مع رئيس الأمن الفرنسي على حلبة الرقص يا ماريانا» .

«أنت حتماً تعتقد أن الحديث الكسول لامرأة هو أكثر من تسلية صالونات» .

«يا مدام ماريانا، أرجوك أن لا تسيئي فهمي ولكن دائرة الاستخبارات الفرنسية ليست نادياً لممارسة الجنس. لن تنهار الامبراطورية العثمانية بسبب جمال سيقان امرأة ما وما يحتمل أن تعد بهما».

لم يحاول أن يخفي ابتسامته وهو يرى ما فعلته كلماته بتعابير وجهها. أخيراً ظهر وكأن ادوارد قد عثر على صوته في الصمت الذي ساد.

«هنالك دائماً ثياب نسائية داخلية بين خرائب العديد من الامبراطوريات».

قال جورج «أفهم ذلك. لكن الجمال وحده لن يكون كافياً في هذه الحالة. لأنه لو صح ذلك لكنت قد حصلت من الأتراك على بعض المعلومات المفيدة عملياً حتى الآن يا ماريانا». ارتفعت وتيرة صوته قليلاً «ولكن على العكس، فقد اكتشف الأتراك بدلاً من ذلك الكثير من أسرارك».

وقف ڤاهان منتصباً من ارتكائه «أنت حتماً لا تظن أن ماريانا مسؤولة عن....».

قاطعته طرقة الباب. انتفض بسرعة وذهب إلى الباب ليفتحه قليلاً ويرى الشخص الموجود ثم فتحه ليسمح لأوسيب بالدخول. رفعت ماريانا عينيها إليه أثناء مروره بادوارد متجهاً نحو جورج ليصافحه. استدار ورأى ماريانا فحياها أيضاً.

عادت بذاكرتها إلى لقائهما الأول في القنصلية الروسية قبل أشهر. كان في حينها معروفاً باسم آخر. قام پوپوف بتقديمهما إلى بعضهما.

قال له پوپوف يومها: «هل تسمح لي بتقديم مدام ماريانا؟».

كان الغريب رجلاً مخيفاً مثيراً للريبة . هو طويل القامة حليق الذقن ، لكن بشاعته صدَّت ماريانا حينما أخذ يدها ولمسها برقة بشفتيه .

«مدام ، أرجو في البداية أن تسمحي لي بتقديم تعازيَّ . لقد كان زوجك بطلاً عظيماً» .

استردت يدها ببطء وحافظت على انتظام صوتها .

«لقد حاولنا أن نحصل على الإفراج عنه ، لكن المحزن هو أن الأتراك ليسوا شعباً متعاطفاً وهذا أقل ما يمكن أن يقال . انظري إلى ما فعلوه بشعبي» .

«شعبك أنت؟» .

«إن اوسيب ، أم هل يفترض فيَّ أن أقول بما يليق أكثر ، إن اوسيب نازاريان أرمني مثل زوجك الراحل» . قال پوپوف ، «إنه يعمل لديَّ ، يتقن ثلاث أو أربع لغات وهو ما سيمكنه من الحصول على معلومات لنا من استنبول . لقد هيأت له هويته الجديدة : احرصي على أن تقدميه وتعرفيه بالأشخاص المناسبين» .

والآن ، بالعودة إلى الغرفة المعتمة في قنصلية جنيڤ ، حيث تتسرب الموسيقى بخفة من الفرقة تحتهم عبر الأرضية ، تسمرت كل الأعين على اوسيب . أصبحوا يعرفون عنه المزيد الآن ، ويفهمون ما هو قادر عليه .

تكلم بصوت هادئ لطيف غير متكلف وهو ما زال واقفاً . الأمر الذي جعله يبدو أكثر إزعاجاً .

«مدام ، أيها السادة : لقد استمعت إلى ما قلتموه قبل أن أدخل» .

عبرت موجة من الترقب جو الغرفة حيث تحرك كل منهم بانزعاج .

«نعم» استمر اوسيب «ليست هناك أية أمكنة آمنة يمكن التحدث فيها في هذه البناية . الآن جاء دوري ، إذا كانت الاستخبارات التركية تعرف كل شيء نفعله أو ننوي أن نفعله ، يجب ساعتها أن نعترف ونقبل بوجود جاسوس بيننا» .

نفض إدوارد رأسه رافضاً «أمر غير قابل للتصديق ، كيف . . .؟» .

توقف عن إكمال كلامه عندما شاهد النظرة على وجه أوسيب .

أبقى أوسيب عينيه على إدوارد ومشى إليه اثناء كلامه «كل قرار اتخذناه في باريس أو لندن ، كان معروفاً لدى السلطان خلال أربع وعشرين ساعة . نتيجة لذلك ، قتل اثنان من أفضل عملائنا» .

توقف على بعد بضعة أقدام من حيث جلس ادوارد وأخرج علبة سجائر فضية من الجيب الداخلي لسترته . تباطأ في قدح عود الكبريت ثم سحب نفساً عميقاً . عندما أعاد علبتي الكبريت والسجائر إلى جيبه ، خرجت يده ممسكة بمسدس . انتفض ادوارد إلى الخلف مجفلاً ، وسحبت ماريانا نفساً حاداً .

قال اوسيب «سيتم اغتيال السلطان عما قريب» .

«ماذا؟» لم يحوِّل ادوارد عينيه عن فوهة المسدس .

«لدينا معلومات تفيد بأنه سيقتل» .

ابتسم أوسيب لرؤيته الرعب في وجه إدوارد . ترك كلماته تستقر في العقول للحظة ، قبل أن يمد يده الأخرى فجأة ويقبض بها على رقبة ادوارد . أخرج ادوارد أصوات اختناق غريبة بينما قرَّب اوسيب المسدس حتى كادت فوهته أن تلامس عين الرجل .

قال «أنت أيضاً سوف تقتل» .

حاول ادوارد أن يحرر رأسه وقاوم لكنه بات أكثر خوفاً من أن يرفع ذراعيه ليحمي نفسه .

احتفظ اوسيب بقبضته مثل مالك يعاقب جرواً له ، ثم رفع المسدس مشيراً به إلى ڤاهان وجورج كل بدوره ثم إلى الباب . فهم كلاهما مقصده وخرجا من الغرفة ، ينظران إلى ادوارد باستغراب اثناء خروجهما .

انتظر اوسيب حتى خرجا ثم أرخى قبضته عن رقبة ادوارد وأعاد المسدس إلى جيبه .

«أنا آسف يا ادوارد فقد كنت مضطراً إلى قول ذلك» .

انهمك ادوارد في فرك الكدمة الحمراء المتزايدة تحت أذنه مباشرة ثم أطلق ابتسامة واهنة .

قال «فهمت» .

استدار اوسيب «سامحيني يا ماريانا» .

أدارت رأسها لتشير إلى فهمها لمقصده لكنها لم تتكلم .

أخرج اوسيب علبة سجائره مرة أخرى وقدّم واحدة إلى ادوارد أولاً ثم إلى ماريانا .

عندما زال التوتر من الغرفة ، عاد إلى الحديث

«إن الجاسوس بيننا هو جورج . لقد قاطعنا برقية مرسلة إليه من استنبول وقمنا بحلّ شيفرتها . إنه الشخص الذي طالما حاولنا أن نجده» .

تحرك ليغادر ثم توقف عند الباب .

«سوف يذهب من فوره إلى مكتب البريد ليبرق إلى قصر يلدز ويقدم تقريره للسلطان عما قلته . سوف أخبركم بما يجري . استعدا للسفر إلى استنبول خلال يومين» . قال هذا وانصرف .

بقي ادوارد وماريانا حيث هما بعد مغادرته بوقت طويل يدخنان سيجارتيهما . لاحظ كل منهما أن يد الآخر ترتعش كلما رفعها نحو

فمه . أخيراً نهض كلاهما بصمت وشبكا ذراعيهما ثم تمشيا إلى أسفل عائدين للانضمام إلى مجريات الحفلة .

سرعان ما غادرها ادوارد حينما وصلا إلى الطابق السفلي وبقيت واقفة وحدها .

بعدما بدا وكأنه وقت طويل ، عاد رئيس الأمن ليظهر عند كتفها .

«هل تسمحين لي بشرف مرافقتك إلى بيتك؟» .

التفتت إليه ماريانا «ترافقني إلى بيت من؟» .

ابتسم رئيس الأمن «ذلك هو خيارك أنت» .

الفصل الثاني والثلاثون

في اللحظة نفسها ، كان جورج يحاول بأقصى جهوده أن يغادر من خلال البوابة الجانبية بدون أن يراه أحد . فهذه الناحية من الحديقة معتمة وبعيدة عن الساحة الأمامية الرئيسة .

شاهد الممر الذي يبحث عنه واستدار نحوه بسرعة . وجده ضيقاً لوجود الأشجار والشجيرات المزروعة بكثافة على جانبيه ، الأمر الذي وضعه في عتمة أشد سواداً مما كان فيه . سمع ما تخيله مثل تشحيط قدم ما بصخرة خلفه إضافة إلى وقع خطواته . استدار إلى الخلف وسحب مسدسه في الوقت نفسه بحركة قد تدرب عليها . لم ير أي شيءٍ وانتظر شاهراً مسدسه إلى الأمام . لم يعد هناك أي صوت فأدرك على الفور إلى أي درجة هو محصور وضعيف في تلك البقعة .

استدار وأسرع قاطعاً بقية الممر ثم خرج من البوابة الخشبية إلى الشارع الضيق بعدها . أجفل ماركوس الذي كان مكباً على طاولة البرقيات في مكتب البريد . فقد كان منسجماً بعمق فيما بدا مثل نسخة قديمة من دليل الهواتف ودلق قهوته على الصفحة حينما اندفع جورج عبر الباب . ملأت رائحة القهوة المنسكبة من الكوب الكبير المساحة المحصورة .

قال جورج «الذباب دبق في هذا الوقت من السنة» .

ارتفعت زاويتا فم ماركوس «والنحلات الغاضبة هي نفس الشيء» . أومأ برأسه إلى الباب «أقفله» .

نفَّذ جورج تعليماته ثم تناول الريشة والورق الذي قدمه إليه ماركوس .

جلس مأمور البرقيات ينتظر بينما شخط جورج رسالة عاجلة ومررها إليه .

نظر ماركوس إلى ما كتبه جورج

سيتم *قطاف البندورة قبل نضوجها*

قال جورج «تصرف بسرعة . أرسل هذه إلى قصر يلدز . أنت تعرف العنوان» .

أعاد ماركوس قراءة الرسالة بتمعن وهو يلقي بنظرات خاطفة إلى قهوته المنسكبة .

«ما الذي يفعله السلطان بهذه البندورة؟» .

«أحمق» حوّل جورج ثقله من قدم إلى الأخرى «إنها تعني أنه سيتم اغتياله» .

رفع ماركوس حاجبيه وهزَّ رأسه بطريقة بدت وكأنها تعني أنه فوجئ بطريقة سارة أكثر من كونه مصدوماً فعلاً . استدار نحو الآلة ووضع يده على مفتاح الإرسال .

ثم التفت إلى جورج

«هذه أخبار في غاية الأهمية . سيدفعوا لك مبلغاً ضخماً مقابلها» .

نقل جورج ثقله إلى القدم الأخرى منتظراً أن يبدأ الرجل بالإرسال . مدَّ ماركوس يده اليسرى غير المرئية تحت الطاولة وسحب مسدساً صغيراً من عيار ٢٢,٠ وسدده إلى رأس جورج قبل أن يتسنى له أي وقت للاستجابة .

«لا تقم بأي عمل غبي . ارفع يديك» .

رفع جورج يديه عن جانبيه بتمهل .

«هل هذه نكتة؟» .

استند ماركوس إلى ظهر كرسيه وقد اكتسب وجهه تعبيراً ينم عن الرضى .

قال بصوت مرتفع «ماذا تقول يا أوسيب؟ هل نحن نمزح؟» .

انفتح باب الخزانة الكائنة خلف الكتف اليمنى لجورج واصطدم به . خرج أوسيب بكل الرشاقة التي يقدر عليها رجل محشور يخرج من خزانة . صوَّب مسدسه إلى رأس جورج .

«اركع على ركبتيك» .

أطاع جورج وهبط على ركبتيه بتمهل . رشف ماركوس بقية القهوة من كوبه وهو يراقب .

قال اوسيب «افتح فمك» .

سحب جورج نفساً عميقاً وأغمض عينيه . انتظر اوسيب . عاد جورج وفتح عينيه مستسلماً ونظر إلى الأعلى . حشر أوسيب المسدس بين شفتيه المنفرجتين ولم يتوقف عن إطلاق النار حتى سمع الطرقة التي تخبره بأن المشط قد فرغ .

الفصل الثالث والثلاثون
استنبول

عند الساعة الثامنة صباحاً بالضبط ، نقر النقيب مراد على باب العقيد حسب التعليمات . يكاد العقيد مصطفى بك أن يختفي خلف جبل من الأوراق والملفات المنتشرة عبر كامل طاولة مكتبه والتي سقط بعضها إلى الأرض ، كما لو أنها اندلقت مثل الماء من فوق حافة حوض حمام طافح . أعطت المجموعة الهائلة إلى المكتب الصغير منظراً مزدحماً بلا شك ، وخيل لمراد دوماً أنه إنما يزور مكتب رجل أكاديمي بدلاً من ضابط عسكري كلما جاء لرؤية العقيد .

لم يتفرغ مصطفى بك ليرفع عينيه عن التقرير الذي يمسك به بين يديه ،لكن مراد أدى التحية الحازمة بكل الأحوال ووقف في وضع التأهب . تدفق النور عبر المصاريع المفتوحة للشباك الوحيد في الغرفة والكائن إلى يمين مصطفى بك بحيث أصبحت الغرفة دافئة وجيدة التهوية ، مع أن هبة قوية من النسيم كفيلة بجعل أعداد هائلة من الأوراق تطير حتماً .

«هل طلبتني أيها العقيد؟» .

رفع مصطفى بك الصفحة التي كان يقرأها وقرأ التالية تحتها قبل أن يرفع بصره . نظر النقيب إلى وجهه وشاهد النظرة المتعبة في عينيه . هناك العديد من الضباط الذين يحتقرون العمل الكتابي وتداول الأوراق ،لكن مصطفى بك من ضمن الأقلية الذين يفهمون أهمية

قراءة كل شيء يتواجد على طاولة مكتبه والأهمية التي يلعبها ذلك في حماية بقاء الملكية والامبراطورية نفسها . كان مراد متيقظاً بما يكفي ليلاحظ الفولاذ الكامن بداخل الأكياس المنتفخة تحت عيني العقيد ، إضافة إلى الخط العابس والمصمم الذي يشكله فمه وهو يقوم بتقييم النقيب في هذه اللحظة .

بدا مصطفى بك كرجل ذي فكر وصاحب كبرياء ، إضافة إلى معرفته بدقائق عمله .

قال مصطفى بك «نعم! إجلس» .

نظر مراد إلى الكرسي أمامه متوقعاً أن يجد عليه كومة من الأوراق ، لكنه فوجئ بأن وجده فارغاً . كانت عينا العقيد قد عادتا إلى تقريره .

«لقد اعترضنا رسائل تتعلق بالاغتيال المقصود به السلطان» قال بدون أن يرفع عينيه «لكننا لا نعرف من هم الذين سيحاولون أن يقتلوه ولا أين ولا حتى متى سيحاولون .

تناول ملفاً بيده اليسرى من تحت كومة كبيرة ومرره إلى مراد .

«هذا من أحد جواسيسنا في المجموعة الاشتراكية الألمانية» .

نظر مراد إلى الحزمة للحظة ثم عاد لينظر إلى العقيد .

«أهو من هنري أدولف؟» .

«نعم» قال مصطفى بك «وهو مؤرخ في الخامس من تشرين الثاني ١٩٠٤» .

أخرج مصطفى بك ملفاً آخر من نفس الكوم ووضعه أمام ضيفه .

«وهذا من الحاج بيار افندي . إنه يخبرنا بكل ما يسمعه من الروس ثم يمرره إلى الفرنسيين . نحن نشك في أنه يحمل أسرارنا نفسها إلى الفرنسيين والروس . نستطيع نحن بهذه الطريقة أن نمرر لهم

بعض المعلومات المغلوطة» .

سحب ملفاً ثالثاً بدون حتى أن ينظر إلى اتجاه يده ووضعه أمام مراد الذي تعاظمت حيرته .

«هذا من حاكم المنستير حازم بك . لقد اعترض هذه المعلومات الحيوية من القنصل الروسي في بلاد اليونان . هل تعرفه؟» .

«أليس هو الدكتور ڤاسيلاكي؟» .

«نعم هو . لكنني لا أعرف لصالح من هو يعمل حقيقة . هو يوناني ، لكنه كطبيب في ديدي أغاتش لأكثر من عشرين عاماً . وهو يصلي أحياناً في المساجد وأحياناً أخرى في الكنائس» .

قال مراد «ينبغي عليه أن يذهب إلى كنيس حتى يبقي كل خياراته مفتوحة» .

أطلق مصطفى بك ابتسامة متعبة واستطرد .

«وهنالك بالإضافة تأكيدات من مصادر أخرى حول الاغتيال المنوي القيام به» .

توقف ليتمعن في الرجل الجالس أمامه للحظة . هو يعرف جميع الحقائق في ملف مراد .

عمره : أوائل الأربعينات ، زوجته وأطفاله . رجل مجد في عمله ومحترم بكل الاعتبارات ورجل ينتبه إلى واجباته . يصل إلى عمله في الوقت المحدد تماماً ويتصرف كما ينبغي على الضابط ان يفعل : يتحدث سجله عن إنجازات صلبة ولم تكن هناك أية شوائب أو إخفاقات مطلقاً . لو سألت أياً من رؤسائه أو زملائه الضباط فسوف يقولون إن النقيب مراد رجل عائلة وعمل في الوقت نفسه .

نظر مصطفى بك إلى زيه العسكري المكوي النظيف . مناسب لجسمه كلياً . يمتلك النقيب وجهاً مستديراً منفتحاً يشع بالطيبة ،

استطاع العقيد أن يرى فيه الذكاء . ليس هذا الرجل صلباً ، لكنه ليس ليناً كلياً أيضاً . ألقى بالأوراق التي يحملها بين يديه على الطاولة ثم استند إلى ظهر كرسيه عاقداً يديه خلف رأسه .

سأل «من الذي تظن أنه يريد أن يقتل السلطان يا مراد؟» .

قلّب مراد السؤال في ذهنه للحظة ثم أجاب بأسلوب الواثق .

«لو كان لي أن أراهن ، فسوف أقول إنهم الأرمن حتماً . أو هكذا يبدو الوضع» .

«ما الذي تعنيه؟» .

«إنهم حانقون على السلطان حالياً إلى درجة يمكن معها التلاعب بهم من قبل أولئك الذين سيكسبون الكثير من موته . فهم فقط لا يريدون أن تتلطخ أيديهم بدمائه» .

لم يتأثر مصطفى بك .

«أنت تتكلم عن قوى التحالف» .

«لقد حاولوا كل شيء آخر لتغيير ميزان القوى العالمي ولم يحرزوا إلا نجاحاً قليلاً جداً . نحن نعرف أنهم كانوا وراء محاولة اغتيال حلمي باشا قبل وقت قصير . لقد واصل الألمان دعمهم للسلطان . ولكنهم الآن يمتلكون طريقة وحتى عذراً لإسقاطه» .

هزَّ مصطفى بك رأسه بالموافقة وعاد إلى الجلوس منتصباً «ليس هناك رجال دولة أذكياء في العالم اليوم . فقط جزارون» .

انتظر حتى يسمع رد مراد ، ولكن عندما لم يأت الرد ، نهض واقفاً وجمع كل الملفات التي أخرجها بالإضافة إلى الملف الذي كان يقرأه عندما دخل مراد ووضعها بين يدي النقيب .

سمع صوت نقرة واحدة على الباب .

«نعم» قال مصطفى بك .

دخل مساعده حسن أفندي ومرر إليه ملفاً آخر .

قال «هذا من صرحفي باشا من الاستخبارات» .

أومأ مصطفى بك برأسه شاكراً وفتح الملف . مسح الأسطر بعينيه للحظة ثم أخذ يقرأ بصوت عالٍ .

«لقد قتل جورج الليلة الماضية في مكتب بريد جنيف ، ارسل ديكران باڒاس الرسالة .

لدى ديكران رسالة أخرى تفيد بأن العملاء الأرمن في جنيف قد قرروا أن يقتلوا السلطان . هنالك رسالة أخرى من أحمد جلال الدين باشا من القاهرة .

سأل مراد «ماذا تقول؟» .

مرر مصطفى بك إصبعه نزولاً على الرسالة «بأن التقارير حول محاولة الاغتيال مزورة» .

«من هو الذي تصدقه أنت؟» .

لم يصدر عن مصطفى بك أي مؤشر على أنه سمع السؤال ، ولكنه استمر ينظر إلى الصفحات . أصبح مراد على وشك أن يحثه حينما أجاب .

«لم يكن أحمد جلال الدين باشا مخلصاً تجاه الامبراطورية العثمانية في الماضي . لقد كان خائناً تجاه العثمانيين قبلاً وهرب إلى أوروبا ، تحول إلى مناهض للسلطان وقرر لاحقاً أن يعيش في مصر . لذلك فأنا لست متأكداً من مقدار ثقتنا بما يقوله . ففي نهاية المطاف فإن مصر واقعة تحت السيطرة الإنجليزية . لابد من أنهم يعرفون بدورهم عن الموضوع .

أغلق الملف بعنف

«أيها النقيب مراد» .

نهض مراد عن كرسيه واتخذ وضعية التأهب

«إذا كانت هناك مؤامرة على حياة السلطان «كلمه مصطفى بك بدون أن ترمش جفونه وقد اختفى الإرهاق من عينيه كلياً «أنت ملزم بأن تكتشف من يقف خلفها . . .» .

انسابت يده إلى جراب مسدسه

«وأن توقفها» .

***

في الطرف الآخر من المدينة ، توقفت عربة أمام مجموعة ضخمة من أبنية الشقق في شارع الاسكر وقفز سائقها عن المنصة . مشى نحو الباب بخطى مضحكة ، كأنه قد تسبب لنفسه بإصابة قبل وقت طويل وعوَّد نفسه على السير بهذه الطريقة إلى درجة أنها أصبحت بالنسبة له مشيته الطبيعية . بدا للمارة أنه يقترب من الشيخوخة ، يقترب منها حتى لو لم يتجاوز الستين ، لكن مع الاقتراب منه يتبين أنه يشيخ قبل أوانه ، ربما بسبب حياة الإفراط التي يحياها ، وتوشي خطوط وجهه بأنه رجل أصغر سناً بكثير . وصل إلى باب أقرب شقة في الطابق الأرضي وبعد أن تأكد من أنه الرقم الصحيح في أعلى الباب ، نقره .

بعد وهلة قصيرة انفتح الباب على شق صغير ونظرت عينا ادوارد باراغون من خلفه .

سأل «من أنت؟» .

أجاب السائق «إن اسمي هو داديان» .

«من الذي أرسلك؟» .

«لقد أرسلني اوسيب يا سيدي» .

فتح ادوارد الباب على اتساعه بعد أن اطمأن ووقف قبالة داديان .

«لا بأس ، انتظر هنا وسوف نخرج إليك خلال دقيقة» .

انحنى السائق وراقب اختفاء ادوارد عائداً عبر الممر الضيق للشقة وإلى غرفة المعيشة الرئيسة . عندما رأى ادوارد يعود إلى الخروج بصحبة امرأة ورجل آخر ، استدار ليعود إلى موقعه فوق العربة .

«إلى أين نحن ذاهبون؟» سأل المجموعة تحته أثناء اقترابها .

«إلى قصر يلدز» ردت ماريانا ودخلت إلى العربة عبر الباب الذي امسكه لها إدوارد .

ملأت الجماهير كل مساحة متوفرة خارج القصر والمسجد في ساحة تعليم خانه ، منتظرة لتحظى بنظرة إلى السلطان وحاشيته . سطعت شمس الظهيرة على رؤوسهم ، ولم يكن هناك رجل أو امرأة لم يعتمر قبعة أو يحمل شمسية . انضم إلى الحشد من المواطنين المسلمين مئات من السياح والأجانب المقيمين في استنبول وكلهم متشوقون مثل رعايا السلطان إلى مشاهدة العرض . رغم أن السلطان أصبح في هذه الآونة يتنقل بالسيارة في المناسبات النادرة التي يذهب فيها إلى مسافات بعيدة ، فقد ظل يتحرك داخل المدينة في عربة خيل بحيث ظلت أجواء العالم الشرقي قائمة بالنسبة للناس الذين ارتحلوا من أمكنة قصية مثل روسيا وسورية والأراضي الواطئة وبريطانيا . اختلط الباعة والتجار بين الجموع ينادون على بضائعهم ويبحثون عن زبائن .

كذلك كان يتم ملاحظة ثلة حرس السلطان الخاص المهيبة . إلى جانب رجال الشرطة بأزيائهم الرسمية الواضحين للعيان ، تحرك رجال استخبارات بملابس مدنية بين المتفرجين ، يراقبون بحثاً عن أي حركة شبيهة بالتهديد .

خضع كل شخص للتمحيص بدءاً من أقل الشحاذين مرتبة وصولاً إلى التجار المرتدين أغلى الثياب . كذلك كان يمكن مشاهدة عملاء وشرطة دول أخرى بالنسبة للعين المدربة . رغم أنهم أبقوا على

سريتهم وراقبوا الأحداث من مسافة آمنة .

تململ السائق أرتين في مقعده وظهر عليه الانزعاج ، إذ لم يكن متأكداً من غاية الزيارة . قال

«ها نحن هنا . هل تريدون أن تبقوا في العربة وتراقبوا السلطان من هنا؟» .

خرج رأس ماريانا الجميل من الشباك تحته ونظرت إلى أعلى قائلة «نعم ، ذلك هو ما سنفعله» . قبل أن تتراجع إلى الداخل .

بقي كوستا هاغوبيان ، الرجل الثاني الذي حضر برفقتها من الشقة ، جالساً في مقعده قبالتها محتفظاً بوجهه بعيداً عن الشباك . نظر في هذه اللحظة إلى الخارج وخاطب السائق سائلاً :

«متى تعتقد أن الصلاة سوف تنتهي؟» .

أجابه السائق «بعد وقت قصير جداً يا سيدي» .

التفت الرجل إلى ماريانا وهزَّ رأسه مرة واحدة . ضغط على مقبض باب العربة من الخارج وأداره ثم قفز خارجاً . متبوعاً بماريانا . لحهما السائق فقفز عن صهوته ليمسك الباب لهما ، لكن لم تكن هناك حاجة لمساعدته وحتماً ليس لماريانا التي قفزت إلى الأرض بخفة ممسكة بفستانها فوق الكاحل حتى لا تدوس طرفه أثناء نزولها . تسلق ادوارد نازلاً بعدهما وأدرك مشاهدة السلطان وأبنائه خارجين من البوابات المفتوحة للمسجد في البعد . أبقى الحراس صفوف الناس على مسافة احترام ، ولم يكد السلطان يغير في سرعته وهو يسير باتجاه عربته .

وضع ادوارد يده على ذراع السائق .

«اعتقد أنه ربما تكون لديك مشكلة في العجلة الخلفية من جهتي» قال له . «إنها تهتز . فهل لديك مانع من القاء نظرة عليه؟» .

ظهر على السائق عنصر المفاجأة والقلق في الوقت نفسه .

«لم أشعر بها أبداً يا سيدي . دعني ألقي نظرة» .

سار مع ادوارد إلى الجانب القصي من العربة بينما بقيت ماريانا مع رفيقها للفرجة على السلطان .

أمسك كوستا بساعة مخفية داخل راحة يده التي أبقاها إلى جانبه ، وعندما تسلق السلطان إلى داخل العربة ، لمست ماريانا ذراعه بلطف . رفع الساعة إليه بسرعة ونظر إليها قبل أن يدسها في جيب صدارته .

قال «دقيقة واحدة واثنان وأربعون ثانية» .

بان على ماريانا الاقتناع وقالت «لا بأس» .

ربَّت كوستا على الساعة في جيبه وامتدت يده نزولاً إلى حيث يحتفظ بمسدسه .

هزّ رأسه قائلاً «لا بأس» .

الفصل الرابع والثلاثون

بدأت الشمس غروبها على يوم سبت آخر في بيت النقيب مراد ، قضاه مع عائلته .

أمضت زوجته ليلى خانم الظهيرة وهي تطهو سفرة هائلة من الطعام ، واحتار هو قليلاً كما هي عادته كل أسبوع في كيفية قضائهم على معظمه . تواجد معهم حماه قادر باشا ومدرِّسة أطفاله آن للمساعدة بالطبع ، لكن ذلك لم يكف كتفسير نظراً للكمية الهائلة التي أنتجتها ليلى .

جلس الجميع سوية : مراد وقادر وليلى وأطفالهما الثلاثة الذين لم يتجاوز أكبرهم الثانية عشرة ، وآن ، وباشروا الوجبة بطبق *الجاجيك* الذي تعده ليلى مستخدمة نفس المعايير التي أرتها أياها أمها قبلاً من اللبن الرائب والخيار والثوم والنعناع . بعد أن غمسوا الخبز في الجاجيك ورشفوا الشاي لفتح شهيتهم ، قدمت ليلى وآن كباب الدجاج ودونير (شاورما) لحم الضأن إلى جانب أطباق من *البلاو* الأرز وأكوام من السلطات . كان هناك أيضاً *الدولما* ، الخضار المحشية بالأرز والبصل وتوليفة من البهارات التي تعلمتها ليلى من والدتها أيضاً ، والتي تستمتع الآن بتمريرها إلى آن الفرنسية ، إضافة إلى ابنتيها الصغيرتين . أبدت آن اهتماماً في التعلم جلب السرور إلى قلب مستخدمتها ، وكثيراً ما عاد مراد إلى البيت ليسمع الاثنتين تضحكان وتثرثران في المطبخ . كان ذلك الصوت وركض أطفاله نحوه للسلام عليه في كل يوم

يمسحان كل سحابة يمكن أن تكون قد حضرت معه من عمله لأي سبب كان .

لكن رؤية الأطباق التي يتصاعد منها البخار والغوص في هذه الوليمة الأسبوعية ، ظل يشكِّل الحدث الأهم في أسبوعه ، وقد ظل يعترف لنفسه أنه يأكل بشراهة وحماسة غير مسبوقتين .

كان قادر أكثر اعتدالاً منه بقليل وهما يدردشان بود ظاهر أثناء استمتاعهما بالطعام .

بمجرد أن يتم تذوق الأطباق كلها ، تنهض ليلى وآن مرة أخرى لتحضرا طبقين آخرين : كارنياريك الذي يمزج الباذنجان المقلي مع لحم البقر المفروم والبصل ، اضافة إلى لحم عجون والذي يمكن لأي إيطالي أن يعتبره كطبق بيتزا لأول وهلة ، لكنه في الواقع خليط آخر من اللحم المفروم والبصل فوق قاعدة من العجين .

ظل الأطفال يصفقون حينما يوضع الطبق على المائدة ويضحكون لقول أبيهم «أظن أننا سنكون بحاجة إلى طاولة أكبر» .

بعد طبق الحلوى والقهوة للكبار ، كانوا ينتقلون إلى الصالون بينما يلعب الأطفال حولهم .

تصبح الأحاديث متقطعة بينما كل منهم يهضم طعامه مستمتعاً بصحبة الآخر .

بعد وهلة ، تبدأ آن بتحضير الأطفال للنوم بأن تطلب منهم جمع كتبهم وألعابهم .

تقول بعد أن يعيدوا كل شيء إلى مكانه «هيَّا بنا ، اركضوا الآن يا أطفال ، حان وقت النوم» .

مرة واحدة فقط .

لأنهم مطيعون وأحسنت تربيتهم ، فهم يركضون خارجين من

الغرفة ويصعدون الدرجات بأقل قدر من التذمر . بعد استقرارهم في فراشهم ، تعود آن نازلة الدرجات ، وقد اتخذ مراد وليلى طريقهما إلى الفراش ، بينما بقي قادر باشا يقرأ وحده في الصالون .

تسأله آن «هل تسمح لي بالذهاب الآن يا قادر باشا؟» .

يرفع رأسه عن كتابه ويلوِّح بيده بتعبير ودي .

«نعم طبعاً . إلى اللقاء يا عزيزتي . سنراكِ غداً ، إن شاء الله!» .

قدمت آن امتنانها وقفزت خارج الباب مبتسمة .

تقافزت نازلة الممر القصير للحديقة الصغيرة ثم أبطأت سرعتها عند البوابة وحاولت أن ترسم تعبيراً أكثر جدية . حدقت في العتمة خلف السياج النباتي النامي حول بوابة مراد إلى ارتفاع أعلى من رأسها بقليل فرأت شاباً يحوم قريباً منها .

ملابسه راقية ببذلة حسنة التفصيل وبدون معطف خارجي بسبب دفء الأمسية . سحب نفساً عميقاً من سيجارته وهو يحدق أمامه ، غائباً في أفكاره الخاصة .

كذلك وقفت عربة وسائقها عند زاوية الشارع المليء بالأشجار ، ينتظران .

نادت آن على الفتى بصوت أقرب إلى الغناء

«*بونسوار* مارسيل!» .

رفع مارسيل رأسه وألقى بسيجارته ثم توجه اليها .

«*بونسوار* آن!» .

خرجت من خلف السياج إلى الرصيف وتعانقا .

سألت أثناء ابتعادهما «هل كل شيء على ما يرام» .

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة

«كل شيء على ما يرام» .

تناول يدها وسار بها عائداً إلى العربة حيث فتح الباب وساعدها على الصعود قبل أن يستدير نحو السائق .

سأله الرجل «الى أين نحن ذاهبون يا سيدي؟» .

لم ينظر السائق إليه أثناء تكلمه ، لكن مارسيل فسَّر الأمر على أنه نوع من كراهية الأجانب ولم يعد يفكر فيه . الآن وسط العتمة ، لم يتمكن حتى من رؤية وجه الرجل المتلفح بياقة معطفه الخارجي وقبعته النازلة .

قال «إلى مطعم مينلو باتجاه مضيق البوسفور» .

جاء صوت آن من داخل العربة قبل أن يتمكن السائق من الإستجابة .

قالت «لا أعتقد أنها فكرة حسنة» .

عاد مارسيل إلى الشباك وأخرج مفتاحاً ضخماً .

«سنأكل أولاً ثم نذهب إلى بيت ميخائيل . إنه متغيب لمدة يومين ، هل تذكرت؟» .

ابتسمت آن لنفسها في العتمة حين رأت المفتاح .

قالت «دعنا نقفز عن المطعم ، سنشتري بعض الطعام ونذهب إلى بيت ميخائيل فوراً» .

نفض مارسيل كتفيه واستدار نحو السائق .

«لا بأس ، لنذهب إلى فيريكوي» . وصعد إلى داخل العربة .

بعد أن استقر مارسيل ، نقر السقف مشيراً إلى السائق بالتحرك . رفع اوسيب قبعته ونظر خلفه .

قال «كما تريد يا سيدي» وطرقع بالسوط ليحث الجوادين على المسير . السائق هو أوسيب نازاريان .

***

استغرقت الرحلة أقل من خمس عشرة دقيقة ، بمجرد وصولهم وتوقفهم أمام البيت ، ترجل مارسيل وآن ولوحا لأوسيب لينصرف . بينما هو ينعطف في الزاوية ، نظر السائق أوسيب إلى الخلف ليرى مارسيل يسحب المفتاح من جيبه ويتمشى صاعداً ممر الحديقة بينما آن مستندة إلى ذراعه .

عاد مارسيل بعد بضع دقائق خارجاً وحده وعبر الشارع الهادئ باتجاه البقالة الوحيدة التي بقيت مفتوحة . مصباح غازي وحيد مشتعل فوق بابها ، وقد رن الجرس بمرح لدى دخوله . أنهى شراءه واستعجل المستخدم خدمته وإخراجه من البقالة لكونه متشوق للانصراف إلى بيته هو الآخر . خلال خمس دقائق ألفى مارسيل نفسه عائداً إلى الشارع يحمل كيساً فوق كل ذراع .

انعطف جانباً أثناء دخوله عبر باب الحديقة ثم صعد الممر نحو الباب الأمامي لبيت صديقه .

توقف هناك وهو يفكر بأفضل طريقة لإخراج المفتاح من جيبه بدون أن يضطر إلى وضع أي من الكيسين على الأرض .

لم يشاهد اوسيب يجيء من خلفه ويدس السكين في رقبته : جاءت الحركة صامتة واليد الموضوعة على فمه سريعتين إلى درجة أنه لم يتمكن من قول شيء أكثر من «أوه» قبل أن يغيب عن الوعي . تخلت ساقاه عنه وانهارتا تحته ، ثم سحب اوسيب جثته نحو الشجيرات أمام البيت . احتاج اوسيب إلى لحظة حتى ينظر في محتويات الكيسين وقرر أن يدخلهما معه .

لاحظ خلو الممر أثناء دخوله ، ولم يحاول أن يخفي صوت انغلاق الباب الأمامي خلفه .

سمع الفتاة تنادي من الطابق العلوي

«آمل أنك قد أحضرت بعض النبيذ يا مارسيل . رغم أننا لن نحتاجه هذه الليلة!»

ابتسم اوسيب لرنة السعادة في صوتها . مشى إلى المطبخ عند نهاية الممر ووضع الكيسين على النضد . استدار وبدأ يصعد الدرجات متمهلاً .

نادى «أين أنت؟» .

جاءه الرد «أين تعتقدنين سأكون؟» .

لاحق أوسيب صوتها إلى غرفة النوم الصحيحة ودخل . كانت آن قد دخلت في الفراش ، فقفزت رعباً لمرأى الغريب يدخل عبر الباب ويقف في مواجهتها . جلست مستندة بسرعة وسحبت الملاءة حول كتفيها بحدة .

قالت «من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟» .

الرجل أسمر البشرة ويرتدي ثياباً غالية الثمن ، ويحمل تعبيراً من الرعب يماثل بشاعة وجهه . ألقى المصباح الذي كانت قد أشعلته على طاولة الغرفة ظلالاً مزعجة من جانب وجهه .

قال «يحتمل أن ألقي عليك السؤال نفسه . من أنت؟» .

«إنني صديقة مارسيل الحميمة ، و . . . . آه» . اكتسب وجهها تعبيراً من الانفراج «لا بد وأنك ميخائيل!» .

استرخى وجه أوسيب وتحولت تكشيرته إلى ابتسامة عريضة .

قال «نعم ، أنا هو» .

«حسناً ، كان يفترض فيك أن تغيب لمدة يومين آخرين!» .

قال «لقد عدت مبكراً . لابد أنك آن . لقد قال مارسيل إنك تعملين في بيت مراد بك . ما الذي تفعلينه هناك؟» .

عاد التوتر إلى آن تدريجياً وشدت الملاءة حولها بحدة مرة أخرى .

قالت بصوت خفيض «أنا مجرد مدرسة . أنا أعلِّم الأطفال» .

«وهل جئت إلى تركيا لمجرد أن تعملي كمدرسة؟» .

«نعم» .

نفض أوسيب رأسه «لا أصدق هذا يا آنسة . لابد وأن لديك أسباباً أخرى حتى تحضري كل المسافة من فرنسا إلى تركيا» . توقف واتخذ وضعية التفكير للحظة ، ثم حدَّق فيها

«إن مراد بك يعمل لدى دائرة المخابرات التركية ، فهل تعرفين ذلك؟» .

«كلا ولا يهمني ما يفعله . أنا فقط أقوم بتدريس الأطفال» .

«أنت اذاً لا تعملين لدى القنصلية الفرنسية كجاسوسة على سبيل المثال؟» .

كادت تضحك «طبعاً لا . ما كنت لأقوم بمثل ذلك العمل أبداً» .

جلس اوسيب قبالتها على طرف السرير وأضاف قائلاً .

«لكن فرنسا لديها جواسيسها هنا فعلاً . جواسيس يتسللون إلى بيوت كبار المسؤولين الأتراك ذوي الرتب الرفيعة تحت أكثر التغطيات براءة» .

«حسناً ، ذلك صحيح» .

«أعتذر إذا كنت أزعجتك بمثل هذه الأسئلة» . خفض صوته في هذه اللحظة ومال إلى الأمام

«لكنني أعمل لدى الأمن الفرنسي ، وأعتقد أنك يجب أن تعملي لبلادك أيضاً . لدي المزيد من الأسئلة . هل يتحدث النقيب مع زوجته عن عمله؟» .

«نعم ، يتذمَّر أحياناً من أنشطة الأرمن والروس والفرنسيين . يتحدث أيضاً عن السلطان» .

تزايد اهتمام اوسيب بشكل واضح لدى سماعه الجزء الأخير وحتى أنه استثير . مال أكثر إلى الأمام تاركاً أقل من قدمين بينهما في غرفة النوم الصغيرة .

قال «هكذا إذاً ، وما الذي يقوله عن الأرمن؟» .

فيما يتعلق بآن ، فقد أخذ انزعاجها يتعاظم لكونها محشورة بهذه الدرجة من القرب مع هذا الرجل الغريب أثناء وجودها في الفراش . حتى لو أنه صديق مارسيل .

سألته «آه ، هل تمانع في أن ننزل إلى الطابق السفلي؟» .

اعتدل اوسيب في جلسته وتلفت حواليه وكأنه أدرك لتوه أين هما موجودان وقال .

«بالطبع ، سأكون في المطبخ» . نهض وأحنى رأسه ثم خرج .

مع نزول آن إلى الطابق السفلي وقد أعادت ارتداء ملابسها ، كان النضد قد أخلي وجلس أوسيب إلى طاولة المطبخ وقد عقد يديه أمامه بأناقة . أصبح يتحتم عليها أن تمر بجانبه إذا أرادت أن تصل إلى الباب الخارجي . عندما رأته جالساً هناك ينتظر ، أحست برعدة تسري في جسمها .

رفع رأسه لدى سماع خطواتها وابتسم . مدَّ يده مشيراً إلى الكرسي المقابل له .

جلست

كرر القول «وهكذا . ما الذي يقوله عن الأرمن؟» .

«حسناً ، لقد ذكر قبل أيام مؤامرة حول قتل السلطان» .

«كيف حصل على الأخبار؟» .

نظرت إلى يديها الجالستين في حضنها «لا أدري ولكنهما تحدثا عن جنيف» .

«وهل بحثا في أية احتياطات يمكن أن يتخذوها لحماية السلطان؟» .

بدأت يداها تشدان ثوبها «لا أعرف وكما قلت : أنا لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور» .

«ماذا عن أصدقاء النقيب؟» .

«إنه يتكلم عن اكيموس وهو تاجر جواهر ثري أو مدير بنك» .

«وهل يتلقى النقيب المال منه؟» .

«ليست لدي طريقة لأعرف ذلك ، لكنني لا أعتقد أنه يفعل . لأن حماه قادر باشا رجل فاحش الثراء . ما أعرفه هو هذا : كثيراً ما يحتاج اكيموس مساعدة منه ، وبالمقابل هو يصطحب مراد بك إلى الحانات التي توجد فيها نساء كثيرات» . قالت الجزء الأخير بصوت منخفض يكاد يكون همساً .

ارتفعت عيناه عن الطاولة وحدقتا فيها مباشرة .

«هل تقصدين بيوت دعارة؟» .

أدركت أن أنها صرحت بأكثر مما قصدت وهزت رأسها بخفة وعادت إلى التحديق في يديها . بدأت يداها تنبشان بقعة متخيلة في حضنها .

مال إلى الأمام

«هل حاول النقيب أن يمارس الحب معك؟» .

حدجته بنظرة عنيفة قائلة

«كلا ، أنت لا يحق لك أن تطرح عليَّ كل هذه الأسئلة . لا يحق لك أن تقول لي هذه الأشياء ، حتى ولو كنت صديق مارسيل» .

عاد إلى الاستناد بظهره «لا بأس . أنا آسف ولن أطرح المزيد من الأسئلة» .

طمأنها الاحتقان في صوته فاسترخت . نهض واقفاً وقد رسم تعبيراً ودياً صريحاً على وجهه ثم خطا نحوها . وضع يده بخفة وتطمين على كتفها ثم تحرك ليقف جانبها . استدارت قليلاً ورفعت رأسها نحوه مبتسمة . جاءت يده الأخرى بطرف حبل في حركة متدرب عليها ، ولفه حول عنقها ثم قام بخنقها بيديه الاثنتين . قاومت لكن جاء حتفها رحيماً وسريعاً .

بعد دقيقة تراجع الركل في قدميها ثم توقف كلياً وارتخت يداها لتسقطا إلى جانبيها .

سحب جثتها إلى الدرجات وحملها عائداً بها إلى غرفة النوم . وضعها بلطف على الفراش الوثير كما لو كانت نائمة ثم عاد نازلاً إلى حيث ترك مارسيل .

بعد أن وضعهما راقدين جنباً إلى جنب ، نزل مرة أخرى وفتش خزائن المطبخ . كما توقع ، وجد صفيحة الكاز تحت المجلى . شعر وهو يرشه حول الفراش والجسدين مثل قسيس يتعامل مع الماء المقدس ويمنح البركة النهائية . افرغ الصفيحة وذهب إلى باب الغرفة حيث تناول المصباح عن الطاولة القريبة أثناء خروجه . قذفه من هناك إلى الجدار فوق الفراش حيث انفجر ملتهباً . انتظر حتى التهمت النيران الملاءات ثم غادر .

الفصل الخامس والثلاثون

يعود تاريخ منطقة البيوغلو في استنبول إلى حقبة البيزنطيين في وقت أطول بكثير من احتلال العثمانيين للقسطنطينية في نيسان من عام ١٤٥٣ . إذا كان لابد من ذكر الحقيقة ، ولا يوجد سبب لعدم ذكرها ، فإن للبيوغلو تاريخ يمتد عميقاً قبل ذلك أيضاً ، إلى الرومان الوثنيين القدماء وحتى إلى الإغريق الذين أنشأوا المدينة المسماة اليوم استنبول تحت اسم بيزانثيوم في أيام هوميروس . لقد شهدت هذه المنطقة مجيء وذهاب الفلاسفة والملوك والقساوسة والأباطرة وفي النهاية الأئمة والسلاطين على مر القرون . ربما كنتيجة للذكريات الطويلة المنقوشة في داخل الأرض هنا ، إن لمنطقة البيوغلو جواً يوحي بالعالمية ، وكأنها مفتوحة لكل القادمين بصرف النظر عن خلفياتهم .

في زمن البيزنطيين ، كانت موئلاً للتجار الإيطاليين القادمين من البندقية للشراء والبيع فيما كانت في ذلك الوقت المدينة الأكبر في أوروبا . سموها «جالاتا» ربما نسبة إلى الشعوب *السلتية* أو *الغاليّة* التي عبرت من هناك قبلهم ، لكن الاحتمال الأقوى هو من جالاكتوس ، الكلمة اليونانية التي تعني الحليب ، ما يعكس الاستخدام الأقدم لتلك المنطقة كمصدر للمنتجات الزراعية . عندما قاد أهل البندقية الجيوش النهابة لما سمي الصليبية الرابعة لنهب المدينة عام ١٢٠٤ ، قام الأباطرة بتسليم المنطقة إلى أهل جنوه ، منافسي أهل البندقية حينما استعادوا السيطرة على المدينة .

بنى أهل جنوه البرج الذي ما زال قائماً حتى الآن في بيوغلو عام ١٣٤٨، مرتفعاً فوق كل الأبنية الأخرى حتى يومنا هذا، وكأنه يذكرهم بماضٍ كان سيتم نسيانه لولاه.

دافع أحفادهم عن «برج جالاتا» هذا عندما اندفع الأتراك إلى داخل المدينة في النهاية في ذلك اليوم الربيعي الدافئ بعد قرن من الزمان. رغم أن السلطان سمح لهم بالبقاء لاحقاً، إلا أن أبناء البندقية عادوا وسيطروا على كل من البرج ومنطقة بيوغلو نفسها لفترة من الزمن.

بينما كان اوسيب وماريانا يتمشيان في المنطقة حالياً، برزت مظاهر التذكير بماضي المنطقة الإيطالي متناقضة مع المناطق الأخرى عبر القرن الذهبي التي انطلقوا منها.

البيوتات التجارية التي تحمل أسماء لاتينية تملأ الشوارع، وبدا كأن كل زاوية تحوي سفارة ما. حتى اسم الشارع الذي يسيران فيه «جراندرو دي پيرا» ميَّزها كشيء مختلف عن الثقافة السائدة لباقي المدينة. راقبت ماريانا عربة ترام تهدر عابرة الشارع وتذكرت دهشتها من رؤية الترام على هذا الامتداد شرقاً أثناء زيارتها الأولى.

كذلك أعادت إليها دمدمة القطار السائر تحت قدميها «التانيل» ذكريات رحلتها الأولى. الأنوار الكهربائية متدلية من أعمدة فوق رأسها ومعها أسلاك الهاتف، أعلى مرتبة في الرقي، معلقة بين الأعمدة.

وصلت إلى أنفها رائحة القهوة والمعجنات في المقاهي ذات الطابع الفرنسي المنتشرة في الشارع أثناء مرورهما، وتاقت إلى الجلوس إلى إحدى الطاولات الخارجية لتستمتع بالشمس لفترة ما. لكنها أدركت بكل الأحوال أن أوسيب لن يسمح بذلك، لا الآن ولا حتى بعد موعدهما.

سار إلى جانبها بطريقته المعتادة، مطأطئاً رأسه وقد حشر يديه في جيبيه، متقدماً بنصف خطوة باستمرار. بقي غارقاً في أفكاره فلم يقل شيئاً.

أعطى كل من جسمه وهيئته الانطباع بأنه سيدفع بأي شخص يقترب منه أكثر مما يجب بعيداً عن طريقه، ونتيجة لذلك ابتعد عنه جميع المتمشين الذين مروا به بمسافة مريحة. توقف عند مدخل المصرف وصعد الدرجات الثلاث إلى المدخل، ولم ينظر إليها ولا إلى البواب الذي أمسك له بالباب ليدخله. فالحقيقة هي أن اوسيب افترض على الدوام أن الآخرين سيتبعونه. لم يضطر إلى الانتظار طويلاً في الداخل بعد أن جعل حضوره معروفاً لرجال الأمن الجالسين إلى نضد الاستقبال، حيث برزت لهما سكرتيرة وقادتهما إلى المكاتب الرئيسة في الطابق العلوي.

مكتب اكيموس قريب من القمة، أو هو على الأقل أقرب ما يمكن أن يصل إليه الشخص بدون أن يصل إلى المناصب الأرفع. وسيع رحب وطاولة مكتب من خشب البلوط المطلي إلى درجة اللمعان بلون داكن. لاحظت ماريانا وجود آلة الطباعة خلفه إلى اليسار وأعجبها ذلك. معظم الرجال في وضعه يعتمدون على الآخرين للقيام بالطباعة عنهم.

ولكن اكيموس ليس مثل باقي معظم الرجال، وهناك قليل من الشك في أن الكثير من مراسلاته لا يراه إلا الناس الذين يكتب إليهم. صافح يد أوسيب بقوة وتناول يد ماريانا ليقبلها قبل أن يشير لهما بالجلوس إلى الكرسيين الموجودين أمامه.

قال «جميل جداً من العقيد پوپوف أن يرسلكما إليَّ. ما الذي يمكنني أن أفعله لكما؟ هل أنتما بحاجة إلى أي رصيد؟».

ارتسم طيف ابتسامة على وجه أوسيب ، ولفت ماريانا ساقيها ثم أعادت لفهما فوق بعضهما بعضاً . جلس المصرفي متودداً وقد عقد أصابعه فوق كرشه الضخم .

قال أوسيب «كلا ، في الواقع أننا سمعنا بأن صديقك مراد يبحث عن مدرِّسة فرنسية أخرى . وقد رشح العقيد پوپوف زميلتي لذلك المنصب . أعتقد أن مراد سيقبل بتوصيتك» .

هزَّ اكيموس رأسه بأسلوب العارف وأفرد ذراعيه على اتساعهما .

«هذا أمر يمكن ترتيبه بسهولة ، ولكن يجب علينا أولاً أن نعرف السيدة إلى مراد ، مع توصيتي بالطبع ، كما ينبغي عليها أن تطلب الوظيفة بنفسها . ستكون تلك هي الخطة الأفضل» .

بان على أوسيب الشك

قال «لكن ذلك سوف يستغرق وقتاً طويلاً» .

رد اكيموس بمنتهى الكياسة «كلا ، إنه قادم للعشاء في بيتي هذه الليلة . لماذا لا تنضمين إلينا يا مدام؟ إن زوجتي فرنسية هي الأخرى ، وبإمكاني أن أقدمك على أنك شقيقة زوجتي» .

تقدمت ماريانا في جلستها إلى الأمام «ما الذي تقصده؟» .

دقق المصرفي النظر اليها وشاهد صلابة الصوان في العينين الباردتين .

قال «اسمعي ، أريد أن أتكلم بوضوح . النقيب يحب اللهو» . وحدق في وجهها بدون أن ترمش أجفانه «هل فهمت ما أقصده؟» .

ساد الصمت لحظات .

قال أوسيب مع هزة رأس «حسناً ، ما هو اسم شقيقة زوجتك؟» .

بيت اكيموس بدرجة الفخامة التي توقعتها ، فالغرفة الرئيسة مفروشة بالسجاد والجدران تملأها المطرزات . استمتعت ماريانا بدفع

قدميها الحافيتين في الأرضية حيث تمسك بوبر البساط الشبيه بالصوف الناعم بين أصابع قدميها وترفعه . استطاعت أن تخدع نفسها للحظات وتتظاهر بأنها موجودة هناك لمجرد الاستمتاع بكرم الضيافة .

تغير ذلك الإحساس عندما أعلن الخادم وصول مراد بك واكتسب الجو مزيداً من التوتر .

تم إبعاد ماريانا إلى الغرفة التالية . بالنسبة لمراد ، فهو لم يلق بالاً لكل الألاعيب التي كان يمارسها صديقه المضيف بعد أن جلس وأخذ يدير عينيه فيما حوله ، وقد خامره إحساس بالتفوق لكونه عضواً محترماً في شرطة السلطان . استمر اكيموس في إظهار الاحترام وشارك في صب الشاي الذي كان الخدم قد احضروه إلى المائدة .

أمسك مراد كوب الشاي بكلتا يديه وابتلع بأدب قبل أن يرفع رأسه نحو مضيفه .

«إنني في غاية الأسف لعدم تمكن زوجتك من الانضمام إلينا» .

«نعم ، انني آسف بدوري لكنك تعرف النساء الفرنسيات . لقد اضطرت إلى القيام بزيارتها السنوية لعائلتها في فرنسا . أخشى أننا سنكتفي بوجود شقيقتها» . قال اكيموس محتفظاً بالابتسامة التي ارتسمت على وجهه منذ بعد ظهر ذلك اليوم . مضيفاً «إنها معلمة لغة فرنسية مذهلة» .

وضع مراد كوب الشاي الذي يحمله على الطاولة «آه . . . هل قلت مدرِّسة فرنسي؟ لقد فقدنا مدرِّستنا . خرجت واختفت بكل بساطة» .

لم يبد على اكيموس أي انزعاج .

«لابد وأن الرغبة في الذهاب إلى الوطن قد اشتعلت بداخلها» .

هزَّ مراد رأسه موافقاً على هذا القول وقد بدا عليه التفكير ، ثم عاد

وتناول كوب الشاي . استطرد اكيموس «إنني لأعجب مما يؤخرها؟» .

عند هذه العبارة المتفق عليها ، أدخل أحد الخدم ماريانا التي بدت مبهرة في ثوب يكشف عن صدرها كانت قد اختارته لهذه الأمسية . اتسعت عينا مراد وأصبح واضحاً أنه معجب بما يرى . نهض أكيموس ومشى نحوها ثم تناول يدها .

قال بلهجة من يقوم بتقديم فرد من العائلة المالكة

«هل تسمح لي بتقديم شانتال ، شقيقة زوجتي؟» .

نهض مراد بدوره لتحيتها وتناول يدها من مضيفه قائلاً بصوت خفيض «تشرفنا يا مدام» .

أحنت هي الأخرى رأسها وابتسمت بدفء .

«إنني في غاية السعادة لكوني أتعرف على ضابط تركي متميز مثلك . آمل أن يكون ثوبي المتواضع ملائماً لشخص في مثل منصبكم الرفيع» .

زفر مراد بقوة طارداً الهواء من فمه وقال ببساطة «إنه مدمِّر!» .

لم يخف تفحصه لكل انحناءة في جسمها وهو ما زال ممسكاً بيدها وقد تعمدت عيناه التمهل .

مال مقترباً منها

«هل أعجبتك مدينتنا استنبول؟» .

داهمها السرور وأضاء وجهها مثل فتاة صغيرة .

قالت بصوت مرتفع «إنها غريبة جداً ومذهلة ، لقد أجببتها» .

بات جلياً أن مراد مأخوذ بما يراه ، فجلس بدون أن ينزع عينيه عنها .

سألها «وما الذي تخططين للقيام به هنا؟» .

قالت وهي تجلس بمنتهى الدلال «لقد قدمت بضع طلبات لوظيفة

تدريس» واستمرت تسوِّي الطيات تحت ساقيها . ثم رفعت رأسها نحوه قائلة «وما زلت أنتظر الردود عليها» .

تبنى اكيموس موقفاً أبوياً وهو يربت على ركبتها .

«لست مضطرة إلى العمل يا شانتال . استمتعي بوجودك هنا . اجعلي من زيارتك إجازة بدلاً من العمل» .

اكتسب وجهها تعبيراً ينم عن الخيبة وكأنها تحمل هموم الدنيا كلها فوق كتفيها .

«الحزن هو أنني مضطرة للعيش ضمن إمكانيات مخفضة منذ وفاة زوجي» وزعت نظراتها بين اكيموس ومراد بالتناوب «وأنا مضطرة لأن أعمل» .

قال اكيموس .

«كلام فارغ! لست مضطرة لدفع الإيجار لجحر تعيس في منطقة خطرة من المدينة . إن بيتنا قادر على استضافتك بكل سهولة» . امتدت اليد لتربت على ركبتها مرة أخرى «ستبقين معنا يا عزيزتي» .

قالت «ذلك عرض في منتهى الكرم من قبلك . لكنني أريد أن أشتغل هنا في استنبول ولا أرغب في العودة إلى فرنسا» .

«وهكذا ، فهل مشكلتك الوحيدة هي العثور على وظيفة؟» أمسك مراد بكوبه مرة أخرى بين يديه الاثنتين .

لم يتأخر ردها ثانية «نعم وأخشى أنني بحاجة لها لأن الوظائف في فرنسا غاية في الندرة» .

أعادت كوب الشاي إلى المائدة ، ولاحظ اكيموس رعشة تكاد لا ترى في يدها .

قال مراد «لدي وظيفة لك» .

«هل هذا صحيح؟ أين؟» وصلت الدهشة لدى شانتال حد الانبهار .

«إن أطفالي بحاجة إلى مدرِّسة . بإمكانك أن تعلميهم اللغة الفرنسية» .

قالت وهي تصفق بيديها «أنا أقبل!» .

أفرد أكيموس ذراعيه «ذلك أمر عظيم!» .

رفعت شانتال كوب الشاي المثلج في بادرة نخب «الى رئيسي الجديد!» .

رفع الجميع أكوابهم وطرقوها ببعضها .

الفصل السادس والثلاثون

رقد أنطون في الفراش متستراً بالملاءة من الخصر نزولاً وهو يفكر في الضوء الأحمر الفج الذي ينعكس عن الجدران ليدخل إلى عينيه.

فكّر بدون الضوء الأحمر يمكن *اعتبار هذه غرفة في فندق رخيص... لكن محترم، مكان يستطيع فيه مسافر فتي أو رجل بإمكانيات متواضعة أن يشعر بالراحة.*

نظر إلى ايلينا وهي تدخن السيجارة التي قدمها إليها فيما بعد.

تحولت نظرته الكسلى من وجهها وسحابة الدخان التي تحيط به، إلى كتفيها الناحلين وذراعيها الهشّين. لم تتعب نفسها بالتستر بالملاءة فاستقرت عيناه على صدرها لوهلة طويلة. هي تعرف أن نهديها هما السبب في اختياره لها كلما جاء إلى هنا، لكنها لم تذكر ذلك أبداً. ذلك أمر جيد وفي مثل جودة السبب الآخر في اختياره لها وهو أنها مقلة في الكلام وتفعل كل ما يطلبه وقتما يطلبه.

مع الحماس أيضاً.....

هي مازالت فتية، ولو أنه ليست لديه فكرة كم هي فتية، لكنه خمّن أنها ربما تكون في حوالي العشرين. معدتها منبسطة وناعمة، الأمر الذي يحبه انطون أيضاً: عادة ما تتناول منه الهدايا الصغيرة التي يحضرها والمكونة في الغالب من الحلوى وتشكره بأدب قبل أن تنزع ثوبها الوحيد الرقيق وتصعد إلى السرير. كانت الفتيات الأخريات اللاتي عاملهن بنفس الطريقة يبالغن في ردود فعلهن على ما ظل

يعتبره أمراً جانبياً ، وأصبح بمقدوره أن يرى نتيجة مبالغتهن في تناول ما يقدمه على أجسامهن .

حينما كان يتم إيقافهن في صف لدى وصوله ، يدير وجهه عنهن كأنما ينظر إلى شيء عديم الذوق ويشير إلى ايلينا . أول ما لاحظه هو شعرها ، رأسها مغطى بشعر أسود ناعم طويل يكاد يصل في نزوله إلى خصرها . انجذب إليها انطون على الفور : لقد كان لدى الفتيات في بلدة موطنه شعر بنفس اللون ويسرحنه بالطريقة عينها . ذكرته حين سقط عليها الضوء الأحمر وهي تدير ظهرها له ، بأول امرأة اختلى بها ، مع أنه لا يستطيع أن يتذكر ذلك الآن إلا بصعوبة ، لأن كل ما يذكره هو أنها أشعرته بالحيوية والانعتاق بطريقة صعبة المنال في هذه المدينة . لم يكن انطون الرجل الذي يستكشف السبب في تأثير الظروف عليه بالطريقة التي تفعلها ، فهو يكتفي بالاستمتاع بها أو عدمه ، وظل يبذل اقصى جهوده للحصول على العنصر السابق أكثر من اللاحق .

استمرت عيناه بالنزول عن معدتها لتتمعن في الطريقة التي رفعت بها إحدى ركبتيها بمنتهى الراحة ، واضعة أسفل قدمها منبسطة على الفراش بينما أبقت الأخرى ممدودة .

بقيت مستلقية بمنتهى الشرود ، تحدق في الحائط المقابل ، والسيجارة مستقرة بين أصابع يدها اليسرى فوق ساقها . لدى رؤيته انعكاس الضوء الأحمر على شعرها الداكن ، أحسَّ بالإثارة تعاوده مرة أخرى ، رغم عدم انقضاء أكثر من بضع دقائق على المرة الأخيرة . رغم معرفته بمهنتها ، فقد أحسَّ برغبة عارمة لأن يدفن وجهه هناك بأعمق ما يمكنه .

نظر إلى ساعة يده وزمَّ شفتيه بينما هو يجري حسابات سريعة بالجمع والطرح داخل رأسه . أخيراً ، ألقى بالملاءة بعيداً عنه وهو كاره متردد ، ثم نهض واقفاً .

قال «أنا مضطر للمغادرة ولكنني سأعود» .

نفضت كتفيها واتخذت طريقها نحو المغسلة في الزاوية . ارتدى بنطاله وهو يراقبها إذ ترش ماء الورد تحت ذراعيها وبين ساقيها . ضايقه صمتها في هذه اللحظة لكنه لم يقل شيئاً . ارتدى صدارته وأغلق أزرار قميصه أثناء استمرارها في طقوسها .

بقي كأس الويسكي الذي أحضره فوق الخزانة الملاصقة للسرير ، بدون أن يلمسه . تناوله وشربه في جرعة واحدة مستمتعاً بالحرقة التي ترافق المقادير الكبيرة التي يقدمونها في هذا المكان . اقتربت من المرآة الصغيرة وتفحصت جانب وجهها بعناية .

أعاد الكأس إلى مكانها وهو يراقب مؤخرتها . تصاعدت الشهوة في داخله واضطر إلى مقاومة الدافع إلى الاقتراب منها واحتضانها .

لاحقاً . . . . . .

تخيل ردة فعل اوسيب لو هو تأخر . فقد حدث ذلك قبلاً .

لاحقاً . . . ادفع مقابل احتفاظك بها طيلة الليل . . . استمتع بوقتك وتمهل . . . اشرب بضعة كؤوس في الردهة خارجاً ثم عد إلى الداخل . . . .

هناك الكثير من الأموال الدائرة في محيطه . لديه ملء جيبه في البنطال الذي يغلق أزراره في هذه اللحظة . قبل سنة كانت ايلينا ترفاً لمرة في الشهر والآن يمكنه الحصول عليها كل ليلتين .

هنالك شخص في منتهى الأهمية يقوم بتمويل هذه العملية . إنهم يريدون أن نحصل على كل ما نحتاجه ، حتى الأشياء الصغيرة مثل هذه . . . .

أعادت ارتداء ثوبها وهي واقفة تنتظره الآن . طوى سترته على

ذراعه وانتعل حذاءه . تناولت يده أثناء خروجهما في بادرة تقوم بها كل مرة ولا تعني شيئاً بحد ذاتها ، لكنها أسعدته في هذه الليلة لسبب ما ، فابتسمت ناظرة إليه إذ رأت وجهه مبتهجاً . نزلا الدرجات سوية وأوصلته إلى المدخل ليودعها ولكن قبل أن يتمكن من الكلام كانت قد رفعت ذراعيها وألقت بهما حول كتفيه .

بادلها البادرة وقد ملأته الدهشة حيث أحاطها بسهولة بذراعيه الضخمتين ، وقفا على ذلك العناق الصامت لوهلة . أرخت ذراعيها أخيراً إلى جانبيها .

«يجب أن أعود وإلا غضبت المدام مني» . قالت ذلك بتعبير جدي ولهجة طفولية جعلته يشعر بالحماية تجاهها .

كرر القول «سوف أعود» . ثم خرج إلى الشارع . غمره إحساس بالخفة والبهجة مثل رجل اكتشف لتوه كنزاً ما في آخر مكان يتوقع فيه وجوده . كاد يقفز وهو ينزل الدرجات .

احذر الآن أيها الفتى وتذكر أنها عاهرة .

لكنه لم يتمكن من مغالبة مشاعره . أحسَّ بخفة تكاد تجعله يطير في الهواء ، تماماً مثل أول مرة جرَّب فيها الأفيون . كاد يغفل عن الرجل الواقف في الزاوية عند نهاية الشارع مستنداً إلى الحائط عاقداً ذراعيه . رأى الرجل انطون قادماً فانتصب في وقفته ورفع الحافة العريضة لقبعته إلى مؤخرة رأسه . تمهل انطون في مشيته . بدأ الرجل يسير باتجاهه . استدار انطون ليذهب في الاتجاه المعاكس ورأى العديد من الرجال على الطرف الآخر للشارع . كانوا يمشون مسرعين باتجاهه . بدت وجوههم ممسوحة وخالية من القسمات تحت أنوار مصابيح الشارع الغازية وكأنهم أشباح . اكتسبت معاطفهم طيفاً غريباً من الصفرة . استدار انطون مرة أخرى وركض مذعوراً باتجاه الزقاق الواقع عبر الشارع . استطاع أن

يسمع صوت أقدامهم وهي تلاحقه ، فأدار رأسه ليرى الرجل الأول يركض الآن هو الآخر محاولاً أن يسد عليه الطريق . لكن انطون كان أسرع فاستطاع أن يصل إلى الزقاق بمسافة عشرين ياردا تفصله عن الرجل .

لم يفكروا في وضع أي شخص هنا ليسد عليه طريقه ، فاندفع باتجاه الطرف الآخر ، قدماه تطرقعان وتبثان الصدى عن الجدران الرطبة قبل أن تنضم إليهما أصوات أقدام ملاحقيه الشبيهة بأصوات الحوافر . اندفع نحو الطريق التالي وتلفت حواليه للحظة . لم يكن هناك أحد . استطاع أن يميز أحجار وهيكل برج جالاتا يلوح في البعد أمام السماء السوداء .

هواة

لو كانت هذه إحدى عملياته ، لوضع رجلاً في هذه البقعة بالذات مع مسدس في يده ، جاهزاً ليقتل أول شخص يعبر أو يطرحه أرضاً .

تخلى بسرعة عن شعوره بالرضى الذي خلفته هذه الفكرة وتلفت حوله . بدأت الأقدام تقترب من خلفه وانضمت إليها أقدام لآخرين من جانبي مكان وقوفه . لم يزعج نفسه بالنظر إلى هؤلاء الصيادين فقد أخبرته صيحاتهم كل ما كان بحاجة إلى معرفته .

لا يوجد مفر

اتخذ قراره وركض نحو البرج . وضع قدمه عبر الباب بدون أن يتمهل ثم رجع خطوة إلى الوراء ليدفع الباب بكتفه وينهي المهمة . تفتت الإطار المتعفن وبانت الدرجات خلفه .

اندفع يصعد الدرجات كل اثنتين أو ثلاثة دفعة واحدة وصمم

انطون على المضي قدماً وهو يقاوم انقطاع أنفاسه الذي ضيَّق على صدره وأبطأ سرعته . لم يكن الباب العلوي مقفلاً فخرج نحو الرصيف العلوي . انفتحت أمامه مناظر المشهد الليلي لاستنبول بأنوارها المتماوجة بلطف .

كان قد كره هذه المدينة في أول وصوله ، لكنه شاهد جمالها للمرة الأولى هذه الليلة . أمعن النظر في الجسر العابر للنهر والجامع الأزرق وآيا صوفيا إلى يساره وقد أضيئت جميعها بحيث بدت مثل نيران ليلية في العتمة . توقفت عيناه لتستريحا على قصر توپكاپي ، وابتسم .

لن يحدث هذا أي فرق : سوف تستمر المؤامرة قدماً حتى بدوني

اقترب ملاحقوه من قمة الدرجات في هذه اللحظات . تلفت انطون في أرجاء الشرفة والسياج المعدني المزخرف بسرعة ولم ير شيئاً يمكنه أن يستخدمه . لقد كان من الحماقة زيارة ايلينا بدون مسدس ، لكنه كان يشعر دوماً بأن الحماية القليلة التي يوفرها له مسدسه الوحيد لا تعادل مخاطرة اكتشافه أثناء أحد حملات التفتيش الروتينية للشرطة التركية .

وقف قريباً من جانب الباب ، بعيداً عن قدرة الراكضين إلى أعلى على رؤية العتمة . تكورت أصابع يده اليمنى لتشكل قبضة . كتم أنفاسه واستمع وانتظر . لدى خروج الرأس الأول من الباب ، لوَّح بكل ما لديه من قوة ملقياً بكامل ثقله خلف اللكمة بحيث أحسَّ بكمية هائلة من الرضى لسماعه قرقعة كسر عظمة الأنف لدى اتصاله بها . وقع الرجل إلى الخلف على الرجال الذين خلفه مباشرة وأوقعهم على الدرجات .

استغرقهم لم شعثهم وقتاً لا بأس به ، ثم عادوا ليصعدوا الدرجات بحرص أكبر في المرة الثانية ، مشهرين مسدساتهم .

تُرِك الرجل الذي هشَّم انطون أنفه خلفهم، راقداً مغمى عليه، وسط بركة متعاظمة من الدماء. دفع الرجل الجديد الذي تسنم القيادة بمسدسه أولاً عبر الباب وعندما لم يحصل شيء، دفع برأسه خارج الباب مستطلعاً. كان انطون جالساً على الحافة تحته بقليل، يبتسم له. خرج الرجل مشهراً المسدس نحوه وتبعه الآخرون حتى ملأوا المساحة الضيقة للممر حتى يحولوا دون أي محاولة هروب.

لم يكونوا بحاجة للقلق. فقد انتظر انطون حتى وصلوا إلى مسافة عشرة أقدام من حيث جلس ثم رسم إشارة الصليب وألقى بنفسه إلى الوراء نحو الفراغ الأسود.

الفصل السابع والثلاثون

صعد أوسيب الممر على التلة ، تاركاً أسوار المدينة خلفه في الظلال ، والمدينة نفسها نائمة خلفها . الحقول على جانبيه غارقة في العتمة ، لكنه يعرف إلى أين هو ذاهب .

أصبحت الممرات والمسالك هنا مألوفة لديه إلى درجة أنه قادر على قطعها مغمض العينين . تمسي معتمة في بعض الليالي الغائمة إلى درجة أنه ربما يمكنه فعل ذلك . لكن السماء في هذه الليلة صافية بقدر ما هو ممكن .

لم يكن بالإمكان رؤية النجوم من المدينة ، لكن القمر والنجوم مشعين هنا ، فكأنما قامت الطبيعة نفسها بإنارة طريقه .

النهارات حارة ودبقة في استنبول خلال شهر تموز . وهكذا فقد تصبب اوسيب عرقاً في بذلته الداكنة أثناء قيامه بجولاته ، فقد طوقته أجساد الناس والحيوانات في الشوارع الضيقة . تدحرجت حبات العرق حتى التصق القميص بداخل سترته بظهره ، لكنه لم يذكر ذلك لأي شخص قابله . ظل يبدو بالنسبة للآخرين غير مبالٍ ولا قلق من العناصر التي ترهقهم ببطء عبر ساعات النهار الطويلة . وجه أوسيب قناع من عدم المبالاة والعواطف المكبوتة المخفية لمنع أي شخص من التعرف على نواياه الحقيقية . لكنه كان يغلي في داخله .

وصل إلى ادوارد وكوستا ليجدهما جالسين على العشب الجاف فوقف فوقهما للحظة حتى أدركا أنه قد حضر . كان ادوارد غارقاً في

النظر إلى انوار المدينة ، يراقب مصابيح القوارب والسفن المتلألئة أثناء رسوها أو إقلاعها خارجة إلى المحيط .

أما كوستا فقد اضطجع على ظهره يسحب من سيجارته بعمق ويحدِّق في السماء .

أدار ادوارد رأسه بطريقة حالمة ونهض جالساً لدى رؤيته لأوسيب واقفاً هناك . صفع كوستا على ساقه ليحصل على انتباهه فقفز الآخر عندما شاهد الشكل الشبحي أمام السماء .

دسَّ كوستا يده في جيبه وأخرج علبة سجائره التي عرضها على القادم الجديد .

تناول أوسيب سيجارة بدون أن يخفف من نظرته غير الراضية عن كليهما .

قال «هل قررتما شيئاً ما؟» .

قال ادوارد «نعم ، ولكن ينبغي علينا أن نسألك أولاً» .

«اسألا إذاً» .

اشعل كوستا سيجارة أخرى من طرف الأخيرة .

«بناءً على المعلومات المتوفرة لدينا ، فقد أصبح السلطان متشككاً بشكل متزايد» .

أضاف ادوارد «ولا شك في أن جهاز مخابراته قد تلقى معلومات حول احتمال وجود محاولة على حياته» .

أنهى كوستا العبارة «ولكنهم لا يعرفون متى وأين يحتمل أن تحدث» .

«قل لي زبدة الكلام» . بقي أوسيب على غضبه .

قال ادوارد «إنه لا يغادر القصر إلا لثلاثة أسباب لشدة خوفه على حياته» .

استند في جلسته وأِشار إلى شكل قصر يلدز تحته .

«أولاً بمناسبة العيدين» . توقف ورفع رأسه باتجاه أوسيب «الفطر والأضحى» .

عبس أوسيب ولوَّح بيده ليدفعهما إلى الاستمرار .

أكمل ادوارد «إنه يغادر قصر يلدز أو يذهب إلى قصر دولما باهتشه تحت حراسة مشددة» . تحركت يده فوق المدينة نحو القصر الآخر الأكبر حجماً .

قال كوستا «ثانياً ، في الخامس عشر من شهر رمضان من كل سنة ، يذهب إلى قصر يلدز لحضور احتفال حوركه أي ساديت» .

«وثالثاً يذهب في كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة وتحية رعاياه في مسجد يلدز» . أنهى ادوارد سرد المعلومات .

استغرق تحليل المعلومات برهة من أوسيب وهو يجيل النظر إلى القصرين تحته ، ثم أدار الفكرة في رأسه .

قال «وهل هذا كل شيء؟» .

قال ادوارد «إنه لا يغادر القصر لأي سبب آخر» .

استدار اوسيب نحوهما «ألا توجد طريقة نستطيع بها أن نتسلل إلى القصر؟ ندفع رشوة لشخص ما؟ لدينا عملاء بين موظفيه» .

قال كوستا «ليسوا في مناصب مهمة» .

«هيًا ، غير معقول» .

قال ادوارد «ذلك مستحيل ، هنالك المئات من الجنود والحرس المدربين بدرجة جيدة في الداخل . ولا نستطيع أن نتأكد من الغرفة التي سيمضي فيها ليلته» .

طأطأ كوستا «يتحتم علينا أن نهاجمه خارج القصر» .

سأل أوسيب «حسناً إذاً ، أي من الخيارات الثلاثة يبدو الأكثر احتمالاً؟» .

«إن وسيلته في التنقل للرحلتين الأولى والثانية غير مؤكدتين ، ما يجعلهما أكثر خطورة بسبب كافة أنواع الاحتمالات غير المؤكدة» . قال ادوارد ثم نظر إلى كوستا .

«لكن الخيار الثالث ، أي زيارته الأسبوعية إلى المسجد» تبنى كوستا تعبيراً جدياً

«هو أكثر تأكيداً . ينبغي علينا أن نفكر فيه» .

«هل قمت بتوقيت حركته مرة أخرى؟» .

قال ادوارد «أربع مرات إضافية . إن التوقيت هو نفسه . دقيقة واثنتين وأربعين ثانية ليصل إلى عربته» .

صمت أوسيب لوهلة قبل أن يعاود الكلام . اتخذ صوته في هذه المرة إيقاعاً أهدأ وأبطأ .

قال «اتعرفان؟ لقد كنت أقرأ التقارير حول اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثاني . لقد قتلوه تماماً كما نخطط نحن لعمله . لقد تتبعوا مساره وزرعوا قنبلة على طريقه» .

حان دور كوستا في الإحساس بنفاذ الصبر «نعم ، نعم ، لقد درسنا كل هذا في المدرسة الابتدائية بموسكو . لقد وضعوا امرأة جميلة ترتدي ملابس حريرية عند زاوية الطريق الذي ستلتف منه عربة الكسندر . بمجرد وصول عربته عند الزاوية لوَّحت المرأة بمنديلها الحريري» .

هزَّ أوسيب رأسه مؤيداً «الإشارة لتفجير القنبلة» . عاود النظر إلى قصر يلدز وقال

«فلنفعل الشيء نفسه ، ولكن إذا كنا ننوي أن ننجح ، فعلينا أن نسرع في التنفيذ . إن الاستخبارات التركية تعمل بجد على كشف المؤامرة» .

نهض ادوارد ونفض الغبار عن ملابسه قائلاً «هنالك الآلاف من الأجانب في استنبول . كيف سيتمكنون من تفتيشهم كلهم ، سيستغرقهم الأمر إلى الأبد» .

قال أوسيب «ليسوا بحاجة إلى تفتيش كل أجنبي . هم بحاجة إلى ملاحقة الأفراد الذين أشار إليهم عملاؤهم فقط . لقد كان أنطون بصحبتي بالأمس وهو ميت هذه الليلة» .

كان ادوارد منشغلاً بنفض العشب عن ركبتي بنطاله . لكنه رفع رأسه قلقاً عند هذه العبارة

«هل أخبرهم بأي شيءٍ؟» .

هزَّ أوسيب رأسه نفياً «كلا ، فقد انتحر عندما أدرك أن الأمر قد انتهى بالنسبة له ، حيث قفز من فوق برج جالاتا ليتجنب الاعتقال» .

لاح البرج أمامهم على البعد في هذه اللحظة ، بارزاً من بين الأبنية الخفيضة المحيطة به .

«يجب أن نتصرف خلال الثماني وأربعين ساعة القادمة قبل أن يتم اكتشاف أحدنا أو جميعنا» .

في اليوم التالي كان النقيب مراد يتعرق في قصر يلدز جراء الحرارة من ناحية ، وتحديق العقيد مصطفى بك من الأخرى . استجمع مراد جرأته لينظر من فوق كومة الأوراق التي تمنح طاولة مكتب مصطفى بك منظر القلعة ، إلى الشباك المغلق فوقها .

تمنى مراد في هذه اللحظة بالذات لو يستطيع أن يقفز من الشباك إلى الحديقة خلفه ويفر هارباً .

قال مصطفى بك «لقد كان أنطون يعرف كل العملاء الآخرين . أمر سيىء جداً أننا لم نتمكن من استجوابه» .

حاول مراد أن يبدو واثقاً «سوف نقبض عليهم جميعاً في نهاية المطاف» .

«نحن *لا نملك ترف نهاية المطاف . ليس لدنا سوى الآن* . يمكن الإطاحة بالسلطان في أي دقيقة ، ومعه الأمل الأخير الذي لدينا في إنقاذ الامبراطورية العثمانية» .

«انني أتفهم ذلك» . لم يكن مراد بحاجة إلى التعبير المرتسم على وجه العقيد ليخبره أن منطقه بدا ضعيفاً .

سأل مصطفى بك «ما الذي اكتشفته حتى الآن؟» .

نهض مراد عن كرسيه بتثاقل وكأنه قد تلقى علقة على قفاه وذهب إلى خارطة استنبول على الحائط المقابل .

«يوجد ما يقارب أربعة عشر ألف أجنبي في المدينة ، معظمهم متركز هنا في بيوغلو والأحياء القريبة . لقد ضيَّق عملاؤنا البحث إلى قرابة مئة مشبوه بينهم .

كذلك ضيقنا هؤلاء إلى مشبوهينا الرئيسيين الثلاثة وهم جواسيس تابعين لقوات التحالف» .

كان مصطفى بك ينقر على الطاولة بإصابعه ثم بان عليه الاهتمام .

سأل «من هم هؤلاء؟» .

«إن المشتبه به الرئيس هو أوسيب . هو أرمني ولكنه يتنقل بجواز سفر وهوية فرنسيين . هناك مشبوهان آخران رئيسيان هما واحد اسمه السيد ليبارس والآخر السيد اريستيدي - كلهم جواسيسها معروفون يعملون هنا في استنبول . هل نقوم باعتقالهم؟» .

نفض مطصفى بك رأسه «كلا ، لن تكون قوى التحالف غبية إلى درجة إرسال أفضل جواسيس إلى الشارع لينفذوا عملية محاولة اعتداء

على حياة السلطان - لا تقبض عليهم ولكن أرسل من يتابعهم طيلة الوقت . دعنا نرى إلى أين سيأخذوننا» . دقَّ على الطاولة بإصبعه بقوة «ولكن لا تجعلهم يغيبون عن أعينكم» .

هزَّ مراد رأسه وعادا إلى الجلوس . «لقد دققنا في حسابات هؤلاء الناس المصرفية وعثرنا على عدة حوالات ضخمة من مصادر أجنبية . لقد دخلت كمية هائلة من المال في حساب اوسيب محولة من لندن وباريس» .

«حسناً وهل تعرفون أين يقيم؟» .

«نعرف أين كان يقيم ولكننا لا نعرف أين يقيم حالياً» . عبس مراد لمرأى زفرة مصطفى بك القوية لسماعه هذا الخبر .

«إنه يحتفظ لنفسه بخطوة يسبقنا بها دوماً . أقام لدى وصوله في فندق بيرا وانتقل بعد ثلاثة أيام إلى بيت خاص في ارناؤط كوي ، ثم انتقل مرة أخرى . كان صاحب ذلك البيت أرمنياً يدعى أنطون . وقد أمرت بملاحقته . . . .» .

«وانتحر أنطون قبل أن يتمكن رجالنا من الوصول إليه . لقد كان ذلك عملاً غبياً من قبلك . يفترض فيك أن تمنع دخوله إلى البرج» .

خفض مراد رأسه «نعم يا سيدي» .

«هل لديك أي فكرة عن مكان تواجد أوسيب الآن؟» .

قال مراد «إنه مختبئ» .

نزلت يد مصطفى بك لتضرب الطاولة بقوة جعلت الرجل الآخر يلتفت مندهشاً . نهض واقفاً وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، عاقداً يديه خلف ظهره .

قال «اسمعني . المرة الوحيدة التي ينكشف فيها السلطان هي أثناء صلاة الجمعة في مسجد يلدز . لدي إحساس بأن هذا هو الموقع الذي

سيحاولون قتله فيه» .

«وزع حراساً إضافيين حول القصر والمسجد ، وعلى الطريق التي يسلكها السلطان» .

«حاضر سيدي» .

«فتش كافة العربات المتواجدة في المنطقة أيام الجُمع . سوف يستخدمون الديناميت . ربما كمية كبيرة منه . حتى الإصابة غير المباشرة يمكن أن تكون قاتلة» .

«أعرف ذلك» .

«ومهما كلف الأمر يا مراد ، يجب أن تكتشف مكان إقامة أوسيب . أرسل كل رجل متوفر لهذه الغاية . بمجرد معرفتك بمكانه ، تصبح مراقبتك له أمراً غاية في الأهمية» .

هزَّ مراد رأسه موافقاً واستدار العقيد مصطفى بك ليواجهه . فهم مراد المقصود فنهض وأدى التحية ثم خرج مسرعاً .

بعد أربع ساعات ، كان واقفاً تحت مظلة مقهى في منطقة أرناؤط كوي . قهوته مرَّة بدرجة لذيذة وهو يفكر بسعادة أن هناك لحظات يستمتع بها فعلاً في خضم وظيفته . مراد بطبيعته رجل دموي المزاج . يحب طبيخ زوجته ويحب الأيام المشمسة الملائمة تماماً لرشف الشاي المثلج أو القهوة الحارة مثل هذه . كان يحب لو أنه تمكن من جذب انتباه الفتاة الجميلة الجالسة إلى الطاولة قبالته ، لكنه في نهاية المطاف موجود هناك في شأن رسمي . بذل أقصى جهده للتركيز على البيت المقابل له عبر الشارع ، لكن ذلك لم يمنعه من إلقاء نظرة عليها بين الفينة والأخرى .

هي حتماً أجنبية وسائحة على الأغلب ، تتناول برقة بملعقتها ما

بدا لمراد أنه بقلاوة المقهى المتميزة . استمتع بمراقبة تظهر السرور على محياها وهي تمضغ .

وصل تأثيرها عليه إلى درجة استمتاعه بالقهوة . عاد ليلتفت إلى البيت . هو بيت بلدي بلا أي ميزة أو ترف : قليل من الطوب المبني بطريقة فنية وشبابيك مطلية جيداً . لم يكن فيه ما يلفت الانتباه . نوع البيوت التي يمر بها الشخص كل يوم ولا يلاحظها - يحظى بصيانة حسنة ، لكنه ليس فقيراً ولا مبهرجاً . حتى علب الشبابيك جميلة لكنها ليست متميزة . طراز البيوت الذي سيرغب الناس الذين يبحث عنهم مراد في استئجاره بالضبط ، وقد تلقى إخبارية هذا الصباح تفيد بأن هذا هو البيت الذي يريده .

استرق نظرة أخرى إلى الفتاة . التقطت نظرته في هذه المرة ومنحته تلويحة صغيرة قبل أن تأخذ قضمة أخرى . أحسَّ مراد بدفقة مؤقتة من الإثارة ولوَّح لها مجيباً . تساءل عما إذا كان انضمامه إلى الفتاة أثناء مراقبته للبيت مفيداً . مؤكد أن وجود زوجين أقل لفتاً للانتباه من رجل وحيد يرشف القهوة في منتصف النهار . . . .

كان قد اتخذ القرار حينما لاحظ من طرف عينه ، شخصاً يتوقف عند الباب الأمامي للبيت . بحث الرجل بين المفاتيح في سلسلته ، وعندما نظر إلى الأسفل ، شاهد مراد جانب وجهه . كوستا . أفرغ محتويات قهوته ونهض خارجاً من المقهى مسرعاً نحو الرصيف . ابتسم للفتاة أثناء مروره ، فأجابته بتقطيبة تنم عن خيبة أملها .

عبر الشارع كان كوستا قد فتح الباب ودخل إلى البيت . رفع مراد يده ليوقف عربة ثم ركض خلفه . انتظر لحظة عند الباب وهو يعاين الشارع من الاتجاهين ، ثم وضع يده على مقبض مسدسه داخل سترته ودفع الباب .

الفصل الثامن والثلاثون

الباب مفتوح .

أدخل رأسه في الردهة فلم يشاهد شيئاً . الدرجات موجودة خلف الباب الأمامي مباشرة وهناك في أغلب الاحتمالات باب آخر يفضي إلى الصالون على يساره . دخل إلى البيت وأغلق الباب خلفه مصغياً بحدة .

لا شيء . دفع باب الغرفة الأمامية ونظر إلى الداخل ، فلم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته هناك أيضاً . الأثاث متوسط الجودة ومعتنى به ، لكن الغرفة مجردة من التزويق والصور ، ولا أي شيءٍ يمكن أن يضيف إلى المنزل شخصية محددة أو يجعل منه بيتاً عائلياً . تحرك بهدوء نحو الباب في الجهة المقابلة وأدار المقبض بما أمكن من الهدوء .

الغرفة التالية هي مطبخ فسيح يحتوي على طاولة وستة كراسٍ أمامه مباشرة .

رأى إلى يساره نضداً طويلاً يفصل منطقة تناول الطعام عن منطقة التحضير وأدرك أنه لا يعرف ما يوجد في ذلك الجانب من الغرفة حتى دخل إليه .

التفت إلى الخلف بسرعة ليطمئن إلى خلو تلك الجهة ثم دخل المطبخ مشهراً سلاحه . وجد مدفأة وبعض الخزائن على النضد ، لكنه لم يجد كوستا ، تمشى حول النضد حتى المجلى وكرر المسير نحو المخزن

في الخلف ، لا شيء أيضاً . استطاع أن يرى الساحة الصغيرة في الخارج من شباك المطبخ ، لكنه لم يتعب نفسه بالخروج من الباب الخلفي ليتفقد الساحة . هناك جدار حجري في آخر الساحة من المؤكد أن رجاله لن يتمكنوا من تسلقه . استعاد خطواته عبر الردهة وتوقف مصغياً لأية نأمة عند أسفل الدرجات .

حبس أنفاسه وأحسَّ بالفوز حينما سمع طقة جلية . أصاخ السمع وهو محتفظ بمسدسه مشهراً إلى الأعلى . سمع الطقة مرة أخرى . لكن هذه لم تكن آتية من الغرف العلوية . تأكد لمراد أنها آتية من المطبخ الذي غادره لتوه . بذل جهداً إضافياً للاستماع فجاءته الطقة مرة أخرى . ثار في نفسه التساؤل عن قدرته على السمع وحتى عقلانيته ، استدار مرة أخرى وهمّ بالعودة إلى المطبخ .

كل شيء في الغرفة الأمامية هو كما عهده ، الطاولة والكراسي في أمكنتها عند دخوله الأول . التقطت زاوية عينه الحركة متأخرة نصف ثانية ، حيث أصابت القدم المطوحة المسدس في يده عندما رفعه ليطلق النار . طار المسدس بعنف وفجَّر ثقباً في قصارة السقف ثم سقط إلى الأرض وانزلق مبتعداً .

هاجمه كوستا ممسكاً برقبته ومحاولاً خنقه . انفتل مراد وحرَّك جسمه في محاولة للإفلات واستخدم يده اليمنى لتوجيه ضربات إلى كليتي مهاجمه المكشوفتين وبطنه . أحسَّ بجسم كوستا ينكمش حينما أصابت إحدى الضربات وجهتها فسقطت يدا المجرم عن رقبته ليحمي نفسه . استغل مراد هذه الفرصة ليحرر نفسه ويتخذ وقفة الملاكم .

وقف كوستا بينه وبين الباب ، فأطلق لكمتين قبل أن يوجه ركلة خفيضة إلى فخذه .

رآه مراد وهو يتمايل ويعبس من شدة الألم فأتبعه بلكمة شديدة من يده اليمنى . بدأ أنف كوستا ينزف الدم ، فحاول مع صرخة غضب أن ينقض ليتعارك مع التركي الأصلب عوداً مرة أخرى . أثناء هجومه ، تنحى مراد جانباً ثم عاجله بركلة قوية من الخلف ليصدمه بالجدار . أدرك كوستا في هذه اللحظة أنه الشخص المحاصر وأن المزيد من العنف لن يساعده . بدا مثل حيوان محبوس في قفص إذ هو محشور بين الطاولة إلى جانبه ومراد أمامه .

سأله مراد بخشونة «ما الذي تفعله في هذا البيت؟»

«ليس ما أفعله هنا مهماً . يجب أن نخرج من هنا على الفور» .

حاول كوستا أن يهرب فرفع مراد قبضته اليمنى إلى كتفه ليعيده .

اختفى كل أثر لغضب كوستا ونظر للمرة الأولى في عيني مراد

«لقد زرعت لتوي قنبلة في الدور السفلي وستنفجر في أقل من دقيقة» .

«أي دور سفلي؟» .

«زرجوك» .

«أين هو أوسيب؟» .

«لا أعرف . إنه يتنقل باستمرار . أرجوك . يجب أن نغادر!» .

أدرك مراد أن الرجل جاد فيما يقوله

«أي دور سفلي؟» .

«خارجاً! في الساحة» .

نظر مراد إلى الخارج من خلال الشباك فقفز كوستا . دفع بمراد إلى الخلف واتجه نحو الباب . استقر الضابط جالساً على بلاط الأرضية وهو يراقب ظهر كوستا أثناء خروجه جرياً . فقفز واقفاً وانطلق خلفه . خرج كوستا من غرفة المعيشة وفتح الباب الأمامي . تمكن من نصف خطوة

إلى الخارج قبل أن يمسك به مراد ويديره نحوه .

انفجرت القنبلة في تلك اللحظة بالذات وتلقى المجرم قوة الانفجار بكاملها مواجهة ، انقذف كلاهما مسافة عشر أقدام إلى الخلف ووسط الشارع .

فتح مراد عينيه ليرى حوافر حصان جرٍّ ترتفع فوق رأسه ثم تستقر على مبعدة بضع بوصات قليلة من رأسه . كان السائق في الخلف يصرخ وكذلك كل الناس حوله على ما يبدو . انحنى فوقه شخص وأدرك أنه ما زال ممسكاً بياقة سترة كوستا بكل قوته . نظر تحته ورأى أن الرجل في حالة سيئة ، فقد طارت مقدمة جسمه واحترقت كلياً . لحظتها أدرك أن كتفه قد تمزق وانفتح ، وقد ظهر من وسط القماش الممزق ما يشبه اللحم المحترق . أرخى رأسه وغاب عن الوعي .

الفصل التاسع والثلاثون

بعد ساعات عدة، ألفى مراد نفسه يصعد الممر المؤدي إلى بيته بخطى متعثرة وهو يعاني من الدوار بسبب الأدوية التي أعطاه إياها الطبيب والإرهاق سوية. بذلته الصيفية ما زالت ملطخة بالدماء والسخام وحتى تراب الشارع حيث سقط، بينما أصبح ذراعه الأيمن معلقاً من رقبته بالرباط. أصيبت ساقه اليمنى بشخوط سيئة جراء السقطة التي أعقبت الانفجار، فصار يمشي وهو يعرج بدرجة ملحوظة.

لم يتذكر أنه تم إحضاره إلى المستشفى، بل مجرد أنه استيقظ على طاولة الفحص ليقال له إنه محظوظ لبقائه على قيد الحياة. فهم من الانطباع السائد لدى الجهاز الوظيفي في المستشفى أنهم يعتقدون بأن الحادث ناجم عن انفجار للغاز.

لم يبذل أي مجهود لتغيير قناعاتهم إلى أن اضطروا لاستدعاء ممرضين لتقييد حركته بينما هو يحاول أن ينهض ليكتشف أين هو كوستا.

«أنت لست في وضع يسمح لك بهذا! اضطجع وانتظر قدوم الطبيب». قالت له الممرضة البادية الصلابة.

جادلهم لعدد من الدقائق قبل أن يلجأ في نهاية الأمر إلى الكشف عن هويته كشرطي سري. حامت لديهم الشكوك: فهو يبدو مثل رجل مجنون بشعره الذي لفحته النار وبذلته المحترقة، لكن حضر بعد ذلك العقيد مصطفى بك مع حاشيته من الحرس. قاموا بإغلاق

الجناح بسرعة وإخضاع كوستا المشرف على الموت لحراسة مشددة. أحسّ العقيد بالخيبة لأنه ربما يفقد مشتبهاً به آخر، لكنه أثنى على عمل مراد الشرطي وشجاعته في تحدٍّ مخرب معروف.

ولكنه قال للنقيب مراد في حديث جانبي هادئ، إن الأفضل له الاستعانة ببعض المساعدة في المرة القادمة. وافق مراد فأمره مصطفى بك بالذهاب إلى البيت ليستريح وإذا شعر في الغد بأنه قوي بما يكفي، أن يحضر إلى العمل ليقدم إفادته ويكتب تقريره.

لم يكن في هذه اللحظة التي وصل فيها إلى باب بيته الخارجي يفكر بشيء آخر غير فراشه. دفع بيده اليسرى داخل جيبه بحثاً عن مفتاحه حين تذكر أنه فقده مع باقي محتويات جيبه. دق على الباب «ليلى خانم! يا ليلى».

انفتح الباب بعد لحظات، وبدلاً من زوجته، شاهد شانتال مدرِّسة أطفاله واقفة بالباب. أصيبت بصدمة واضحة من مظهره.

قالت «أووه... لقد خرجت زوجتك مع والدها».

تنهد وأحنى رأسه.

«مراد!» تناولت ذراعه السليمة وقادته عبر الباب إلى الداخل.

«ما الذي حدث لك؟».

ضحك لنفسه قليلاً «لقد كاد انفجار قنبلة أن يقتلني».

أرخت ذراعه لترفع يديها إلى وجهها مصدومة فكاد يقع أرضاً.

«آه يا إلهي! كيف يتجرأون على محاولة قتل ضابط تركي! هل تناولت شيئاً من الطعام؟».

مشى بعرج ملحوظ نحو الكنبة في غرفة المعيشة.

«كلا ولكن أين هي زوجتي، الأطفال...؟» قال هذا وانهار في مقعده. ركضت نحوه ورفعت قدميه على مسند الأرجل.

«لقد تركت لك ملاحظة . قالت إنها ستأخذ الأطفال إلى ترابيا وتنوي أن تقضي الليلة في كوخ والديها هناك» .

كل ما تمكن من قوله هو «أوه . . .» .

قالت مبدية الاهتمام «إذاً سوف أجهز لك شيئاً لتأكله . شيءخاص للاحتفال بعودتك سالماً إلينا» .

قال «لا» وهو يراقبها عندما أمسكت يداها ببطتي ساقيه ورفعتهما بلطف على المسند

«لا ، لقد تأخر الوقت كثيراً» .

رفضت كلامه بلفظة «توت» .

«ليس في الأمر أية مشكلة أبداً . إنني أنتظر قدوم السيد اكيموس ليقلني . . لقد حذرني قادر باشا قبل مغادرته من الذهاب بمفردي ولذلك عرض علي اكيموس أن يرافقني» .

لم يعد متأكداً .

«هل تظنين أنه سيحضر؟ لقد تأخر الوقت كثيراً» .

قالت «أنا واثقة من ذلك . لكن ما زال لدينا الوقت . اسمح لي أن أحضر لك فنجان شاي على الأقل» .

«ولكن يا سيدتي ، لا يبدو الأمر لائقاً أن نجلس . . . . ونأكل سوية . . . . وحدنا» .

تصنعت تعبيراً من البراءة ذكَّره بالتكشيرة التي أبدتها الفتاة في المقهى قبل أن يتعرض للتفجير بعد ظهر ذلك اليوم؟

سألته «لماذا؟» .

«نحن لسنا في باريس يا سيدتي» . قال ذلك وهو يحاول أن يبدو مصمماً .

«أنت أرملة وأنا رجل متزوج» . تنحنح وتبنى اللهجة التي

يستعملها حينما يحاضر أطفاله «في استنبول . . . .» .

قاطعته «أوه ، ولكن من المؤكد أن تناول كوب من الشاي سوية ليس أمراً بالغ السوء ، أم أنه كذلك؟» .

قال وقد هُزِمْ ، وليس بمنطقها كلياً .

«مجرد كوب من الشاي . بعد ذلك سأوصلك أنا إلى اكيموس» .

دفعت بشفتها السفلى إلى الأمام في بادرة انتصار .

«حتماً لا . أنت مصاب ولا يمكن أن أوافق على خروجك مرة ثانية . اجلس واسترح وسوف أحضر لك شيئاً أقوى من الشاي بقليل . . .» .

استند جالساً ليعترض ولكنها أشارت إليه بالعودة إلى الاستلقاء . قالت :

«شيء ليقويك ويعيد إليك عافيتك» .

سمع بعد خروجها صوت الإبريق يوضع على النار ليغلي من خلال الباب المفتوح على المطبخ . عادت بعد دقيقة تحمل صينية ملأى بالحلوى وقطع الكعك وضعتها على الطاولة بجانبه . بعد ذلك ركعت أمامه بدون أن تبعد عينيها عن عينيه وبدأت تحل رباط حذائه ببطء متعمد .

قال هامساً «يا مدام» .

«شوش» . قالت وهي تخلع حذاءه قبل أن تكرر العملية للحذاء الآخر .

انطلقت صفارة الإبريق فنهضت لتكمل عملها . عادت بإبريق شاي مع قنينة نبيذ وكأسين وجلست على الكنبة إلى جانبه . شربا بصمت في البداية وهي تصب له بسخاء من المصدرين ولا تفتأ تقترب منه كلما فعلت شيئاً . تناول النقيب رشفة نبيذ من باب التأدب ،

وعندما وجده لذيذاً جداً ، تناول رشفة ثانية أكبر . لم يكن الشرب مستهجناً بالنسبة له ، فقد كان سره في الاستمتاع بالكحول مكشوفاً لدى العديد من زملائه الضباط الذين يستمتعون بالشرب في أمسياتهم ، لكن لهذا الكأس تأثير قوي عليه . فكر بشرود أنه نتيجة لمزيج من أدوية الطبيب والكأس الذي يحمله في يده . على أية حال ، شعر بالاسترخاء للمرة الأولى في ذلك المساء ، غامرت بالسؤال :

«من الذي يمكن أن يحاول اغتيال ضابط مثلك ولماذا؟» .

لم يقل شيئاً بل اكتفى بتفحص حافة كأسه . حاولت مرة أخرى «هل تعرفهم؟» .

«نعم ، أنا أعرفهم . هم لم ينووا على قتلي . أشك أنهم كانوا يحاولون أن يطمسوا الأدلة . وقد صادف تواجدي هناك . كنت أبحث عن جواسيس أجانب . جواسيس يريدون . . .» .

توقف عن الكلام وقد أدرك أنه يتحتم عليه أن لا يقول المزيد لأنه قال أكثر مما ينبغي .

وضع كأسه التي فرغت أمامه واتكأ إلى الخلف وهو يفرك جبينه . مالت إلى الأمام وصبت له كأساً أخرى حتى الجمام . رفع يده قليلاً وهو يراقبها ، يتمعن في استدارة صدرها الضاغط على قماش بلوزتها الضيقة . أنهت السَّكب وأعادت القنينة ثم استدارت لتناوله الكأس وقد التقت عيناها بعينيه مرة أخرى . تقبل الكأس وسحب جرعة كبيرة تسببت في انتفاخ خديه للحظة .

«أشكرك . لقد كنتِ محقة : فهذا يعيد لي قوتي» .

أدرك أنه قد سكر وأنها اقتربت منه أكثر فأكثر بحيث التصقا عند الوركين والفخذين .

وصل دفؤها إليه برغم وجود بنطاله وتنورتها . تخيل أيضاً أنها

ناعمة . نزلت يدها ببطء

قالت «لدى النساء الفرنسيات طرق كثيرة لإعادة بناء الرجل» .

عندما لاحظت غياب أي مقاومة ، مالت إلى الأمام وقبلته . شفتاها المكتنزتان أنعم مما تخيله ودبقتان بعض الشيء بوجود أحمر الشفاه . استطاع أن يتذوق بقايا النبيذ الذي رشفته لتوها ، وتجاوب جسمه بقوة أشد مما توقع أنه ممكن .

بعدما بدا وكأنه وقت طويل ، استندت إلى الخلف .

«هل تعلم؟ أعتقد أنني قابلت بعضاً من هؤلاء الجواسيس في استنبول . لقد رأيت العديد من الأجانب في حفلة أول أيام وصولي إلى هنا وكانوا يتصرفون بغرابة» .

قال «أوه ، صحيح» . وعندما لاحظ أن صوته قد تهدج لشدة الإثارة ، تنحنح

«هل يمكنك أن تتذكري أية أسماء؟» .

«أحمق . كيف يمكنني ذلك؟ لكن كان هناك رجل فرنسي غريب الشكل غازلني مرتين» .

«هل هناك احتمال بأن يكون اسمه أوسيب مثلاً»

نفضت رأسها نفياً

«لم ألتقط اسمه أبداً يا حبيبي» .

وبَّخ نفسه على السرور الصبياني الذي أحسَّه من مناداتها له كذلك .

قالت «تعال . دعني أوصلك إلى فراشك . لن يعود أطفالك ولا زوجتك قبل مساء الغد» .

نهض متباطئاً وقد شبكت ذراعه ثم احتضنها بحجة الإستناد . أمسك بها بقوة أثناء صعودهما الدرجات سوية .

الفصل الأربعون

كما هي عادته ، جلس العقيد مصطفى بك مع صينية شاي كبيرة وبقية المعجنات التفهة في مكتبه قبيل الفجر ، بصحبة كم هائل من المذكرات والأوامر اليومية والصحف التي ينبغي عليه مراجعتها .

ذلك هو الوقت من النهار الذي يحس فيه بأكبر قدر من الصفاء الذهني ، وقد زاد في استمتاعه حقيقة خلو الشارع والمكاتب خارج نافذته والهدوء السائد .

شكلت النقرة على بابه من الخارج مفاجأة أكبر لدى قدومها . لم يكد مصطفى بك يمتلك الوقت ليفهمها ويهدر «ادخل» حين انفتح الباب ودخل حسين فهمي باشا . قفز العقيد خارج مقعده في وقفة تهيؤ وأدى التحية . لأن الصدر الأعظم لم يكن زائراً منتظماً لهذه المكاتب .

«اجلس أيها العقيد» . جاءت لهجة الباشا سهلة وودودة ، فجلس مصطفى بك قبل أن يتذكر البروتوكول فعاد إلى الوقوف وقدم لرئيسه مقعداً . تقبل حلمي باشا بكياسة وبدأ يتفحص الفوضى الهائلة التي بدا عليها المكتب وقد بان السرور في عينيه . غطس العقيد مصطفى بك في مقعده ببطء ، غير واثق من أين يبدأ الحديث .

سأل الباشا «هل توجد أية تطورات جديدة؟» . وأنقذه ذلك من حيرته ، لكن عينيه بقيتا تتفحصان محيطهما بدلاً من النظر إلى مضيفه .

«لا شيء مؤكد بعد يا باشا، لكن الأمر مقلق. هل هناك أي أمكانية لإقناع سلطاننا العظيم بتغيير برنامجه لصلاة الجمعة؟».

استدار الباشا وركز تحديقه في العقيد لثانية قبل أن يعاود النهوض ويتجه نحو النافذة. بينما هو ينظر إلى الخارج، لاحظ مصطفى بك أن كتفيه اللذين ما زالا عريضين قد انحنيا قليلاً. قال

«لن أجرؤ على اقتراح ذلك. لا يمكن إخافة جلالته من مجرد شائعات».

«ولكن يا باشا، لم تعد شائعات. هنالك خطر داهم وحقيقي. لدينا بعض المشبوهين الخاضعين للرقابة. هناك مؤامرة يجري إعدادها حتماً».

توقف بينما استدار الباشا ليواجهه.

«نحن فقط بحاجة إلى المزيد من الوقت قبل أن نقبض عليهم كلهم».

استدار الصدر الأعظم وبدأ يتخذ طريقه نحو الباب. توقف عندما وصل اليه.

«إذاً أحضر لي إثباتاً مؤكداً حتى أقدمه لصاحب الجلالة».

قال ذلك وانصرف وبقي مصطفى بك ينظر خلفه لوهلة. تبخر في هذه اللحظة كل الهدوء الذي أحسَّه في وقت سابق من الصباح، وكل ما تبقى لديه هو حفرة فارغة من الإحباط وسط معدته. تناول رشفة من الشاي كما لو أنه يرغب في ملئها واستأنف القراءة.

أشرق النهار دافئاً وبراقاً، وكان السلطان يقرأ صحف الصباح في مكتبه عندما دخلت جواشه ماشه كادين زوجته المفضلة عليه.

«متى كنت تنوي أن تخبرني؟» سألت بدون أن تحاول طرح السلام.

رفع رأسه مبتسماً وسألها

«أخبرك عن ماذا؟» .

حاول أن يبدو بمظهر البريء والشرير في الوقت نفسه ، وهي نظرة نجحت في استمالة زوجته مرات سابقة عديدة ، لكنها لم تكن ستفلح هذا اليوم .

«يا صاحب الجلالة : لا تعاملني وكأنني بلهاء! ليس هناك أمر يتعلق بك ولا يمر قريباً من أذني» .

اقتربت من الطاولة ووقفت مشرفة عليه وقد زرعت يديها بكفين مفتوحين عند الحافة . احتفظ بتحديقها لوهلة قبل أن يستسلم ويلقي الصحيفة . اعتدل في جلسته إلى الوراء ثم نظر إلى حضنه ورفع رأسه نحوها .

كيف دخلت هذه المرأة المدهشة إلى حياتي؟

بدأ يتكلم بصبر وأناة وصوت هادئ

«هنالك مؤامرات وخطط ضد العرش على الدوام . لقد ظل الحال هكذا دوماً . تلك هي طبيعة هذا المنصب» .

قالت «لكن هذا الوضع مختلف . هذه ليست مجرد عصابة من الفوضويين والمجرمين ، أهي كذلك؟» .

أدرك أن سؤالها عن كيفية حصولها على معلوماتها سيكون مضيعة للوت .

قال «كلا ، ليست كذلك ، لكن هناك الكثير من الإشاعات يا شمسي المشرقة . ليس هناك ما يستوجب قلقك» .

«هل تعرف من هم؟» .

«نعم أعرف» .

«وهل سيحدث شيء مثل هذا دائماً؟» .

«نعم ، هو أكثر من مجرد احتمال» .

«وهل تستطيع أن تفعل شيئاً لإيقافه؟» .

«يا كادين : لم يستطع الاسكندر الكبير نفسه أن يوقف المؤامرات والقتلة الذين هددوا حياته . وهكذا فليس لدى بقيتنا الكثير من الأمل» .

«أنا لا يهمني أمر الاسكندر عليه اللعنة! أنت الشخص الذي أقسمت على مشاركته حياتي» .

غامر بابتسامة مقتضبة .

«ما أقوله يا حبي هو أنه حتى أعظم الملوك والسلاطين وأقواهم يتحتم عليهم أن يتعايشوا مع الاحتمالية . سوف أرد الضربة لأولئك الذين يسعون إلى إيذائنا ، لكنني لن أصيبهم كلهم . ذلك هو ما يعنيه أن أكون سلطاناً وخليفة» .

ألقت نفسها في الكرسي خلفها وجلست تحدق أمامها ، وهي مخالفة رهيبة للبروتوكول ، لكنها من النوع الذي حال كلاهما إلى إهماله في ذلك الصباح .

***

وقف اوسيب في ساحة المستشفى ونظر إلى برج الساعة أمامه مع اقتراب الشمس من الغروب خلفه . ملابس القسيس السوداء معلقة حوله برخاوة ، وقد شعر أثناء قدومه إلى هنا بأنه يمتص كلاً من أشعة شمس ما بعد الظهيرة ونظرات المارة ويعكسها . كان شخص ما ينحني كل هنيهة ويقول «أبونا» بلهجة احترام ، واستمتع هو بمنح بركته بإحدى يديه ، بينما بقيت الأخرى ممسكة بالمسدس الموجود في جيب رداء الكاهن .

كان ادوارد قد اشترى بحكمته أثواب قسيس أرثوذكسي ، لأن

كوستا روسي والقساوسة الأرثوذوكس أكثر شيوعاً في شوارع استنبول، لكن اوسيب مرر يديه على ذقنه الناعمة وطلب منه أن يفكر للحظة. تفحص ادوارد وجهه حتى أصبحت المشكلة واضحة أخيراً، قال وهو يشير بتعبير طفولي.

«سوف نضطر إلى إحضار لحية اصطناعية مزيفة أيضاً!».

أحسَّ أوسيب بالرغبة في صفعه، لكنه اكتفى بهز رأسه وقال له بلهجة متزنة أن يذهب ويجد له ملابس كاهن كاثوليكي.

استغرق هذا الأمر بعض الوقت، والآن يقف أوسيب بثوبه وضخامته خارج مستشفى الحميدية للأطفال. أخبرته ساعة البرج أنه في الوقت المناسب تماماً، أي قبل تبديل الشرطي الحارس على باب غرفة كوستا بأربعين دقيقة. وسيشغل الرجال في الداخل أذهانهم ببيوتهم وعشائهم وأسرهم. إن الجلوس لمدة ثماني ساعات في ممر مستشفى فارغ يقضي على صبر أي رجل كان.

تذكر أنه قرأ في مكان ما بأن السلطان نفسه قد افتتح البرج قبل بضع سنوات، فقضى برهة وهو يتأمل الرخام والبناء الحجري معجباً بالديكور، الذي بدا لعينيه أوروبياً ويكاد يكون على نمط الباروك في تعقيده. فكر لنفسه أن عبد الحميد الثاني يمتلك ذوقاً رفيعاً ولو لم يكن لديه شيء آخر.

الرائحة في الداخل شبيهة بأي مستشفى آخر، تسببت المعقمات بصدمة لحاسة الشم عنده أثناء وقوفه لتحديد وجهته. رأى ممرضاً يشعل مصباحاً غازياً في الممر أمامه، ومجموعات ممن بدوا كأعضاء أسر يقومون بالزيارة يتدافعون من حوله. امرأة متقدمة في السن يمسك بها شاب وهي تبكي داخل منديلها ويصدر عنها عويل صاخب كل هنيهة. شاهدت اوسيب فتمالكت نفسها. أحنت رأسها وقالت

«أبونا» . رفع أوسيب يده اليمنى ورسم إشارة الصليب ، تماماً كما رأى القساوسة يرسمونها مرات عديدة .

انحنت المرأة مرة أخرى ووضعت رأسها على كتف الفتى . مشيا خارجين متبوعين بثلاث فتيات . حضر خلفهم ممرض آخر في نفس عمر الفتى المصاحب لوالدته ، يحمل رزمة مفاتيح كبيرة . مشى اوسيب نحوه وقال له .

«يجب أن أزور مريضاً هنا» .

حاول أن يحمِّل صوته نبرة سلطوية وكهنوتية بنفس الوقت ، مثل الكاهن العجوز في قريته ، لكنه لم يكن متأكداً من أنه يمتلك المزيج المناسب .

لأن من الصعب تغيير الغريزة العسكرية عندما يتعود المرء على إعطاء الأوامر .

ألقى الشاب نظرة سريعة على لباسه الديني وقال «أنا آسف يا أبونا لكن الوقت متأخر جداً على ساعات الزيارة» . وذهبت يده إلى الباب .

«أرجوك أن ترجع في الغد» .

ظل اوسيب واقفاً في مكانه . شكَّ في أنهم سيمتلكون ما يكفي من الشجاعة لمد أيديهم عليه .

«إذاً أنا مضطر لطلب مقابلة الطبيب الرئيس» .

عند هذا الحد ، أمعن الممرض النظر فيه للمرة الأولى وثارت شكوكه

«من أنت؟ وهل هو يعرفك؟» .

رفع اوسيب يديه مفتوحتين .

«ليس في الحقيقة . أنا كاهن من الكنيسة الكاثوليكية ومرسل من قبل رئيس المطارنة» .

نظر إليه الرجل بتمعن لفترة أخرى ثم أشار إلى «الكاهن» أن يلحقه .

لم يكن هناك أي اسم على مكتب كبير الأطباء أو أي مؤشر يميزه عن باقي الأبواب التي مر بها ، لكن الممرض نقر الباب بأسلوب ينم عن الاحترام وانتظر حتى تلقّى الإذن من الداخل حتى فتحه . بحلول هذا الوقت كان المستشفى قد أعتم وبدأ أوسيب يقتنع بأن الليل قد هبط في الخارج . علم أنه ما زال لديه بعض الوقت قبل وصول الحراس الجدد ، لكن هذا التبادل قد يستغرق وقتاً طويلاً . نهض الطبيب عن الأوراق التي كان يراجعها من خلف مكتبه حين رأى الكاهن يدخل الغرفة ، ولم يضيع اوسيب أي وقت قبل أن يمشي نحوه ويأخذ يده بين يديه الاثنتين .

قال أوسيب بحفاوة

«يا عزيزي الطبيب ، أنت تقوم بعمل نفيس هنا ويريد رئيس المطارنة أن يعلمك بأن ما تقوم به هو أكثر قداسة من عملنا المتواضع» .

استمر اوسيب في الإمساك بيد الطبيب والابتسام بعد أن أنهى كلامه . نظر إليه الطبيب من فوق إلى تحت وأعيته الكلمات كلياً .

قال أخيراً «أشكرك» . وندت عن أوسيب صرخة سعادة فعاد إلى هزِّ يده بقوة . استمر الطبيب يقول

«أنت في منتهى اللطف . هل أستطيع أن أساعدك بأي طريقة؟ لا أعتقد أنني حظيت بشرف التعرف إليكم . . .» .

ترك أوسيب يده أخيراً وضم يديه أمام خصره ، وكأنه على وشك البدء بالصلاة .

قال :

«سامحني . أنا جيوڤاني كاستالوني من كنيسة جالاتا

الكاثوليكية . وقد أصيب أحد رعايانا الأتقياء بحروق في انفجار وأحضر إلى هذا المستشفى . لقد أرسلني كبير مطارنتنا لأمنحه البركة والإعفاء في حال وفاته» .

صدرت عن الطبيب «آه» تنم عن المعرفة ، لكنه أوقف نفسه وسأل :

«ما هو اسم المريض؟» .

«كوستا هاغوبيان» .

ابتسم الطبيب

«آه ، نعم . إنه في الغرفة رقم ثلاثة عشر واحترق في ارناؤط كوي» .

«نعم هذا هو» .

عبس الطبيب «وهل منعك الموظفون من زيارته؟» .

«لقد تأخرت كثيراً عن ساعات الزيارة» . أجاد اوسيب تمثيل الشخص النادم .

«لكن ذلك المريض ليس مشرفاً على الموت . إن وضعه ليس سيئاً جداً . لقد أتممت فحصه لتوي» .

رفع أوسيب يديه مرة أخرى

«إنني آمل أن يتعافى» ضم يديه إلى بعضهما مرة أخرى وهزّهما .

«لكن إذا ساءت حالته أثناء الليل ، ينبغي لروحه أن تجد السلام . لذلك يفترض فيَّ أن أساعده» .

طأطأ الطبيب رأسه متفهماً حتى أنه صفق بيديه .

صرف الطبيب الممرض وتوجه هو وأوسيب إلى الغرفة رقم ثلاثة عشر . عند نهاية الممر ، توقف الطبيب لدى محطة الممرضات وأخذ لوحة كوستا . قرأ محتوياتها بسرعة ثم طلب من الممرضة أن ترافقهما .

وقف أمام الباب جنديان بملامح صارمة عابسة .

قال الطبيب «افتحا الباب رجاءً» .

قال كبير الحارسين «أنا آسف يا دكتور» بينما ألقى الحارس الآخر نظرة استغراب على أوسيب

«نحن لا نملك المفتاح» .

سأل الطبيب

«وهل الباب مقفل؟ لقد جئت قبل مجرد ساعة لكي أفحص المريض» .

حان الآن دور الجندي ليبدو عليه الاعتذار

«نعم ولكن بعدك حضر قائدنا الرائد وأقفل الباب . إن المفتاح بحوزته الآن» .

ظهر على الطبيب الانزعاج لهذا التطور ، فأنزل اللوحة إلى جانبه .

«لكن هذا أمر مثير للسخرية . أنا كبير الأطباء هنا ، وإذا أردت أنا أو أي طبيب من جهازي أو كنا مضطرين للكشف على المريض ، فهل نحن مضطرون للذهاب والبحث عن هذا الضابط؟» .

«هذه هي الأوامر الصادرة إلينا يا سيدي» .

رفع اوسيب الصليب الذي عليه تمثال السيد المسيح من حيث تعلق على وسطه وبدأ يعبث به بلطف أمام صدره . راقبه الجنديان والممرضة بفضول .

قال الجندي الأصغر سناً «لقد خرج لتوه ليدخن سيجارة» . لاحظ اوسيب أنه فصيح

«إذا لم يكن لديكم مانع في الانتظار قليلاً . . . .» .

لم يهدئ عرضه من ثائرة الطبيب الذي بدا عليه الغضب من الموقف بوضوح .

«أيتها الممرضة ، اذهبي وأحضري المفتاح الاحتياطي» .

استدارت الممرضة وكادت أن تصطدم بالرائد السمين العائد متمهلاً . تبخر التعبير المرح عن وجهه لدى رؤيته وجوه المجموعة الغريبة الصغيرة . اتجه نحو الجنديين .

«ما الذي يجري هنا؟» .

قال الطبيب

«ذلك هو ما أود معرفته . هذا مستشفاي ، وأنا ممنوع من الوصول إلى مريضي . من هو الذي أصدر الأمر بإقفال هذا الباب؟» .

«إنني في غاية الأسف يا سيدي . لابد وأن رجليً قد أساءا فهم أوامري» .

سحب المفتاح الفضي الصغير من جيبه . رفع الطبيب يديه .

«أنا لست بحاجة إلى مفتاحك» . التفت إلى الممرضة مرة أخرى فهمَّت بالتحرك لإحضار المفتاح الاحتياطي» .

قال الرائد «لا ، حقيقة أنا في منتهى الأسف» .

بدا على الطبيب العناد فأدرك اوسيب أن هذا الموقف قد يتطور إلى مواجهة مطولة .

تقدم إلى الأمام

«نحن نقبل اعتذارك أيها الرائد» استدار إلى الطبيب «إن السماح من الأخلاق الربانية» .

هدأ الطبيب بدرجة ملحوظة وهزَّ رأسه باتجاه الرائد موافقاً . فتح الرائد الباب وأمسكه ليدخل الكاهن .

دخل أوسيب وهزَّ رأسه للرائد «بوركت يا إبني» .

اتسعت عينا الرائد وأحنى رأسه بدوره وهو يتمتم .

لم يكن في داخل الغرفة سوى شباك يواجه حائطاً من الطوب

الإسمنتي وخزانة صغيرة بجانب السرير، كرسي واحد والسرير نفسه .

رقد كوستا هناك نصف نائم . ذهب الطبيب إليه وتناول رسغه بلطف ليقيس نبضه ، ثم نظر إلى اللوحة مرة أخرى . عاد إلى حيث وقف أوسيب .

«إنه يتعافى بشكل جيد . ليست هناك أية مشاكل خطيرة . يمكنك أن تبقى ولكن لفترة قصيرة فقط . سوف أعود بعد بضع دقائق» .

انحنى اوسيب وتحرك باتجاه المريض . رسم إشارة الصليب وبدأ يتمتم الكلمات اللاتينية القليلة التي تعلمها في أسفاره . انتظر حتى سمع طرقة الباب يغلق خلفه ثم التفت ليتأكد من أن الطبيب قد أصبح خارج الغرفة .

انفتحت عينا كوستا في هذه اللحظة وبان عليه الخوف .

«هل أخبرتهم بأي شيء؟» أبقى اوسيب يديه مضمومتين على هيئة كاهن أثناء كلامه .

نفض كوستا رأسه لكن كان واضحاً أنه يتألم . مدَّ اوسيب يده ليهدئ من روعه ويواسيه . استرخى كوستا وأغمض عينيه وانتظم تنفسه العميق . مدَّ اوسيب يده إلى الوراء وتناول الوسادة عن الكرسي ثم أمسك بها بقوة وثبات في مكانها حتى أصبح الجسد ساكناً . رفعها واطمأن إلى أن كوستا يبدو وكأنه يغط في نوم عميق واستأنف تلاوة صلواته . هكذا وجده الطبيب حينما عاد بعد دقائق .

«أرى أنه ينام بعمق . يجب أن لا نزعجه أكثر مما فعلنا» .

تقبَّل اوسيب كلمات الطبيب بتنهيدة قصيرة ورسم إشارة الصليب مرة أخرى .

الفصل الحادي والأربعون

جلس ادوارد جوريس في مكتبه وهو ينقر بأصابعه على الطاولة . أحسَّ بحكة في ساقه فأنزل يده إلى تحت ليمسدها . ثم استأنف النقر - بأصابعه ثم الإبهام على التوالي . توقف لوهلة عندما ظن أنه قد سمع شخصاً ما خارج باب مكتبه ، لكن لم يطرق الباب أحد أو يدخل ، فاستأنف النقر . ملفات مراسلاته مصفوفة كلها بشكل منظم قريباً منه ، حتى يعيدها السكرتير بعد فسحة الغداء مباشرة وبعد أن يسلمه كومة أخرى من الرسائل التي يجب الرد عليها بلغات أجنبية .

فهو في نهاية المطاف الموظف المسؤول عن المراسلات الدولية . وهو الآن ينتظر صفارة بدء فسحة الغداء .

وصلت همهمات الطابق السفلي إليه على شكل ذبذبات صاعدة من الأرضية الخشبية . إن شركة سنجر تقوم بعمل ناجح منذ أن بدأت عملياتها في استنبول ، بحيث أصبحت ماكنات الخياطة تتدفق عبر البوابة محملة على ظهور الشاحنات التي تتحرك خارجة طيلة النهار .

نبش جوريس الثقب الصغير الموجود في كم سترته . هذا علامة على حسن حظه لوجوده في بناية ملأى بماكنات الخياطة ، لكنه لم يستطع أن يعثر على أحد يصلح له سترته . الجو بارد هنا أيضاً . ستنطلق صافرة الغداء خلال دقيقة . يحب جوريس في ذلك الوقت أن يتمشى ، رغم أنه بقي على مسافة من باقي الموظفين .

كثيراً ما ذهب إلى المقصف ، لكن إذا لم يجد طاولة فارغة ، فهو

يعود أدراجه خارجاً . كان العمال بدورهم ، ومعظمهم من الفتيات صغيرات السن ، يراقبونه في تحركاته . تكونت لديهم نظريات متنوعة حول شخصه وما يفعله هناك . شعر البعض أنه صاحب منصب رفيع لكونه أجنبياً ، الاحتمال الأكبر أنه مرسل ليراقب سير الأمور . سرت قصص مفادها أنه اشتغل في أمريكا وتعلم كيف تدار المصانع الحديثة هناك ، وقد عاد الآن إلى أوروبا ليدخل أسلوباً جديداً في إنجاز الأعمال .

قالوا إنها مسألة وقت فقط قبل أن يبدأ بإصدار الأوامر وتغيِّر أساليبه كل شيء .

كذلك شعر آخرون أنه موجود هناك لطرد المتكاسلين وأنه يبحث عن مجرد عذر ليطرد الجميع ويحضر عمالاً من الأرياف بأجور أرخص . كما قالت القصص الأكثر جموحاً أنه يختبئ من القانون : وأنه شقيق لمدير المصنع وأنه قتل رجلاً على أثر لعبة أوراق قمار . وهو ينتظر الآن في الطابق العلوي قدوم سفينة لتأخذه إلى الأمان . كانوا يراقبونه بحذر في المرات التي يدخل فيها إلى مكان تواجدهم ، وبحذر أشد أثناء خروجه .

أحسَّ جوريس بقرصة الجوع في مكتبه العلوي . وضع لنفسه اختباراً بأنه لن يخرج شطائره والزجاجة حتى تنطلق الصافرة ، وبعدها سوف يتمشى على ضفاف النهر كجائزة له .

بدلاً من ذلك ، رنَّ جرس الهاتف وأجفله ثم قطع حبل أفكاره . جاء صوت رنينه الحاد مثل إنذار حتى أنه أسقط السماعة حين رفعها عن حاضنتها . أعاد وضعها على أذنه ورفع جهاز التكلم نحو وجهه . قال

«نعم ، نعم لقد فهمت . . . حالاً» .

أعاد الهاتف إلى مكانه وفتح درج طاولته ، كانت ساعة يده في الداخل ولا شيء آخر . تناولها ووضعها داخل حقيبته ثم نهض . أطفأ النور أثناء خروجه تاركاً الغرفة تسبح في الظلام .

***

في وقت لاحق من تلك الليلة ، وبعد أن أخلى غرفته في النزل ، جلس جوريس في بيت اكيموس يرشف الشاي ويخوض في أحاديث عابرة حينما دخل عليه كاهن ضخم الجثة يرتدي ثوباً أسود . رفع جوريس رأسه مذعوراً ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة حينما تعرف على أوسيب . نهض وتصافح الاثنان . استغل أوسيب المناسبة ليدخل يده تحت ملابسه التنكرية ويخرج رزمة ناولها إلى البلجيكي . قال «هذه دفعتك الأولى . ستحصل على البقية بعد إتمام المهمة . انتظر جماعتي هنا . لديهم الخطط والمواد . ثم اذهب بعد ذلك إلى البيت الآمن لتنفذ الخطة» .

هزَّ جوريس رأسه وتصافح الاثنان قبل أن يخرج أوسيب .

في شارع ألاسكر ، كان ادوارد جالساً إلى طاولة مكتبه ، يدرس الخطط التي استلمها في ذلك اليوم . الغرفة مضاءة بمصباح وحيد والصوت الوحيد هو ما يصدر عن تقليب صفحة إلى الأمام أو الخلف وهو يتفحص المخططات . لقد تم تسليم الخرائط الرسمية والمخططات الأصلية عبر وسيط لديه يعمل في القصر . الرجل يهوى المقامرة وكان ادوارد أكثر من مساعد له في إيجاد مكان يمنحه قروضاً ميسرة ويقدم الويسكي القوي ، ويقيم ألعاب القمار طيلة الليل .

أمر ادوارد الفتيات بإبداء الكثير من الاهتمام به وإبقاء كأسه مترعاً ، وقبل أن يدرك المغفل ما يجري وجد نفسه مديناً بأكثر مما يحصل عليه في شهر . اكتفى ادوارد بأن صب له كأساً آخر بكل هدوء

وطمأنه بالتربيت على كتفه ثم طلب منه أن لا يقلق لأن حظه لابد وأن يتغير .

بحلول الصباح ، كان قد وقع في دين من المحتمل أن لا يقدر على تسديده أبداً . انصرفت الفتيات ووقف فوقه اثنان ضخمان من المتخصصين في إبعاد الزبائن غير المرغوب فيهم بينما جلس هو واضعاً رأسه بين يديه . عاد ادوارد إلى الظهور فجلس وبدأ يتحدث إليه بهدوء . تمكن من إقناعه ثم اصطحبه إلى الخارج ليتناولا وجبة الإفطار .

حدث ذلك قبل أسبوع ، والآن جلس ادوارد وأمامه ليس فقط مخططات المسجد ، بل أيضاً المقاسات المحددة للساحة الأمامية والمخارج والممرات المتنوعة لكل منهما ، والتي كان معظمها غير معروف ومقفل في وجه عامة الناس .

سحرته العبقرية والفكر الاستراتيجي اللذان استخدما في تصميم الأبنية . كذلك كان لديه كتاب أكاديمي أخذه من مكتبة الجامعة ، وضعه مفتوحاً أمامه يشرح الرمزية التي تضمنها إنشاء المبنى . لم يكد يلاحظ تيار الهواء الذي هب عليه لشدة انغماسه في هذه التصاميم .

رفع رأسه فجأة فأدرك أن هناك شخص واقفاً يراقبه من جهة الباب . كان الشكل متشحاً بالسواد كلياً ، وقد أخفت الظلال وجهه . نهض ادوارد وكاد يتعثر بكرسيه بينما تبحث يده عن شيء يحمي نفسه بواسطته . تقدم الشكل إلى الأمام فانعكس ضوء القمر المتسرب من النافذة المشرعة على الوجه البشع .

سأل أوسيب «ألم تميزني؟» .

عبس ادوارد وأخرج زفرة انفراج .

قال «أبداً ، لا على الإطلاق» .

خلع أوسيب الأثواب ووقف في بذلته العادية ذات القطع الثلاث .

«خذ هذه وأحرقها» .

تناول ادوارد الأثواب وحملها نحو النار ، حيث ألقى بها متمهلاً حتى لا يملأ الدخان الغرفة . تمشى اوسيب نحو طاولة المكتب حيث كان ادوارد يدرس وأخذ يطالع المخططات بنفسه .

سأل ادوارد وهو يتلفت «هل هناك أي خبر من كوستا؟» .

قال أوسيب «لقد سمعت أن كوستا في وضع سيىء جداً» .

حاول ادوارد أن يخفي سروره بالخبر .

«هل تعرف ما إذا كان قد تكلم؟» .

«لا أظن ذلك ، لكن لدي خبر سيىء آخر . إن المخابرات التركية على علم بأمري» .

«أوه . . . ذلك أمر سيىء» . قال ادوارد وهو يلقي بآخر الأثواب في النار .

«إنهم يبحثون عني ولذلك يجب عليَّ أن أغادر هذه المدينة على الفور» . قال اوسيب وهو يرفع رأسه «وإلا فإن جميع خططنا سوف تنهار» .

وقف ادوارد وقد تهدج كتفاه .

«ذلك يعني أنني أصبحت وحدي . ماريانا تؤدي واجبها وكوستا في وضع سيىء وأنت على وشك المغادرة» .

«لا تقلق . سوف أتصل بك من أي مكان أتواجد فيه . هل تعرف ادوارد جوريس؟» .

«ذلك المجنون مفجر القنابل؟ ألم يكن في زمن ما موجوداً في اليونان؟» .

«لم يعد موجوداً في أوروبا . إنه هنا» .

ذهب ادوارد إلى حيث يحتفظ بالبراندي في قنينة كبيرة وصب لنفسه جرعة قوية .

جلس على الكنبة «هنا؟ ولماذا؟» .

«إنه أفضل خبير مفرقعات في أوروبا . لقد قمت بتجنيده وأدخلته في الاجتماعات الأرمنية حتى . . . . . يتنوَّر . أرسلته في بعض المهمات أثناء الحرب ، حتى لو أنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون منه . ثم احضرته إلى هنا . إن غطاءه وظيفة لدى سنجر» .

«يا إلهي . . . جوريس . إنه أسطوري» . تناول ادوارد جرعة كبيرة من كأسه ثم رفعها وأشار بها إلى القنينة حين تذكر الآداب . نفض أوسيب رأسه رافضاً .

«لقد كان مفلساً . كان دخله الوحيد قبل تلك الوظيفة لدى سنجر يأتي من بيع زوجته لجسدها . لذلك أعطيته بعض النقود وسأعطيه المزيد بعد أن تتم المهمة» .

أكمل ادوارد شرب محتويات الكأس

«ممتاز . على فكرة ، هل تشكل زوجته جزءاً من الخطة؟» .

«بالطبع هي مشتركة . إنهما في غاية الذكاء . جوريس أفضل خبير تفجيرات في اوروبا . إنه لا يعرف الخوف وهو مخطط شديد التدقيق بالتفاصيل» .

عاود ادوارد النهوض ليحضر كأساً أخرى .

«وكيف سألتقي به؟» .

«ستذهب إلى بيت اكيموس في بيوغلو . وسيلتقي بك جوريس هناك . يمكنك أن تقيم في بيت جوريس الآمن» .

حلَّ الصباح ووجد مراد نفسه جالساً في مكتب مصطفى بك مرة أخرى . كان العقيد يطرق طرف مكتبه بريشته بعصبية ويحدق فيه . بقيت تحية مراد المهذبة بلا إجابة وهو جالس يحسُّ وكأنه تلميذ مدرسة

ينتظر أن يعنفه المدير . . . هو بالطبع على حق

لم يستطع مراد أن يغالب شعوره بالاستنكار تجاه هذه المعاملة ، بكل الأحوال . لم يكن ذنبه أن ذلك الرائد الغبي وجندييه المخبولين قد انتابتهم الرهبة من سماعة طبية وصليب . انتظر حتى يكسر العقيد الصمت غير المريح .

في الليلة الماضية ، وصل إلى المستشفى في اللحظة التي يجري فيها تبديل الحراس حسب البرنامج . لم يتأخر عن الكاهن إلا دقائق وربما حتى ثواني . ألفى الوضع هادئاً وكل شيء على ما يرام ، والحراس النهاريون مرتاحون ومتشوقون للانصراف . أخبره الرائد أن المشتبه به نائم وأن الطبيب قد غادر لتوه ، فأمضيا بضع لحظات في الدردشة . أصبح مراد على وشك المغادرة حين قرر أنه لا ضير في إلقاء نظرة أخرى على الرجل الذي كاد أن يقتله بالأمس .

بدأ البحث في اللحظة التي أعلن فيها الإنذار . تم أرسال طلب تعزيزات من الحراس ، فقاموا بإغلاق المستشفى على الفور وبدأوا يمشطون كل جناح وكل طابق . قام مراد بإرسال رماة إلى قمة برج الساعة الذي تفقده اوسيب قبل أقل من ساعة . لكنه كان قد انصرف منذ فترة طويلة . ساد الاعتقاد في البداية بأن الطبيب قد هرب معه ولكن تم العثور عليه وهو يقرأ بهدوء في مكتبه بعد أن أتم جولته المسائية .

«هل هناك أية معلومات عن الكاهن؟» قال مصطفى بك مقاطعاً

تدفق ذكرياته . لامس مراد التقرير القابع في حضنه بطرف أصابعه ، لكنه لم يجرؤ حتى على النظر إليه . ازدرد ريقه وتمنى أن لا يخرج صوته مخنوقاً .

قال «ليس هناك أي كاهن بتلك الصفات في استنبول» .

«طبعاً لا يوجد! لقد ارتدى شخص ما أثواب الكاهن وقتل كوستا قبل أن يتم استجوابه عن الأعضاء الآخرين في خليته . هل عرفتم من كان ذلك الشخص؟» .

«ليس بعد يا سيدي ولكننا سنتعرف عليه» .

ألقى مصطفى بك بريشته وجاهد في السيطرة على صوته

«نحن لا نؤدي عملاً جيداً حتى الآن . لقد تم إحراق البيت الآمن لأنطون . المشبوه الوحيد لدينا يقتل والجاسوس الوحيد الذي نلاحقه ينتحر . لا تبدو الأمور جيدة بالنسبة لنا ، أليس كذلك؟» .

أحسَّ مراد أن وجهه يحترق فعلياً لشدة الإحراج .

«أنا لا أضع اللوم عليك يا مراد . الحقيقة هي أنني أشعر بالإحباط مثلك تماماً» .

رفع مصطفى بك كف يده .

«يجب أن تتخذ كافة الإجراءات في أسرع وقت ممكن والطريقة الوحيدة هي العثور على رأس الأفعى وقطعه قبل أن تحل بنا كارثة» .

هزَّ مراد رأسه موافقاً رغم أن ذقنه تكاد تلامس صدره .

«أعرف ذلك يا سيدي . سوف أضاعف كل الجهود» .

نظر إليه مصطفى بك لوهلة وعندما شعر بشيء من القناعة ، نهض وبدأ يذرع الغرفة بأسلوبه المعهود خلف طاولته ، وقد عقد يديه خلف ظهره .

«منذ عهود الحروب الصليبية ، كلما ظهر لدينا قائد مسلم عظيم

مثل سلطاننا ، يرغب الأوروبيون في تدميره . نحن لا يمكننا أن نسمح بحدوث ذلك يا مراد» .

مراد ضليع بتاريخ أمته : فقد كان الامبراطور البيزنطي اليكسيوس الأول كومنينوس ، هو الذي أرسل الدعوة لطلب التعزيزات التي أصبحت الصليبيين فيما بعد .

اعتقد الامبراطور أن بإمكانه الحصول على بضع مئات من الفرسان من هنا في استنبول . . . . القسطنطينية . . . . ربما حتى بضعة آلاف . . . . ولكنه حصل بدلاً من ذلك على خمسين ألف متعصب خارج الأسوار ، وقد جرى إقناعهم جميعاً بأنهم سيصعدون إلى السماء إذا قتلوا الكفار . . . .

أحسَّ اليكسيوس بالذعر الشديد ، لأن الجيش الصليبي بدأ يهاجم حتى جنوده البيزنطيين وينهب القرى ، رغم أنه كان قد جهز لهم القوارب ليعبروا بها مضيق البوسفور نحو المناطق التي يحتلها الأتراك في الأناضول . بدأوا هناك بنهب كل ما تقع عليه عيونهم ، بدون تمييز ، قبل أن تتم إبادتهم في أول معركة حامية اشتبكوا فيها .

لكن لم تكن تلك هي النهاية . . . . فقد انفتحت بوابات السدود . . . احتل الصليبيون القدس خلال أربع سنوات . . . . واحتفظوا بها قرابة مئة عام قبل أن يطردهم صلاح الدين منها . . . . ثم جاء ريتشارد قلب الأسد ليستردها . . . من المضحك أن البريطانيين يعتبرونه ملكاً إنجليزياً رغم أنه تكلم الفرنسية طيلة حياته وحاول حتى أن يبيع لندن . . . .

أدرك مراد أن مصطفى بك ينتظر جوابه وأنه ترك أفكاره تسرح على هواها .

«سيدي ، إن للسلطان الكثير من الأعداء في أوروبا ، لكنهم لن

يلمسوا سلطاننا ، بمشيئة الله» .

بان على مصطفى بك السرور من إجابته . قاطعت رده نقرة على الباب . دخل مساعده عمر حاملاً مذكرة ناوله إياها .

قال وهو يمرر الصفحة إلى مصطفى بك .

«لقد غادر مشتبه به استنبول لتوه على متن سفينة فرنسية» .

«ماذا كان اسمه؟ لم ينظر مصطفى بك إلى الصفحة .

«اسمه الفونسوليباريا . السفينة هي اندريا ڤيوليتا» .

«ليباريا . . .» فكر مصطفى بك لحظة «ذلك هو أحد أسماء اوسيب المستعارة» .

سحب من تحت طاولته خارطة ملفوفة وفردها فوق الفوضى العارمة .

«إلى أين هي السفينة متجهة؟» .

تقدم عمر وضغط أحد أطراف الخارطة إلى أسفل ، والذي استطاع مراد أن يرى أنه شرق المتوسط ، أشار عمر إلى شمال شبه الجزيرة الإيطالية ، عند الطرف القصي للبحر الإدرياتيكي .

قال :

«الى تريستا . لقد اشترى تذكرة إلى تريستا وهي المحطة الأخيرة للسفينة ڤيوليتا ، لكننا لا نعرف في أي ميناء يمكن أن ينزل» .

انسابت أصابع عمر نزولاً إلى الساحل الدالماتي وفوق البيلوبونيزي . تابع مصطفى بك السبيل وهزَّ رأسه .

«أنا واثق من أنه سيغادر قبل تريستا . يجب أن نضع رجالنا في كل الموانئ التي ستزورها السفينة حتى نقبض على هذا الرجل» . رفع يده عن الخارطة فعادت إلى الالتفاف

«اعملوا على تنفيذ ذلك في الحال» .

عاد عمر إلى الانتصاب في وقفته

«لدينا بعض معلومات حول أجنبي آخر. اسمه ادوارد جوريس ويحمل الجنسية البلجيكية.

تبادل كل من مصطفى بك ومراد النظرات.

استطرد عمر «لقد عمل لدى شركة سنجر في جالاتا. تراكمت عليه ديون كثيرة وفجأة قام بتسديد جميع ديونه وترك وظيفته».

سأل مراد «كيف اكتشفت ذلك؟».

«لقد كتب إلينا مدير شركة سنجر قائلاً إن جوريس حصل فجأة على مبلغ كبير من المال واختفى».

نقر مصطفى على الطاولة بأصابعه وعاود النظر إلى مراد.

ينبغي أن أكون أنا الشخص الذي يقدم له هذه المعلومات.

سأل مصطفى بك

«هل تحققت من هويته لدى ملفاتنا؟ أو من الأجهزة الأوروبية؟».

لا يمكننا أن نثق بالأجهزة الأخرى.... يحتمل أن يرسلوا لنا معلومات لنقضي على شخص يشكل تهديداً لهم، لكن ليس لنا.... لإبعادنا والتغرير بنا وصرف انتباهنا حتى عن المؤامرة الحقيقية.

اقتنع أن مصطفى بك يفكر بنفس الطريقة ونفس الخطوط.

قال عمر «نعم سيدي. لديه سجل إجرامي وكانت له علاقة بتخريب قطار باستعمال المتفجرات». توقف بينما سجل مصطفى بك ملاحظة.

«اختطاف الأطفال وسرقات بنوك في هولندا. قضى بعض الوقت في السجون البلجيكية. إن اسمه موجود كمطلوب لدى الشرطة النمساوية».

توقف مصطفى بك عن الكتابة وتراجع في كرسيه .

«هذا هو الشخص الذي نبحث عنه» .

جاء صوته هادئاً وقاطعاً

«هو الشخص الذي اختاروه ليقتل السلطان .

الفصل الثاني والأربعون

دخل السلطان مجمَّع الحريم واتخذ طريقه من وسط الحديقة . رافقته العيون أثناء مروره من كافة الجهات ، بعضها مشجع وبعضها غاضب والبعض الآخر غاضب وحزين لدرجة أن جلّ ما استطاع فعله هو عدم التوقف للجلوس معهن . لاحظ الرحالة الذين ينظرون إلى حريم السلطان أحياناً أن محظياته وعشيقاته يبدون وكأنهن محبوسات في سجن فخم من نوع ما وكل ما يفعلنه هو الجلوس وانتظار الاهتمام الذي لم يأتِ أبداً .

من ناحية السلطان ، فقد جعلت شؤون الدولة والأحداث اليومية التي يطلب منه الاهتمام بها ، قضاء أي قدر من الوقت في هذا الجزء من القصر بشكل خاص ضرباً من الاستحالة . تذكر ، وليس للمرة الأولى كيف أن أحد أسلافه السلطان عثمان الثالث كان ينتعل أحذية بنعال حديدية حتى ينذر نساء الحريم بقدومه ووجوب اختفائهن تنفيذاً لأوامره .

كثيراً ما حاول عبد الحميد أن يصمم أسلوباً مشابهاً لكنه أقل قسوة لتجنب نساء الحريم ، لكنه لم يفلح حتى اللحظة . بدلاً من ذلك اضطر أن يجتاز محنة العيون المتهمة نحو مقر زوجته الرابعة عشرة المفضلة لديه .

كانت جواشه ماشه كادين منهمكة في القراءة ، فنهضت لدى دخوله . قالت

«لم أتوقع رؤيتك هذا الصباح، ولو أنني عرفت . . .» .

رفع يداً ولوَّح بكلماتها بعيداً . كانت جالسة قبلاً قرب الشباك، مستعينة بالنور الطبيعي لإضاءة الحروف الصغيرة لكتابها، والذي رأى الآن أنه ديوان شعر .

بقيت واقفة حتى وصل إلى الكرسي الأبيض الصغير القابع على مسافة قصيرة عبر الغرفة الصغيرة بجانب السرير . وقف مشرفاً عليه بشكل شائب .

سألها «هل تسمحين لي بالجلوس؟» .

لم يتوقف أدبه الجم عن إثارة إعجابها وسرورها، لكنها بقيت حريصة على أن لا تظهره حتى لا يفكر أنها تضحك منه .

قالت «أرجوك» .

«ما الذي تقرأينه؟» .

«أنت .» .

«أنا؟» .

«نعم . لقد أمرت مدير مكتبة القصر أن يجلِّد لي مجموعة من قصائدك . إن جميع الأشعار المفضلة لديَّ موجودة في هذا المجلِّد الصغير» .

لم يتمكن من مغالبة تأثره العميق .

«لست بحاجة إلى قراءة أبياتي المتواضعة . إنها في الحقيقة مجرد وسيلة لتمضية الوقت .

«لا تتواضع . إنها تحوي قلباً وأحاسيس عميقة لا تستطيع سوى قلة أن تلحظها في الكلمات . عندما تكون بعيداً عني، تذكرني قصائدك بمكنونات روحك ولماذا ينبغي عليَّ أن أتحلى بالصبر بينما أنت تكمل أعمالك» .

لم يكن يتوقع هذا حين غادر الأبعاد المتلاشية في الصغر لمكتبه ، والجدران الأربعة التي أصبح يراها أكثر فأكثر هذه الأيام . فقد تقلص الوقت الذي يستطيع أن يقضيه وهو يراقب السفن العابرة من بيته الكائن خلف القصر . كذلك تقلص وقت الجلوس لقراءة الشعر ومناقشته . إنه يأخذ الآن أقل مقابل الأكثر الذي يعطيه . علمت بالرسوم الهزلية التي تنشرها الصحافة الغربية عنه ، وتصوره كوحش والغ في الدماء ، وعلمت هي كذلك كم يؤلمه هذا التصرف . زوجها رجل حساس ولا يعرف ذلك عنه إلا قلة قليلة في القصر .

أنهت كلامه قائلة .

«إن روحك موجودة هنا معي في هذا الكتاب وستظل معنا جميعاً بغض النظر عما يمكن أن يحمله المستقبل إلينا» .

غارت معنوياته لسماع كلماتها .

«إذاً فقد سمعت الشائعات؟» .

«حتى النساء في الحريم تصلهن بعض الأنباء بين الفينة والأخرى» .

«بعض الأنباء بين الفينة والأخرى؟» .

تألقت عيناه من لمحة السرور التي اشتاقت إليها أكثر من أي شيء آخر .

«هل ستذهب في الغد إلى صلاة الجمعة؟» .

«سأذهب . ولكن هل تتمشين معي في هذا اليوم؟» .

قالت «سأفعل» .

نهض كلاهما وشبكت ذراعها في ذراعه . توقف للحظة ليتشرب الفرح الذي تجلبه إليه هذه المرأة الجميلة .

غامرت بالقول .

«وهل يحتمل أن تخصص بعض الوقت لنراقب السفن؟» .
رد قائلاً «أعتقد أن ذلك شيء سوف يسعدني كثيراً» .

تمشى جوريس على رصيف المرفأ جيئة وذهاباً لما بدا له ساعات .

أبقى يديه إلى جانبيه وحاول أن لا يبدو متوتراً ، لكن الأرصفة كانت تعج بالنشاط بحيث يمكن له أن يقسم بأن كل رجل مرَّ به نظر إليه باستغراب . هو يعرف أنه يمكن التعرف على الغرباء بسهولة دائماً في مثل هذه الأمكنة ، رغم اكتظاظها . يحتمل أنه تواجد الآلاف من الرجال القادمين والذاهبين العاملين في كل ساعات النهار ، لكنهم جميعاً يعرف أحدهم الآخر وله عين لا تخطئ بشأن أولئك الذين لا ينسجمون . يعرف الحمالون والعمال زملاءهم ، ورغم أن جوريس ارتدى مثل ملابسهم إلا أنهم أدركوا أنه ليس واحداً منهم . لم يكن مديراً أو مشرفاً أيضاً .

بقي الخيار الثالث وهو مالك بضاعة أو رئيس وهو حتماً ليس كذلك ، فمن هو إذاً؟

مروا به صامتين يتمعنون في ملابسه ووجهه ثم يهمهمون فيما بينهم بمجرد ابتعادهم عنه أقداماً قليلة . أدرك جوريس أن هذا وضع سيىء . وأن السرَّ في نجاح مثل هذا العمل يكمن في أن تكون ملحوظاً لما يكفي بأن تعامل بجدية وتنجز المهمات ، ولكن أن تكون عادياً بما يكفي لأن ينساك الناس فور انصرافك . إن وقوفه هنا بهذا الشكل ، أجنبي لا هو عامل ولا هو مالك ، يعني أن الاحتمال الأكبر هو أن يعلق بالذاكرة ، وهذا ليس في صالحه . حسب معلوماته بأن اوسيب وادوارد واكيموس فقط هم الذين يعرفون عن انغماسه في المؤامرة ، إلى جانب زوجته بالطبع ، لكن ذلك لا يشكل سبباً للتخلي عن المنطق .

الأبنية المتواجدة بمواجهة الميناء هنا ضيقة كلها ، وتشغلها مكاتب الملاحة بشكل رئيس ، بوجود طاولة أو اثنتين في الداخل لاستعمال الكَتَبة والمسؤولين . وقف جوريس خارج المستودع الوحيد عند نهاية الأرصفة . لم يكن مزدحماً بدرجة لافتة ، لذلك لم يستطع أن يفهم سبب تأخر الشخص الذي سيقله .

راقب مركب صيد صغير يمر من أمامه ببطء ، فيه صبية يعملون على الشباك في المقدمة ورجل أكبر سناً عند عجلة التوجيه . راقب جوريس بينما استدار الرجل ونظر إليه بدون أن ترف أجفانه أثناء مرور المركب . وجه الرجل الذي لوحته الشمس على مدى عقود مليء بالتجاعيد وعيناه مثل شقين مقصوصين وسط جلد قديم .

حدقتا في جوريس بدون أدنى أثر لعدم الارتياح بلونهما الأسود وثباتهما ، كأن الرجل ينظر إلى شيء غير حيواني مثل شجرة أو لوح خشب .

نسي جوريس أنه يفترض فيه عدم لفت الانتباه وبادل الرجل التحديق وقد استبد به الغضب فجأة .

ما الذي ينظر إليه بالضبط؟ لا يبدو عليه الاهتمام بشكل خاص : إنه يحدق فيَّ بلا سبب . ألم يشاهد رجلاً من قبل؟

ومع ذلك ظل الرجل يحدق ، حتى أنه أدار رأسه قليلاً مع ابتعاد المركب قليلاً في القناة باتجاه مدخل الميناء ، واضطر إلى أن ينظر من فوق كتفه الأيسر . تابع جوريس عينيه حتى استدار الرجل ببطء واستمر في قيادة المركب باتجاه المدخل .

سمع جلبة خلفه فاستدار ليشاهد العربة يجري إخراجها . نسي جوريس رجل المركب ونظرته الغريبة وهو يتمعن في الصناعة الجميلة أمامه . بلغ ارتفاع العربة حوالي عشره أقدام فيما يبدو ، بعجلات

حمراء وجسم أسود . اقترب ومرر يده فوق الطلاء الراقي ثم تفحص التصميم الداخلي . كان هناك رسم يدوي على شكل حلزوني للعليق ، بدا لعينه بدون بداية ولا نهاية . تمشى جوريس حول العربة إلى مؤخرتها ورأى أن العروق تمتد إلى هذه الناحية بحيث يبرز اللون الأخضر فوق الخلفية السوداء . اقترب أكثر فرأى براعم لورود زهرية في منتهى الصغر حتى تكاد لا تُرى ، ولكنها إحدى علائم نوعية الصنع الممتاز الذي يستمتع جوريس برؤيته وقلما يجربه لنفسه .

إضافة إلى العجلات الحمراء ، العربة مجهزة بأدوات أطر برونزية بالكامل . تراجع جوريس واستعرض العربة بكاملها للحظة . فكر لنفسه أن هذه العربة ستبرز للعيان حتى من مسافة ميل ، ولابد أنها كلفت ثروة .

كيف سنتمكن من إدخال هذه إلى المسجد وساحة القصر بدون أن نثير الانتباه؟

لم يستطع أن ينكر أنها تحفة ممتازة . داعب خياله فكرة استئجار شخص ما ليعيدها حتى يتمكن من الركوب بداخلها مثل سيد متميز . ابتسم للخاطرة ، لكنه رفضها بنفس سرعة قدومها . كانت الدفعة الأولى من أوسيب تحرق حفرة في جيبه ، لكنه ليس بتلك الدرجة من السوء .

سأل الموظف «هل هذه هي ياسيدي؟» .

لم يحرك جوريس عينيه عن العربة ، بل اكتفى بالقول «نعم» .

عاونه الموظف ومساعده في شد الحصانين إلى العربة ، وانطلق بعد دقائق في طريقه ، جالساً فوق عربة هي الأروع إلى مسافة أميال من حوله . كان أوسيب قد أصرَّ على أن يحتوي البيت الآمن على زريبة ملحقة به ، فدخلها جوريس بعد جولة قصيرة عبر المدينة . بعد أن حلَّ

الحصانين وأمَّنهما في معلفيهما ، أغلق الزريبة وأغلق أبوابها بجنزير وقفل ضخمين ثم اتجه إلى البيت . نقر الباب . ثلاث نقرات قوية مع فاصل بعدد واحد بينهما ثم نقرتين متواليتين سريعتين . أدخلته كورنيليا ومشيا عبر القاعة بدون أن يتكلما .

تقارب كورنيليا سن الثلاثين وهو نفس عمر جوريس ولكن خلافاً له ، لم تتسبب ظروف المعيشة الصعبة في تقدم سنها قبل الأوان .

احتفظت بجمالها كما كانت في انتويرب حيث تقابلا للمرة الأولى . كثيراً ما تحاول أن تلاطفه وتقنعه بتناول الطعام حين يحس بالإحباط ويصمت ، بداية بلغتها الهولندية البرابانتية الأصلية ، ثم بفرنسيتها المنغمة ، الأمر الذي لم يفشل أبداً في انتزاع ردة فعل منه ، حتى لو أنها لم تفلح في فتح شهيته للطعام .

أمكنها أن تستشف من هيئته أن اليوم كان جيداً وأنه سعيد ومرتاح . استنتجت أن للأمر علاقة بالعربة الرائعة التي شاهدته يحضرها من خلال الشباك ، لكنها عدلت عن سؤاله . فالأفضل أن تتركه ليتحدث في الوقت الذي يختاره . كورنيليا دائمة القلق على زوجها . هي تعرف أن لديه الإمكانية ليصبح رجلاً عظيماً في يوم ما ، عرفت - وهي التي تعرفه أفضل من أي شخص آخر - أنه بحاجة إلى مجرد الفرصة ليثبت نفسه . تساءلت عما لو كانت هذه هي الفرصة .

تناول جوريس يدها مثل صبي صغير عند أسفل الدرجات وبدأ يقفز صاعداً كل درجتين بخطوة ، وهي تبذل أقصى جهدها لتلاحقه . عندما وصلا إلى القمة وهما يلهثان من المجهود ، احتضنها وفرحت لرؤية الابتسامة على وجهه . استدار جوريس وقادها نحو غرفة النوم .

فوجئت كورنيليا ، فهو لم يكن مباشراً إلى هذه الدرجة في العادة ، خاصة أثناء النهار ، لكنها بدأت تستمتع بالتغيرات الطارئة عليه منذ

أن عاد للبيت من عمله لدى شركة سنجر في الأسبوع السابق وأخبرها أنهما على وشك الرحيل .

بدت الغرفة الصغيرة رائعة من الداخل ، وخطرت لكورنيليا فكرة بارقة من الخيبة لأن السرير الذي فرغت لتوها من ترتيبه سيعود إلى الفوضى . توقفا عند طرفه ووقف جوريس ينظر إليها لثانية وقد توهج وجهه . بدأت تقترب منه لكنه ركع فجأة ومد يده تحت الفراش . راقبته مرتبكة .

سحب من الأسفل حقيبة سفر جديدة لم تكن قد رأتها من قبل . وبخت نفسها بصمت لكونهما موجودين في هذا البيت من قرابة أسبوع ولم تقم حتى اللحظة بالتنظيف تحت السرير . صرفت الفكرة بنفس سرعة حدوثها واعتبرتها سخيفة - الأكثر أهمية بمراحل هو ما تحتويه تلك الحقيبة .

وضعها جوريس على السرير وأدار القفلين في الناحيتين . ارتفع الغطاء قليلاً والتقطت لمحة مما هو موجود بداخلها . أحست بقليل من الخوف والتقلص . راقبت كورنيليا زوجها وهو يرفع الغطاء ويكشف أن الحقيبة ملأى بأصابع الديناميت ذات اللون الزهري .

أصبحت تعرفها جيداً بحلول هذا الوقت . أدخل جوريس يده في الجيب الداخلي السفلي لغطاء الحقيبة وأخرج منه جوازي سفر . ناولها أحدهما . احتوى على اسم ريتا بونين . رفع جواز سفره فرأت أن اسمه هو مايكل بونين . ذهبت عينا كورنيليا من جواز السفر إلى وجه جوريس . كان مستمراً في الابتسام . بادلته البسمة بشيء من الجهد .

جلس لاحقاً إلى طاولة المطبخ وهو يعبث بالأسلاك والفتائل والقوابس وقد اكتسب وجهه مسحة من التركيز والانهماك ، بينما هي تعد وجبة العشاء . بمجرد انتهاء تحضير الطعام ، أزاح الأصابع والقوابس

إلى ناحية الملح والفلفل وجلسا يأكلان مع ما يكفي من المتفجرات على الطاولة لنسف بيتهما والشارع الذي يقف عليه .

هكذا وجدهما ادوارد وماريانا عندما دخلا .

قال ادوارد «يبدو هذا مريحاً جداً . ما الذي تأكلونه؟» .

لم يتوقف جوريس عن المضغ وقال

«ديناميت . هل تحب أن تنضم إلينا؟» .

نفضت ماريانا رأسها وتقدمت .

«أبعد هذه الأشياء عن الطاولة . بحرص!» .

تبادل جوريس وكورنيليا نظرة ثم نفذا ما قالته . أدركا النبرة السلطوية على الفور وغيرا موقفهما تبعاً لذلك بسرعة . أفرد ادوارد الخريطة التي يحملها فوق الطاولة .

قال جوريس

«العربة الجديدة موجودة في الزريبة» .

أجابت ماريانا

«نعم ، جيد . هذه مجرد طُعم . نحن لن نستخدمها . سوف نستخدم عربتنا» .

سأل ادوارد «أرتين؟» .

قالت ماريانا «مهما كان الاسم الذي يستعمله» .

فوجئ جوريس لسماعه هذا وتضاعفت مفاجأته عندما رأى أن هذه الأنباء جديدة بالنسبة لإدوارد أيضاً . بدأ يتساءل بغياب ذهن حول ما إذا كان سيسمح له بالاحتفاظ بها .

استطردت ماريانا

«سيبقى سائقنا في العربة . سيظل الديناميت موجوداً أسفل مقعده بدون علمه . يجب أن لا يغادر العربة حتى لا يثير الشكوك» .

تصالب إدوارد وقال

«إن أرتين رجل فاضل» .

استقر فم ماريانا على شكل خط وخلا وجهها من أي تعبير . قالت

«هذا أمر لا يمكن تجنبه» .

حدَّق إدوارد في عينيها لوهلة ثم بان عليه الخضوع . هزَّ رأسه بالموافقة .

استطردت ماريانا مرة أخرى

«لقد ترك أوسيب تعليمات مفصلة لكل خطوة . يجب أن نغادر العربة عندما نرى السلطان خارجاً من المسجد ، وكأننا ذاهبون للفرجة عليه . ولكن قبل أن نخرج من العربة ، ستقوم أنت يا جوريس بتفعيل القنبلة لتنفجر بعد دقيقة واثنتين واربعين ثانية بالضبط . ثم يجب أن نمشي بسرعة باتجاه الميناء . لدينا تذاكر للسفينة المغادرة على الفور» .

نظرت ماريانا إلى كورنيليا حيث بقيت تتصنع أنها تملأ المجلى ولا تصغي إلى كل ما يقال .

استدارت وهي تمسح يدها بخرقة .

قالت لها ماريانا

«ريتا . ذلك هو اسمك من الآن فصاعداً . سوف تقابليني على العشاء في بيت اكيموس كما هو مخطط . سوف أقدمك على أنك صحافية بلجيكية . سيكون الضابط مراد التابع للأمن التركي موجوداً هناك . ينبغي عليك أن تطلبي التعريف بك لتقابلي السلطان .

أدخلت يدها في حقيبة يدها وأخرجت بعض الوثائق .

«هذا فقط لمجرد تطمين مراد عن وضعنا» . قالت هذا وهي تناولها إلى كورنيليا . أو ريتا كما سوف تدعى من الآن فصاعداً .

الفصل الثالث والأربعون

في وقت لاحق من تلك الليلة وفي قصر يلدز، كان مراد لا يقوى على إبقاء عينيه مفتوحتين إلا بصعوبة بالغة. لقد قضوا الساعات العشر الأخيرة جالسين في مكتب العقيد مصطفى بك الصغير، ولم يعد واثقاً من قدرته على تحمل المزيد. فقد أصبح الهواء فاسداً من رائحة القهوة ودخان السجائر والعرق القديم. فرك عينيه المتعبتين مرة واحدة وحاول أن يركز انتباهه. جلس العقيد مصطفى بك أمامه غير متأثر ويقرأ ملفاً آخر. بدأت الأسماء والعناوين على الصفحة التي كتبها مراد تعوم أمامه، واضطر إلى إيقاف نفسه عن الطأطأة كل بضع دقائق.

بالأمس، سمح له الطبيب بالاستغناء عن العلاّقة الموجودة على ذراعه، رغم أنه ظل يتحسس الألم من الحروق والشخوط في بعض الأماكن التي تلقاها أثناء الانفجار.

كذلك أصر الطبيب على استمراره في تناول المسكنات بكل الأحوال، وصار الآن يتساءل عما إذا كانت هذه تؤثر على قدرته في أداء واجباته ومجاراة العقيد.

طبعاً فكر أن المسألة محتملة، لكن كل رجل آخر في مديرية الاستخبارات كان يطلق النكات عن قدرة مصطفى بك على الاستمرار في العمل بدون نوم ولساعات متأخرة جداً.

هناك قصص عن ترك العقيد بصحبة أكوام من الملفات على

طاولته في بعض الأمسيات ، ليعود الضابط الأدنى مرتبة صباح اليوم التالي ويجد مصطفى بك ما زال حيث تركه ، ينهي قراءة المادة الليلية على نور الصباح بصبر وأناة .

اكتفى مراد بمجرد الحلم بمثل ذلك المجهود . فقد يئس من قراءة الصفحة في هذه اللحظة وجلس يحدق فيها وقد خفض رأسه بدون إبصار . سبحت رؤى جسم شانتال في ذهنه ، كيف كان ملمسها إلى جانبه ، وكم كانت ناعمة ودافئة وكم أرهقته . لم يكن قد اختبر أو حتى حلم بأي شيء شبيه بها . فقد بدت له في السابق خجولة وبريئة جداً .

كلا ، *ليست بريئة هي الكلمة اللائقة . . . . . أنا فقط لم أتخيل أبداً أنها ستبدو كذلك في العتمة ، فقد كانت شيئاً مختلفاً كلياً . . . . . تلك العينان الزرقاوان . . . . . وتلك الشفتان اللتان تجترحان العجائب .*

لقد حصل بالطبع على نساء عديدات قبل وبعد زوجته ، وأحياناً كان يدفع لهن : وأحياناً هن فتيات محليات ساكنات قرب مكان عمله وهو ضابط صغير . فكر في ذلك الوقت أنهن جميعاً متميزات ، وكن فعلاً كذلك ، لكن شانتال . . . لقد فتحت له عالماً جديداً كاملاً من الاحتمالات . فجأة بدا له كل ما جاء قبلها مبهرجاً بذوق سيىء في حالة المومسات : أو طفولياً في حالة البنات المحليات .

أعاده صوت مصطفى بك إلى الواقع . كان يقول :

«لا يمكن تنفيذ محاولة اغتيال مثل هذه إلا بإحدى طريقتين : قناص أو ديناميت . أظن أنها ستكون بالديناميت . يمكن وضع كمية قاتلة منه في إحدى العربات أو تحت بعض الزينات» .

تضنَّع مراد الموافقة الكلية بهز رأسه بسرعة .

«سوف آمر بتفتيش المنطقة كلها بدقة سلفاً ، ولن أسمح بدخول المنطقة إلا للعربات التي نعرفها . هناك العديد من الأجانب الذين يحبون أن يأتوا للفرجة على سلطاننا يوم الجمعة ، لكنني أعرفهم كلهم» .

أحسَّ بالانفراج والارتياح لكونه رأى مصطفى بك مسروراً من الجواب .

قال مصطفى بك

«يجب أن لا نسترخي لمجرد أن أوسيب قد غادر البلاد . فربما قد ترك مجموعة من العملاء خلفه . كونوا يقظين يا صديقي الشاب . إنه وقت مفصلي صعب» .

الأمر الوحيد الذي اعتقده مراد صعباً ومفصلياً في تلك اللحظة هو حاجته الملحة إلى النوم .

قال بدون أن يفكر

«ولكن ياسيدي ، إذا كنت تشعر بهذا القدر من الخطر الداهم ، لماذا لا تطلب من السلطان أن يلغي زيارته إلى المسجد؟» .

رفض مصطفى بك الفكرة بهزة خشنة من رأسه : الواضح أنه خطرت الفكرة نفسها بباله .

«كلا ، فأولاً لن يوافق السلطان . لم نقدم له أي دليل حقيقي على أن محاولة من هذا النمط سوف تتم . . . وثانياً ، لا يمكننا أن نلغي مثل هذا الحدث الهام لمجرد وجود شائعات مقترحة ورسائل عن الخطر . لقد مرت بسلطاننا مناسبات كثيرة مشابهة وهو قائد لا يعرف الخوف» .

«لكن هذه لم تعد مجرد شائعات» . أحسَّ مراد بضرورة الإشارة إلى ذلك .

«إذا خرجت الأنباء القائلة بأنه تحت خطر تهديد هجوم من قبل

عملاء أجانب، وأن السلطان قرر أن يبقى داخل قصره، فإن هيبته كخليفة للمسلمين عبر العالم الإسلامي سوف تتبدد بلا رجعة».

هزَّ مراد رأسه موافقاً.

«أزيلوا التهديد القادم من صليبيي العصر الحديث وسوف تحفظوا الخلافة».

مال مصطفى بك إلى الأمام ليشدد على أهمية ما يقوله. قال «ليس هناك ما هو معرَّض للخطر أقل من ذلك».

الفصل الرابع والأربعون
٢١ تموز ١٩٠٥

ساد جو من الترقب وسط الحرارة الخانقة للجماهير المحتشدة خارج مسجد يلدز . في الخارج ، يمكن رؤية عربات وسيارات موكب السلطان مصطفة في خط ، وأمام ذلك ، وقف خط من الجنود والشرطة في مواجهة الكتل البشرية . لم يكن الحشد صامتاً كلياً أبداً في تلك الساحة ، برغم الطبيعة القدسية للمنطقة التي يقفون فيها ، ولكن في هذا الصباح ، فكر مراد أنهم أكثر خشوعاً من العادة .

مسح جبينه وشعر بالعرق يغطي ظاهر يده وكمه .

لا بد وأن الحرارة أربعون في هذا المكان . . . هذا هو السبب في هدوئهم .

راقب عائلة من الأجانب واقفة في مقدمة الحشد تماماً ، على بعد بوصات قليلة من صدر رجل شرطة . الأم والأب يرتديان ملابس رسمية ويمدان رقبتيهما لمحاولة الحصول على لمحة من مدخل المسجد المهيب . وقف طفلاهما ، صبي وبنت عند ساقيهما ساهيان تماماً ، ينظران أمامهما ، وقد تركز جل اهتمامهما على قرني البوظة اللذين يشفطانهما من على عصوين صغيرين . عقد رجل الشرطة ذراعيه على صدره واستمر في إلقاء نظرات جانبية عليهم ، لكنه أمضى معظم وقته ينظر إلى بقية الحشد خلفهم .

فيما عدا الحرارة والعدد الإضافي من رجال الأمن ، يبدو هذا مثل أي يوم جمعة آخر .

ومع ذلك لم يكن كذلك : وهو يدرك الحقيقة . إن عميلاً معروفاً مثل أوسيب لا يقدم على المخاطر التي أقدم عليها لو لم تكن هناك عملية يجري إعدادها . إن عميلاً مثل صديقه انطون لا يقفز عن برج جالاتا لو لم تكن هناك خطة يتم تنفيذها .

لقد كان العقيد مصطفى بك محقاً ، هنالك شيء ما على وشك الحدوث ، ومراد مصمم بكل قدراته على التأكد من عدم حدوثه .

ظهر مصطفى بك عند كتفه وكأنه يقرأ أفكاره . صدح المؤذن داعياً إلى صلاة الجمعة ورنَّ صوته عبر الساحة . رفع مصطفى بك إصبعه الشاهد إلى عينيه وأشار إلى حيث وضعوا نقطة تفتيش لجميع العربات التي تدخل الساحة .

هزَّ مراد رأسه واتجه كلاهما إلى هناك .

قدمت عربة سوداء من منطقة بيشكتاش محاطة بفئة من الجنود من كافة النواحي . استطاع مراد أن يرى السائق يشير إلى أمامه وخلفه من حيث يقف ، باتجاه القصر والمسجد . اصطف أربعة جنود في المقدمة ، يمنعون الرجل من التقدم أكثر . تقدم حارس ضخم الجثة بينما اقترب مصطفى بك ومراد وطلب أوراق السائق الثبوتية .

بدأ الرجل يبحث في جيوبه وداخل بطانة المعطف الذي يرتديه بالرغم من حرارة الشمس المحرقة .

استغل مراد الفرصة ليحدق إلى الداخل من شباك الباب . جلس في أقرب نقطة إليه رجل مسن ، والى جانبه رجل أصغر سناً . أدار رأسه إلى اليسار فرأى امرأتين جميلتين جالستين في الجهة المقابلة . المرأة جالسة في الزاوية البعيدة هي شانتال .

أنزل الرجل المسن زجاج نافذة باب العربة وأخرج رأسه .

قال «نحن هنا فقط لرؤية السلطان» .

قال الحارس الذي يئس من تلكؤ السائق وهو يرجع إلى الخلف «هيَّا أرني أوراقك الثبوتية» .

دار مصطفى بك من الناحية الأخرى ووصل إلى حيث وقف مراد قال مراد «سيدي ، أنا أعرف هؤلاء الناس» . وأشار من خلال الشباك إلى الداخل :

«هذه شانتال ، مدرِّسة أطفالي الفرنسية وأصدقاؤها . إنهم لا يشكلون أي تهديد» .

اطمأن مصطفى بك ولوَّح بيده إلى الحارس قائلاً :

«لا بأس أيها الضابط» .

هزَّ الحارس رأسه ولوَّح للسائق كي يتابع مسيره . لوَّح ركاب العربة لهم أثناء مرورهم ، بينما تعلقت عينا مراد بعيني شانتال طيلة الطريق . ظل مصطفى بك ينظر إليه بتعبير مرتبك : همَّ بأن يفتح فمه ليتكلم حينما وصل عمر مهرولاً .

قال مخاطباً مصطفى بك .

«سيدي ، لقد تمكنا من ملاحقة العربة المستوردة التي شحنت من ڤيينا» .

نسي مصطفى بك الأسئلة التي كان سيطرحها على مراد واستدار نحو عمر . قال :

«أرنا» .

فتح عمر ذراعه لهما ليتبعاه وانطلقوا مهرولين بموازاة الشريط الأمني حيث وقف الناس متوترين وهم ينتظرون عودة السلطان وعائلته للظهور خارجين من المسجد . كانت العربة السوداء ذات العجلات

الحمراء سهلة على الملاحظة ، وقد أحاطها عمر سلفاً بالحراس .

أمر مصطفى بك «فتشوها» .

كانت العربة فارغة ، لكن الحراس بدأوا يفتشوها من كل الجهات بمساعدة مراد وعمر .

فتشوا تحت مراتب المقاعد وداخل حجرات الأمتعة تحت المقاعد نفسها .

أنيطت مهمة تفتيش أسفل العربة بجنديين صغيري السن . راقبهم مصطفى بك جميعاً ، وعندما رأى أن التفتيش العادي لم يفصح عن شيء ، بدا يدور حول العربة ، ويطرق جوانبها ويصغي إلى الشوائب .

في هذه الأثناء وعلى بعد مئة ياردة إلى الأمام ، كانت ماريانا والآخرين يراقبون مدخل الجامع من شبابيك عربتهم . جلست كورنيليا إلى جانبها ، متوترة وتحدق في جوريس مقابلها . وزع نظراته بين الحشد والمسجد ثم العودة ليضغط على يدها . كان إدوارد مشدوداً إلى المهمة ، تطرق أصابعه العصا التي يمسكها واقفة في يده ، ينتظر .

أخيراً ، شوهدت حركة في المدخل القوسي الكبير ، واستطاعوا أن يروا الناس وقد بدأوا يخرجون . ضغط جوريس على يد كورنيليا بقوة أكبر ثم استدار ليراقب . شعرت بعينيها تدمعان ومعدتها تتقلص . لم تعد ماريانا جالسة في مقعدها : بل تحوم فوق ساقين محنيتين ، تكاد تقرفص وتحبس أنفاسها . بدأ إدوارد يطرق العصا على أرضية العربة . في النهاية ، ظهر شكل رجل بلحية في المدخل والجمهور يحتشد حوله ، يحاولون الاقتراب منه .

عند ذلك ، انحنى جوريس ومد يده تحت مقعد ماريانا ، يتحسس باحثاً عن المفجر .

انقبضت يده على ما شعر أنه الزناد ونظر إليها . هزَّت رأسها فأدار المفتاح .

خرجوا من العربة .

خاطبت ماريانا السائق :

«ارتين . انتظر هنا . نحن ذاهبون للحصول على نظرة أفضل» .

لمس السائق قبعته «نعم يا سيدتي» .

تحرك أربعتهم مبتعدين إلى وسط الحشد وانقسموا إلى زوجين بعد عشرين ياردة . لم ينظر أي منهم إلى الخلف .

أمام المسجد ، لوَّح السلطان إلى الجمهور باحترام ، ثم اتخذ طريقه نحو العربة . راقبه ارتين من مكان جلوسه بعينين كسولتين . فقد شاهد السلطان يغادر المسجد من قبل ، وتمنى لو كان رجلاً قارئاً لمثل هذه الأوقات . فعلى الأقل سيكون لديه ما يفعله . كان السلطان يتوجه إلى العربة كشأنه دائماً ، حينما رآه ارتين يقوم بعمل لم يقم به من قبل مطلقاً . توقف السلطان وبدأ يسير راجعاً بضع خطوات باتجاه الإمام سيف الإسلام جمال الدين أفندي ، الذي كان واقفاً إلى مسافة قريبة خلفه ليودعه . راقب ارتين باهتمام بينما تصافحت أيدي السلطان والإمام وانطلق بينهما حديث هادئ .

فجأة هزَّ أرض الساحة انفجار هائل .

أدار السلطان والإمام رأسيهما باتجاه زئير الانفجار وهو يمتد فوقهما ، ويلمحوا أجساد الرجال والخيول على السواء ما زالت تطير في الهواء . تمسك أحدهما بالآخر بينما كانت الأرض ترتج تحت قدميهما .

انطلقت صيحات الهلع من كل مكان حولهما ، لكن هذه انخفضت إلى نواح وأنين ينذر بالشر عندما تكشفت ضخامة المشهد من خلال انقشاع الغبار والدخان . كانت هناك حركة في الأطراف :

فوضوية ومرتبكة ، حيث يركض بعض الناس للابتعاد من منطقة الانفجار وآخرون يركضون نحوه في محاولة لمد يد العون لأولئك الذين سقطوا .

تحطمت عربة السلطان كلياً ، ورقدت جياده الجميلة على الأرض ، وما زالت أرجلهم تركل الهواء بحركات تشنجية .

اشتعلت النيران في عربات أخرى قريبة وأخذت تحترق مصدرة أدخنة كثيفة بشعة .

لم يبق شيء من عربة ارتين . احترقت الأرض حيث كانت تقف وباتت عارية ، وتشكلت حولها دائرة مسطحة حيث رقدت أجساد القتلى والجرحى مثل العشب المجزوز . تحرك أولئك القادمون للمساعدة حول هذه الحفرة كأنهم خائفون من عبور المكان . وقف السلطان والإمام مصدومين ، ينظران إلى الكارثة التي تتطور أمامهما لكنهما لم يصابا بأذى .

وقف مراد بدوره أمام العربة الطُعم ، مشدوهاً . أدرك أن مصطفى بك وعمر يركضان باتجاه مدخل المسجد ، يصرخان على الجنود ليعيدوا السلطان إلى الداخل .

حاول مراد بدوره أن يركض ، لكن لم يبد أن ساقيه قادرتان على تنفيذ الأمر . بدلاً من ذلك ، مشى ببطء وسط الفوضى ، بينما تراكض الناس المهتاجون على جانبيه ، يصطدمون بكتفيه ، لكنه لم يأتِ بأي رد فعل . نظر إلى الأرض تحت قدميه ورأى الدماء في بقع ، تجري لتشكل أنهاراً . راقب بشيء من الانفصال كيف تجري تحت مقدم حذائه ، غير قادر على فهم ما يجري . وصل الناس إلى الجرحى في هذه اللحظات وظل يراقبهم أيضاً .

رأى رجلين يحاولان أن يرفعا امرأة بلا ساقين ، تصرخ من شدة

ألمها ، فعادا إلى تركها . استمر في المشي ورأى بقايا ما اعتقد أنه كان رجلاً ووجهه إلى الأسفل . بدأ الناس يمرون به بهدوء وقد غطت الدماء والسخام وجوههم ، كأنهم شياطين خارجين من كابوس ما . شاهد الشياطين . لم يعد يستطيع أن ينظر إلى هذا الشر فأدار رأسه .

تم إبعاد السلطان إلى داخل المسجد . قام مصطفى بك بوضع إطارٍ من الحراسة حوله وهو مشهر مسدسه الرسمي بيده . شاهد مراد رجلاً مذعوراً بثياب مدنية يحاول أن يتجاوزه إلى داخل المسجد ، ليعاجله مسدس العقيد بضربة عبر صدغه وجانب ورأسه . تعثر الرجل وتراجع واضعاً يده إلى صدغه وقد تدفق الدم من بين أصابعه . استدار مراد نحو الجريح . بدأ المسعفون يستعملون المعاطف ولوحات الإعلان كحمالات . آخر شيء تذكره قبل أن يغيب عن الوعي كان عربة السلطان وقد انشقت إلى نصفين وما زالت تحترق ، وقد انتزعت مقدمتها عن مؤخرتها ، والجياد العربية الرائعة التي كانت تجرها واقعة أيضاً هناك ، تركل بأقدامها بطريقة محزنة وقد شارفت على الموت .

الفصل الخامس والأربعون

هناك عالم آخر موجود على شارع سكني هادئ ، بمسافة سير بسيطة .

مشى جوريس وماريانا بسرعة ، لكنهما حاولا أن لا يلفتا الانتباه إلى شخصيهما بدون المتسكعين الأثرياء بعيد الظهيرة ، والذين لم يسمعوا بعد بالكارثة التي حصلت في المسجد . وصلا إلى بيت اكيموس ، وأبقى جوريس بوابة الحديقة مفتوحة لتعبر ماريانا داخلة . أدخلا نفسيهما بمفتاح كان في حوزتهما .

استمر مصطفى بك في الصراخ بالأوامر في المسجد

«يا عمر ، تأكد من خلو المدخل الخلفي . سيخرج السلطان رأساً نحو السيارة ، لن تكون هناك أية تأخيرات» .

هزَّ الشاب رأسه وركض مبتعداً . استدار مصطفى بك لينظر إلى السلطان ، أحضر له كرسي فجلس عليه مطأطئاً رأسه ولا يبدو عليه خوف ولا ذهول ، مجرد حزن .

أمسكت يداه بقفازيه الأبيضين فوق ركبتيه ، وجاءت جلسته لتذكر باللوحات الفوتوغرافية التي نشرها عنه القصر مرات عديدة .

بحث مصطفى بك عن مراد مرة أخرى ، لكنه لم يشاهده منذ الانفجار . شتم بصوت خفيف وتقدم من السلطان . فقد حان وقت إخراجه من هنا .

في بيت اكيموس ، جلس كل من ماريانا وجوريس بدورهما ، هو

على حافة كنبة الصالون ، وهي على طرف الأريكة الصغيرة . أخذ جوريس يعصر يديه ويسحب أنفاساً قصيرة حادة مثل الشهقات . أما هي فبقيت أكثر هدوءاً .

«كان ينبغي علينا أن نصل إلى السفينة . ما كان ينبغي علينا أن نأتي إلى هنا» .

قال وهو يعصر رأسه بين يديه .

«ما كان بوسعنا أن نفعل ذلك يا جوريس . لقد رأيت صف الجنود أمامنا . لكن لا تقلق . لدي خطط بديلة نافذة» .

قال «إنني مضطر إلى الخروج من هنا» .

«وهل أنت مجنون؟ المدينة كلها تعج برجال الشرطة . إذا كان أي شخص قد رآك وأنت تغادر الموقع وتعرف عليك ، سينتهي الأمر بالنسبة لك ولنا كلنا» .

نهض واقفاً ، لكنه توقف قبل أن يبلغ الباب ثم استدار وبدأ يذرع الغرفة .

«لن يقبضوا علي أبداً . حتى إذا فعلوا ، فلن أتكلم مطلقاً» .

استندت ماريانا بظهرها وأخذت تتأمله بعينين هادئتين .

«أنت لا تعرف الشرطة السرية التابعة للسلطان» . ارتفع فمها ليشكل ابتسامة ساخرة

«إنهم قادرون على اقتلاع لسانك ومع ذلك يجعلونك تغني مثل كاروزو» .

عند هذا ، توقف عن المشي

«حسناً ، ما الذي يتوجب علينا فعله؟» .

نهضت ومشت نحو الخزانة الجانبية . عندما استدارت كانت تحمل صفيحة مطوية .

«سننتظر قدوم اكيموس . هل تلعب الشطرنج؟» .

قال «ماذا؟» .

رفعت اللوح أمامه موجهاً إليه ، كأن ذلك سيساعده على الفهم . قالت

«شطرنج ، هل تمارس اللعبة؟» .

استغرقت الكلمة لحظة حتى استقرت في ذهن جوريس المضطرب ثم ظهر وكأنه يعود إلى الغرفة ويدرك ما يحصل .

«طبعاً ، نعم ، ولكن . . . .» .

ذهبت إلى الطاولة الصغيرة وفتحت اللوحة .

سألته «الأبيض أم الأسود؟» .

لعبا حتى ساعة متأخرة من المساء . كسبت ماريانا الجولات الأولى بسهولة ، لكن جوريس استعاد مهارته في اللعبة وبدأ يصعب اللعبة عليها مع استعادته للنقاط الحساسة في اللعبة . كانت تفكر فيما إذا كان من الأفضل لها أن تحمي ملكها بالقلعة خوفاً من حصان جوريس عندما سمعا صوتاً آتياً من الباب الأمامي . تلفتا مذعورين . قالت ماريانا :

«يمكن أن يكون هو . بسرعة ، اختبئ في غرفة الخادمة . إنها مجازة اليوم» .

نهض جوريس وتحرك بأسرع ما يمكنه بدون أن يصدر صوتاً . أمكن سماع خطوات بطيئة تسير قادمة في الردهة . وضعت ماريانا يدها على فمها مصدومة لدى دخول مراد .

كانت تتوقع اكيموس

«أين كنت وما الذي حدث؟» .

بدا مذهولاً ومشعثاً ، لكنه لم يكن قد تأذى .

وقفت قريبة منه ووضعت يدها على ذراعه . بدت عيناه العسليتان زجاجيتين .

«لم أستطع أن أذهب إلى البيت . إنني بحاجة إلى رؤيتك» . لم يزد صوت مراد عن الهمسة . «إن السلطان بخير وقد نجا» .

ألقت بذراعيها حوله ثم احتضنته . بدأت تمطره بقبلات صغيرة حانية على رقبته وخديه . قالت

«آه يا حبيبي . لقد كنت في غاية القلق عليك . هل تريدني أن أحضر لك شيئاً لتأكله؟» .

نفض رأسه نفياً «كلا . أنا فقط مرهق» .

تناولت يده «دعني أعتني بك» .

سمح لنفسه بأن يتم اقتياده إلى الطابق العلوي ، خافضاً رأسه .

أعطى مصطفى بك الإيماءة برأسه فقام عمر بركل الباب وخلعه . دخل رجال الشرطة الثلاثة بالملابس المدنية قبلهما مشهرين أسلحتهم . تبعهم عمر ، مع مصطفى بك يكاد يمشي الهوينا خلفه . كان لديهم رجلان إضافيان خلف المنزل : لن يكون هناك أي مهرب .

«اكيموس! أنا العقيد مصطفى . أكيموس!» .

لم يكن هناك أي جواب ، واستدار عمر عائداً للمزيد من التعليمات .

قال مصطفى بك :

«فتشوا البيت وأبقوا على أسلحتكم جاهزة ، وإذا دعت الحاجة أطلقوا النار بمجرد الرؤية» .

ركض اثنان من الرجال إلى الطابق العلوي وذهب الثالث يبحث في الغرف الأخرى . عندما لم يعثر على أحد في الصالون أو المطبخ ،

بدأوا يفتحون الخزائن والأدراج . مشى مصطفى بك إلى الطاولة وبدأ يتفحص لوحة الشطرنج . كان الحل المنطقي للمشكلة هو التضحية بالقلعة لتجنب موت الملك ، لكن مصطفى بك فكر أن الحركة الأفضل هي استعمال الفيل ومهاجمة الفارس نفسه .

عندما لم يجدوا شيئاً في الطابق السفلي ، تحرك ثلاثتهم إلى الأعلى . غرفة النوم الرئيسة الكبرى فارغة أيضاً وكان أحد العملاء يفتش داخل الأدراج هناك . دخل مصطفى بك إلى ما يبدو أنها غرفة الخادمة ليشاهد عمر يبحث تحت السرير . نهض واقفاً وهزَّ رأسه . وضع مصطفى بك إصبعه على شفتيه ونظر إلى يساره وللأعلى .

دخل أحد العملاء وأدرك ما يفعلانه .

قال عمر «إششش . . . . . هل سمعت ذلك؟» .

وقف الرجل ساكناً ثم هزَّ رأسه .

«نعم ، طرقة أو تنفس» .

أشار إلى الخزانة . استدارت أطقم العيون الثلاثة نحوها .

وقف عمر والعميل أمام مصطفى بك أثناء دخوله .

«قال عمر «اخرج رافعاً يديك» .

لم يأتهم أي رد .

«أكمل عمر «إنني أسمعك . اخرج أو نطلق النار» .

قال مصطفى بك «يا عسكري ، سدِّد» .

جاء صوت بلهجة غريبة من الداخل ، قال :

«لا تطلق النار ، إنني سأخرج» .

انفتح الباب وخرج رجل . جوريس

لم يستغرقهم الأمر طويلاً في الطابق الأرضي حتى جعلوه يتكلم . بدأ جوريس حتماً يغني وقد قيدت يداه خلف ظهره وهو جالس

على كرسي من طاولة الطعام . وجد موظف مصطفى بك المرتدي ملابس مدنية صعوبة في خربشة ملاحظاته على دفتر صغير .

انطلق جوريس يقول «من السهل الحصول على الديناميت . ثم إنني خبير كما تعلمون» .

التفت إلى مصطفى بك وكأنه يتوقع المديح أو نوعاً من الاعتراف ، لكن أسلوب البلجيكي أشعر العقيد بالامتعاض .

قال مصطفى بك «لسنا بحاجة إلى سماع تبجحك ، من غيرك كان يعلم ويشارك بالعملية؟» .

«ماريانا وزوجها إدوارد» . توقف جوريس وفكر للحظة قبل أن يكمل :

«وزوجتي . . . لكنهم هربوا منذ زمن طويل» .

انحنى مصطفى بك وهو يتحضر لسؤاله التالي ، حينما صاح به أحد أفراد الرجال الآخرين من الطابق العلوي .

«سيادة العقيد! اصعد إلى هنا بسرعة» .

نهض مصطفى بك عن مقعده وهو يحدق بجوريس غاضباً .

خفض العميل دفتره وحدج جوريس .

«راقبه» . قال مصطفى بك قبل أن يصعد الدرجات كل اثنتين سوية .

في الغرفة ، استلقى مراد عارياً إلا من سراويله الداخلية . ذراعاه ممدودتان إلى جانبه ، وجسمه ممدود على طوله . نظر مصطفى بك إلى الساقين النحيلتين والعينين المفتوحتين تحدقان في السقف . حلقه مفتوح وقد شق من الأذن إلى الأخرى ، والسرير ملطخ باللون القرمزي من الدم الدبق الجاف . نظر مصطفى بك إلى الدماء التي رشقت الحائط وابتلع ريقه .

ناوله العميل بطاقة هوية .

«وجدنا هذه إلى جانبه» .

«شانتال . تلك هي ماريانا حسب ملفاتنا» .

تنهد وأحنى رأسه .

«لقد دربناه ليخدم وطننا ، لكننا فقدناه بسبب فراش عاهرة» .

أدرك العميل أن كلمات العقيد لا تخدمه تماماً ، ولم يقل شيئاً .

جلس مصطفى بك يفكر للحظة ثم عاود النهوض وقد اختفت لحظته العاطفية وعاد إليه الإحساس بضرورة التفكير العملي السَّوي الضروري للعمل القاسي القادم . قال

«حسناً . لن نسمح لها بمغادرة تركيا . أخبروا كل الموانئ وكل الطرق وكل محطات القطارات . سيتم العثور عليها .

الفصل السادس والأربعون

في محطة القطارات يجري تفتيش كل عربة تقترب . وقف الجنود وحراس المدينة على الأرصفة وينظرون من خلال الشبابيك ، وكلهم يبحثون عن امرأة شقراء يطابق وصفها ماريانا . اقتربت عربة تجارية من مدخل المحطة الجانبي ، أشار اليها حارسان بالتوقف . خطا الأول نحو السائق وهو شاب في مقتبل العمر ، واضح أنه قادم من الأرياف بالحكم من ثيابه وتسريحة شعره الأشعث .

سأل الحارس «هل يوجد أي شخص في الداخل؟» .

كان زميله قد دار حول العربة إلى جانبها .

نفض السائق رأسه نفياً . قال «لا يا سيدي» .

وضع الحارس قدمه اليمنى على الدرجة ورفع نفسه ليلقي نظرة . كانت أرضية العربة مغطاة ببسط شرقية ، وعندما أدار الحارس رأسه إلى اليمين ، لاحظ وجود نتوء واضح في الوسط . مال إلى الخلف وأشار .

رفع الحارس الأول رأسه وسأل السائق «إلى أين أنت ذاهب؟» .

«سأحضر زبوناً» . قال السائق ، وهو يحرك الأعنة إلى الأمام والوراء بين يديه «هل تسمح لي بالذهاب يا سيدي؟ إن القطار على وشك القدوم» .

كان الحارس الثاني يهز رأسه في الخلف ويشير إلى الداخل .

سأله الحارس الأول :

«ما هو سبب استعجالك؟ انزل عن العربة» .

سأل الشاب «ماذا سيدي؟» .

سحب الحارس مسدسه وقرَّبه من وجه السائق .

«انزل» .

لاحظ حراس آخرون عمل زميلهم وقدموا تاركين مراكزهم للمساعدة .

هبط السائق متمهلاً ، وقد تملكه الرعب وهو ينقِّل عينيه بين الوجوه المصطفة أمامه . سحبه الحارس الأول من كتفه وحشر المسدس في وسط ظهره ملاصقاً لعموده الفقري تماماً . مشى عائداً نحو باب العربة . قفز الحارس الثاني نازلاً .

قال له «ألقِ نظرة» .

داس الأول على الدرجة بقدمه اليسرى ومسح منطقة الجلوس بنظرة ، بدون أن يحرك المسدس عن السائق أثناء حركته . صعد ونزل في حركة سريعة واحدة ، ثم أدار الرجل . قال :

«أخرج كل هذه البسط» .

اكتسى وجه السائق بلمحة استعطاف ، وكل ما تمكن من قوله هو «أرجوك . . . . . ياسيدي» .

صاح الحارس في وجهه «ما الذي تخفيه هناك؟» .

انكمش الرجل إلى الخلف كأنما تلقى ضربة .

«لا أحد يا سيدي» .

تعلقت كل العيون بهذه الدراما في هذه اللحظة : فالواضح أن هناك شيئاً ما في الداخل . في تلك اللحظة ، اقتربت عربة صغيرة يجرها حصان واحد ومرت ، بينما ظل سائقها يدير رأسه بين عملية الاعتقال خلفه ، والشارع أمامه . نظر أحد الحراس إليه للحظة ، وعندما

لم يرَ أحداً بداخل العربة نفسها ، استدار عائداً نحو العربة الأولى .

في نهاية الأمر ، نفد صبر الحارس الأول مع السائق وأشار إلى اثنين من الآخرين ليفتحا العربة .

انفتح الباب وبدأ سحب البسط واحداً تلو الآخر ، وهناك مسدس مصوب إلى الكومة المتنامية وسط الأرضية .

أثناء العمل ، دارت العربة الثانية الأصغر وقطعت الزاوية بحيث غابت عن الأبصار داخلة في منطقة التحميل التابعة للمحطة وطرق السائق جانب العربة خلفه . برز رأس مغطى بخمار ثقيل من الشباك الخلفي ولا يظهر منه سوى عينين زرقاوين حادتين تتفحصان المكان . عبرت العربة باقي الحراس بدون لمحة ثانية .

عودة إلى العربة الأولى ، عندما تم الكشف عن الكومة في الوسط من تحت البسط ، ظهر أنها مجموعة من الوسائد مصفوفة لتبدو مثل شكل جسم . وقتها أمر الحراس السائق أن يعيد البسط بنفسه وابتعدوا ليقوموا بتفتيش عربة أخرى .

وصلت ماريانا إلى القطار في وقت مبكر على مغادرته وعثرت على مقعدها بلا صعوبة . لقد كان وضع البرقع مريحاً أثناء مغادرتها البيت ، فقد أنقذها من مواقف مشابهة سابقاً ، ولكن لم يكن أي منها في مثل خطورة هذا وأهميته . أوقفها مراقب القطار أثناء سلوكها الممر الضيق للعربة .

«أوراقك الثبوتية لو سمحت؟» .

ناولته جواز السفر الجديد بالكتابة العربية المذهبة على غلافه وهي مطاطئة رأسها . مدت إليه تذكرتها أيضاً ، وقد ظهرت الكلمات «اكسبرس باريس – الشرق» بحروف كبيرة على الجهتين . هزَّ رأسه وأفسح لها الطريق لتمر ذاهبة إلى مقصورتها .

ظهر اثنان من الحرس في الجهة المقابلة ، لكنهما اكتفيا بالنظر إلى الركاب الآخرين عندما لاحظا لباسها والموافقة الواضحة للمراقب . مرت من أمامهما .

بمجرد أن عبرت نحو العربة التالية ، دخلت إلى المرحاض وأقفلت الباب . جلست وهي تتنفس بعمق ، سعيدة لأن البوابين قد نظفوا قبل مغادرتهم . هذه هي النقطة التي تخلى فيها كل عميل سمعت به عن حذره وألقي القبض عليه . لن يحدث لها ذلك . انتظرت . وأخيراً وبعد ما بدا لها مثل ساعات ، انطلقت الصفارة وسمعت المراقبين ينادون قائلين إن الأبواب على وشك أن تغلق . استمرت في الانتظار . انطلقت الصفارة الثانية وسمعت طقات الأقفال تغلق في الخارج . بعد بضع ثوان أخذ المرحاض يهتز قليلاً .

عندما خرجت ماريانا من الحجيرة ، كانت قد تخلت عن البرقع لترتدي أحد فساتينها ذا الصدر المفتوح . اتجهت إلى المقصورة المخصصة لها فوجدتها خالية ، كل المقاعد الستة ، ثلاثة على كل جانب ، غير مشغولة . أدخلت حقيبتها الصغيرة في الحجرة العلوية وجلست في المقعد الأقرب إلى الباب . حلَّ الظلام في الخارج ، ولم تر فائدة من النظر إلى الخارج نحو الأنوار الخافتة للمحطات الريفية . اخرجت علبة سجائر من حقيبتها اليدوية وفتحتها . كانت الكلمات التالية محفورة بداخلها «إلى حبيبي مراد ، دائماً وإلى الأبد» .

نظرت اليها للحظة وابتسمت . أخرجت سيجارة ووضعتها برقة بين شفتيها ومدت يدها لتخرج علبة كبريت . قبل أن تصل يدها إلى الحقيبة ظهر عود كبريت مشتعل أمام وجهها من الممر في الخارج .

رفعت رأسها لتحدق في وجه مصطفى بك . قال

«أنا الآن بحاجة إلى هاتين اليدين الحلوتين المميتتين» .

رفعتهما بدون سؤال ، فوضع القيد الثقيل حول معصميها . همت ماريانا بالنهوض ، لكن مصطفى بك رفع يده ليوقفها . بدلاً من ذلك ، جلس هو إلى جانبها . قال

«ليس هناك من داع للاستعجال . إلى أين يمكن أن تذهبي؟» .

أطلقت له ابتسامة غامضة واستندت إلى مقعدها .

بدت لمصطفى بك وكأن هناك مليون مكان ما زالت قادرة على الذهاب إليه ، وأنها ستفعل .

الخاتمة
روان فرنسا

نهر السين أسود اللون والأرصفة التي تحده باردة وموحشة . مشى أوسيب بمحاذاتها إلى المشرب القابع على الزاوية مخفياً وجهه داخل معطفه . هو بحاجة إلى شراء وشاح . قال لنفسه الشيء عينه في الليلة الماضية ، في الوقت نفسه وفي نفس المكان ، لكنه لم يغامر بالدخول إلى البلدة من شقته ليقوم بالعمل في الأثناء . مرَّ من أمام الفندق وتحت الجسر حيث كانت الفتيات الثلاثة متكئات على السياج .

«مساء الخير أيها السيد» . نادته إحداهن بمرحٍ .

تجاهلهن اوسيب واستمر في المشي . أحياناً يرى شباناً يكلمونهن ورأى في إحدى الليالي أثناء خروجه من المشرب ، إحداهن تخرج من عربة وتعود لتنضم إليهن .

عرفن بحلول هذا الوقت أنه ليس لديه اهتمام بما يبعنه ، لكنهن استمررن في النداء عليه . كن يتضاحكن أثناء مروره بهنَّ مطأطئاً رأسه .

لقد مر وقت طويل . أطول مما ينبغي إذا كانت الحقيقة ستقال ، فكر في بعض الأحيان أنه يحتمل أن يصاب بالجنون ، لكنه لم يسمح لنفسه بأن يلقى القبض عليه كما حدث مع أنطون ، فقد سمع شائعات بعد هروبه من استنبول مفادها أن العاهرة لينا ربما كانت لها يد في مقتل انطون ، ربما حتى أنها دست شيئاً في شرابه أدى إلى إبطاء

حركته أو تسبب بقفزه بالطريقة التي فعلها .

لم يكن أوسيب بحاجة إلى براهين وشائعات لتخبره بما يعرفه سلفاً . ستجري محاسبته عندما يعود إلى استنبول ، وسيتم إجبار كل المسؤولين عن فشل المؤامرة على تسديد ديونهم . سوف يستمتع بذلك . كل ما يحتاج إليه الآن هو الكلمة ، وستجيء الكلمة إليه في المشرب الصغير الواقع أمامه . هذا هو السبب في اضطراره إلى كشف مخبئه والخروج معرضاً نفسه لسخرية العاهرات الصغيرات تحت الجسر والجلوس منتظراً في المشرب الحقير .

تعامل عامل البار القادم من بريتاني والذي يشبه القرصان بقرطة ولحيته المدببة ، معه بود في الليالي القليلة الأولى ، لكنه سرعان ما أدرك أنه لا توجد أية قصص مسلية أو أحاديث ممتعة مع الغريب النكد ، لذلك صار يكتفي بسكب قدح البراندي لأوسيب ويتركه بحاله ، وهو يهز رأسه أثناء عودته إلى صحبة زبائنه الدائمين .

عبر أوسيب الشارع الهادئ ووصل إلى مسافة رأى فيها الباب الجانبي للمشرب حين أدرك أن هناك خطباً ما . توقف كلياً وعاود النظر . الباب مضاء بمصباح غازي كما هو دائماً ، ويلقي بضوء خافت على الدرجة والمدخل لأولئك الذين لا يبصرون جيداً . لم يكن هناك ما يختلف عن الليلة الماضية حسب ما رآه أوسيب ، ومع ذلك فقد كان هناك ما يزعجه .

اتخذ خطوة أخرى إلى الأمام ثم توقف . نظر حواليه وعلى الطريق التي جاء منها . صمتت الفتيات الثلاثة في هذه اللحظة وهن يراقبنه . نظر إلى المشرب مرة أخرى . هو نفسه لم يختلف . استطاع فعلاً أن يسمع هسيس المصباح الغازي من خلال الصمام الكائن فوق الباب . لماذا كل هذا الهدوء؟ أين هي الصرخات المعتادة والضحكات من

الداخل؟ استدار لدى سماعه طرقات كعوب أحذية الفتيات على الرصيف. انطلقن هاربات مثل الأرانب. استدار بسرعة ومدَّ يده إلى الجيب الداخلي لمعطفه، لكنه كان قد تأخر.

لم يسمع أوسيب الطلقة التي قتلته أبداً. فقد اقترب عمر إلى درجة لم يعد فيها ممكناً أن يخطئ، ووقف فوق الجثة مشهراً مسدسه الذي ينفث الدخان في يده. خرج رجلان من المشرب ووقفا في المدخل يستعرضان المشهد. لم يتحرك عمر، بل نظر إليهما بدون أن ترمش أجفانه حتى تراجعا ببطء، وعادا إلى داخل المشرب.

توقفت العربة إلى جانبه وانفتح الباب بقوة. نهض مصطفى بك عن مقعده ونظر إلى أوسيب تحته قبل أن يومئ برأسه مرة ويتراجع ليسمح لعمر بالدخول. بمجرد أن أغلق الباب، فرقع السائق بالسوط وابتعد الحصانان مسرعين باتجاه القسم القديم من المدينة.

راقب مصطفى بك الأبنية الإسمنتية الحديثة وهي تزحف ببطء، لتحل محل أبنية الجرانيت العائدة للعصور الوسطى في مركز المدينة.

قال «لقد تمت العملية».

***

أدين إدوارد جوريس وحكم عليه بالإعدام من قبل المحكمة في استنبول.

لم توافق الحكومة البلجيكية على الحكم وطالبت بأن يعاد جوريس إلى بلجيكا لمحاكمته. قالوا إن القانون البلجيكي يسري «على الجرائم المرتكبة في البلدان غير المسيحية».

رفضت تركيا أن تفرج عنه وقضى سنتين في السجن ينتظر الإعدام.

بعد مباحثات مكثفة بين تركيا والقوى الغربية، تم إبعاد جوريس

إلى بلجيكا . لم تتم محاكمته في بلجيكا أبداً وأكمل حياته هناك كرجل حر .

تم عزل عبد الحميد الثاني عن العرش يوم الثاني من نيسان عام ١٩٠٩ . بعد ست سنوات قضاها في الأسر في سالونيك ، أعيد إلى القسطنطينية حيث درس وكتب مذكراته وهو خاضع للإقامة الجبرية في قصر بيلاربيي . توفي يوم العاشر من شباط عام ١٩١٨ .

***

لقد كان البريطانيون وليس الألمان هم الذين هبوا لمساعدة هيرتزل وأجندته الصهيونية الخاصة بفلسطين . جاء إعلان بلفور (المؤرخ في ٢ تشرين الأول عام ١٩١٧) على شكل خطاب من وزير خارجية المملكة المتحدة آرثر بلفور إلى البارون روثتشايلد لنقله إلى الاتحاد الصهيوني مؤكداً الدعم من الحكومة البريطانية لتأسيس وطن للشعب اليهودي في فلسطين . تحقق أخيراً عام ١٩٤٨ بتأسيس دولة إسرائيل .

he PLOT

NOVEL

محي الدين قندور

المؤامرة

رواية تاريخية

قصة السلطان عبد الحميد الثاني

دراما تاريخية مؤثرة .

هي سنوات غروب القرن التاسع عشر ، وتجد الإمبراطورية العثمانية نفسها في خطر . إنها مدينة بدرجة مثقلة للمصارف الأوروبية . تشحذ هزيمتها من قبل روسيا في البلقان وخسارتها للمناطق البلقانية شهية القوى الإستعمارية لتفكيك الامبراطورية . إنهم يقفون عند بوابات الامبراطورية مثل ذئاب جائعة متآمرة .

لكن يقف في مواجهتهم سلطان صلب يتسبب دهاؤه وشجاعته في إفشال كل الجهود لتدمير امبراطوريته . هذا هو السلطان عبد الحميد الثاني . قائد ذكي ومتعلم بدرجة عالية يؤسس لحركة اسلامية شمولية تحت خلافته للتصدي للحركة السلافية الشمولية لروسيا ولطموحات القوى الاستعمارية الأوروبية .

الدب الروسي الذي حركته انتصاراته في البلقان متحفز للانقضاض على القسطنطينية للسيطرة على ممر البوسفور وممر الدردنيل المائيين الاستراتيجيين . لكن هذا يهدد مصالح بريطانيا العظمى في البحر الأبيض المتوسط . يدعم البعض في انجلترا والمانيا فكرة تقوية جيش السلطان المنهك للتصدي للتهديد الروسي . بينما يفضّل آخرون مثل رئيس الوزراء البريطاني جاسكوين - سيسيل ، وابن شقيقته وزير الخزانة آرثر بلفور والحكومة الفرنسية ، تفكيك الامبراطورية العثمانية لخدمة اجندتهم الاستعمارية .

لكن عبد الحميد يقف بصلابة ليفشل طموحاتهم .
تزداد معضلتهم تعقيداً بوصول ثيودور هيرتزل الى المشهد برغبته في انشاء وطن يهودي في فلسطين . تمنح القوى الاستعمارية للصهاينة مجرد دعم شفهي وتمضي في ملاحقة طموحاتها الاستعمارية .

وتبدأ فصول المؤامرة بالتكشف ....



